

عِشْ الْإِنْجِيل

بقلم
القس سهيل سعود

إهداء

إلى عائلتي الحبيبة
إلى زوجتي "منغالا" شريكتي وسندي الدائم
في عيد زواجنا العشرين

وإلى ابني "ريشار"، وابنتي "غريس"
لتفهمهما وتحملهما انصرافي عنهما في بعض الأحيان
بسبب مشاغل الخدمة
أهدي كتابي:
"عِشْ الْإِنْجِيل"

تَوطئة

رغبتُ أنْ أصدرَ كتابَ "عِيشَ الإنجيل" بمُناسبةِ مرورِ عشرينَ عاماً على رسامتي قسّيساً في آذار ١٩٩٢ في السينودس الإنجيلي الوطني في سوريا ولبنان. وبعد تلك السنين من الخدمة، كراعٍ وواعظٍ في الكنيسة الإنجيلية المشيخية الوطنية في بيروت، وكمسؤولٍ رعويٍ عن كنيسةٍ مجدلونا والجميلية المشيخيّتين في الشوف، منذ السنوات الخمس الأخيرة، أحببتُ أنْ أجمعَ مُختاراتٍ من عظاتي ومقالاتي (نُشرَ بعضُ منها في مجلة النشرة التابعة للسينودس الإنجيلي، وفي جريدة النّهار اللبنانية)، وذلك بعد مراجعتها وتنظيمها وتبويبها لتوضع في هذا الكتاب: "عِيشَ الإنجيل".

إنّ الخبرة الرّعوية، والتّواصل بين الرّاعي والرّعية، لهما فائدة كبيرة في بُنيان الطّرفين، الراعي والكنيسة. فالرّعاية تُقدّمُ مادةً غنية للوعظ. إذُ بمُشاركة الراعي لعائلات الكنيسة، في ضعفهم وقوتهم، في آلامهم وأفراحهم، يجعلُ عظاته أكثرَ توجيهاً ومُخاطبةً لاحتياجاتهم. كما أنّ ملاحظات الرعية، ولا سيّما المُضغين الجيدين المُتفاعلين مع المنبر، والذين أثنى على إصغائهم، لعبَ ويلعب دوراً أساسياً في التّشجيع على التّحضير، واختيار العظات التي تخاطب حاجات أعضاء الكنيسة في ظروفهم المُتغيّرة لتمجيد اسم المسيح في كلِّ آنٍ وأوانٍ.

هنا لا بُدّ من تقديم الشُّكر الجزيل لفريق العمل، لكلِّ الذين ساهموا كلُّ على طريقته، بفرحٍ ودون أيِّ مُقابل، في التّحضير والتّصحيح لإنجاز هذا الكتاب. وأخصُّ بالذِّكر منهم: الأعضاء أساتذة كلية اللاهوت للشّرق الأدنى: الدكتور **جورج صبرا** أستاذ مادة اللاهوت النظامي، الذي بتوجيهه لي، ساهم في هيكلة وبنية وتبويب الكتاب. الدكتورة **ماري مخائيل** أستاذة مادة التربية المسيحية، التي وُضعت ملاحظاتها على قِسم العظات. الدكتور **جوني عواد** أستاذ مادة العهد الجديد الذي وضع ملاحظاته على مُعظم المقالات التاريخية. كما أخصُّ بالذِّكر أيضاً: الشيخ الجليل **إميل عشي** الذي قام بالتّصحيح والضُّبط اللغوي، والقس الوقور **أمير اسحق** الذي وضع ملاحظاته على الأفكار التي بحاجة لمزيد من التّوضيح، وقام بعملية التّنضيد للكتاب، وأدخَلَ التّصحيح والتّحريك على الكمبيوتر، وأعدَّ الكتاب للطباعة، بمساعدة الشّماسة **جنيفاف زعرب**. وأشكر القس الدكتور **غسان خلف** على تقديمه للكتاب. وأخيراً أشكر: العزيزات السيدة **ميراي صقر**، والسيدة **نورما توما**، والسيدة **لودي أندراوس**، والآنسة **منى التّالي**، اللواتي عمِلنا على طباعة وإعادة طباعة العظات والمقالات. فبفضّل تعاون وجهود فريق العمل هذا، أبصُر هذا الكتاب النور.

مقدمة لكتاب الانجيل عقيدة وحياة

من سمات الكنيسة الحقيقية، يقول المُصلِح الإنجيلي جان كلفن: "الوعظ باستقامة بالإنجيل". فالوعظ الصحيح باستقامة من الإنجيل، يُظهر قوة الإنجيل، الخَبَر السَّار، في التغيير والتَّجديد والتَّوجيهِ، لَعِيش حياة الإيمان التي تُرضي الله وتمجِّد اسمه. وقال الواعظ مودي: "الوعظ الصحيح هو الذي يصنع فَرْقاً في الحياة". عندما حاول إبليس في تجربة المسيح في البرية أن يحمِز ويحدِّد معنى الحياة في تناول الخُبز والطَّعام، إذ عندما رأى المسيح جائعاً اقتَرَح عليه تحويل الحجارة إلى خبز، أجابه المسيح: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلِّ كلمة تخرج من فَمِ الله" (متى ٤: ٤). وبالتالي، فالرَّب يسوع المسيح يعلن لنا أن لا حياة ذات معنى للإنسان بعيداً عن الإنجيل، كلمة الله.

دعا الرسول بولس أعضاء كنيسة فيلبي إلى عِيش الإنجيل، في كلِّ تجلياته قائلاً لهم: "فَقَط عِيشوا كما يحقُّ لإنجيل المسيح" (فيلبي ١: ٢٧). دعاهم إلى اختبار ما يَحْمِل الإنجيل من معنى فريد لكلِّ جوانب وحاجات الحياة، الروحية والنفسية والفكرية والإرادية، كيما نَعِيش محبَّة الله "من كلِّ القلب، ومن كلِّ النَّفْس، ومن كلِّ الفِكر، ومن كلِّ القُدرة" (مرقس ١٢: ٢٠).

إنَّ الهدف الأساسي للوعظ هو المُساعدة في عِيش الإنجيل من خلال تفسير كلمة الله باستقامة ومصداقية، كما يذكر النبي نحميا: "وقرأوا في السِّفر في شريعة الله ببيان، وفَسِّروا المعنى وأفهموا القراءة" (نحميا ٨: ٨). فتفسير كلمة الله باستقامة بالاعتماد على إرشاد الروح القدس، يحيي الكلمة ويكشف كنوزها ويظهر قوتها ومعناها للحياة، للنمو في معرفة ومحبة المسيح نحو النضج الروحي، وهذا يتطلب أمرين: الأول، عدم تقديم قصة الإنجيل، التي محورها محبة الله التي أظهرها بموت وقيامته ابنه يسوع المسيح من أجل خلاص الإنسان، كقصَّة قديمة حدَّثت في الزمان الماضي وانتهت مفاعيلها، ولكن تقديمها كقصَّة جديدة لا تشيخ ولا تُعتق، بل تتجدد يومياً في حياتنا، وثقِّم لنا الحياة والخلص والرَّجاء، في كلِّ ظروف الحياة. أمَّا الثاني، فهو عدم تقديم قصة محبة الله في الإنجيل بطريقة حيادية وبدون عاطفة ومحبة، وكأننا مُتَّفَرِّجين نشاهد ونراقب القصة من بعيد، ولكن تقديمها كمُشاركين في القصة الحدث، ومؤمنين بأنَّ هذه القصة هي قصتنا، وأنَّ المسيح الرَّبَّ سرَّدها بدمه لأجلنا، لتكون لنا حياة ويكون لنا أفضل. وهكذا نسير مع المسيح على دَرْب الجلجثة، ونُصَلِّب معه كما صُلب، ونقوم معه كما قام. فيكون سبب مُشاركتنا في قصة المسيح، لأننا "رأينا مجده مجدداً، ومن ملئه نَحْن جميعاً أخذنا نعمةً فوق نعمة" (يوحنا ١: ١٤ و١٦). وهكذا نشارك في قصة الإنجيل، "لأننا رأينا ونشهد، ونُخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا" (يوحنا ١: ٢).

إنَّ كتاب "عَيْشُ الإنجيل"، إنَّما هو دعوة للجميع للمُشاركة في قصة الإنجيل مِن خلال عَيْشُ الإنجيل الذي يخاطب كلَّ جوانب وحاجات حياتنا الروحية والنفسيَّة والفكرية والإرادية، ويُقدِّم لنا الحياة والخلص والرَّجاء في كلِّ ظروف الحياة. ينقسم هذا الكتاب إلى جزئَيْن أساسِيَيْن : هُما عظات، ومقالات إنجيلية.

الجزء الأول وهو الأساسي، مؤلَّف مِن ثلاث مجموعات مِن العظات المُستمدَّة مِن الإنجيل، يبلغ عددها سبعة وأربعون عظة. المجموعة الأولى، هي عظات تمَّ ترتيبها بناءً على الروزنامة الكنسيَّة المُتبَّعة في بعض الكنائس. وهي تدعو القارئ للمُشاركة في قصة الإنجيل، بالعيش مع المسيح مُنذ تجسُّده في عالمنا، وحتى إرساله الروح القدس في يوم الخمسين. فننوقِّف مع المحطَّات الرئيسيَّة في حياة الرَّبِّ يسوع. وبالتالي، نتوقِّف مع معنى مجيئه وميلاده وعموديته وتجلِّيه وصومه ودخوله أورشليم وصلِّبه وقيامته وظهوراته وصعوده وإرساله الروح القدس في العنصرة، فننهل مِن كُلِّ محطة مِن محطات حياة المسيح، دروساً روحية عميقة تخاطب حياتنا في الإيمان، لأنَّ كلَّ ما قام به المسيح كان لتعليمنا كيف نعيش الإنجيل.

المجموعة الثانية مِن العظات، تتمخَّور حول عَيْش حياة الإيمان التي يُعلنها الإنجيل والنمو في علاقتنا الروحية مع الرَّبِّ يسوع المسيح. تتناول هذه المجموعة:

- (١) الإقرار بفساد الإنسان.
- (٢) عمل الله في حياة الإنسان المؤمن مِن خلال عنايته، عطية الإيمان (الولادة الجديدة)، والنعمة، والرجاء.
- (٣) حاجة الإنسان المؤمن إلى النمو في علاقته مع الله من خلال: الصلاة، والغفران، والقداسة، والشُّكر.

المجموعة الثالثة مِن العظات، تتمخَّور حول عَيْشُ الإنجيل في العالم، وصياغة الشَّخصية المسيحية المُستمدَّة مِن الإنجيل. فالشَّخصية هي مجموعة القيم المُختارة التي تُبنى عليها التصرُّفات الأخلاقية وردود أفعال الأشخاص. وتتناول هذه المجموعة:

- (١) التأمُّل في شَّخصية المسيحي التي يعكسها الإنجيل من خلال: سمات الحكمة والوداعة، شهادة الضُّمير المسيحي، القناعة المسيحية، المُتابرة وقت الفشل، الالتصاق بالرَّبِّ للتغلب على التجارب.

(٢) عَيْشُ قِيمِ الإنجيل من خلال الاهتمام بزيجاتنا، ودعوة المسيح لمُرافقة عائلاتنا مُنذ تأسيسها في العرس، الاهتمام بآبائنا وأُمَّهاتنا، وتربية أولادنا على الإيمان الذي يُعلنه الإنجيل.

(٣) عَيْشُ قِيمِ الإنجيل في المُجتمع مِن خلال مواقفنا العملية الواضحة المُتمثِّلة بعَيْشنا بعَدل وسلام ومحبة ورحمة ومُسامحة وخدمة المُحتاجين والمُتألِّمين، ودعوتنا المُجتمع إلى العدالة والسُّلام والمحبة والرَّحمة والمُسامحة.

(٤) عَيْشُ قِيَمِ الْإِنْجِيلِ مِنْ خِلالِ حِفَاظِنَا عَلَيِ الْبِيئَةِ، خَلِيقَةَ اللَّهِ الَّتِي انْتَمَنَّا عَلَيْهَا.

الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ "عَيْشُ الْإِنْجِيلِ"، مُؤَلَّفِ مِنْ تِسْعَةِ مَقَالَاتٍ، تَتَنَاوَلُ مَوَاضِيْعَ مِنْ التُّرَاثِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُصْلِحِ، إِذْ نَعُودُ بِالذَّاكِرَةِ إِلَى الْجُذُورِ التَّارِيخِيَّةِ، إِلَى حَرَكَةِ الْإِصْلَاحِ الْإِنْجِيلِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، الَّتِي انْتَبَثَقَتْ مِنْهَا الْكِنَائِسُ الْإِنْجِيلِيَّةُ. نَتَرَاْفِقُ، مِنْ خِلالِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ، مَعَ الْمُصْلِحِينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ نَقَدُوا بِمَوْضُوعِيَّةِ بَعْضِ مُمَارَسَاتِ وَعَقَائِدِ كَنِيسَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى، وَبِالْتَحْدِيدِ الَّتِي لَمْ تَنْسَجِمَ مَعَ مَفْهُومِهِمْ لِكَلِمَةِ اللَّهِ. وَهَكَذَا دَعَا إِلَى عَيْشِ الْإِنْجِيلِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَيَاةِ. نَتَرَاْفِقُ مَعَ بَعْضِ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي أُرْسَتْ الْمَبَادِئُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْإِيمَانِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُصْلِحِ، لَا سِيَّمَا مَبَادِئُ: "الْكِتَابِ الْمَقْدَسِ وَحْدَهُ"، "النَّعْمَةِ وَحْدَهَا"، "الْإِيمَانَ وَحْدَهُ"، "كَهَنُوتِ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، "حُرِيَّةِ الضَّمِيرِ"، "الْمَسِيحِ رَأْسِ وَرئيسِ الْكَنِيسَةِ الْوَحِيدِ وَمُصَدِّرِ وَحْدَتِهَا"، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَبَادِئِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الْآخَرَى.

وَهُنَا لَا بُدَّ مِنَ التَّأَكِيدِ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ التَّارِيخِيَّةِ تَعْرِيفِ وَتَوْعِيَّةِ، وَبِرُوحِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ، أَعْضَاءِ الْكِنَائِسِ الْإِنْجِيلِيَّةِ خَاصَّةً، وَالْكِنَائِسِ الشَّقِيْقَةِ الْآخَرَى عَامَّةً، بِالتُّرَاثِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُصْلِحِ الَّذِي انْتَبَثَقَ مِنْ قَهْمِ الْمُصْلِحِينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ لِكَيْفِيَّةِ عَيْشِ الْإِنْجِيلِ. مَعَ التَّأَكِيدِ عَلَى مَحَبَّتِنَا وَاحْتِرَامِنَا لِجَمِيعِ الْكِنَائِسِ، وَعَلَى مَبْدَأِ حُرِيَّةِ الضَّمِيرِ فِي التَّوَاْفُقِ أَوْ عَدَمِهِ مَعَ الْفِكْرِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُصْلِحِ. وَتَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ:

- (١) دَعْوَةُ الْمُصْلِحِينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ: مَارْتِنُ لُوتِرُ، وَجَانُ كَلْفَنُ، إِلَى عَيْشِ الْإِنْجِيلِ وَاتِّخَاذِهِ الْمَصْدَرِ الْأَوَّلِ لِلْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَيَاةِ.
- (٢) النُّظْرَةُ الْإِنْجِيلِيَّةُ الْمُصْلِحَةُ إِلَى الْكِتَابَاتِ الْأَبُوكْرِيْفِيَّةِ، وَأَبَاءِ الْكَنِيسَةِ، وَوَحْدَةِ الْكَنِيسَةِ، وَمَرِيْمِ الْعِذْرَاءِ.
- (٣) النُّظْرَةُ الْإِنْجِيلِيَّةُ الْمُصْلِحَةُ لِعَيْشِ الْإِنْجِيلِ مِنْ خِلالِ مَفْهُومِ: الدَّوْلَةِ، وَالتَّرْبِيَّةِ، وَالْعَمَلِ.

فِي الْخَتَامِ، صَلَاتِي إِلَى الرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ يَسْتخدِمَ الرُّوحَ الْقُدْسَ هَذَا الْكِتَابَ، لِاخْتِبَارِ الْقَارِئِ لِعُمُقِ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ، وَتَمَجِيدِ اسْمِهِ وَالتَّمَتُّعِ بِبَرَكَاتِ كَلِمَةِ اللَّهِ طَوَالَ سَنَى حَيَاتِهِ. آمِينَ.

القِسْ سَهِيلُ سَعُودُ

الكتاب المُقدَّس دستور الإيمان الإنجيلي

تَشْتَقُّ الكنائس الإنجيلية اسْمَها من كلمة إنجيل "الخبر السار". فالإنجيل، أو الكتاب المقدس، له مكانة خاصة في فِكر وحياة الإنجيليين. وهذا الأمر يعود في جذوره إلى حركة الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر. إذ أَصَرَ المُصلِحون الإنجيليون على مبدأ "Sola Scriptura" "الكتاب المقدس وحده" المَصْدَر الوحيد للعقيدة والإيمان والحياة. ولأهمية الكتاب المقدس في تراثنا وحياتنا، من الضَّروري لنا معرفة جذوره وكيف جُمِعَت أسْفاره حتى صار في صيغته النهائية يتكون من سِتِّ وسِتِّين سِفْراً، وتسعة وثلاثين منها في العهد القديم وسبعة وعشرين سِفْراً في العهد الجديد.

مُنْذ ولادة الكنيسة في يوم الخمسين (العَنْصَرة)، كما يخبرنا سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني، أنَّ الرسل انطلقوا كارزين بقيامة المسيح في أورشليم واليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض، بحسب وعد المسيح (أعمال ١: ٨). والأسفار المقدسة التي استخدمتها الكنيسة الناشئة آنذاك، كانت ما يُسَمَّى اليوم بالعَهْد القديم. إلاَّ أنَّ نَظْرَةَ الكنيسة الأولى لأسفار العهد القديم اكتسَبَت بُعْدًا جديداً، لتُشير إلى تحقُّق أسْفار نبوءات العَهْد القديم حَوْلَ المَسِيَّا المُنتَظَر في الرَّب يسوع المسيح الذي مات من

أجل خطايانا، وقام من أجل تبريرنا، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب. كما نقرأ في سفر أعمال الرسل الإصحاح الثالث أن الرسول بطرس شدّد في كرازته على أن نبوءات الأنبياء أشارت إلى موت المسيح، فهو يقول: "أمّا الله فما سبق وأنبا به بأفواه جميع أنبيائه أن يتألم المسيح قد تممه هكذا... وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده جميع الذين تكلموا سبقوا وأنباوا بهذه الأيام" (أعمال ٣: ١٨ و ٢٤). وهكذا فإنّ تلك الأسفار النبوية المقدّسة أضحت لها السُلطة العُليا في الكنيسة في القرن الأول، إذ اغتُيرت كافية لإظهار وإثبات إيمان الكنيسة الأولى. فالرسول بولس يقول لتيموثاوس: "وأما أنت فاثبتت على ما تعلّمت وأيقنتت عارفاً ممّن تعلّمتت، وأنتك منذ الطفولية تعرّف الكتب المقدّسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع". (٢ تيموثاوس ٣: ١٤).

إلّا أنّه بالإضافة إلى السُلطة العُليا للأسفار المقدّسة القديمة، اغتمّت الكنيسة في شهادتها للمسيح في القرن الأول على التقليد الحيّ، أي على ما سمعه وعايّنه الرسل من المسيح الرّب مباشرةً، أو ممّن سمعوا عن المسيح، الذين كانوا يُعلّمون ويُبشّرون ويعظون. وهكذا حمل المُبشرون ما سمعوه وما تناقلته الألسن بأمانة من جيل إلى جيل. ويشهد كتاب العهد الجديد على هذه الحقيقة التاريخية. فالبشير لوقا مثلاً، يذكر في بداية إنجيله واصفاً تعاليم الإيمان المسيحي ب (الأمور المتيقنة)، "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا. كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعانيين وخداماً للكلمة" (لوقا ١: ٢-١).

أمّا الرسول بولس فيقول في رسالته الأولى إلى كورنثوس: "وأعرّفكم بالإنجيل الذي بشرتكم به وقبلتموه وتقومون فيه... فإنني سلّمْتُ إليكم في الأوّل ما قبلته أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل خطايانا" (١ كورنثوس ١٥: ١ و ٣). وبكلمة أخرى، فالإنجيل أو البشارة السارة كانت في بداية القرن الأول للكنيسة، من خلال الكلمة الحيّة المسَموعة والمتواترة من شخص لآخر ومن جيل لآخر. فلم يكن الاهتمام مُركّزاً حول الكلمة المكتوبة.

ابتدأ مؤمنو الكنيسة بحفظ هذه الحقائق المسيحية كتاباً، ابتداءً من الخمسينيات ميلادياً وتدرجياً، حتى بدايات القرن الثاني للميلاد. وقد كُتبت هذه الكتابات المُتنوعة بشكل مخطوطات بخط اليد، وانتشرت هنا وهناك في الكنيسة الأولى. والأمر الذي سرّع عملية جمع أسفار العهد الجديد المكتوبة، هو ظهور أحد الهرطقة في بداية القرن الثاني الذي شكّل خطراً على إيمان وعقائد الكنيسة هو "مارسيون"، الذي رفض العهد القديم الذي كان مقبولاً في الكنيسة. كما رفض الكتابات المسيحية الموجودة آنذاك ولم يقبل منها إلّا بعض المقاطع القليلة من إنجيل لوقا ورسائل الرسول بولس. فما كان من الكنيسة، وبإرشاد من الروح القدس، إلّا أن رفضت فكر "مارسيون"، وتدرجياً قامت بجمع الكتابات المسيحية المقبولة لحفظ حقائق الإيمان المسيحي بأمانة. كما أنّ العامل الآخر الذي سرّع بعملية الجمع تلك، هو ظهور بدعة أخرى في الكنيسة في النصف الثاني من القرن الثاني هي المونتانية (Montanism)، أو كما سُمّيت

(بالنبوءة الجديدة). فصَدَر عنها كتابات وأفكار غريبة لا تتماشى مع الإيمان المسيحي. وهكذا، وأمام هذه الهرطقة الجديدة، سارَغت الكنيسة، وبوَحَى من الروح القدس، إلى إكمال جَمْع الكتابات المسيحية. وقد اِعْتَمَدَت ثلاثة مقاييس لقبول تلك الكتابات واعتبارها قانونية: الأول، رسولية الكتابة المسيحية التي تَنَسَّج مع تعاليم الرسل. الثاني، شهادة الكتابة للحقائق المسيحية، وتماشىها مع الإيمان المَوروث. الثالث، انْتشارها واستخدامها في الكنائس. ولتَنظِيم هذه المُستندات، اتَّخَذَت الكنيسة فِكْرَةَ العَهْد، عَهْد الله مَعَ الإنسان المَأخوذة من الكتاب المقدس، وأطَلقت تعبير "العَهْد القديم" على الأسفار القديمة، وتعبير "العَهْد الجديد" على الكتابات المسيحية المَقْبولة. والجدير بالذكر أَنَّهُ في القرن الثاني الميلادي، كان للكنيسة تصوُّرها بقائمة أسفار الكتاب المقدس عامَّة، وأوَّل شاهد لقانون العهد الجديد كما نعرفه اليوم هو من القرن الرابع، وبالتحديد سنة ٣٧٦ م. غير أَنَّهُ لَمْ تُجَمَع تِلْكَ الأسفار بصيغتها القانونية النهائية إلا في القرن الخامس للميلاد.

إنَّ الطُّروف التي مَرَّ بها الكتاب المقدس، لا سيَّما في القرون الأولى، كانت صَعْبَةً جداً، لكنَّ الله حفظ كلمته بروحه إلى أن وَصَلت إلينا اليوم. فمَثَلًا في وقت الإضطهاد الكبير للمسيحيين عام ٣٠٣ أصدر الإمبراطور الروماني "ديوكليتَان" مَرسوماً قَضَى بِحَرْقِ كُلِّ نَسَخات الكتاب المقدس، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ بِحَرْقِهِ إيَّاه يوقِف إنْتشار الكنيسة. وفيَعلاً، تَمَّ حَرْق العديد من النسخات، واستشْهَدَ العَديد من المسيحيين بسبب الإضطهاد. وقد اعتقد ذلك الإمبراطور أَنَّهُ نَجح في مُهمَّته، فأَمَرَ بِنَقْشِ وسامِ كُتَبِ عليه "لَقَدْ أَفْنَيْتُ الديانة المسيحية، وأَعَدْتُ عِبَادَةَ الآلِهَةِ". لكنَّ أُمْنِيته هذه تلاشت بمَوته، وما هي إلا سنوات، حتى اغتلى العَرْشَ الملكي الإمبراطور "قُسطنطين"، الذي آمَنَ بالمسيح فجعل المسيحية دِين الدولة، وَسَمَحَ بِانْتشار الكتاب المقدس.

وخلال القرون الوسطى، كان الكتاب المقدس مَحْجُوباً عَن الأَنْظار ومُتَوَاجِداً في يَدِ قِلَّةٍ قليلة من الكَهَنَةِ، فثار المُصَلِّحون الإنجيليون على هذا الواقع. وهكذا أُطْلِق المُصَلِّح الإنجيلي الألماني "مارتن لوتر" حركة الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، فترجم الكتاب المقدس من لُغَاتِهِ الأَصْلِيَّة إلى لُغَةِ الشعب الألمانية. وقد استخدم آنذاك نُسخة العالم الكبير "إيرسموس" أو ما يُسَمَّى اليَوْم ب (textus receptus). وهو النُّص الذي استخدمه المُرسَل الدكتور القس "كورنيليوس فانديك" في ترجمة العهد الجديد إلى اللغة العربية. ودرس المُصَلِّحون الكتاب المقدس بلُغَاتِهِ الأَصْلِيَّة التي كُتِبَ فيها (العبرية للعهد القديم، واليونانية للعهد الجديد)، وجعلوه المَصْدَر الوَحيد لإيمانهم وعقيدتهم وحياتهم، لأنَّهُم آمَنوا "لأنَّ فِيهِ مُعَلَّنُ بِرُّ اللَّهِ بِإِيْمَانٍ لإِيْمَانٍ، كما هو مكتوب، أَمَّا البَارُّ فبِإِيْمَانٍ يَحْيَا" (رومية ١: ١٧).

بَعْدَ هذه الجَوْلَةِ التي تعرَّفنا فيها على تاريخ كتابة وجمْع أسفار الكتاب المقدس، يبقى الكتاب المقدس من أكثر الكُتُبِ قِراءَةً في العالم. ويوجد الكثير من الناس الذين يقرأونهُ لأهدافٍ وغاياتٍ مُحدَّدة لا

تَمَّتْ إلى الإيمان المسيحي بصفة. لهذا، فالسؤال الأساسي الذي يَجِب طَرْحه هو: كيف نَقْرَأ الكتاب المقدس؟ البعض ينظرون إليه ككتاب أدبٍ يحتوي على القصة والشعر والأمثال. والبعض الآخر ينظر إليه وكأنه كتاب أخلاق. وغيرهم ينظرون إليه ككتاب تاريخ. وآخرون يقرأونه لغاياتٍ سياسية أو حزبية ضيقة.

إنَّ طريقة قراءتنا للكتاب المقدس هي التي تحدّد مدى أهميته بالنسبة لنا. يُخبرنا الرسول بولس عن الهدف من قراءة الكتاب المقدس، فيقول في رسالته الثانية إلى تيموثاوس: "كُلُّ الكتاب هو مَوْحَى به من الله، ونافعٌ للتعليم والتوبيخ والتّقويم والتّأديب الذي في البرّ. لكي يكون إنسانُ الله كاملاً مُتأهباً لكلِّ عملٍ صالح" (٢ تيموثاوس ٣: ١٦ و ١٧). فهذا هو الهدف منه. وعندما نقرأ الكتاب المقدس يجب ألا يغيب عن أذهاننا هذا الهدف الذي حدّده الرسول بولس. أيضاً يقول الرسول بطرس: "عالمين هذا أولاً، أن كلَّ نبوّة الكتاب لِيَسْت من تفسير خاص، لأنّه لم تَأْت نبوّة قطّ بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس" (٢ بطرس: ٢٠ و ٢١). وكان يقصد أن يقول إنّه عندما كتّبت رجالات الله المؤمنين الأسفار المقدسة، فإنّهم، بالاعتماد على الروح القدس، دوّنوا اختياراتهم الروحية التي غيّرت حياتهم، فوضعوها في أحرف جامدة وأغلقوا عليها في جبرٍ وكلمات وأوراق. لكن سَتَبقى هذه الكلمات جامدة وبلا حياة وبلا حيوية، ولنْ توصلنا إلى الهدف المقصود، إنْ لمْ نسأل الروح القدس كي يُخَيها لنا اليوم.

يقول المُصلِح "مارتن لوثر": "إنّ النّص الكتابي الذي دَوّنه لنا الكُتّاب بإرشاد الروح القدس، يَحْمِل رسالة روحية وقصداً روحياً لحياتنا، لكنّ هذا النّص لنْ يُفهم بمعناه الحقيقي، ولنْ يَخَي لنا اليوم، إلّا عندما يَفْتَح الروح القدس قلوبنا وأذهاننا أثناء قراءة الكلمة". ويقول أيضاً: "نحن نذهب إلى الكتاب المقدس لنجد المسيح، ولنْ نجده إلّا عندما يُرشدنا الروح القدس إليه في كلمته". وبذلك، فإنّنا عندما نقرأ الكتاب المقدس، من الضّروري جداً تلازم الكلمة مع الروح القدس بالصّلاة لنصلّ إلى الهدف الروحي، ألا وهو تغيير المسيح لحياتنا من خلال التّعليم والتّوبيخ والتّقويم والتّأديب الذي في البرّ. فلا يُمكن فضّل الكلمة عن الروح القدس، لأنّ قراءة الكلمة بدونه، قد تُحوّل الكتاب المقدس إلى قطعة أدبية أو قصصية أو شعريّة، أو كتاب تاريخ أو أخلاق. وأيضاً الاعتماد على الروح القدس وحده بدون قراءة الكلمة، قد يُشوّه الإيمان المسيحي ويُبعده عن مضمونه، ويحوّله إلى ظاهرة ما بَعيدة عن فكر المسيح.

في كلِّ مرّة نقرأ الكتاب المقدس، فلنقرأه بروح الصّلاة، طالبين إرشاد الروح القدس. ولنقرأه مُحافظين على تلازم الكلمة والروح حتى نصير "مولودون ثانية، لا من زرع يَفنى، بل ممّا لا يفنى، من كلمة الله الحيّة الباقية إلى الأبد" (١بطرس: ١: ٢٣). وهكذا نُنمو في محبة ومعرفة المسيح، ونصير أناس الله القديسين، المُتأهبين لكلِّ عمل صالح. آمين

"على هذه الصخرة أبنى كنيسة"
(متى ١٦: ١٩)

عبارةً أساسيةً نطّق بها الرّب يسوع المسيح ليُعرّف ماهيّة الكنيسة التي افتداهَا بدمه الكريم، وما هو الأساس الذي ينبغي أن تُبنى عليه. لقد نطّق بهذه العبارة "على هذه الصخرة أبنى كنيسة" في قيصرية فيلبس حين قرح بإجابة تلميذه بطرس حول سؤال أساسي يجب أن يُجيب كلُّ منّا عليه: "مَنْ يقول الناس أنّي أنا ابنُ الإنسان؟! " أو بمعنى آخر مَنْ هو يسوع المسيح بالنسبة لنا؟

يُخبرنا البشير متى (ص١٦: ١٣-٢٠) أنّه بينما كان المسيح بضخبة تلاميذه سألهم سؤالين: الأول سؤال عام: "مَنْ يقول الناس أنّي أنا؟"، أي كيف ينظر الناس إليّ؟" والثاني سؤال خاص: "وأنتم مَنْ تقولون أنّي أنا ابنُ الإنسان؟" أي كيف تنظرون أنتم إليّ؟. فعلى السؤال الأول أجاب التلاميذ، قَوْم يقولون بأنك أنت يوحنا المعمدان، وآخرون يظنون أنّك النبي إيليا، وآخرون يظنون أنّك النبي إرميا، وآخرون يظنون أنّك أحد الأنبياء. وعلى السؤال الثاني المباشر الذي أراد فيه المسيح معرفة رأي تلاميذه به، وما يعنيه شخصياً لحياتهم، قدّم بطرس إقراراً إيماناً ينبغي أن يكون اعترافاً إيماناً كلِّ مَنْ يؤمن بالمسيح. فقال له: "أنت هو المسيح ابنُ الله الحي" (متى ١٦: ١٦). لقد أقرّ بطرس بأن يسوع هو المسيح الذي انتظرته الشعوب منذ زمن بعيد، وأنّ هذا المسيح الذي وُلد من مريم العذراء بالروح القدس هو ابنُ الله الحي الذي أتى إلى العالم ليكون لنا حياة ويكون لنا أفضل. حينها قال يسوع: "طوبى لك يا سمعان بن يونا إنّ لحمًا ودمًا لم يُعلن لك، لكنّ أبي الذي في السموات" (متى ١٦: ١٧). أي: يا لسعادتك يا بطرس، فإنّ إعلانك هذا بأنّي أنا المسيح ابنُ الله الحي، لم يصدُر من لحمٍ ودمٍ، لكن الذي أعلنه لك هو الأب السماوي، الذي نطّق بك بالروح القدس، فأصدرت هذا الإعلان. وبالتالي من إعلان بطرس وقول المسيح، نستخلص تعريفاً للكنيسة.

يُعرّف علماء الاجتماع الكنيسة بأنّها مؤسسة اجتماعية تقوم بخدمتين أساسيتين للمجتمع. الأولى، تؤمّن فرص الشراكة والصداقة والعلاقة بين الناس. والثانية، تُوجّه الناس نحو الخير وتزوّدهم بالدوافع الجيدة للتّمييز بين الصّالح والطّالح، ليختاروا ما هو صالح. والكثير من الناس ينظرون إلى الكنيسة بهذا المنظور السوسولوجي. فمع أهمية هذا التعريف وفائدته للمجتمع من الناحية الإنسانية، فإنّ هذا التعريف يبقى ناقصاً، لأنّه لا يُعبر عن وجهة نظر الرسول بطرس والكتاب المقدس حول ماهيّة الكنيسة. إنّ اعتراف بطرس بأنّ المسيح هو ابنُ الله الحي، وتطويب المسيح إياه، يَضَع الإطار الصّحيح لتعريف الكنيسة. فالكنيسة هي الجماعة التي تُجيب على السؤال "مَنْ هو يسوع بالنسبة لها؟" باعترافها بأنّه هو المسيح ابنُ الله الحي. وبالتالي فالكنيسة مبنية على الاعتراف بأنه هو ابنُ الله الحي. من هذا المنطلق فإنّ الكنيسة ليست مؤسسة إنسانية كما يظنّ السوسولوجيون، إنّما هي بالدرجة الأولى مؤسسة إلهية، بمعنى أنّ الله هو الذي أوجدها في العالم بقرار إلهي. وفي هذا المعنى نفهم ما قاله

المسيح لبطرس (متى ١٦: ١٧). ومن ثم، وفي الدرجة الثانية، تُصبح الكنيسة مؤسسة إنسانية عند تجاوب بطرس والرسول والناس مع عمل الله في العالم.

فكلمة كنيسة باللغة اليونانية "Ekklesia" تعني "الجماعة المدعوة من العالم لتعيش عمل الله في كل حياتها". فعند اغتراف بطرس بالمسيح أنه ابن الله الحي، أضاف المسيح قولاً هاماً: "وأنا أقول لك أيضاً، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات". (متى ١٦: ١٨ و١٩). لقد اختلف المُصلِحون الإنجيليون مع الكنيسة الكاثوليكية حول تفسير هذا القول المفصلي، منذ القرن السادس عشر. والسؤال الذي طرَّحه المُصلِحون الإنجيليون في الماضي، وتطرَّحه الكنائس الإنجيلية المُصلِحة اليوم هو: كيف تُفسَّر قول المسيح: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة"؟ ما هي تلك الصخرة، هل شخص بطرس؟ أم اعتراف إيمانه؟ وهل يبني المسيح كنيسة على شخص بطرس المُعترف بالإيمان، أم على اعتراف الإيمان الذي أعلنه بطرس بأن المسيح هو ابن الله الحي؟ وهل أعطى المسيح مفاتيح ملكوت السموات لشخص بطرس، أم لكل من يعترف باعتراف إيمان بطرس؟

لقد احتدم الصراع حول تفسير هذا القول منذ القرن السادس عشر، وكثرت التفسيرات والتأويلات التي لن أدخل القراء فيها. فقد أصرَّ المُصلِحون الإنجيليون على اعتقادهم أن المسيح لا يبني كنيسة على أشخاص، مهما كانت قداستهم، بل على اعترافات إيمان، مُفسِّرين أن الصخرة التي يبني المسيح كنيسة عليها، ليست شخص بطرس، وإنما اعتراف إيمانه الذي لم ينطق به بلحمه ودمه، إنما بروح الآب الذي في السموات. فالأشخاص يضعفون ويُخطئون، ولا يُمكن الاعتماد عليهم في إرساء الأسس الراسخة والمتينة والصلبة للكنيسة. وبالتالي، لا يمكن أن يكون أساس بناء الكنيسة شخص بطرس، لا سيما أن إنجيل متى يُخبرنا في الإصحاح نفسه، أنه مُباشرةً، وبعد اعتراف الإيمان، وبينما كان المسيح يُخبر تلاميذه بأنه سيتألم ويُقتل، نقرأ: "من ذلك الوقت ابتداء يسوع يُظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورساء الكهنة والكتبة ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم. فأخذه بطرس إليه وابتداءً ينتهره قائلاً: رد أن يرى ابن الله الحي هذا يتألم ويُقتل، رافضاً فكرة صلب المسيح. عندها قال المسيح لبطرس: "إذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله، لكن بما للناس" (متى ١٦: ٢٣).

اتَّخذت الكنيسة الكاثوليكية قول المسيح: "وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات". (متى ١٦: ١٨ و١٩). ليكون نصاً أساسياً لتطویر عقيدتها حول عصمة البابا التي منحتها الصلاحية الواسعة وسلطان مفاتيح ملكوت السموات للحلّ والرُّبُط، وعزَّزت مكانته كرأس الكنيسة ومُمثِّل المسيح على الأرض، الذي يوحد الجميع تحت شخصه، ومن ثمَّ انتقال هذه الصلاحيات إلى خلفائه الباباوات من خلال التسلسل الرسولي عبر التاريخ الذي لا يزال قائماً في الكنيسة حتى اليوم، الأمر الذي رَفَضَهُ المُصلِحون الإنجيليون.

لقد جرت محاولات لاهوتية لتقريب وجهات النظر، استندت إلى دراسات كتابية، قام بها علماء لاهوت كاثوليك وإنجيليين في القرن الماضي، غيرت بعض المفاهيم حول النص المشار إليه في (متى ١٦). إذ تميل هذه الدراسات إلى اعتبار شخص بطرس الرسول هو الصخرة، لكن ليس بالمفهوم القديم نفسه، أي الصخرة التي يؤسس المسيح كنيسته عليها، لأن صخرة التأسيس هو المسيح. في هذه الدراسات تم الإقرار بالدور الأساسي الذي لعبه الرسول بطرس في بداية الكنيسة الأولى بعد العنصرة، وبالتحديد في كنيسة أورشليم. فالرسول بطرس، كما يُخبرنا سفر أعمال الرسل ورسائل بولس، لم يكن فقط أول عمود من أعمدة الكنيسة الأولى، بل الحجر الأول الحي الذي وُضع في بناء كنيسة المسيح. وفي هذا السياق، فإن بطرس هو الصخرة، أي الشخص الأول بين التلاميذ، الذي أعلن بروح الآب، أن المسيح هو ابن الله الحي. وكل من أعلن اعتراف الإيمان هذا، صار حجراً حياً ثانياً وثالثاً، كما قال الرسول بطرس: **"كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حيّة، بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح"** (١ بطرس ٢: ٥). وبالتالي، تُقِر تلك الدراسات أن الرسول بطرس حصل على مكانة مميّزة في الكنيسة الأولى. وهذا ما أكدّه أيضاً الرسول بولس في رسالته إلى غلاطية، إذ بعد أن آمن بالمسيح، صعد إلى أورشليم حيث بطرس ليتعرّف عليه: **"ثم بعد ثلاث سنين صعدتُ إلى أورشليم لأتعرّف ببطرس، فمكثتُ عنده خمسة عشر يوماً"** (غلاطية ١: ١٨). ممّا يدلّ على أهمية مكانة بطرس في كنيسة أورشليم. وعندما يذكر بولس ظهورات المسيح، في رسالته الأولى إلى كورنثوس، فإنّه يذكر بطرس، أي صفًا، على رأس القائمة. فيقول: **"ظهر أولاً لصفًا، ثم للإثني عشر"** (١ كورنثوس ١٥: ٥).

إلا أن التساؤل الذي يطرحه الإنجيليون حتى بعد هذه الدراسة هو: من أين أتت فكرة التسلسل الرسولي؟ وإذا اعتبرنا جدلاً أن بطرس كانت له مكانة مميّزة في الكنيسة الأولى، وتحت أي مفهوم انتقلت من بطرس إلى خلفائه عبر التسلسل الرسولي في التاريخ، فإننا نذكر أن المصحّلين الإنجيليين كان لهم تفسيراً آخر للتسلسل الرسولي، إذ فهموه على أنه ليس تسلسلاً تاريخياً للرسول، وإنما هو تسلسل للشهادة الرسولية للمسيح في التاريخ. فعندما انثقّد المصلحون الإنجيليون بأنهم خَرَجوا عن التسلسل الرسولي بإصلاحهم، ولم يعودوا في عداد الكنيسة الرسولية (كنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسولية)، فقد أجابوا: إن الكنيسة تكون رسولية عندما تتمسك بتعليم الرسل، وتحافظ على شهادتهم، وعلى الكتاب المقدس.

أمّا الأمر الآخر الذي توقّف عنده الإنجيليون فهو قول يسوع لبطرس: **"وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات"** (متى ١٦: ١٩). لقد اعتقدت الكنيسة الكاثوليكية في الماضي بأن المسيح منّح بطرس صلاحية أن يكون حارس باب الملكوت، ومنّحه مسؤولية أطلق عليها مسؤولية "المفاتيح" لفتح وغلق باب ملكوت السموات. وبتعبير آخر، فقد جعله وكيلًا، يهتم بملكوت السموات. إلا أن الإنجيليين قالوا بأن من يملك هذه الصلاحية هو الرب يسوع المسيح

فَقَط، لِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ، وَلَمْ يَمُنَّحْ هَذِهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِأَحَدٍ. إِنَّ تَعْبِيرَ "المفاتيح" لَيْسَ تَعْبِيرًا جَدِيدًا، بَلْ قَدِيمًا، اسْتُخْدِمَهُ إِشْعِيَاءُ لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَوْكَلَ "ألياقيم بن حلقيا" عَلَى بَيْتِ الْمَلِكِ، لِأَنَّ الْوَكِيلَ الْأَوَّلَ "شِينَا" قَدْ وُجِدَ غَيْرَ أَهْلِ لِلْوَكَاةِ. لِهَذَا قَرَّرَ أَنْ يَطْرُدَهُ مِنْ مَنُصِبِهِ وَيُوكِلَ "إلياقيم بن حلقيا": "وَأَجْعَلْ مَفَاتِيحَ بَيْتِ دَاوُدَ عَلَى كَتِفِهِ، فَيَفْتَحُ وَلَيْسَ مَنْ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلَيْسَ مَنْ يَفْتَحُ" (إشعيا ٢٢: ٢٢). أَيْضًا اسْتُخْدِمَ الرَّبُّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هَذَا التَّعْبِيرَ لِيَصِفَ عَدَمَ أَمَانَةِ الْكُتُبَةِ وَالْفَرِيْسِيِّينَ عَلَى الْوَكَاةِ. فَقَالَ: "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُتُبَةُ وَالْفَرِيْسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ، لِأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، فَلَا تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ، وَلَا تَدْعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ" (متى ٢٣: ١٣).

أَمَّا تَعْبِيرُ "الْحَلِّ وَالرَّبْطِ"، فَهُوَ مُسْتَقَى مِنَ الْعَادَاتِ الْيَهُودِيَّةِ، إِذْ اسْتُخْدِمَ هَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ قَبْلِ مُعَلِّمِي الْيَهُودِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى سُلْطَةِ اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ. فَعِنْدَ تَفْسِيرِ الشَّرِيعَةِ، كَانَ الْيَهُودَ يَحْلُونَ وَيَرْبِطُونَ، أَيْ يَسْمَحُونَ بِمُمَارَسَاتٍ وَيَمْنَعُونَ أُخْرَى. كَمَا تُشِيرُ إِلَى سُلْطَةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّفْسِيرِ فِي الْكَنِيسَةِ.

وبالتالي، فَإِنَّ تَعْبِيرِيَّ "المفاتيح" و"الْحَلِّ وَالرَّبْطِ" يُشِيرَانِ إِلَى نَوْعِ السُّلْطَةِ، الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهَا مِنَ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ النَّصُّ قَبْلَ اعْتِرَافِ بَطْرُسَ بِإِيمَانِهِ. فَالنَّصُّ فِي (متى ١٦: ١٣) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ يَتَكَلَّمُ عَنِ تَعْلِيمِ الْفَرِيْسِيِّينَ. "حِينَئِذٍ فَهَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَنْ يَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ الْخُبْزِ، بَلْ مِنْ تَعْلِيمِ الْفَرِيْسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ". فَسُلْطَةُ الْمَفَاتِيحِ هَذِهِ، سُلْطَةُ الْحَلِّ وَالرَّبْطِ، لَيْسَتْ هِيَ سُلْطَةُ شَخْصٍ بِطْرُسَ، وَإِنَّمَا سُلْطَةُ الْكَلِمَةِ، سُلْطَةُ التَّعْلِيمِ وَالْكَرَازَةِ بِخِلَاصِ الْمَسِيحِ وَغُفْرَانِهِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ فَإِنَّ بَطْرُسَ حَقًّا قَدْ مَلَكَ مَفَاتِيحَ الْمَلَكُوتِ، وَحَقًّا قَدْ فَتَحَ بَابَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ بِكَرَازَتِهِ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْعَنْصَرَةِ. وَيُخْبِرُنَا كَاتِبُ سِفْرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ أَنَّ بَطْرُسَ عِنْدَمَا أَلْقَى عِظَتَهُ الْأُولَى فِي يَوْمِ الْخَمْسِينَ، فَتَحَ بَابَ الْمَلَكُوتِ لِثَلَاثَةِ آلَافِ شَخْصٍ سَمِعُوا الْكَلِمَةَ، وَآمَنُوا وَدَخَلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ (أعمال ٢: ١١). كَمَا فَتَحَ الْبَابَ أَيْضًا لـ "كيرنليوس" قَائِدَ الْمِئَةِ الَّذِي آمَنَ بِالْمَسِيحِ عِنْدَمَا بَشَّرَهُ بَطْرُسَ.

وبالتالي، فَإِذَا عُدْنَا إِلَى نَصِّ اعْتِرَافِ بَطْرُسَ فِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلِبَسَ، وَسَأَلْنَا: مَا هِيَ الْكَنِيسَةُ؟ يُجِيبُ الْإِنْجِيلِيُّونَ أَنَّ الْكَنِيسَةَ هِيَ الْجَمَاعَةُ الْمَدْعُوعَةُ مِنَ الْعَالَمِ، الَّتِي تَعْتَرَفُ بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ، وَتَكْرُزُ بِسُلْطَةِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَفْتَحُ بَابَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَفِي مَقَالَةٍ بِعَنْوَانِ The Church of the Word of God "كنيسة كلمة الله"، عَرَفَ الْلاهوتِي الْإِنْجِيلِي الْمُعَاصِرَ "كارل بارت" الْكَنِيسَةَ، قَائِلًا: "الْكَنِيسَةُ هِيَ جَمَاعَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي أُسِّسَهَا اللَّهُ نَفْسَهُ، هِيَ جَمَاعَةُ الْخَطَاةِ الَّذِينَ أَطَاعُوا كَلِمَةَ اللَّهِ، وَيَتَغَذَّوْنَ مِنْهَا وَيَعِيشُونَ بِمُوجِبِهَا". لَقَدْ آمَنَ "بارت" أَنَّ الْكَنِيسَةَ هِيَ وَلِيدَةُ كَلِمَةِ اللَّهِ. فَالْكَلِمَةُ هِيَ الْحَدِيثُ الَّذِي أَوْجَدَهَا فِي التَّارِيخِ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَوْجَدُهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ. كَمَا أَضَافَ قَائِلًا: "لَا تَحْيَا الْكَنِيسَةُ مِنْ تَارِيخِهَا وَتَقَالِيدِهَا وَعَقَائِدِهَا، بَلْ تَحْيَا مِنَ الْكَلِمَةِ وَحَدِثِهَا. فَمَوْجِعُ السُّلْطَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْكَنِيسَةِ هُوَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، الَّذِي يَحْفَظُهَا

ويحفظ عقائدها ويصحح مسارها. ومن الكتاب المقدس تأخذ الكنيسة توصياتها للعمل والخدمة".

هذا هو المفهوم الإنجيلي للكنيسة، إنها كنيسة كلمة الله التي أسسها المسيح على اعتراف إيمان أولاده بأنه ابن الله الحي. آمين.

الجزء الأول

- (١) عيش الإنجيل
- (٢) بالسَّير مع المسيح
من المَجيء إلى العَنصَرة

(١) نشيد العذراء رسالة مريم إلى كل مسيحي

أول ترنيمة للكنيسة قبل أن تظهر ملامحها هي أنشودة مريم العذراء (لوقا ١: ٤٦-٥٦). وقد أنشدتها شعراً مُثَقناً ومُحكماً لُغوياً، فتغنت بمراحم الرب واحساناته على أثر لقاءها المُميّز مع نسيبتها أليصابات الحُبلى بيوحنا المعمدان، الجنين الذي أبى إلا أن يسجد للمسيح الجنين. إن أليصابات الأم التي شعرت بجنينها يتحرك في أحشائها ليقدم السجود للمسيح، هللت في هذا اللقاء المهيب، فامتدحت العذراء قائلة بصوت عظيم: "مباركة انت في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ. فهذا حين صار صوت سلامك في إذني، ارتكض الجنين بابتهاج في بطني. فطوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها من قبل الرب" (لوقا ١: ٤٢-٤٥). فأليصابات شعرت بشرف عظيم أن تلتقي مريم العذراء أم المُخلص. إلا أن مريم، وأمام مديح أليصابات لها، شعرت بأهمية وضرورة وألوية أن تُقدّم الحمد والتسبيح والتعظيم لله، على قوته وقداسته ورحمته، وأن تُعطيه المكانة الأولى في الإكرام. فرذت على مديح أليصابات قائلة: "تُعظّم نفسي الرب، وتبتهج روعي بالله مُخلصي" (لوقا ١: ٤٧). لقد شعرت بأنه عليها أن تُمدح الله وتحمده هو، وتُعظّمه بكل قواها، بنفسها وروحها "تُحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك" (متى ٢٢: ٣٧). والنفس هي رمز الحياة الإنسانية وخلص شخصية الإنسان، أما الروح فهي رمز الحياة الروحية والوجدان والعواطف والتعبّد. هذا هو الموقف الأول والأساس الذي يجب أن يتخذه كل مسيحي اختبر حضور الله في حياته، إنه موقف التّعظيم وتقديم الحمد والإكرام والسجود لله أولاً.

إن مريم في أنشودتها هذه تذكر سببين لحمدها لله، الأول "لأنه نظر إلى إتضاع أمته" (لوقا ١: ٤٨). فالله يختار المتواضعون ويكافئهم ويحقق من خلالهم إرادته وأهدافه. الثاني، "لأن القدير صنع بي عظام" (لو ١: ٤٩). فمريم تُعظم الرب وتبتهج به لأنه القدير الذي لم يصنع بها أمراً عظيماً واحداً، بل عظام كثيرة، أهمها بشارته لها بأنها ستُحبل بالمسيح المُخلص بالروح القدس. فالله قرّر أن يأتي إلى عالمنا كطفل، وخطته هذه ستتحقق من خلال تلك الفتاة المتواضعة، مريم، القديسة الخاضعة لمشيئة الله والمؤمنة بقدرته. وهذا سبب أساسي يوجه نظرنا إلى مريم، لنبتهج معها ونفرح بها، ونطوبها مع جميع الأجيال "هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني" (لوقا ١: ٤٨).

فمريم أدركت أن تمييز الله لها لم يستثنها من حاجتها هي أيضاً للخلص والمُخلص. وجوهر أنشودتها إعلانها الواضح والصريح أن الله هو مُخلصها. فقد رُئمت قائلة: "تُعظّم نفسي الرب وتبتهج روعي بالله مُخلصي" (لوقا ١: ٤٧). فبالرغم من عمل الله العظيم في حياتها، فهي لم تعتبر نفسها غير محتاجة للخلص، بل على العكس، اعتقدت وآمنت بأن الله اختارها

لسبب جوهرى كونها اتَّخَذَتْهُ مُخْلِصاً لَهَا. "تبتَّهج رُوحى بالله مخلصي". فقد شَهِدَتْ وشَاهَدَتْ، بَلْ واخْتَبَرَتْ تحقيق اِبْنِهَا يسوع المسيح خَلاصَ العَالَمِ على خَشْبَةِ الصَّليبِ بدمه الكَرِيمِ، "لأنَّه لَيْسَ اسْمٌ آخَرَ تَحْتَ السَّمَاءِ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نُخَلِّصَ" (أعمال ٤: ١٢). فليس هناك في ملكوت الله مَنْزِلَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْمُخْلِصِ وَالمُخْلِصِ.

إنَّ نشيد العذراء لا ينتهي في تطويب مريم، لكنها تنبأت في أنشودتها عن أخبار سارة للعالم أجمع، يأتي بها طفلها المُخْلِصُ يسوع المسيح، أخبار سارة عن قِيَمٍ جديدة عن ملكوت الله، قِيَمٍ تُناقِضُ وتُنقِضُ قِيَمَ العَالَمِ الحَاضِرِ البَعِيدِ عن الله. وسيبدأ المُخْلِصُ يسوع بتحقيقها بنفسه أثناء خدمته على الأرض. على أن يكمل أولاده من بعده المُهمَّة. ففي هذا العَالَمِ، منذ القديم وحتى اليوم، يسود المُفكِّرون المُتَكَبِّرون على البُسطاء، والمُتَسَلِّطون المُسْتَبَدُّون على المُتَوَاضِعِينَ، والأغنياء الجشعون على الفقراء. لكن مريم تنبأت بأن ابنها يسوع، سيقرب قِيَمَ العَالَمِ الحَاضِرِ رَأْساً على عَقِبِ.

فما هي تلك القِيَمِ الجديدة؟ قالت مريم، "شَتَّتِ المُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ، أَنْزَلَ الأَعْزَاءَ عَنِ الكِرَاسِيِّ، وَرَفَعَ المُتَضَعِينَ، أَشْبَعَ الجِيعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ" (لوقا ١: ٥١-٥٣). إنَّ الأمر المُمَيِّزَ لهذه النبوءة هو استخدامُها لصيغة فعل الماضي للتحدث عن المُستقبل، وكأن الأمر قد تحقَّق مُسَبِّقاً مع أنَّ المسيح لَمْ يَكُنْ قد وُلِدَ بعد. وهذا هو سرُّ الإيمان، أن نستطيع أن نثق في الحاضر بقدرته الله على التَّغْيِيرِ في المُستقبل، ونتيقن من الآن أنه سيَتِمُّ عملاً ما وَضَعْنَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وكأنَّه قد تحقَّق مُسَبِّقاً. هذا الجُزءُ من النبوءة حول خدمة المسيح الذي يُشَدِّدُ على إدخال قِيَمٍ جديدة في العَالَمِ، قد تَغْنَى به الكاتب "جبران خليل جبران"، حينما وصف ما يقوم به يسوع المولود، قائلاً: ذلك الرُّضِيعُ المُلْتَفُّ بأثواب أمِّه الفقيرة، قد انْتَزَعَ بلطفه صولجان القوَّة من "المُشْتَرِي" وأَسْلَمَهُ للرَّاعِي المسكين المُتَكَيِّ على الأعشاب بين أغنامه. وأخذ الحكمة من "مينرفا" برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البُحيرة. وأنزل "البَعْل" عن كرسي جبروته، وأقام مكانه الفلاح البائس الذي ينثر في الحقل البذور.

هذا ما ابتدأ الرب يسوع بتحقيقه أثناء خدمته على الأرض. بالإضافة إلى إنَّه جال يكرز بالتوبة ويصنع خيراً، ويشفي جميع المُتَسَلِّطِ عليهم إبليس. فقد "شَتَّتِ" فِكْرَ المُسْتَكْبِرِينَ أمثال الكتبة والفريسيين، ونَقَضَ آراءهم حمَلُوا النَّاسَ أحمالاً ثَقِيلَةً عَسِرَةً الحمل بشرايعهم الكثيرة التي تحوَّلت إلى عوائق كبيرة في طريق دخول الناس إلى ملكوت الله. بينما رَحَّبَ يسوع بالمُفكِّرين المُتَوَاضِعِينَ الذين تركوا في فكرهم وحياتهم مساحة لحضور الله، كالمَجُوس الذين أتوا من المَشْرِقِ حاملين هداياهم وساجدين له عندما كان طفلاً.

"أَنْزَلَ الْأَعْزَاءَ عَنِ الْكِرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَضَعِينَ"، فخير ولادته هَزَّ عرش الحاكم المُجْرِم "هيرودس الكبير" الذي عمل على الانتقام من أطفال أبرياء، فقتلهم غلَّةً يتخلَّص من المسيح الطفل. عندما أتى بعض الفريسيين (لوقا ١٣: ٣١-٣٣) ينقلون للمسيح تهديد "هيرودس" الظَّالم بأنه يريد قتله، قال لهم يسوع: "قولوا لهذا الثَّعلب". والثَّعلب لقب اسْتُعْمِلَ كَرَمَزٍ يشير إلى الخُبث والقدرة على التدمير. وقال: "ها أنا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ أَكْمَلُ". كما نقرأ في (لوقا ٢٣: ٨-١١) فعندما تمَّنَى "هيرودس" أَنْ يَرَى مِنْ يَسُوع آيَةً رَفَضَ، وعندما سألته أسئلة كثيرة باحتقار وكبرياء، لَمْ يُجِبْهُ. بينما رَفَعَ الْمُتَضَعِينَ أمثال أولئك الرُّعاة المؤمنين الذين أتوا ساجدين له في ميلاده، ورجعوا إلى رعيتهم مُبَشِّرِينَ بما رأوا وسمِعوا. وفي أواخر أيامه حمل "نابوليون بونابرت" حِفْنَةً مِنَ الثَّرَابِ وقال: لقد أسَّسْتُ مَمْلَكَتِي عَلَى الدَّمِّ وَالبَطْشِ والقوة في هذا العالم، فزالت مملكتي. أمَّا أَنْتَ يَا يَسُوع، بما أَنَّكَ قد أسَّست مملكتك على قلوب البَشَرِ، فَمَمْلَكَتُكَ لَنْ تَزُولَ، طالما أَنَّ هُنَاكَ بَشَرٌ".

ولقد "أشْبَعَ الْجِياعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الْأَغْنِياءَ فَارِغِينَ". ونبؤة مريم هذه لا تتحدَّثُ عن نزع الأموال من الأغنياء، وكان المسيح يَشْنُ حَمَلَةً ضِدَّ الْأَغْنِياءَ لِمُجَرَّدِ حَيَازَتِهِمْ عَلَى الْمَالِ، بَلْ تَتحدَّثُ عَنِ الْاِغْتِناءِ مِنْ حُضُورِ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ، الَّذِي يَمْنَعُهُ مَحَبَّةُ الْمَالِ وَالتَّمسُّكِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ إِلَى دَرَجَةِ التَّخْلِى عَنِ اللَّهِ. فَيَسُوعُ أَشْبَعَ الْكثيرَ مِنَ الْجِياعِ وَأَغْنَاهُمْ مِنْ خَيْرَاتِ حُبْزِ الْحَيَاةِ الَّذِي أَعْطَاهُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، فَاخْتَبَرَ بَعْضَ الْأَغْنِياءَ غِنَى حُضُورِهِ فِي حَيَاتِهِمْ، كـ "زكا" العَشَّارِ الَّذِي حَصَلَ عَلَى خِلاصِ الْمَسِيحِ، لِأَنَّهُ أَعْلَنَ عَنِ اسْتِعْدَادِهِ الْكاملِ لِمُشَارَكَةِ مَا يَمْلِكُ مَعَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ (لوقا ١٩: ١-١٠). لكن يوجَدُ بَعْضَ الْأَغْنِياءَ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَجْسِيدِ إِيْمَانِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ بِمُشَارَكَةِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْوَالٍ مَعَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، كَالغَنِيِّ الَّذِي أَتَى إِلَى الْمَسِيحِ طَالِباً الْحُصُولَ عَلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْاسْتِعْدَادُ لِلإِصْغَاءِ إِلَى جَمِيعِ وَصايا اللَّهِ، وَالتِّي تَتضمَّنُ مُشَارَكَةَ مَا نَمْلِكُ مَعَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، فَذَهَبَ حَزِيناً فَارِغَ الْيَدَيْنِ مِنْ خَيْرَاتِ مَلِكُوتِ اللَّهِ (لوقا ١٨: ١٨-٢٧).

إِنَّ أُنشُودَةَ مَرِيْمِ الْعِذْرَاءِ هِيَ رِسالَةٌ إِلَى كُلِّ مَسِيحِي، تَحْمِلُ لَنَا دَرُوساً رُوحِيَّةً عَمِيقَةً يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرُهَا. فَلنَتَذَكَّرُ دائِماً:

(١) أَنْ يَكُونَ مَوْقِفُنَا الرُّوحِيَّ عَظِيمٍ وَتَمجِيدِ اللَّهِ أَوَّلاً وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، عَلَى مَراحِمِهِ وَإِحساناتِهِ عَلَيْنَا.

(٢) أَنَّ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَى مَرِيْمِ الْعِذْرَاءِ وَنَظَرَ إِلَى اتِّضاعِهَا وَصَنَعَ بِهَا عِظائِمَ كَثِيرَةً، لا سِوَمَا مِيلادِ الْمُخْلِصِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَصنَعَ بِنَا عِظائِمَ عِندَما نَطِيعُهُ وَنَتَضَعُ أَمَامَهُ.

(٣) أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمُخْلِصُ الْوَحِيدُ لِلعالمِ وَلَمَرِيْمِ الْعِذْرَاءِ.

(٤) أَنَّ قَبُولَ خِلاصِ اللَّهِ الَّذِي أَتَمَّهُ الْمَسِيحُ عَلَى الصَّليبِ، يَسْتوجِبُ مِثْلاً اتِّخاِذُ مَواقِفِ جَرِيئَةٍ وَشِجَاعَةٍ فِي حَيَاتِنَا وَعِلاقَتِنَا فِي كَنِيسَتِنَا وَمَجْتَمَعِنَا تَنسَجِمُ وَقِيمِ الْإِنْجِيلِ، كَتَلِكِ الْمَواقِفِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْمَسِيحُ. وَبِناءٍ عَلَيْهِ:

أ. لنحذر الاستكبار بفكرنا والتخلي عن الله في معرفتنا، لئلا يشيت المسيح تكبر فكر قلوبنا.
 ب. لنحذر إساءة استخدام أيّة سلطة أُعطيت لنا، صغيرة أو كبيرة، لئلاً نستخدمها في ظلم الناس، بل لنحرص دائماً على معاملة الناس بصدق وعدل وإنصاف، لئلاً يُنزلنا المسيح عن كراسينا.
 ج. لنحذر التعلّق بأموالنا وممتلكاتنا على حساب تعلّقنا بالمسيح إلهنا، لئلاً يصرفنا فارغين من غنى ملكوت الله. آمين.

(٢) ثمار التوبة

رسالة المعمدان

"اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة" (لوقا ٣ : ٨)

من الشخصيات الأساسية التي تتوجّه الأنظار إليها في فصل المجيء، شخصية يوحنا المعمدان في دوره الرئيسي في إعداد طريق الرب من خلال دعوته الناس لاستقبال المسيح الآتي بالتوبة.

يخبرنا البشير لوقا في الأصحاح الثالث من إنجيله أن رسالة المعمدان تميّزت بالتشديد على ترجمة التوبة بثمار عملية في الحياة اليومية. فعند قدوم الناس إلى المعمدان للمعمودية حذّره من غضب الله ودينونته على شرورهم، قائلاً لهم: **'يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة'** (لوقا ٣ : ٧-٨). وهذا الأسلوب في الكرازة كان أسلوب الأنبياء في العهد القديم. وها نحن نرى يوحنا المعمدان الذي يُعتبر آخر أنبياء العهد القديم، يستخدم اللهجة القاسية مُتبعاً الأسلوب نفسه في التحذير من دينونة الله، ليحثّ الناس على الإسراع إلى التوبة لتجنّب غضب الله. لقد استخدم المعمدان صورة مُستوحاة من البرية، حيث كان يسكن. يُقال إن البرية كانت مليئة بالأفاعي السامة، وعند إضرام النار في أحد الأماكن التي تواجدت فيها الأفاعي، كانت تهرب بأقصى سرعتها لتنجو منها. وبهذه الصورة شبّه المعمدان الناس الخطاة بالأفاعي التي تنفث سمّ الشرّ والظلم والخطية. وكما إنها تحاول أن تنجو من النار عند إضرامها، هكذا يحاول الخطاة الهروب من غضب نار الله الحارقة. وقد أشار المعمدان في كرازته إلى أن هؤلاء المُتقدّمين للمعمودية من اليهود قد يظنّون أن غضب الله لن يطالهم، لأنهم أولاد إبراهيم. هذا الفكر كان سائداً لدى الكثيرين من اليهود آنذاك إذ ظنّوا أن وعد الله لإبراهيم بالبركة **'وأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركك وألعن لأعنيك'** (تكوين ١٢ : ١-٣)، سوف يحميهم من غضب الله كيفما كانت نوعية حياتهم، بتوبة أو بدون توبة. لكن يوحنا المعمدان أكّد لهم أن وعد الله لإبراهيم لن ينفعهم إن لم يتوبوا. إن هذا الوعد لا يُنقذهم من غضب الله. لقد قال: **"فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم."** (لوقا ٣ : ٨). وبالتالي، فلا النسل، ولا الوراثة، ولا الولاءات المُتعدّدة، ولا حتى معمودية يوحنا التي كانت بالماء، تقدر أن تخلصهم من غضب الله على شرورهم. لأنّ خطة الله لخلاص البشرية تتحقّق، ليس من خلال النسل، إنّما بالإيمان، كما إبراهيم. وبالتالي، فلا سبيل للنجاة من دينونة الله إلا بالتوبة. فما هي التوبة إذن؟

كلمة "توبة" تعني لغوياً "الأسف على موقف أو عمل سيء، والعودة أو الرجوع إلى الموقف الصالح"، كما يعود المُتمرّد إلى طاعة مَنْ يجب أن يُقدّم له الطاعة. وهكذا، فالتركيز في معنى كلمة "توبة" هو على الرجوع بعد الأسف. وفي مفهوم الإيمان، فالعودة هي عودة إلى الله. لكن لا بُد في هذا السياق من التمييز بين معنيي كلمتي (النَّدَم والتُّوبَة) المُتشابهتيْن في الأصل اليوناني. فمُعظم الناس لا يُميّزون بين الكلمتيْن في اللغة العربية. فكلمة "نَدَم" في اليونانية metameleo وكلمة "توبة" metaneo لكن الفَرْق بينهما شاسع في المفهوم اللاهوتي والمسيحي. إنَّه الفَرْق بين ندم يهوذا الإسخريوطي، بعد خيانتَه المسيح، إذ شَتَّق نفسه، وندم بطرس بعد إنكاره المسيح، إذ رجع إلى الله وتاب عن خطيته وارتدى في أحضان مراحم المسيح، فصار رسولاً عظيماً لكنيسة أورشليم. فالتمييز الذي قد لا تُذكره في اللغة العربية بين كلمتي (توبة وندم)، كون الكلمتان تعيران عن الأسف على موقف أو عمل سيء اقترُف، هو عند النَّدَم يتمركز الإنسان الخاطئ حول نفسه، فينشغل في قَلقه ومرارته ومُحاسبة نفسه، لكنَّه لا يتطلّع خارج نفسه ويطلب معونة من الله كيما يُخرجه من حالته ويفتح له باب الرجاء والمصالحة معه ومع نفسه. وبالتالي، فعند النَّدَم هناك فقط اكتفاء بالأسف، لكن ليس هناك رجوع إلى الله. أمّا في التُّوبَة، فإنَّه بعد مرحلة الأسف على الخطية التي ارتكبت، هناك عودة ورجوع إلى الله الذي بمعونة إلهية منه للتائب، يُجري الله تَغْييراً راديكالياً يشمل كامل مواقف وتوجُّهات الإنسان. تَغْييراً راديكالياً في الفِكر والقلب والإرادة، وكل أسلوب الحياة يُترجم بثمار حياة صالحة. وهكذا، فالتوبة عطية الله للإنسان الذي يَغْتَرِف بخطاياها. هذا ما قاله يوحنا المعمدان للمُعتمدين منه: **"اصْنَعُوا أَثْمَاراً تَلِيْقُ بِالتُّوبَة"**. فكل أفعالنا وأسلوب حياتنا يجب أن تُثمر ثماراً تليق بهذه التُّوبَة التي اختبرناها بالإيمان.

وبعد أن تجاوب الناس مع كرازة المعمدان واختبروا التُّوبَة والتَّغْيِير بعودتهم إلى الله، سألت ثلاث مجموعات (الجموع، والعشارون، والجنود) المعمدان كيف يستطيعون أن يستمروا في أعمالهم ووظائفهم مُترجمين ثمار التُّوبَة في حياتهم. إذ سألوا سؤالاً واحداً: **"مَاذَا نَفْعَل؟"** (لوقا ٣: ١٠)، إلا أن المعمدان لم يقل أن ينسحبوا من المجتمع ويعتزلوا للصلاة، كما فعلت جماعة (أسينيي قمران) في القرون الأولى. كما أنَّه لم يطلب إليهم أن يلبسوا مُسوحاً ويقدموا ذبائح لله تَغْييراً عن توبتهم، كما حصل في نينوى وقت مُناداة "يونان" النبي بالتوبة. لكنَّه قال لتلك المجموعات بأنَّه يجب عليهم أن يضعوا حداً لأسلوب حياتهم الحالي البعيد عن الله، ويتبعوا أسلوباً جديداً للحياة يتميَّز بثمار التوبة، أسلوباً جديداً يعكس التغيير في أولوياتهم والتزاماتهم وعلاقاتهم.

قال المعمدان للمجموعة الأولى، الجموع بشكل عام دون تحديد أشغالهم ووظائفهم: **إنَّ توبتكم توجب عليكم التفكير الجاد أن تكونوا رُحماء مع المحتاجين والعناية بهم: "مَنْ لَهُ ثوبان فليعط مَنْ ليس له، ومَنْ لَهُ طعام فليفعل هكذا"** (لوقا ٣: ١١). فحياة التوبة والإيمان تدعوكم لمشاركة ما تملكون مع الآخرين المحتاجين، وتظهر عندما تكسون عرياناً بثيابكم، وتطعمون جائعاً بخبزكم. هذه كانت سمات الكنيسة الأولى، إذ يقول (أعمال ٢: ٤٤) **"وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مُشتركا"**.

أما المجموعة الثانية فقد كانت من العشارين. وهذه الفئة كانت مكروهة جداً من الشعب اليهودي، لأنَّهم كانوا جُباة الصُّرائب للنظام

الروماني الحاكم. حيث كان رؤساء العشارين يتفقون مع السلطة الحاكمة على المبلغ المتوجب لهم من جمع الضرائب، ليجعلوا الباقي تجارة لهم يَجْنُونَهُ من أموال الناس الفقراء، ثم يوظفون حولهم بعض العشارين الذين يقومون بجمع الضرائب من عامة الناس، التي كانت قيمتها تفوق أكثر بكثير قيمة الضرائب المفروضة عليهم. وبالتالي، كان العشارون يَجْنُونُ الأموال الكثيرة بهذه الطريقة التي سمحت بالظلم والوشاية والرشوة. لكن يوحنا المعمدان لم يقل لهذه المجموعة، إن عليهم أن يُغيروا وظيفتهم غير المرغوب فيها من قبيل الشعب، بل قال لهم: توبتكم تحتم عليكم مكافحة الفساد والتوقف عن أعمال الرشوة والوشاية والظلم. وقال: **"لا تَسْتَوْفُوا أَكْثَرَ مِمَّا فَرَضَ لَكُمْ"** (لوقا ٣: ١٣)، إن توبتكم يجب أن تُغيّر أسلوب حياتكم وطريقة ممارستكم لجمع الضرائب، فلا تُحمّلوا الناس أعباء مالية أكثر من المطلوب، بل كونوا أمناء في جمع الضرائب، واستوفوا من الناس ما هو حق. كما يُخبرنا البشير لوقا في الأصحاح التاسع عشر، كيف غيرت التوبة حياة "زكّا" الذي كان رئيساً للعشارين، إذ بعد زيارة المسيح له في بيته وإعلانه بأنّه **"اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن إبراهيم"**، فوقف "زكّا" وأعلن قائلاً: **"ها أنا يا رب أعطي نصف أموالى للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أردُّ له أربعة أضعاف"** (لوقا ١٩: ٨، ٩). لقد كان "زكّا" العشار قبل توبته ظالماً وأشياً استولى على الكثير من أموال المساكين بدون وجه حق. لكنه بعد توبته، تعهد أن يُعيد نصف أمواله للمساكين، ويُنصف الذين وشى بهم بإرجاع أربعة أضعاف لهم ممّا أخذ منهم.

أمّا المجموعة الثالثة فهي من الجنود. ويُعتقد أنّهم لم يكونوا رومانيين، إنّما يعملون مع الرومان ويؤمّنون الحماية للعشارين عندما كانوا يجمعون الضرائب. هذه الفئة كانت أيضاً مُحْتَقَرَةً من الشعب، وقد اعتيروا عملاء للرومان. لكن بالرغم من هذه النظرة السلبية، لم يطلب منهم المعمدان ترك وظيفتهم. بل قال لهم: **"لا تظلموا أحداً ولا تشؤوا بأحد واكتفوا بعلائفكم"** (لوقا ٣: ١٤). وقد أشار المعمدان من خلال كلماته هذه إلى مشكلة كبيرة تسود في مجتمعنا. فبدلاً من استخدام المناصب والوظائف لخدمة الناس، يُستخدمها بعض النافذين من أجل مصالحهم الشخصية، والظلم والتحكّم في حياة الناس. كأنه قال: لا تستغلوا منصبكم ووظيفتكم (كونكم جنود مسلحين)، من أجل المصالح الشخصية والربح المالي وظلم الناس، لا تستغلوا منصبكم للوشاية والافتراء، بل اكتفوا برواتبكم ولو كانت قليلة.

إن نقد الرب يسوع المسيح الرئيسي للكتبة والفريسيين، هو أنّهم بالرغم من ادّعائهم بأنهم مفسرو الشريعة، إلا أنّ تصرفاتهم لا تتطابق مع أقوالهم. فقال عنهم: **"على كُرسِيّ مُوسَى جَلَسَ الْكُتْبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ. فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلَكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لَا تَعْمَلُوا لِإِنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ"** (متى ٢٣: ١-٣). إن ضعف المسيحيين الأساسي هو في عدم إظهار ثمار التوبة في حياتهم. هناك قول مُعَيَّر مُفَادِه (أن أعمالك وتصرفاتك تتكلم بصوت عالٍ جداً، إلى حدّ أني لم أعُد قادراً على سماع كلماتك). وقد صدر في العام ٢٠٠٠م في مجلة "العلم والحياة" الفرنسية، مقالة بعنوان "جرائم الكنيسة في التاريخ"، إذ تُعَدُّ المقالة كمّ الجرائم المُرتكبة باسم المسيح وكنيسته في التاريخ، وهو منها براء. فكيف نبرّر الحملات الصليبية والقتل والظلم الذي ارتكب في منطقتنا في القرن الثاني عشر، ولا تزال الكنيسة حتى اليوم تدفع ثمنه؟ تأتي رسالة المعمدان في فصل المجيء لتذكّرنا لا بالثدّم، وإنما بالتوبة الصادقة والالتزام الحقيقي بإيماننا بالرب يسوع المسيح، كيما تُظهِر ثمار توبتنا في كل يوم من

أيام حياتنا، حتى يرى الناس أعمالنا الحسنة ويمجدوا أبانا الذي في السموات. آمين.

(٣) "إسهرُوا لأتكم لا تعلمون في أيّة ساعة يأتي ربكم"
(متى ٢٤: ٤٢)

من الوعود الأساسية التي لم تتحقّق بعد، والتي تنتظر الكنيسة والمؤمنون تحقّقه، وُعد المسيح بالمجيء إلينا ثانية في المجد. هذا الوعد كرّره الرب يسوع المسيح عدّة مرّات لتلاميذه بطريقة مباشرة وغير مباشرة. ففيقول: "في بيت أبي منازل كثيرة، وإلّا فإني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإنّ مضيّت وأعدّدت لكم مكاناً، آتي أيضاً وأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً" (يوحنا ١٤: ٢-٣). فالمسيح يؤكّد هنا أنّ صعوده إلى السماء إنما ليعدّ مكاناً لأولاده المؤمنين، وسيأتي ثانية بعد مجيئه الأوّل في الميلاد كيما يأخذهم إليه ليكونوا حيث هو يكون. ويذكر لوقا البشير كاتب سفر أعمال الرسل أنّه حين مواكبة التلاميذ لصعود المسيح شاخصين بأنظارهم وهو مُنطلق إلى السماء يعلو أمامهم، قال ملاكان (رجلان) بلباس أبيض، للتلاميذ: "أيّها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء، إنّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا كما رأيتموه مُنطلقاً إلى السماء" (أعمال الرسل ١: ١١). وقد اتّخذت الكنيسة الأولى هذا الوعد بجدية كبيرة فعاشت منتظرة بشوق، مُترقبة بشغف ومُصليّة "مارآن آثا" أي: "تعال أيّها الرب يسوع" (١كورنثوس ١٦: ٢٢).

تُخبرنا بعض رسائل العهد الجديد أنّ الكنيسة الأولى اعتقدت أنّ المسيح سيعود ثانية في زمنهم، بينما لا يزالون على قيد الحياة. فالرسول بولس قال لكنيسة رومية: "هذا وأتكم عارفون الوقت، إنّها الآن ساعة، لنستيقظ من النوم، فإنّ خلاصنا الآن أقرب ممّا كان حين أمّنا. قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور" (رومية ١٣: ١١ و١٢). أي أنّ وقت مجيء المسيح (الذي هو وقت النهار) قد اقترب، مقارنة مع بداية وقت إيماننا به. لهذا ليس هناك وقت للقيام بمشاريع طويلة الأمد، كالزواج أو الانفصال، بل نصح أنّ يبقى كل عضو في الكنيسة في وضعه العائلي كما هو عليه، إلّا في حالة عدم القدرة على ضبط نفسه.

فيقول: "أنت مُرتبط بامرأة لا تطلب الانفصال. أنت مُنفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة" (١كورنثوس ٧: ٢٧). أيضاً، "ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا" (١كورنثوس ٧: ٨-٩).

إن موضوع سرعة مجيء المسيح في زمن الكنيسة الأولى، وبعد فترة قصيرة من انطلاقه إلى السماء، أدى لدى البعض من كنيسة تسالونيكى إلى البطالة، فأوقف البعض أعمالهم بخجة: لماذا نعمل إن كان المسيح سيأتي في أي وقت؟ وهكذا صاروا عبثاً وعالة على كاهل أفراد آخرين من الكنيسة. فحذّروهم بولس من هذا الموقف السلبي ودعاهم للعمل وأكل خبزهم بعرق جبينهم. فقال: "فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا، أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً، لأننا نسمع أن قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب، لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون. فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم" (٢ تسالونيكى ٣: ١٠-١٢).

وعندما تأخر المسيح في مجيئه بحسب الوقت الذي احتسبه بعض أعضاء الكنيسة الأولى، برز بعض القوم المُستهزؤون الذين شككوا بوعد مجيء المسيح ثانية. لذلك يقول الرسول بطرس: "عالمين هذا أولاً أنه سيأتي في آخر الأيام قوم مُستهزؤون سالكين بحسب شهوات أنفسهم وقائلين، أين هو موعد مجيئه لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باق هكذا من بدء الخليقة" (٢بطرس ٣: ٤). لكن الرسول بطرس أجاب على أولئك القوم المُستهزئين بتقديم سبب يُفسّر تأخر المسيح في مجيئه. السبب الأول، أن هناك فرقاً بين مفهوم الإنسان للوقت ومفهوم الله للوقت. فاليوم المؤلف من أربع وعشرين ساعة هو مفهوم الإنسان للوقت وليس مفهوم الله. والسبب الثاني، أن الرب يتباطأ في تحقيق وعده، لكي يُفسح المجال لمزيد من الوقت لتوبة الناس الذين لم يتوبوا بعد، لأنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون. ويقول بطرس: "ولكن لا يخف عليكم هذا الشيء الواحد أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطوء، لكنه يتأنى علينا، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يُقبّل الجميع إلى التوبة" (٢بطرس ٣: ٨-٩).

إن السؤال الأساسي الذي برز في ذهن، التلاميذ حين أخبرهم أثناء وجوده معهم بمجيئه الثاني، هو: كيف سيكون مجيئه؟ وما هي العلامات التي تسبقه، كيما يحدّوا بالتدقيق الموعد. ويُخبرنا إنجيل متى أنه حينما كان جالساً مع تلاميذه على جبل الزيتون، تقدّم إليه تلاميذه على انفراد قائلين: "متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟" (متى ٢٤: ٣-٤). فأجاب يسوع: "انظروا لا يضلّكم أحد". ثم ذكر بعض العلامات التي ستسبق مجيئه التي يمكن أن تضلّهم: أن كثيرين سيأتون باسمه قائلين "أنا هو المسيح" ويضلّون كثيرين، وسيكون هناك أوقات ضيق وحروب ومجاعات وأوبئة، وأنبياء ومُسحاء كذبة يُعطون آيات عظيمة وعجائب، وسوف تبرد

محبة الكثيرين لكثرة الأثم. كما يذكر أن بعض المُضَلِّلين سيُحاولون خداع المؤمنين بالإشارة إلى وجهة مجيئه، فيقول: "حينئذ، إن قال لكم أحدُ هذا المسيح هنا أو هناك فلا تُصدِّقوا... فإن قالوا لكم ها هو في البرية فلا تخرجوا. ها هو في المخادع فلا تُصدِّقوا" (متى ٢٤: ٢٣، ٢٦). أن الأمر الأساسي الذي شدّد عليه المسيح هنا، هو عدم معرفتنا لوقت مجيئه. فيقول: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلاّ أبي وحده" (متى ٢٤: ٣٦). يُقدِّم المسيح في إنجيل متى عدّة صور وأمثلة تؤكد على عدم معرفتنا لوقت مجيئه. فيقول، "لأنّه كما أنّ البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغرب هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان." (متى ٢٤: ٢٧). فمن يعرف الوقت الذي يخرج البرق من المشارق ويظهر في المغرب؟ أيضاً يقول، "واعلموا هذا أنّه لو عرف رب البيت في أيّ هزيع يأتي السارق، لسهر ولم يدع بيته يُنهَب" (متى ٢٤: ٤٣). فمن يعرف في أيّ هزيع أو في أي وقت مُتأخّر من الليل يأتي السارق ويتركه ليسرق؟

إنّ محاولة معرفة الأوقات والأزمنة هو فضول عند الإنسان. لقد حاول التلاميذ قبل صعود المسيح إلى السماء معرفة الوقت الذي تملك فيه إسرائيل، فسألوه: "يا ربُّ هل في هذا الوقت تُرد الملك إلى إسرائيل؟ فأجابهم: ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه" (أعمال الرسل ١: ٦-٧). فمعرفة الأزمنة والأوقات لم يجعلها الآب في سلطان الإنسان والتلاميذ، لكنّها بقيت حَضْرِيًّا في سلطان الله. لقد حاول الكثيرون عبْر التاريخ وفي سنين حديثة تحديد الوقت الذي سيأتي فيه المسيح ثانية إلى عالمنا، فضلّلوا الناس وباءت محاولاتهم تلك بالفشل الدريع. من أوائل اليذع التي حدّدت موعد مجيء المسيح في القرن الثاني الميلادي، بدعة "المونتانية Montanism". حيث صعد أتباعها إلى الجبل لاستقبال المسيح في وقت قاموا بتحديدده، إلاّ أنّه لم يأت كما توقّعوا، فاندثرت تلك اليذعة. وفي بداية القرن الحادي والعشرين كثر الكلام عن تحديد أوقات لمجيء المسيح الثاني فقَد الكلام معناه.

الاستعداد الروحي الدائم لمجيء المسيح هو الأمر الأساس الذي يُركِّز عليه المسيح بحسب نصوص العهد الجديد. فبعد أن وصف التغيّرات الكونية التي سترافق مجيئه قال: "وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويُبصرون ابن الإنسان آتياً على سحب السماء بقوة ومجد كثير" (متى ٢٤: ٣٠). لهذا قال لتلاميذه ولنا: "اسهروا إذ أنّكم لا تعلمون في أيّة ساعة يأتي ربكم... لذلك كونوا أنتم أيضاً مُستعدين لأنّه في ساعة لا تظنُّون يأتي ابن الإنسان" (متى ٢٤: ٤٢-٤٤). فالذي ميّز الكنيسة الأولى سمة الانتظار بالاستعداد الروحي لمجيئه، والذي يميّز الإنسان المسيحي اليوم هو أيضاً الشيء نفسه، بالاستعداد الروحي الدائم لاستقباله في أيّ وقت يأتي فيه. ومن أجمل الأمثال التي قدّمها البشير متى حول الاستعداد الروحي لانتظار المسيح، مثل العذارى العشر (متى ٢٥: ١-١٣). فالسمة التي ميّزت بين العذارى الجاهلات والحكيّمات، هي أنّ الحكيمات قد حسبن حساب تأخّر العريس في مجيئه، بتزودهنّ لمصابيجهنّ برزيت إضافي،

هو بالصورة المجازية زيت مصباح الإيمان والرّجاء والصّبر، الذي يزودنا به المسيح عندما يملأنا بروحه القدوس، فيُنير حياتنا، بينما انطفأت مصابيح العذارى الجاهلات لنفاذ الرّيت. فالحكيّمت دخلن إلى العرس واستقبلهنّ العريس، بينما أُغلق الباب أمام الجاهلات فحسرنّ لقاء العريس. يقيم الرسول بولس في رسالته إلى أهل أفسس صورة تظهر الجهوزية الكاملة والاستعداد الكلي لجندي روماني كان يراه في السّجن يحمّل سلاحه الكامل، فاستخدم تلك الصورة المعيرة ليطلب من أعضاء كنيسة أفسس في الماضي وأعضاء كنائسنا اليوم أن يكونوا في جهوزية واستعداد روعي كامل بحمل سلاح الله الكامل لمحاربة تجارب إبليس وعيش حياة الإيمان بقداسة، وانتظار مجيء الرّب ثانية في المجد. ويعدّد الرسول بولس القطع التي يتكوّن منها سلاح الله الكامل، فيقول:

"أخيراً يا إخوتي تقوّوا في الرّبّ وفي شدّة قوّته... من أجل ذلك احمّلوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشّرير، وبعد أن تتمّموا كلّ شيء أن تثبتوا. اثبتوا ممتطين أحقّاءكم بالحقّ، ولأبسينّ درع البرّ، وحادّين أرجلكم باستعداد إنجيل السّلام. حاملين فوق الكلّ ترس الإيمان، الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشّرير الملتهبة. وخذوا خوذة الخلاص، وسيف الرّوح الذي هو كلمة الله. مُصلّين بكلّ صلاة وطلبّة كلّ وقت في الرّوح، وساهرين لهذا بعينه بكلّ مواظبة وطلبّة، لأجل جميع القديسين" (أفسس ٦: ١٣-١٨). فسلاح الله الكامل الذي يجب أن نلبسه لنكون على استعداد روعي ساهرين بانتظار مجيء الرّب يسوع ثانية في المجد كما وعدنا، هو سلاح الحق، والبر، والسلام، والإيمان، والخلاص، وكلمة الله.

(٤) كيف سزّد البشير متى قصّة الميلاد؟

يبدأ البشير متى إنجيله بقوله: "كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم". فهذه الآية هي عنوان هذا الإنجيل، لكي يسرد لنا قصة ميلاد الرب يسوع المسيح الذي نحتفل بمجيئه إلى عالمنا. فالبشير متى اليهودي

الجنسية يعرف جيداً تاريخ تعامل الله مع شعبه عَبْرَ الأجيال المُتلاحقة، لهذا فهو يَضَعُ قصة ميلاد المسيح بمغزاها الروحي واللاهوتي والتاريخي كجزء أساسي من استمرار تعامل الله مع شعبه منذ القديم، ولكن الآن بطريقة جديدة لم تُعَرَفَ مِن قَبْل.

إنَّ الكلمة العربية "ميلاد" التي استخدمها المُترجمون، لا تُفي بالمعنى المطلوب الذي يود متى أن يُخبرنا إيَّاه عن المسيح. فمتى لا يريد أن يتحدث فقط عن موضوع ولادة يسوع المسيح ونشأته وبدايته في عالمنا، بل يود أن يَعلِنَ لنا أن ميلاد يسوع المسيح هو الحدّث الأساس في تاريخ تعامل الله مع شعبه منذ القديم وحتى اليوم. فالكلمة المُستخدمة في اللغة اليونانية الأصلية هي كلمة "تكوين". فالبشير متى بحسب الأصل اليوناني للكلمة يبدأ إنجيله كما يلي: "كتاب تكوين يسوع المسيح"، وكلمة "تكوين" هي أوسع وأشمل من كلمة "ميلاد". فهي، بالإضافة إلى أنَّها تحمل معنى أساسي هو الميلاد، إلّا أنَّها تحمل أيضاً في كنهها معنيَّين أساسيين آخريَّين، يود البشير متى أن يُطلعنا عليهما. المعنى الأول لكلمة "تكوين" هو قصة بدأت في القديم وتستمر حتى اليوم. والمعنى الثاني هو "الوجود" أو الحضور الذي ابتداءً منذ القديم ويستمر حتى اليوم. وبالتالي يود البشير متى من خلال هذا العنوان أن يقول لنا إنَّ ميلاد المسيح في عالمنا إنما هو الجزء الأساسي من قصة تعامل الله وحضوره المستمر مع شعبه منذ القديم وحتى يومنا هذا. حيث يبدأ إنجيله بقوله إنَّ يسوع المسيح هو "عمانوئيل". "هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" (متى ١: ٢٣)، ويُنهي إنجيله بقوله لتلاميذه ولكل مؤمنيه "وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (٢٨: ٢٠).

فلكي يوضِّح لنا متى هذه الحقيقة الروحية، فهو يُعرِّف عن هوية المسيح بلقبين، الأول: "ابن داود"، والثاني: "ابن إبراهيم". فقصة تعامل الله مع شعبه كما رآها متى، لم تبدأ بالتجسد ولم تبدأ في الميلاد، بل بدأت مع إبراهيم وداود.

وبالرغم من أن النبي داود يأتي تاريخياً بعد إبراهيم وليس قبله، إلّا أنَّ البشير متى أراد بتقديم المسيح بلقب "ابن داود" أولاً أن يلفت انتباهنا إلى أن المسيح هو من نسل ملكي، من نسل داود الذي كان ملكاً على إسرائيل حوالي سنة ألف قبل الميلاد، فقد اختار الله الملك داود لكي يؤسس مملكة تعبده وتحقق ملكوته في العالم. وبالرغم من أن داود الملك ابتداءً بداية جيدة إذ وُحِدَ مملكتي إسرائيل ويهوذا اللتين كانتا مُنقسمتين، إلّا أنَّ هذا الأمر لم يستمر طويلاً، فانقسمت المملكة ثانية، وابتدأت إسرائيل بالانحدار والتشرذم، ممَّا أدى إلى دمار إسرائيل وخراب الهيكل وسبي الشعب إلى أرض غريبة. وهكذا لم يحقق الله ملكوته من خلال الملك داود القديم، فصار الشعب مُحْبَطَ الآمال يتطلع إلى ملك جديد، بل إلى المسيا الذي سيرسله الله لكي يحقق ملكوته. وقد تنبأ إشعياء بأنَّ

الملك الجديد الذي سيُحقق ملكوت الله سيكون من نسل داود: (إشعياء ١١: ١-٢) "ويخرج قضيبٌ من جذع يَسَى، وينبت غصن من أصوله، ويحلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب"، ويسَى هو أبو داود. أما في الأصحاح التاسع من إشعياء، والذي يتضمّن نبوءة عن ميلاد المسيح، فيذكر أن الولد الذي سنُعطي، أي يسوع المسيح، سيجلس على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضدها بالحقّ والبِرّ "لأنّه يولد لنا ولد، ونعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبّتها ويعضدها بالحقّ والبِرّ من الآن إلى الأبد" (إشعياء ٩: ٦-٧). وبالتالي، فعندما يعرّف البشير متى عن هوية يسوع المسيح أنّه ابن داود، فهو يريد أن يقول لنا إنّ ما فشل في تحقيقه الملك داود بإعلان ملكوت الله في القديم، سيُحقّقه ابن داود الجديد، الملك يسوع المسيح، الذي سيحقّق ملكوته، ليس بمفهوم العهد القديم، أي مملكة أرضية زمنية، بلّ بمفهوم العهد الجديد، حيث سيملك الملك يسوع المسيح على عروش وقلوب كل من يؤمنون به .

أما اللقب الآخر الذي يعرّف البشير متى المسيح به، والذي هو جزء من هويته، فهو "ابن إبراهيم". فما الذي يشير هذا اللقب؟ وعلى أي أساس اختاره متى؟ للإجابة عن هذين السؤالين، كان من الضروري أن نفهم دور إبراهيم في قصة تعامل الله مع شعبه. فيخبرنا سفر التكوين أن الله عندما دعا إبراهيم ليسير معه، قال له: "إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... أنا الله القدير، سز أمامي وكُن كاملاً" (تكوين ١٢: ١، ١٧: ١). ثم وعده الله أن تتبارك فيه جميع قبائل الأرض، ليس فيه شخصياً بل في نسله. والأمر المهم الذي يسترعي انتباهنا هو أنّه عندما نطق الله بهذا الوعد لإبراهيم، فإبراهيم كان لا يزال أممياً غير يهودي، لأنّه لم يكن قد نشأ الشعب اليهودي بعد. وبالتالي، فإن بركة الله لإبراهيم من خلال هذا الوعد لم تُعط للشعب اليهودي فقط، بل لكل الإنسانية من خلال نسل إبراهيم. فإبراهيم هو أبو المؤمنين جميعاً.

أمّا الأمر الآخر الذي يسترعي انتباهنا، هو أنّنا إذا ما دققنا في لائحة أجداد المسيح الطويلة التي يذكرها متى في بداية إنجيله (١٧-٢)، والتي تتضمّن ٤٢ جيلاً، نلاحظ أنّ هذه اللائحة، وخلافاً للمُتعارف عليه، تتضمّن ذكراً لخمسة نساء، مع أنّ الأجداد يُذكرون عادة من خلال الرجال فقط، كما أنّنا نلاحظ أنّ هذه اللائحة تتضمّن ذكر ثلاثة نساء غير يهوديات: تamar، راحاب، وراعوث. فراعوث مثلاً امرأة موآبية، ومع أنّه بحسب شريعة التثنية (٣: ٢٣) التي حرّمت أن يدخل موآبي في جماعة الرب، فإنّنا نرى راعوث الموآبية ضمن لائحة أجداد المسيح. وبكلمة أخرى، فإنّ البشير متى من خلال ذكره لإبراهيم، ووعد الله له بالبركة وهو لا زال أممياً، وذكّر النساء الأمميات، فهو يريد أن يقول لنا أمرين أساسيين: الأول، أنّ خطة الله للخلاص كانت من البدء لكل الإنسانية رجالاً ونساءً، يهوداً وأمم، وليس فقط لليهود. والأمر الثاني، هو أنّ الوريث الحقيقي لمواعيد الله لإبراهيم

بأن تتبارك فيه جميع قبائل الأرض (جميع الشعب) هو هذا الطفل المخلص
الرب يسوع المسيح. وهذا ما أعلنه ملاك الرب للرعاة عند ولادة المسيح،
إذ قال لهم: "لا تخافوا، **فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب**
إنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب" (لوقا ٢: ١٠ -
١١).

خلاصة الأمر، إن اختيار البشير متى لقبّي "ابن داود وابن إبراهيم"،
هو لكي يُعلن لنا أنه يسوع المسيح، طفل المذود، الذي أتى إلى عالمنا
وعاش بيننا ومات وقام لأجلنا، تحققت الآمال الداودية بحلول ملكوت الله،
والوعد الإبراهيمية بحصول كل من يقبل يسوع المسيح رباً ومخلصاً لحياته
على بركة خلاصه الله، بغض النظر عن انتمائه القلبي، له المجد إلى الأبد.
آمين.

(٥) كيف سَرَدَ البشير يوحنا قصّة الميلاد؟

ينفرد البشير يوحنا عن البشيرين لوقا ومتى بطريقة سرده قصة
ميلاد الرب يسوع المسيح. فطريقة يوحنا غير تقليدية، إذ لا تتضمن قصته
أي ذكر لا للرعاة ولا للمجوس ولا للملائكة ولا للمذود ولا لنجمة المشرق.
بل هي قصة الله الذي هكذا أحب العالم إلى درجة كبيرة جداً، حتى إنه قرّر
أن يُغير مكان سُكناه لأجلنا نحن، فترك السماء وأتى إلى الأرض ليسكن
معنا وبيننا وفي وسطنا، في ابنه يسوع المسيح.

يبدأ البشير يوحنا إنجيله فيقول: **"في البدء كان الكلمة والكلمة**
كان عند الله وكان الكلمة الله". فالكلمة الأزلي يسوع المسيح الذي كان يسكن
عند الله في البدء، وهو نفسه الله، **"قد صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده**
مجدداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً". فالله الأزلي الأبدي الذي
يسكن السماء قرّر في الميلاد أن يدخل التاريخ ويأتي إلى عالمنا ليسكن

معنا ويحلّ بيننا. وبالتالي فالبشير يوحنا يختصر كل قصة الميلاد ليقول لنا، إنَّ الله غيَّر عنوان سكنه، من السماء إلى الأرض. والعنوان الجديد لسكنه الجديد ليس فلسطين ولا بيت لحم بالمعنى الجغرافي، وكان الله لا يوجد إلا هناك، لكن الله انتقل من السماء، وحلَّ في عالمنا في يسوع المسيح لكي يخلِّص بميلاده وموته وقيامته كل مَنْ يؤمن به. وتغيير السُّكن رافقه ترتيبات الحصول على شهادة نُقل سكن مُوقَّعة، ليس من قِبَل مُختار بيت لحم، لكن وقَّعها الشهود الأوَّلون والرسَل الذين عاينوا الرُّب يسوع، ودَوَّنوا شهادة نُقل سكن الله في الكتاب المقدس. وأحد هؤلاء الموقَّعين هو الرسول يوحنا الذي يذكر في العدد الأوَّل من رسالته الأولى ما يلي: **"الذي كان من البدء، الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة"**. وهكذا، كما بدأ البشير يوحنا إنجيله ليقول لنا "في البدء كان الكلمة" فإنه في رسالته الأولى يقول بأنَّ ذاك الذي كان من البدء، ذاك الأزلي الأبدي الذي سكن السماء قد أتى إلى الأرض، قد سمعه ينادي ببشارة الحياة، وقد رآه وعاينه الرسول يوحنا وجماعة الإيمان، ورأوه بأَمِّ عيونهم ولمسوه بأيديهم.

وفي (١: ١٤) يقول يوحنا: **"الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا"**، مُختصراً قصة الميلاد، لأنَّها تخبرنا عن تجسد الله وحلوله بيننا. لكن ما معنى كلمة "حلَّ" بيننا؟ إنَّ الترجمة الحرفية لكلمة "حلَّ" بالأصل اليوناني للاسم "شكينا" Shakina هو مشابه لكلمة "سكن" العربية أي "خيم، أقام خيمة بيننا". والفعل اليوناني "حلَّ" غني جداً بمعانيه وارتباطاته لا سيما بالعهد القديم. فهذا الفعل يُذكرنا بوعد الله الذي قطعه لشعبه آنذاك بأنَّ يحلَّ بينهم ويسكن معهم إلى الأبد. هذا الوعد الذي لم يتحقَّق في العهد القديم، قد تحقَّق في العهد الجديد في يسوع المسيح الذي أعلن لتلاميذه قائلاً: **"ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر"** (متى ٢٨: ٢٠). فالنبي حزقيال ذكر هذا الوعد لشعبه في الأصحاح (٣٧: ٢٧ و٢٨): **"ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً، فتعلم الأمم أنني أنا الرب مقدس إسرائيل إذ يكون مقدسي في وسطهم إلى الأبد"**. هذا الوعد بسكن الله في وسطنا إلى الأبد، لم يتحقَّق بشكل كامل إلا في ميلاد ربنا ومُخلصنا يسوع المسيح. أيضاً أن الفعل "حلَّ" والذي يعني أيضاً "خيم"، يذكِّرنا بخيمة الاجتماع التي لعبت دوراً أساسياً في حياة شعب الله في البرية أثناء تجوالهم. فقد طلب الله من موسى نُصِب خيمة الاجتماع وسط الخيام الأخرى ليجتمع معهم في البرية. كما طلب منهم نُقلها معهم عند ارتحالهم. فقد كان الهدف من تلك الخيمة أن يسكن الله وسط شعبه في البرية، وسط التجارب والصعوبات التي كانوا يواجهونها فصارت الخيمة إشارة مرئية إلى حضور الله في الوسط. فكان الله يكلم موسى في الخيمة، ويلتقي معه وجهاً لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه وكان مجد الرب وبهاؤه يملآن الخيمة في كل مرة كان ينزل الله إليها. إلا أنَّ خيمة الاجتماع المُوقَّعة قد بطلت في العهد الجديد، لأنَّ الطريقة الجديدة لسكنه وحضوره وسط شعبه لم تُعد من خلال خيمة مُوقَّعة تُفنى وتبلى بل من خلال شخص الرب يسوع المسيح الذي هو الخيمة الجديدة لحضور الله معنا وفي وسطنا وبيننا. وهذا الحضور الجديد لله يَنسَجَم مع

النبوءة التي أشار إليها متى البشير حول المعنى الآخر لاسم المسيح "عمانوئيل" الذي تفسيره الله معنا. (متى ١: ٢٢).

إن حدث تجسد الله في يسوع المسيح، هو الحدث الأعظم الذي غير مجرى تاريخ الإنسانية، فمُنح الفرصة لإعادة ترتيب علاقة الله مع الإنسان وعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان. فالله حلّ بيننا بيسوع المسيح، يعني أن هناك فرصة ذهبية جديدة لتصحیح علاقتنا مع الله ومع الآخرين. فرصة لم تكن متوفرة لنا في الماضي، لكنها صارت مُمكنة لنا الآن. فالله في ميلاد يسوع صار أقرب مِنَّا، وأقرب إلينا، وسكنه في وسطنا، يعني سكنه وسط كل مُتغيّرات حياتنا وظروفنا، فهو معنا ليرافقنا ويكلمنا وسط ضعفاتنا وآلامنا وأفراحنا، فالله صار قريباً من كل تفاصيل حياتنا حتى يسدّ احتياجاتنا في كل مرحلة نمرُّ بها مهما كانت، هو معنا ليخلصنا من خطايانا، ويقوينا ويشجّعنا ويعزينا وباركنا.

فعندما سرد البشير يوحنا قصة الميلاد على أنها قصة الله الذي قرّر أن يسكن معنا، أظهر مع القصة موقفين مختلفين يُعيّران عن طريقة تجاوب الإنسان مع هذا الحدث: موقف سلبي وموقف إيجابي. الموقف السلبي، هو موقف الذين رفضوا الاستفادة من حدث التجسّد وحلول الكلمة بينهم، بالرغم من فرص الحياة والنور التي قدمها لهم، **"فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس.. كان النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسان آتياً إلى العالم"** (يوحنا ١: ٩ و٤). وهو الموقف اليهودي الرسمي الذي رفض الاعتراف بأن يسوع المسيح هو المسيا المنتظر **"إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله"** (يوحنا ١: ١١). فبالرغم من أن المسيح كان الحياة والنور، فإن اليهود خاصته اتخذوا موقفاً سلبياً ورفضوه، وبرزفهم إيّاه خسروا الفرصة الذهبية ليكونوا في النور، ويختبروا عمق معنى الحياة. أما الموقف الإيجابي فهو موقف البشير يوحنا وجماعة المؤمنين. فهو لا يسرد قصة سكن الله بيننا بشكل مُحايد وكأنّ الحدث لا يعنيه، لكنّه يقيّم هذا الحدث العظيم بما يعنيه شخصياً له ولجماعته. فقصة سكن الله بين الناس بيسوع المسيح، هي أيضاً قصة البشير يوحنا الشخصية، هي القصة التي غيرت حياته وحياة جماعة الإيمان التي ينتمي إليها، فأعلن: **"ورأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً"** (يوحنا ١: ١٤). وهذا القول ليس فقط تصريحاً لاهوتياً عن التجسّد، لكنّه اعتراف إيمان، اعتراف إيمانه وإيمان جماعته. لقد رأى يوحنا مجد الله في وجه يسوع المسيح، كما رأى النبي موسى مجد الله في خيمة الاجتماع حيث كان يلتقي به. وكلمة "مجد" مهمّة جداً، فهي تعني "قيمة وعظمة حضور". يقدم كاتب الرسالة إلى العبرانيين المسيح على أنّه **"بهاء مجد الله، ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته"** (عبرانيين ١: ٣). وبالتالي "فمجد الله" أو قيمة وعظمة حضور الله ظهر في يسوع المسيح منذ ولادته وحتى صعوده إلى السماء.

وخلال عرض يوحنا موقفه الإيجابي من قصة الميلاد، دعا قرّاء إنجيله إلى اختبار رؤية مجد الله بقبول يسوع المسيح رباً ومخلصاً على الحياة

"وأما كلُّ الذين قَبِلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه، الذين وُلِدوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنْ اللَّهِ" (يو ١ : ١٢) .

فكم نحن بحاجة لسماع رسالة الميلاد كما سردها البشير يوحنا، بأنَّ الله غيَّر عنوان سكنه، من السماء إلى الأرض، ليسكن معنا بيسوع المسيح ويخْلِصنا من خطايانا وآثامنا، ويرافقنا وسط آلامنا. لَيْتَ الرب يسوع المسيح يمنحنا روحه القدوس، فلا نأخذ الموقف السلبي منه ونرفضه، بَلْ نأخذ الموقف الإيجابي وننضمَّ إلى البشير يوحنا وجماعة المؤمنين، ونردِّد معهم قائلين: ونحن أيضاً رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملؤاً نعمة وحقاً" . آمين.

(٦) "وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم"

(جامعة ٣ : ١١)

عند نهاية سنة وبداية سنة جديدة، يقوى إحساسنا بمرور الزَّمن وتقدُّمنا في السنين، فنطرح على أنفسنا أسئلة وجودية عميقة تتمحور حول معنى الحياة. ما معنى الحياة؟ سؤال طرحه الفلاسفة عبْر آلاف السنين، لكنهم لم يصلوا إلى تعريف لقي إجماعاً. هذا السؤال لا يزال يُطرح حتى اليوم من دون الوصول إلى إجابة واضحة ومُرضية عند الكثير من الناس.

في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا، وحين عرَّضه لتجسُّد المسيح ، يُجيب عن هذا السؤال الوجودي حول معنى الحياة، فيقول: **"فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس"** (يوحنا ١ : ٤). أي أنَّ معنى الحياة يكمن في يسوع المسيح المُتجسد. وبالتالي، فمن يختبر الإيمان بيسوع المسيح، يختبر معنى الحياة، لأنَّ المسيح هو الذي يكشف له هذا المعنى. ونرى التوجُّه نفسه الذي أظهره يوحنا في عرضه لمعنى الحياة، قد نطَّق به الرسول بولس، الذي بعد اختباره للإيمان بيسوع المسيح، قال: **"لأنَّ لي الحياة هي المسيح"**

(فيلبي ١: ١٢). وفي صلاته الأخيرة إلى الآب صلى المسيح قائلاً "وهذه هي الحياة الأبدية أنْ يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا ١٧: ٣). وكلمة "يعرف" في هذه العبارة لا يقصد بها بالأصل العبري واليوناني للكلمة، معرفة سطحية، ولكنها تعني معرفة اختبارية عميقة، معرفة روحية فيها يدخل الإنسان المؤمن في علاقة روحية حميمة وقريبة مع الذي يعرفه، كما يدخل الزوج مع الزوجة في علاقة قريبة وحميمة. وبالتالي، يقول يسوع إنَّ مَنْ يعرف أنَّ الله هو الإله الحقيقي وأنه هو الذي أرسل يسوع المسيح لفداء العالم، فإنَّه لَنْ يعرف فقط معنى هذه الحياة الأرضية الحاضرة والمحدودة، لكنَّه سيختبر من هنا، وعلى هذه الأرض، البُعد الآخر لمعنى الحياة، ألا وهو البُعد الأبدي، أو كما يسميه المسيح "الحياة الأبدية".

يقول كاتب سفر الجامعة، "صنَّع الله الكلَّ حسناً في وقته. وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم التي بلاها لا يُدرك الإنسان العمل الذي يعملهُ الله من البداية إلى النهاية" (جامعة ٣: ١١). هذا النصُّ هو من النصوص المُميّزة غير المعروفة التي نادراً ما نتوقَّف عندها ونفكر فيها. يقول الكاتب، "الله جعل الأبدية في قلب المؤمن"، والأبدية هي سِمَة من سمات الله (الأبدي)، كونه في طبيعته يتجاوز الزَّمن، بلْ يعلو فوقه. هذه السِمَة قد أطلقها أيضاً النبي إشعيا على المسيح في نبوءته عن ميلاده في عالمنا. حيث قال "لأنَّه يولد لنا ولد ونُعطي ابناً وتكون الرِّياسَة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً (أباً أبدياً) رئيس السلام". (إشعيا ٩: ٦).

لكننا نعود ونسأل: ما هي هذه الأبدية التي جعلها الله في قلب الإنسان المؤمن؟ فسَّر أحدهم الأبدية بأنَّها صورة الله في الإنسان، لأنَّ الله خَلَق الإنسان على صورته ومثاله، إلّا أنَّ التفسير الذي (بحسب اعتقادي) ينسجم مع صلاة المسيح للآب في (يوحنا ١٧: ٣)، وهو التفسير الذي يعتمدهُ بعض مُفسري الكتاب المقدس، وهو أنَّ معنى الأبدية، إنَّما هو هذا الإحساس القوي بالزمن الحاضر المُعلَّن الآن لنا وزمن المستقبل المُخبَّأ عنَّا. فبالرغم من أنَّ الله لم يمنح الإنسان سلطان معرفة الزَّمن "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه" (أعمال ١: ٧)، إلّا أنَّه منَّحَهُ هذا الإحساس القوي بالزَّمن. وبالتالي، "فالأبدية في قلوبنا" على ضوء هذه الأفكار تعني هذا الشُّعور الداخلي، هذا الشُّوق والثُّوق الذي يضعه الله في قلوبنا بالإيمان، حتى لا نكتفي فقط بالسِّنين القليلة التي نعيشها في هذه الحياة. فهناك شيء بداخلنا يطالب بالمزيد من الزَّمن، بالمزيد من السنين، ويجعلنا نتطلَّع إلى ما وراء هذه السنين، إلى وجود نَوْعِي يتخطَّى الزمن، إلى وجود أبدي مع الإله الأبدي في الحياة الأبدية.

في احتفالنا بميلاد المسيح، فإنَّنا نحتفل بدخول الابن الأبدي في الزَّمن، حتى بموته وقيامته يَضَع في قلب المؤمن هذا الإحساس بالأبدية، وهو لا يزال على الأرض، كما ذكر المسيح في صلاته للآب: "وهذه هي الحياة الأبدية أنْ يعرفوك أنت الإله الحقيقي ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا ١٧: ٣).

٣). هذا يعني أن المسيح يريدنا بالإيمان به أن نتذوق مُسبقاً ومن الآن على هذه الأرض طعم الأبدية. فمع أننا لا نستطيع أن نستوعب الأبدية بفكرنا ومحدوديتنا **"لأننا الآن ننظر في مرآة في لُغز"** كما قال بولس (١ كورنثوس ١٣: ١٢)، إلا أننا نستطيع أن نتلمس ومضات منها من خلال إيماننا بيسوع المسيح الأبدي الذي دخل زمننا وعالمنا في الوقت المناسب، كما قال بولس للغلاطيين: **"ولكن لما جاء (مِلءُ الزَّمان) أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس فننال التبني"** (غلاطية ٤: ٤ و٥). فمعرفة المسيح بالدخول بعلاقة روحية معه واختبار الخلاص الذي جاء به لنا في الميلاد، يقوي فينا الشعور بالأبدية. والأبدية فينا كما قال كاتب سفر الجامعة، **"وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم التي بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية"** (جامعة ٣: ١١)، تجعلنا ندرك عمل الله في الحياة والتاريخ والزمن.

فإذا تَتَبَّعنا الاختبار الروحي للرسول بولس، سوف نلاحظ أنه قد امتلك الأبدية في قلبه، لأنَّ الإله الأبدي أعلنها له بإيمانه بيسوع المسيح، فقد قدَّم في رسالته إلى كنيسة كورنثوس تشبيهاً قارن فيه بين سنيه القليلة التي يقضيها على الأرض، وهذا الشوق إلى ما وراء سني الأرض ليَقْضِي عمره مع الأبدي في السماء. فقد قارن سنيه على الأرض بالسكن في خيمة مؤقتة، بينما سنيه التي سيقضيها مع الأبدي بالسكن في بيت أبدي صنعه الله له. قال لأعضاء كنيسة كورنثوس **"لأننا نعلم أنه إن نُقِضَ بَيْتُ خيمتنا الأرضي، فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيدي، أبدي"**. (٢ كورنثوس ٥: ١).

يقول الرسول بولس **"فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء. مُفتدين الوقت لأنَّ الأيام شريرة. من أجل ذلك لا تكونوا أغبياء بل فاهمين ما هي مشيئة الرَّبِّ"**. (أفسس ٥: ١٥-١٧). وبالتالي، كما طلب أن ينتبهوا إلى طريقة صرْفهم لوقْتهم، فهو يَطلب منَّا اليوم ككنائس وكأفراد أن ننتبه إلى كيفية التَّصرُّف بوقتنا حتى نَصْرِفه بحكمة وتدقيق. فهو يدعونا لأنَّ **"نفتدي الوقت لأنَّ الأيام شريرة"**. وكلمة **"نفتدي"** تعني أن نَسْتَخْلِص من الأيام الشريرة أطول وقت مُمكن، لكي نَصْرِفه بما يتناسب ومشية الله. وهنا أود أن أُمَيِّز بين نوعين ومَعْنَيَيْن للوقت، مَيَّزَت بينهما اللغة اليونانية: الأول (Chronos) "كرونوس"، وهو الوقت العادي الروتيني الذي نصرفه. والثاني (Kairos) "كيروس"، وهو الوقت المهم جداً، وقت الفرص الذهبية. وتستخدم كلمة "كيروس" للإشارة إلى الوقت المناسب، وقت الحصاد ونضوج الثمار. فعندما قال بولس **"مفتدين الوقت"** استخدم الكلمة اليونانية "كيروس". وهذا يعني أن بولس يدعونا إلى التَّصرُّف في وقتنا وسنيننا القادمة على إنها فرصة ذهبية مهمة مَنَحَنا الله إياها لكي نستخدمها لمجده وخدمة ملكوته في عالمنا.

يُخْبِرنا الرسول بولس عن نوعية حياته الجديدة التي ابتدأت بعد إعادة ترتيب أولوياته وقيمه نتيجةً لإيمانه بالمسيح. فقبَّل الإيمان، كان يفتخر بأمور كثيرة ويغترها امتيازات عظيمة، ألا وهي كونه ينتمي إلى

طبقة اجتماعية وروحية مُميّزة. فقد افتخر بأنه من جنس إسرائيل، من سبط بنيامين، ومن جماعة الفريسيين، لكنه يقول إنَّ ما كان في نظره قبْل الإيمان (قبل حلول الأبدية في قلبه) كبيراً وعظيماً وغاية في الأهمية، قد أضحي بعد الإيمان صغيراً، لا أهمية له. فكل امتيازاته وقيمه الاجتماعية والشخصية السابقة فقّدت قيمتها وصارت "نفاية" في نظره بَعْد ربحه للمسيح بالإيمان. فقال: "لكن ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل إنني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح (فيلبي ٣: ٧ - ٨). إن هذا التّغيير في أولويات بولس، الذي جرى بعد اختباره الأبدية في قلبه، قاده إلى تغيير جذري في تصرّفاته ومواقفه، فتحوّل من مُضطّهد لكنيسة المسيح إلى رسول للمسيح إلى الأمم. فالأبدية فينا يجب أن تُغيّر أولوياتنا وقيمتنا، الأبدية فينا يجب أن توجّه طريقة سلوكنا وتصرفاتنا في كل سني حياتنا، حتى تتناسب مع طبيعة الحياة الأبدية التي أعلنها المسيح لأولاده المؤمنين.

وعندما نبدأ سنة جديدة، ونُفكّر في مشاريعنا وطموحاتنا وآمالنا، يجب أن ندرك أن نوعية علاقتنا مع المسيح هي التي ستحدّد موقفنا من الأبدية. إن نوعية علاقتنا مع المسيح هي التي، إمّا تزيل هذا الإحساس بالأبدية أو تُقويه. علّق أحد المفسرين على عبارة "الأبدية في قلبهم"، فقال: إنّها الانقلاب الإلهي، بل الثورة الإلهية في حياة الإنسان المؤمن، لأنّها تستطيع أن توجّه وتعيد تشكيل حياته. فالأبدية في قلوبنا هي بمثابة البوصلة التي تُوجّه حياتنا كلّها. فالأبدية في قلوبنا تساعدنا في إعادة ترتيب أولويات حياتنا من خلال: طريقة صرّفنا للوقت في السنين القادمة، وطريقة عيشنا حياة مسيحية تنسجم قيمها مع قيم الأبدية. آمين.

(٧) معمودية المسيح بحسب مفهوم البشير لوقا

إذا قرأنا قصة معمودية المسيح في الأناجيل الأربعة، سوف نلاحظ أن كل إنجيل يسرد قصة المعمودية بطريقة مُختلفة، فيذكر جوانب مُعيّنة، ويُهمل أخرى. فالبشير متى هدّف في تسجيله لحدث المعمودية بأن يُظهر الرب يسوع المسيح كخادم يُطيع الله في كلّ الأمور. فبالرغم من اعتراض يوحنا المعمدان على قدوم المسيح إليه ليعتمد منه، إلّا أنّ المسيح الخادم المُطيع أجاب المعمدان بقوله، "لأنّه هكذا يليق بنا أن نُكفّل كلّ بيّر"، وهكذا اعتمد. والبشير مرقس، هدّف في تسجيله لحدث المعمودية، إلى الإشارة إلى هوية يسوع المسيح كونه ابن الله، وهو لا يجد أي حرج في اعتماد يسوع على يد يوحنا المعمدان دون أن يقدّم أي تفسير لذلك. والبشير يوحنا، بالرغم من أنّه لا يُسجل حدث المعمودية عند حدوثه، إلّا أنّه يشير إليه عندما تحدث عن شهادة المعمدان، الذي رأى في يسوع المُعمّد "حمّل الله الذي يرفع خطية العالم". وبالتالي رأى الصليب في المعمودية. أما البشير لوقا (لوقا

٣: ٢١ - ٢٢) فإنَّه رأى في المعمودية يسوع معانٍ عميقة ومُميَّزة، وسوف نتوقَّف عند أربعة منها:

أولاً: يذكر أنَّ الرَّبَّ يسوع المسيح ذهب ليعتمد مِن يوحنا المعمدان في نهاية خدمته كتتويج لها، قَبْلَ أَنْ يُسْجَنَ وتُقَطَّعَ رأسه. بالرغم مِن أنَّه لا يصف هذا الحدث كباقي الأناجيل عندما حدث، لكنَّه يذكر أنَّ خدمة المسيح ابتدأت عندما انتهت خدمة المعمدان. فهناك تَسَلُّلٌ بَيْنَ الخدمَتَيْنِ. فالمعمدان يخدم أولاً ويشهد عن المسيح الآتي قائلاً: **"يأتي مَنْ هو أقوى مِنِّي، الذي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحُلَّ سِوَرِ حِذَائِهِ، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار"** (لوقا ٣: ١٦)، ثم يأتي المسيح ويعتمد منه، ويبدأ خدمته.

ثانياً: إنَّ الأمر المُلاحظ في سجل البشير لوقا للمعمودية، هو أنَّ الروح القدس لَمْ يَنْزَلْ على المسيح أثناء المعموديته (كباقي الأناجيل) وإنما بعد انتهاء الحدث، وبشكل محدَّد عندما كان يسوع يصلي. فيقول: **"وإِذْ كَانَ يَصَلِّي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس"** (لوقا ٣: ٢١). وبالتالي يريد لوقا أن يشير إلى أهمية الصلاة في حياة المسيح وحياتنا، لاسيما، بعد المعمودية. فكما نزل الروح القدس على المسيح عندما كان يُصلي، هكذا ينزل علينا الروح القدس عندما نكون في حالة صلاة وعبادة. هذا التَّوَجُّه لإظهار أهمية الصلاة، خاصة أثناء الأحداث الأساسية في الحياة، يظهر جلياً في إنجيل لوقا. وهذه بعد الأمثلة:

عندما بَشَّرَ الملاك "جبرائيل" "زكريا" الكاهن بِخَبَرِ ولادة ابنه "يوحنا" مِن أحشاء زوجته "أليصابات" المُتقدِّمة في السِّنِّ كان في حالة صلاة وعبادة **"كان يخدم في هيكل الرب ويكهن ويبخّر، وكان كل جمهور الشعب يصلُّون خارجاً وقت البخور"** (لوقا ١: ٨ و ٩). أيضاً قَبْلَ التَّجَلِّيِّ كان يسوع يُصلي على الجبل (لوقا ٩: ٢٩). كما يذكر أعمال الرسل الذي كتبه البشير لوقا إنَّه قبل حلول الروح القدس على التلاميذ في يوم الخمسين (العنصرة) **"كانوا يواظبون بنفْسٍ واحدة على الصلاة والطلب"** (أعمال الرسل ١: ١٤). كل هذه الشواهد تُؤكِّد على أهمية الصلاة في حياة كل إنسان مؤمن اعتمد باسم المسيح.

ثالثاً: يقول البشير لوقا **"وإِذْ كَانَ يسوع يصلي انفتحت السماء"** (لوقا ٣: ٢١). وانفتاح السماء ظاهرة غير اعتيادية فوق طبيعية، تُذَكِّرنا بأحداث هامة ذات مَعْنَى. فيذكر أنَّه في أيام إيليا النبي **"أغلقت السموات مدة ثلاث سنين وستة أشهر، لما كان جوع عظيم في الأرض كلها"** (لوقا ٤: ٢٥)، لكن انفتاح السموات يَمُنَّجُ بركات إلهية. لقد اعتيَّرت الديانة اليهودية المُعاصرة للمسيح أنَّ مثل هذه العناصر فوق الطبيعية تُشير إلى أنَّ الله سيُعلن عن مَنجِّه هبات للعالم. فانفتاح السموات سيَتَّبَعُه كَشْفُ إلهي لهبات إلهية، ظَهَرَتْ أولاً: مِن خلال نزول الروح القدس على المسيح. وثانياً، مِن خلال صوت الله الذي تكلم قائلاً: **"أنت ابني الحبيب بكِ سُررْتُ"** (لوقا ٣: ٢٢). هذا الكَشْفُ الإلهي الجديد أعلن لنا عن هوية هذا المُعَمِّد، وروح الله وضوت الله أَكْداً أنَّ ربنا يسوع المسيح، هو هبة الله الجديدة للعالم.

رابعاً: إنَّ البشير لوقا هو الوحيد بيّن باقي البشيرين الذي يشدّد على هيئة وشكل نزول الروح القدس. فهو لا يكتفي كالبشيرين متى ومرقس، بأنّ يذكر أنّ الروح القدس نزل على المسيح مثل حمامة، لكنّه يشدّد على أنّ نزوله كان **"بهية جسمية"** (لوقا ٣: ٢٢). وكأنّه يريدنا أن نتذكّر أهمية الهيئة الجسمية للحمامة، بلّ أهمية رمز الحمامة في الكتاب المقدس. فيماذا تُذكرنا حمامة الروح القدس التي نزلت على المسيح؟ إنّها برفرة جناحها تذكرنا بأمرين: الأول، بدء الخليقة، فالأعداد الأولى من سفر التكوين تقول: **"في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية على وجه الغمر، وروح الله يرف على وجه المياه"**. فروح الله كان يرف كالحمامة على وجه المياه عند بدء الخليقة لخلق العالم ويعتني به كما يرف الطير فوق فراخه ليعتني بها ويحافظ عليهم. وقد ذكّرت بعض التفسيرات اليهودية أنّ هذا الطير هو الحمامة. فكما أنّ روح الله رف على وجه المياه كالحمامة ليبدأ عملية خلق الكون، هكذا فإنّ رفة حمامة الروح القدس، تشير إلى عملية خلق جديد وخليقة جديدة. الأمر الثاني الذي يُذكرنا به رفرة الحمامة هو قصة طوفان نوح المذكورة في سفر (التكوين ٨: ١ - ١١). حيث يقول إنّه بعد أربعين يوماً من الفيضان أرسل نوح حمامة للمرة الثانية من الفلّك، ليرى إن قلّت وجفت المياه عن وجه الأرض، فتزكت الفلّك، ثم أتت عند المساء، حاملة في فمها ورقة زيتون خضراء، عندها علم نوح أنّ الماء قد قلّت عن وجه الأرض. وبالتالي، كما أنّ حمامة نوح أعلنت عن بدء حقبة جديدة هي حقبة حياة ونعمة ورجاء، بعد انتهاء حقبة الموت والدينونة التي سببها الفيضان، هكذا فإنّ تشديد لوقا على تصوير الحمامة التي نزلت على المسيح بهيئتها الجسمية، هو لإعلان للعالم بأنّ المسيح يسوع بعد افتتح بروحه القدوس الذي حلّ عليه بعد المعمودية حقبة جديدة من الخلاص والنعمة والحياة والرجاء، لكلّ من يؤمن به ويتّخذهُ ربّاً ومخلصاً لحياته. يقول المسيح: **"الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بلّ قد انتقل من الموت إلى الحياة"** (يوحنا ٥: ٢٤). وقد أكد الرسول بولس على هذه الحقيقة حين قال: **"إنّ كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكلّ قد صار جديداً"** (٢ كورنثوس ٥: ١٧).

إنّ كل خطوة قام بها المسيح، ومنها المعموديته، كان لها معنى وصدى في حياتنا، فلا ننسى أنّه من خلال المعمودية أظهر لنا البشير لوقا: أنّ يسوع المسيح هو المُنتظر الذي بدأ خدمته بعد انتهاء خدمة المعمدان.

أنّ انفتاح السماء وسَماع صوت الله هو كَشَف إلهي جديد بأنّ ابنه الحبيب هو هبة الله للعالم.

أنّ الصلاة، لاسيما بعد المعمودية، كانت جزءاً من حياة المسيح، لتكون جزءاً من حياة المعمّدين باسمه.

أنَّ الروح القدس الذي نزل على المسيح على شَكْلِ حمامة أشار إلى أنَّ المسيح بدأ حقبة جديدة من الخلاص والحياة والنَّعمة لكلِّ مَنْ يَتَّخِذُه رباً ومُخْلِصاً. آمين.

(٨) بَيْنَ مَعْمُودِيَّةِ الْمَسِيحِ وَمَعْمُودِيَّتِنَا فِي الْمَسِيحِ

قال اللاهوتي الإنجيلي المُعاصر "كارل بارت" إنَّ سِرَّ المعمودية تأسَّس في الكنيسة لأنَّ يسوع المسيح نفسه قد اعتمد في نَهْرِ الأردن". فالمسيح اعتمد، وأوصى تلاميذه بالمعمودية قائلاً: "دُفِعْ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانِ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، فَادْهَبُوا وتَلْمِذُوا جميع الأمم وعَمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعَلِّمُوهم أَنْ يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كلَّ الأيام إلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ١٨). وهكذا إطاعةً لأمر المسيح الذي اعتمد، نحن نعتمد.

هناك علاقة وثيقة بَيْنَ معمودية المسيح ومعموديتنا في المسيح. وحتى نفهم هذه العلاقة لا بُدَّ أَنْ نُفَكِّرَ أولاً في بعض معاني معمودية المسيح، لنرى ما تحمله من معانٍ لمعموديتنا.

فإذا تأملنا في السِّياق الذي تكلم فيه إنجيل لوقا لتوضيح سبب معمودية يوحنا المعمدان للمسيح، نرى أنَّه كان يعمِّد الناس بمعمودية التَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ الخطايا، وهو يقول لهم: "توبوا، لأنَّه قد اقترب ملكوت الله... أنا أعمِّدكم بماء، ولكن يأتي مَنْ هو أقوى مِنِّي، الذي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحِلَّ سَيُورَ حِذَائِهِ، هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار" (لوقا ٣: ١٦). ويخبرنا البشير متى أنَّ كرازة يوحنا المعمدان ومعموديته لاقت إقبالاً كبيراً من الناس، إذ يقول: "حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه في الأردن مُعترفين بخطاياهم" (متى ٣: ٥). هذا الإقبال الكبير من قِبَلِ اليهود على معمودية يوحنا المعمدان، لم يكن اعتيادياً بل كان مُفاجئاً. لأنَّ اليهودي لم يكن يَقْبَلُ أَنْ يعتمد أبداً. فالمعمودية التي كانت مُمارسة مُتَّبَعَةً في الدِّين اليهودي، كانت تُفْرَضُ فَقَطْ على المُهْتَدِينَ إلى الإيمان اليهودي من الأديان الأخرى، الذين يرغبون في اعتناق اليهودية ليصيروا من شعب الله المُخْتَار. فمعمودية المُهْتَدِينَ هذه، كانت ترمز إلى تطهير قَلْبٍ وحياة الناس الخطاة من غير اليهود، لكنَّها لم تكن تُطَبَّقُ على اليهود، لأنَّهم اعتبروا أنفسهم من شعب الله المُخْتَار وأنَّهم أولاد إبراهيم غَيْرِ المُحْتَاجِينَ للمعمودية. إلاَّ أنَّ الأمر غَيْرِ الاعتيادي الذي حَدَثَ في معمودية يوحنا للتَّوْبَةِ، هو أنَّ أولئك اليهود الذين لم يقبلوا في السابق أَنْ تُطَبَّقَ المعمودية عليهم، قد أقبلوا الآن بأعداد كبيرة لِيَعْتَمِدُوا مِن يوحنا المعمدان مُعترفين بحاجتهم إلى التَّوْبَةِ والرجوع إلى الله لينالوا غفرانه. وهذا معنى أساس يتضمَّنُه مفهوم معمودية يوحنا المعمدان للتَّوْبَةِ.

لكننا نسأل إن كان الناس أوليك المعتمدين من المعمدان قد أدركوا حاجتهم للتوبة ولمغفرة الخطايا فأقبلوا للمعمودية. فلماذا أقبل المسيح الرب إلى المعمودية كما أقبل الناس آنذاك؟ فيقول لوقا: **"ولما اعتمد الشعب اعتمد يسوع أيضاً"** (لوقا ٣: ٢١). فهل للسبب نفسه؟ حاشا وكلاً. فهل يُعقل أن الذي يستقبل التائبين ويغفر خطاياهم يحتاج للتوبة؟ طبعاً لا، فيسوع الرب، الله الذي تجسد وحل بيننا، لم يكن بحاجة للتوبة ولمغفرة الخطايا. إذاً فلماذا صمم ذلك الذي كان بلا خطية ولم يوجد في فمه غش، أن يعتمد من يوحنا المعمدان كما كان الناس يعتمدون؟ لقد أقبل المسيح للمعمودية ليقدم نموذجاً عن حاجة الإنسان إلى الله، وللثامن مع الناس في هذه اليقظة الروحية الجديدة، لكي يؤكد على حاجتهم وحاجة كل إنسان لاختبار حضور الله في حياته من خلال توبته واعترافه بخطاياها. في هذا السياق يمكن أن نفهم جواب المسيح ليوحنا المعمدان عندما حاول منعه من المعمودية من قبله، فأجابه: **"اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بيز، حينئذ سمح له"** (متى ٣: ١٤ و ١٥). فالمسيح الرب لم يكن يفكر في نفسه بمغزل عن الناس، بل كان كل همّه التفكير في جميع الناس، وتلبية حاجاتهم، ولاسيما الروحية منها. لهذا اعتمد معهم واعتمد لأجلهم، ليقدم في معمديته درساً لاهوتياً عميقاً تعبير عنه معنى معمديتنا، ألا وهو حاجتنا القسوى إلى حضور الله في حياتنا. ويصف البشير متى معمودية المسيح ويقول: **"فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السموات قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"** (متى ٣: ١٦ و ١٧).

وقد علق اللاهوتي الإنجيلي "بولتمن" على حدث معمودية المسيح قائلاً: (إن حدث المعمودية يوجه أنظارنا، لا إلى ما عنت المعمودية للمسيح، ولكن إلى ما تعنيه لنا). ففي حوارته مع نيقوديموس حول الدخول إلى ملكوت الله، قال المسيح له: **"الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله"** (يوحنا ٣: ٥). وقد فهمت الكنيسة أن هذا القول إشارة إلى المعمودية المسيحية بالماء والروح القدس، التي من خلالها ندخل الكنيسة كجماعة الإيمان لنصبح مواطنين في ملكوت الله.

وبالنسبة لمعمودية الماء، يقول الرسول بولس إن معمديتنا بالماء، وإن اتخذت ممارستها أشكالاً متعددة، فهي ترمز إلى اتحادنا مع المسيح في موته وقيامته. وحتى يوضح هذه الفكرة، استخدم صورة المسيح وهو يعتمد في نهر الأردن، فقال للكنيسة: **"أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفِننا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك أيضاً في جدة الحياة. لأنه أن كنا قد صرنا متحدين معه يشبه موته، نصير أيضاً بقيامته"** (رومية ٦: ٣-٤). فنزول المسيح في الماء يرمز إلى الدفن والموت، وخروجه من الماء يرمز إلى القيامة والحياة. وبالتالي يقصد بولس أن يقول إن معمديتنا بالماء ترمز إلى دفننا وإماتتنا لخطايانا مع المسيح، وخروجنا معه من الماء، يرمز إلى قيامتنا معه أبراراً إلى حياة جديدة.

أمّا بالنسبة لمعمودية الروح القدس، فاستخدام يوحنّا المعمدان لكلمة "نار"، "هو سيعمدكم بالروح القدس ونار" (لوقا ٣: ١٦) تشير إلى مدى فاعلية وتأثير معمودية المسيح بروحه القدس، عندما نتّخذهُ ربّاً ومُخْلِصاً لحياتنا. فالنار تُطَهِّر وتُنظِّف وتُزيل ما لا يستطيع الماء أن يُنظِّفه ويزيله. والنار تدفيء، وتُخلِّق قوة دفع كبيرة. وهكذا فإنّ معموديتنا بالروح القدس (أي امتلاءنا من حضوره بالإيمان)، تطهّرنا وتنظّفنا وتزيل من حياتنا كلّ خطايا الفساد والأنانية والكبرياء وغيرها، وتجعلنا قديسين كما هو قدوس. معمودية الروح القدس تخلق في حياتنا قوة، كقوة النار، فتدفعنا بدفء حرارة محبة وسلام ورجاء المسيح. معمودية الروح القدس تخلق فينا قوة دفع كبيرة لتكريس قلوبنا وأفكارنا وإرادتنا له، فنخدمه بغيره وأمانة وإخلاص. إنّ الروح القدس الذي حلّ على المسيح أثناء المعمودية مُترافقاً مع صوت الله الذي أعلن بنوّة المسيح له، هو نفسه يُعلن بنوّةنا له عند معموديتنا بالروح القدس. وهذا ما أكّد عليه الرسول بولس في (رومية ٨: ١٤) "لأنّ كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التّبنيّ الذي به نُصرخ يا أبا الآب".

بالإيجاز، وممّا تقدّم حول معمودية المسيح لتكميل كلّ بيّز، وتعليم المسيح والرسول بولس حول ارتباط معمودية المسيح ومعموديتنا في المسيح، هناك بعض المعاني الجوهرية التي يجب أن نتذكّرها حول المعمودية المسيحية بالماء والروح:

المعمودية تشير إلى حاجة الإنسان القُصوى إلى حضور الله في حياته. المعمودية بالماء ترمز إلى اتّحاد المؤمن بموت وقيامه المسيح للغيث معه في جدّة الحياة.

المعمودية بالروح القدس، التي هي عمل المسيح فينا بالإيمان، تطهّرنا من خطايانا، وتدفع قلوبنا بحرارة سلامه ورجاءه، وتعلن أننا أولاد الله، وتُخلِّق فينا قوّة دفع كبيرة لخدمة ملكوته. آمين.

(٩) جَبَل التَّجَلِّي فِي مُخَدَع الصَّلَاةِ

من أجمل الاختبارات وأقدسها، تلك التي تحصل على قِمَم الجبال، فالجبال كانت ولا تزال مصدر الإلهام والسكينة للكثيرين من الناس. عفى الجبال يشعر الإنسان بقُربه من الله الخالق، ويرى جلاله وعظمته وقدرته. هذا الإحساس باختبار الله على الجبال، دَفَع المرئم إلى طلب المعونة من الله الذي اختبر حضوره على الجبال، فقال: "أرفع عيني إلى الجبال من حيث يأتي عوني معونتي من عند الرب صانع السموات والأرض" (مزمو ر ١٢١: ١).

يذكر الكتاب المقدس أن أهم المحطّات الروحية حدثت على الجبال. فعلى رأس جبل "سيناء" أعطى الله الوصايا العشر لموسى لتكون أساس العهد القديم بيّنه وبَيّن الشعب (خروج ٢٠). وعلى جبل "الكرمل" أظهر الله قوته لإيليا النبي حينما أظهر فشل آلهة البَعْل في إضرام نار سماوية على المذبح (ملوك الأول ١٨). والكثير من الذبائح الحيوانية التي كانت ترمز في العهد القديم إلى تصحيح العلاقة مع الله، كانت تقدّم على الجبال. هذا في العهد القديم، أما في العهد الجديد، فتخبرنا الأناجيل أن الرب يسوع المسيح كان يصرف ليالي وأياماً عديدة على الجبال في الصلاة والتأمّل. فالعظة الشهيرة التي ثلّخّ الحياة المسيحية العملية ألقاها المسيح على الجبل (متى ٥-٧). كما أن تجربة المسيح في بدء خدمته بعد المعمودية حدثت أيضاً على جبل عال (لوقا ٤: ٥-٨). وبانتصاره في تلك التجربة، جعل الجبال مركزاً للتدريب الروحي والرياضات الروحية، للانتصار على الخطية وعيش حياة الصلاة والتأمّل.

يخبرنا متى البشير (متى ١٧: ١-٨) أن المسيح تجلّى على الجبل، الذي يُعتَقَد أنه جبل الشيخ (جبل حرمون)، حيث حصل اختبار روحي عميق اختبره ثلاثة من تلاميذه. ويشدّد متى على أن جبل التَّجَلِّي كان عالياً "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين" (متى ١٧: ١)، وكأّنه يريد أن يقول: كلّمَا علا الإنسان أكثر على الجبال، كلّمَا كان قُربه من الله أكثر واختباره الروحي أعمق. ويصِف إنجيل متى اختبار التجلي بأنّ تَغْييراً ما حدث في هيئة يسوع "وتغيّرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور" (متى ١٧: ٢). فقد أظهر الله للحظات معدودة أمام أعين تلاميذه حقيقة لاهوت المسيح الإله وأظهر مجده الذي كان له عند الأب قبْل كَوْن العالم (يوحنا ١٧: ٥). ثم ظهّر معه موسى الذي يمثّل الشريعة، وإيليا الذي يمثّل الأنبياء، وصارا يتكلّمان مع المسيح عن موضوع هام جداً لأجل الإنسان، يذكّر القديس لوقا (٩: ٣١)، إنّ الموضوع هو خروج المسيح الذي كان عتيداً أن يكملّه في أورشليم، أي توجّه المسيح نحو صليب الجلجثة لكي يقدّم حياته ليُنقذ حياتنا من الخطيئة.

أمام هذا المنظر المجيد، تحرّك بطرس وعبر عن دهشته وفرحه بذلك الاختبار الروحي الرائع، وقال للمسيح **"يا ربّ جيد أن نكون ههنا"** (متى ١٧: ٤)، دعنا نبقى أطول وقت مُمكن، إذ نحن في شركة معك ومع الأنبياء والقديسين. وطلب من المسيح أن يصنعوا ثلاث مَظال له وللثييين موسى وإيليا، لكي يبقوا في شركة روحية سامية معهم على الجبل. وفيما كان بطرس يتكلّم إذا بسحابة نيّرة ظلّتهم، وتكلّم الله بصوته قائلاً: **"هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا"** (متى ١٧: ٥). يا لهذا الاختبار الرّائع، اختبار رؤية المسيح في تجلّيه ومجده. يا لهذا الاختبار العميق اختبار رؤية الشريعة والأنبياء مُمثّلين في موسى وإيليا، شهدان أن يسوع المسيح هو المُزمع أن يتوجّه إلى أورشليم ليقدم حياته على الصليب لأجل خلاص العالم، فتتحقّق الشريعة والنبوة. ويا لفرادة هذا الاختبار، اختبار سماع صوت الله يتكلّم معنا قائلاً: **"هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا"** (متى ١٧: ٥). هذا كلّ حدث على جبل عالٍ، وكأن الكتاب المقدس يريد أن يقول لنا إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الجبال والاختبارات الروحية، فالله أعلن عن نفسه على الجبال.

لكننا نسأل: هل نبقى على الجبال لكي نحصل على امتياز اللقاء مع الله؟ هذا ما ظنّه البعض من شعب العهد القديم، وحتى الآن يظن به البعض. لكن المسيح يريد أن يقول لنا شيئاً آخر، فلننثبّه إلى حوارهِ مع المرأة السامرية التي التقى بها عند بئر يعقوب، وقدم لها من ماء الحياة (يوحنا ٤). فقد اعتقدت تلك المرأة، كما اعتقد أبؤها السامريون أن عبادة الله تكون على الجبل. فسألت المسيح قائلة: **"آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه. فأجابها المسيح، "صدقيني تأتي ساعة لا على هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب". وأردف قائلاً: "ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين. الله روح والذين يسجدون له بالروح والحق ينبغي أن يسجدوا"** (يوحنا ٤: ٢٠-٢٤). إن الرب يسوع المسيح بكلامه هذا قد نقل اختبار جبل التّجلي الروحي العميق، اختبار عبادة الله بالروح والحق، إلى كل مكان يتعبّد فيه الإنسان للرب بالروح والحق. فالساعة قد أتت التي أعلن فيها الله أنه لا ينظر إلى مكان بعينه، ولكن إلى كيفية وصدقية الصلاة والعبادة. فالهدف من العبادة اختبار عمق حضور الله في الحياة، في أي مكان كان.

وفي عظته على الجبل قال: **"وأما أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك، واغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية"** (متى ٦: ٦). وبقوله هذا نقل اختبار جبل التّجلي الروحي العميق الذي حدث على الجبل إلى مخدع الصلاة. فمع الإقرار بعظمة وميزة الجبال في تأمين الأجواء الروحية الملائمة للتأمل والصلاة، فإن اختبار جبل التجلي، أي اختبار رؤية المسيح في مجده، اختبار الشركة مع القديسين، اختبار سماع صوت الله يكلمنا ويرشدنا في هذه الحياة. يقول لنا المسيح في حوارهِ مع المرأة السامرية إنّه قد أتت الساعة للإيمان بأن كل

هذه الاختبارات الروحية العميقة التي حدثت على جبل التجلي، نستطيع أن نختبرها في مخدع الصلاة في غرف بيوتنا وكنائسنا وأماكن أعمالنا.

ومع الأهمية اللاهوتية لحدث تجلي المسيح الذي كشف للحظات عن حقيقة شخصه وحقيقة لاهوته ومجده، فإننا مدعوون إلى التّفكير في حدث التجلي بغزارة معانيه على أنه اختبار صلاة.

قال أحدهم واصفاً حياة الصلاة: "أنا مدعو لأتسلّق عالياً وبعيداً عن تفكير العالم الباطل، حتى أصل إلى قمّة الجبل لأكون مع المسيح. فإنّ نفسي تود أن تطير وتعلو إلى القمّة، لأنه هناك ينتظرنني الله، وإلى هناك يدعوني. هناك رحمة في الصعود، راحة في التسلّق. فساعدني يا رب أن أعيش هذه الحياة أبداً". آمين.

(١٠) أنصوم أم لا؟

عندما يحين فصل الصّوم عند الكنائس الشّقيقة تتوجّه الأنظار إلى الكنائس الإنجيلية بسؤال: هل يصوم الإنجيليون؟ هذا السؤال لا يلاقي إجابة واضحة وصحيحة من قبّل العديد من أعضاء كنائسنا. فالبعض ميّلاً يُجيب: "نحن لا نصوم"، والبعض الآخر يتحدّث عن "صوم القلب واللسان والفكر"، مُظهراً الأهمية القليلة التي يُعطيها للصوم عن الطعام. هذه الإجابات وغيرها إنّ دلّت على شيء، فهي تدلّ على القليل من اعتبار كنائسنا لموضوع الصوم، وعدم وضوح المفهوم الإنجيلي للصوم. وسبب ذلك يعود من جهة إلى الجهل بمضمون الكتاب المقدس، ومن جهة أخرى، إلى رذّة الفعل التاريخية العنيفة التي اتّخذها الإصلاح الإنجيلي من ممارسات الصّوم المُنظّم التي سادت الكنيسة في القرن السادس عشر.

مفهوم الصوم في الكتاب المقدس:

إذا عُذنا إلى الكتاب المقدس، دستور إيماننا الإنجيلي، لنتعرّف على حياة واختبارات رجال الله، فإننا نجدهم قد صاموا. وبما أنّهم قد اختبروا نعمة مُميّزة في صومهم، فقد أوصونا بالصوم، ولكن ليس كنشاط مُنفرد، فصومهم ارتبط دائماً بالصلاة. فيُخبرنا الكتاب المقدس أنّ أولاد الله المؤمنين هدفوا من الصوم والصلاة إلى تحقيق عدّد من الأهداف الروحية أهمها: النمو في علاقتهم مع الله، التّعبير عن توبتهم وتواضعهم أمامه، التّوسّل إليه لمنحهم غفرانه ورحمته بعد فترة من التّمرد، طلب إرشاده وتوجيهاته لحياتهم وحياة أولادهم، طلب نعمة وقوة أكبر لإنجاز المُهمّات الصّعبة.

لنأخذ بعض الأمثلة من حياة رجالات الله في العهدين القديم والجديد لنرى الفائدة الروحية التي حققها الصوم والصلاة في حياتهم. "موسى" النبي صام وأوصى الشعب بالصوم في يوم الكفارة، وهو الأمر الإلزامي الوحيد الذي تفرضه الشريعة اليهودية للصوم للتكفير عن خطايا الشعب. "ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر تذبلون نفوسكم... لأنه في هذا اليوم يُكفّر عنكم لتطهيركم من خطاياكم" (لاويين ١٦: ٢٩ و٣٠). وعندما بشر "يوان" النبي أهل نينوى وآمنوا، كان صومهم للتعبير عن توبتهم "فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم" (يوان ٣: ٥). أمّا "عزرا" النبي فقد صام لطلب إرشاد الله لكي لا يضلّ الطريق بل ليؤمن له ولعائلته طريقاً مستقيماً: "وناديتُ هناك بصوم على نهر أهوا لكي نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقاً مستقيماً لنا ولأطفالنا ولكلّ ما لنا" (عزرا ٨: ٢١).

إنّ الأهداف الروحية الأساسية للصوم لم تتغير بين العهدين القديم والجديد. فعلى سبيل المثال، يُخبرنا كاتب سفر أعمال الرسل أنّ الكنيسة في أنطاكية طلبت إرشاد الله بالصوم والصلاة لفرز خدام لخدمة الكلمة في أماكن جديدة، فأرشدهم الروح القدس ليفرزوا "برنابا وشاول". "وبينما هم يخدمون الرب ويصومون، قال الروح القدس أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه" (أعمال ١٣: ٢) وأثناء الخدمة، حين كان "برنابا وشاول" يكرزان بالكلمة ويؤسسان كنائس، انتخبا قسوساً (أو شيوخاً) في كلّ كنيسة وطلبوا إلى الرب، بالصوم والصلاة، أن يباركهم ويستخدمهم لمجد اسمه. "وانتخبا لهم قسوساً في كلّ كنيسة ثم صلوا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به" (أعمال ١٤: ٢٣). وقد أوصى الرسول بولس كنيسة كورنثوس بضرورة التفرغ للصوم والصلاة في بعض الأوقات الهامة فيقول: "لا يسلب أحدكم الآخر إلا أن يكون على موافقة إلى حين لكي تفرغوا للصوم والصلاة". (١كورنثوس ٧: ٥).

إنّ وصية تلازم الصوم والصلاة لأهداف روحية لم تكن فقط وصية الأنبياء والرسول، بل وصية المسيح لتلاميذه أيضاً. يقول البشير متى إنّ التلاميذ واجهوا موقف ومهمة صعبتين عندما لم يستطيعوا أن يساعدوا أحد الآباء، الذي أحضر إليهم ابنة المصاب بداء الصرع ليشفوه فلم يقدرُوا، فأحضره إلى المسيح فشفاه. عندها سأل التلاميذ المسيح على انفراد: "لماذا لم نقدر نحن أن نشفيه؟ قال لهم يسوع، لعدم إيمانكم... أمّا هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم" (متى ١٧: ١٩، ٢١).

هذه بعض الأمثلة من الكتاب المقدس التي تؤكد على ضرورة تلازم الصوم والصلاة في بعض الأحيان في حياتنا، للوصول إلى أهداف روحية والنمو في علاقتنا مع الله.

لقد صام المسيح وصلّى أثناء التجربة في البرية (متى ٤: ٢)، لكن ليس للأهداف نفسها التي نَصوم ونُصلي نحن لأجلها. فالمسيح هو الله المُتجسّد

المُنزَّه عن الخطية "مُجَرَّب في كلِّ شيءٍ مثلنا، لكن بلا خطية" (عبرانيين ٤: ١٥). إلاَّ أنَّه في صَوْمه وصلاته قدَّم لنا مثلاً في ضرورة الصوم والصلاة، لا سيما أثناء تجارب الحياة القاسية.

في حوار جريء بين تلاميذ يوحنا المعمدان والمسيح حول موضوع صوم تلاميذه، والذي قد يُعطي انطباعاً بأنَّ تلاميذ المسيح لا يصومون، مع أنَّهم كانوا يصومون، إذُ علَّم المسيح في عِظته على الجبل عن الصوم: "ومتى صُمْتُمْ" (متى ٦: ١٦). لقد أتى تلاميذ المعمدان إلى المسيح قائلين: "لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرًا، وأما تلاميذك فلا يصومون؟ فقال لهم يسوع، هل يستطيع بنو العريس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟ ولكن ستأتي أيام حين يُزفَع العريس عنهم حينئذ يصومون" (متى ٩: ١٤-١٧). والجدير بالذكر أنَّ تلاميذ المعمدان والفريسيين كانوا يصومون كثيرًا في أوقات حدِّدها آباؤهم في التَّقليد، لكن لم تُفرضها الشريعة، إذُ أنَّ فريضة الصوم الوحيدة التي أوصى بها الناموس هي صَوْم "يوم الكفَّارة". (لاويين ١٦: ٣٠). لقد ميَّز المسيح بين مُتطلِّبات الشريعة ومُتطلِّبات التَّقليد، فحافظ مع تلاميذه على الصوم المُوصى به من الشريعة، وأهمَل عن قِصْد أصوام التَّقليد التي زادت كثيرًا في العَدَد حتى صار من الضروري، بعد خراب أورشليم، تحديد الأيام التي يُمنَع فيها الصوم. والمسيح في إجابةً على سؤال تلاميذ المعمدان: "هل يستطيع بنو العريس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟" لم يقل لهم "نعم أو لا"، بل طرح في إجابته سؤالاً غير مباشر مُفاده: كيف تحكمون بأنَّ تلاميذي لا يصومون وأنتم لا تعرفون الحقيقة؟ فالحقيقة هي أنَّ التلاميذ لم يصوموا تلك الأصوام المُتعدِّدة غير الإلزامية التي صامها تلاميذ المعمدان والفريسيون، لكنهم صاموا صوم يوم الكفَّارة، والأصوام التي احتاجتها حياتهم الروحية بهدف النمو في العلاقة مع الله. وقد شبَّه المسيح حالة عدم صوم تلاميذه آنذاك، بحالة العُرس الذي لا يصوم الناس فيه، بل يأكلون من أطيب العرس، لكن سينتهي هذا الوقت حين يُزفَع العريس عنهم، حينئذ يصومون.

الصوم في تاريخ الكنيسة:

تنفيذاً لوصية المسيح، فإنَّ مؤمني الكنيسة صاموا وصلَّوا. وقد ظهر في الكنيسة بعض القديسين الذين حدَّدوا أياماً معينة للصوم، خصوصاً فِثرة الصوم قبْل عيد القيامة. فيقول القديس "إيرينيوس" في هذا الصَّدَد: (يعتقد البعض أنَّ الصوم هو ليوم واحد، والبعض الآخر ليومين، وغيرهم لأكثر، وأيضاً يقول البعض لأربعين يوماً). إلاَّ أنَّ الدِّكر الأوَّل لصوم الأربعين يوماً كان في القرن الرابع الميلادي.

وقد بدأ مفهوم الصوم يأخذ مَنحى مُختلفاً عن المفهوم الأساسي الذي يعرضه الكتاب المقدس خلال تاريخ الكنيسة، إذُ صار يقترن بالتَّقشُّف والرُّهْد في الدُّنيا. وقد نَظمت الكنيسة أياماً للصوم، فأخذ الصوم شكلاً شرعياً. وفي القرون الوسطى ارتبط مفهوم الصوم بمبدأ الاستحقاق أمام الله، فصار يُفهم

على أنه إحدى الوسائل التي من خلالها يستحق الإنسان نعمة الله ويُكفّر عن خطاياها .

نظرة الكنائس الإنجيلية المُصلحة من الصوم:

عندما حلّ الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، وجد المُصلحون الإنجيليون أنّ مفهوم الصوم قد انحرف عن الهدف الأساس المُعلن في الكتاب المقدس، فنادوا بضرورة العودة إلى مفهوم الكتاب المقدس والكنيسة الأولى. إنّ الموقف الإنجيلي التاريخي المُصلح من الصوم، سجّله المُصلحون الإنجيليون في إقرار الإيمان الهلفيتي الثاني (Second Helvetic Confession) الذي كُتب سنة ١٥٦٦م وكانت له السُلطة العُليا في الكنائس الإنجيلية المُصلحة، وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور جورج صبرا في كتابه "نؤمن ونعترف".

وعن ضرورة الصوم يذكّر إقرار الإيمان: "إنّ كنيسة المسيح توصينا بالصوم كضرورة في الوقت الحاضر بحيث نتضع أمام الله ونحرم جسدنا من وقوده، لكي يطيع الروح طاعةً أكبر وأسهل.. إنّ الصوم عونٌ لصلوات القديسين ولكلّ الفضائل".

وعن دوافع الصوم يُعلن إقرار الإيمان: "كلّ صوم يجب أن ينبثق عن روح حُرّة مُريدة، وعن تواضع أصيل، وليس عن تصنّع من أجل كسب ثناء البشر أو مدحهم. وبالتأكيد، ليس من أجل أن يستحق الإنسان البرّ بسببه. فليصم كلّ إنسان لهذه الغاية بأنّ يحرم جسده من وقوده لكي يخدم الله بغيرة أكبر".

وعن تحديد أيام مُعيّنة للصوم (كالصوم الكبير الذي هو فترة الأربعين يوماً التي تسبق عيد القيامة) فيذكر إقرار الإيمان: "إنّ الصوم الكبير مشهود له عند الأقدمين، إلّا أنّ لا أثر له في كتابات الرسل، لذلك لا يجوز ولا يُمكن أن يُفرض على المؤمنين".

لقد ميّز إقرار الإيمان الهلفيتي الثاني بين نوعين من الصوم: صوماً جماعياً وصوماً فردياً. فذكر: "هناك صوم علني وآخر سرّي، لقد مارس الأقدمون الصوم العلني في أيام المصائب والمخن على الكنيسة، فامتنعوا تماماً عن الطعام والماء، وأمضوا الليل كله في صلوات مقدّسة وعبادة الله والتوبة. إنّ صوماً كهذا يمارس في الأيام التي تكون فيها الكنيسة في مخنة. أمّا الصوم السرّي فيمكن لأيّ منّا أن يمارسه كلّما شعر أنّه بعيد عن الروح".

هل يصوم الإنجيليون؟

إنّ إجابتنا تنبع من واقع كنائسنا التي تُعطي اعتباراً قليلاً للصوم، وبالتالي فنحن بحاجة لإعادة تقييم هذا الموضوع في نور كلمة الله التي تحثنا أن نعطيه مع الصلاة مكانته المناسبة في حياتنا الروحية للنمو في علاقتنا مع الله والتواضع أمامه وطلب قوّته عند التجارب، وطلب إرشاده عندما نضل الطريق. آمين.

(١١) هَهُنَا أَعْظَمُ مِنَ الْهَيْكَلِ

"هَهُنَا أَعْظَمُ مِنَ الْهَيْكَلِ" عبارة نطق بها المسيح عندما انتقد الفريسيون تلاميذه لأنهم قطفوا بعض سنابل القمح وأكلوها يوم السبت. وهذه العبارة لها مدلول عميق في نظرة المسيح ونظرة العهد الجديد إلى الهيكل. وحتى نفهم موضوع الهيكل، لا بد لنا من العودة إلى الكتاب المقدس، لنتوقف عند بعض المحطات الهامة التي تلقي الضوء عليه.

يعطي العهد القديم مكانة هامة للهيكل. فقد كان الهيكل مركز حياة وعبادة الشعب اليهودي. فبعد أن خرج الشعب العبراني من عبودية المصريين وساروا في البرية وتاهوا فيها مدة أربعين سنة، طلب الله من موسى أن يقيم له خيمة اجتماع ليجتمع فيها مع الشعب في البرية. فأقام موسى "خيمة الاجتماع". وهكذا مثلت خيمة الاجتماع، التي كانوا ينقلونها معهم من مكان إلى آخر، حضور الله مع شعبه في المرحلة الأولى بانتظار مراحل لاحقة. وفي حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، طلب الله من داود النبي أن يبني له هيكلًا "فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم" (خروج ٢٥ : ٨). وقد أوصى الله داود بكل تفاصيل ومقاييس ومحتويات ذلك الهيكل، لكن داود لم يستطع بناءه، فبناه ابنه سليمان الملك، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات ونصف سنة، وقد عمل على إنهاء بناءه ثلاثون ألف عاملاً. وهكذا بدأت مرحلة ثانية من حضور الله مع شعبه من خلال الهيكل، فصار الشعب يعبد الله بفرح في الهيكل. ويُعَيَّرُ المرنم عن فرحه في عبادة الله في الهيكل فيقول: "واحدة سألتُ مِنْ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمِسُ، أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِكَيْ أُنْظَرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ وَأَتَفَرَّسَ فِي هَيْكَلِهِ" (مزمو ٢٧ : ٤). إلا أن الهيكل قد دُمِّرَ مَرَّتَيْنِ: الأولى، بيد البابليين في العام ٥٨٦ ق.م. وأُعيد بناؤه بشكلٍ أَصْغَرَ مِنْ سَابِقِهِ، على زمن الفُرس عام ٥١٥ ق.م. إذ قاد النُبِّيَّانِ "عَزْرَا وَنَحْمِيَا" وَرَشَّةَ إعادة بناء الهيكل، إلا أن الرومان دَمَّرُوهُ عام ٧٠ م. وقد تنبأ المسيح بدماره عندما أخذه تلاميذه لكي يُروه أبنية الهيكل، حيث قال لهم: "أَمَا تَنْظُرُونَ جَمِيعَ هَذِهِ، الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ" (متى ٢٤ : ١ - ٢). ومُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَي مَنذُ عَشْرُونَ قَرْنًا وَالْيَهُودُ الْمُتَدَيِّنُونَ يُرَدِّدُونَ فِي صَلَوَاتِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَوْمِيًّا، قَائِلِينَ: "لَتَكُنْ مَشِيئَتُكَ أَنْ يُعَادَ بِنَاءُ الْهَيْكَلِ سَرِيعًا فِي أَيَّامِنَا".

إلّا أنّ السؤال الأساس الذي يُطرح مع الإقرار بأهميته الكبيرة التي حظي بها الهيكل في العهد القديم، هو: هل بقي للهيكل تلك الأهمية في العهد الجديد؟ ممّا لا شكّ فيه أنّه إذا ما تَتَبَّعْنَا نبوءات بعض أنبياء العهد القديم فإنّنا نلاحظ أنّها تتحدّث عن هيكل الأيام الأخيرة مفتوحاً لعبادة الله يستقبل شعوباً كثيرة يعبدون الله فيه. وفي هذا السياق نذكر نبوءة إشعياء (٢: ٢-٤) وميخا (٤: ٢) اللذان عاشا في القرن الثامن قبل الميلاد. فقد ردّد الاثنان النبوءة نفسها قائليْن: **"وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلمّ نصعد إلى جبل الرب، إلى بيت إله يعقوب (الهيكل)، فيعلمنا من طرّقه ونسلك في سبّله"**. إلّا أنّ هذَيْن النَّبِيِّيْن، وفي الوقت الذي كان فيه هيكل سليمان لا يزال قائماً، حدّرا الشعب أنّه إذا تركوا الله وعبدوا الأوثان وظلموا الناس، فإنّهم يَخْسرون مدينتهم وهيكلهم، الأمر الذي تحقّق عند الخراب الأول لهيكل سليمان في العام ٥٨٦ ق.م.

أمّا النبي الذي خصّ مساحة كبيرة في سفره لموضوع بناء الهيكل هو حزقيال النبي، الذي كان كاهناً فيه. فقد بدأ خدمته في القرن السادس قبل الميلاد، ويظنّ أنه عاش قبل سَبْع سنوات من الدمار الثاني للهيكل على يد البابليين عام ٥٨٦ ق.م، وعاش فترة دمار الهيكل، وعلم في الجزء الأول من سفره بأنّ الله سمح بتدمير الهيكل ومدينة أورشليم بسبب تركهم لله وشريعته وعبادة الأوثان وعدم إجراء الحَقِّ والعدل. إلّا أنّه في الجزء الأخير من سفره، وفي ثمانية أصحابات (٤٨-٤٠)، تنبأ عن إعادة بناء الهيكل والمدينة المقدسة، ولكن على أساس شرطي مبني على تغيير جذري في حياة الشعب بالتوبة والعودة إلى الله. وقد اعتيّر حزقيال النبي مهندس الهيكل الجديد، إذ يذكّر تفاصيل هندسية دقيقة عن الهيكل الجديد، وتقديم الذبائح وإدخال كهنوت جديد.

وبعد هذه الجولة في نبوءات العهد القديم حول إعادة بناء الهيكل، فإنّ السؤال الأساس الذي نطرحه هو كيف تُفسّر هذه النبوءات؟ هل نفسرها بشكل حرفي مُتجاهلين نَظرة يسوع المسيح حول طريقة ونوعية حضور الله التي اتّضحت وتبلّورت أكثر في لاهوت العهد الجديد؟ أعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّه علينا أن نفسّر نبوءات العهد القديم، ولاسيما فِكرَة إعادة بناء الهيكل، التي تكلم عنها حزقيال، من خلال مفهوم الجديد للهيكل، الذي أطلقه المسيح في العهد الجديد، ابتداء من حوارهِ مع السامرية حول مفهوم الله الجديد لطريقة حضور الله مع شعبه لعبادته بالروح والحق.

هذا السؤال ليس للتقليل من شأن أسفار العهد القديم، فتلّك كانت هي الكتاب المقدس الوحيد للكنيسة الأولى في القرن الأول، كما يُطلّعنا سفر أعمال الرسل سجل الكنيسة الأولى، قبل كتابة أسفار العهد الجديد. كما أنه ليس للتقليل من وحيها وسلطتها في الكنيسة، وحياة جماعة الإيمان، إلّا أنّنا ندعو إلى عدم فرض تفسير حرفي لنبوءات العهد القديم على مفهوم العهد الجديد. وبالتالي علينا أن نتعامل مع نبوءات العهد القديم حول الهيكل من منظور العهد الجديد. ولا نقول بأنّ نبوءات العهد

القديم حول الهيكل تتناقض مع ما ورد في العهد الجديد، لأننا نؤمن إيماناً راسخاً أن التوجُّه العام للاهوت العهد الجديد هو المقياس الصحيح الذي يوضِّح ويفسِّر نبوءات العهد القديم. وقد اعتمد هذا المقياس القديس "أوغسطينوس" منذ القرن الرابع الميلادي، عندما قال: "العهد الجديد مُخَبِّأً في العهد القديم، والعهد القديم مُعْلَنٌ في العهد الجديد". وبالتالي فإننا مدعوون لتفسير نبوءات العهد القديم حول إعادة بناء الهيكل، ليس بشكل حرفي، ولكن بشكل روحي ورمزي ومجازي، يحافظ على مفهوم المسيح والرسول للهيكل الجديد في العهد الجديد. ففي تعليقه على نبوءة حزقيال النبي (٤٨-٤٠) حول إعادة بناء الهيكل الجديد، أو النبوءات الأخرى حول الموضوع، يقول اللاهوتي الهولندي الإنجيلي "هرمن بافينك" في كتابه the last things "الأمور الأخيرة" الذي صدر عام ١٩٩٦م "إنَّ الهيكل الجديد الذي رآه حزقيال منذ حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، إنَّما يرمز بشكل روحي ومجازي إلى الجسد الروحي لكنيسة المسيح في العهد الجديد". ويتَّضح لنا معنى قول هذا اللاهوتي لاحقاً عندما ندرس بعض مقاطع العهد الجديد التي تتحدَّث عن الهيكل.

(متى ١٢: ١-٨) حادثة تلقي ضوءاً هاماً على حقيقة مكانة الهيكل مُقارنَةً مع شخص يسوع المسيح واحتياجات الجائعين. فعندما جاع تلاميذه وهم يمشون بين الزروع قطفوا بعض سنابل القمح وأكلوها ليسدوا جوعهم، فانزعج الفريسيون منهم لأن ذلك كان في يوم سَبْت، مُدَّعين أنَّهم دنسوا السبت. لكن المسيح ذكَّرتهم بحادثة مُماثلة في (١ صموئيل ٢١: ١-٦) حيث أن داود النبي، وهو من أعظم أنبياء العهد القديم، فإنَّه عندما جاع هو والذين معه دخل الهيكل وأكل خُبْز التَّقْدِمة، الذي لَمْ يَكُن مَسْمُوحاً لأحد أن يأكل منه بحسب الشريعة، فبالرغم من ذلك سمح لنفسه بأن يأكل من خبز الهيكل. وبعد أن انتهى المسيح من سَرْد تلك القصة، قال للفريسيين: "أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل، فلو عَلِمْتُمْ ما هو، إني أريد رحمة لا ذبيحة". فيسوع المسيح ابن الله العلي، هو أعظم من داود، وأعظم من الهيكل، وله السلطان الكامل أن يسمح لتلاميذه أن يأكلوا من سنابل الحقل يوم السبت، خلافاً لطريقة تفسيرهم الشريعة.

كما أعلن المسيح بقوله: "فلو عَلِمْتُمْ ما هو إني أريد رحمة لا ذبيحة لَمَّا حَكَمْتُمْ على الأبرياء" أن عدم الحُكْم على الأبرياء، والرحمة والرأفة في التَّعاطي مع احتياجات الجائعين (ومنهم التلاميذ الذين كانوا جائعين فقطفوا سنابل القمح وأكلوها)، هي اعظم من تقديم الذبائح الحيوانية التي انْتَهَتْ في المسيح، الذي قَدَّمَ نفسه ذبيحة عن الإنسان بموته على الصليب وقيامته من بين الأموات.

أما البشير يوحنا فيورد حادثة طَرَد المسيح للصيارفة وباغة الحمام من الهيكل (٢: ٢٢-١٢)، لأنَّهم دنَّسوه بسوء استخدامهم له كمركز تجاري ومالي للبيع والشراء. وقد استاء رؤساء الكهنة والكتبة كثيراً من موقف يسوع هذا، وقالوا له: "أَيَّة آيَّة تُرِينَا حتى تَفْعَل هذا؟ فأجاب يسوع

"انقُضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يوحنا ٢: ١٩). فبالرغم من أنه، لا اليهود ولا التلاميذ فهموا ما قاله المسيح، إذ ظنُّوا أنه يتكلم عن الهيكل الحجري، إلا أنَّ البشير يوحنا يوضِّح قول المسيح فيقول: "وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده"، أي عن موته وقيامته في اليوم الثالث. وبالتالي نفهم من تفسير يوحنا أن المسيح بموته وقيامته قد أضحي هيكل الله الجديد، الذي لا يُدمَّر، بينما الهيكل الحجري قد دُمِّر مرَّتين. وبناءً عليه، فإنَّ ما يرمز إليه هيكل سليمان الماضي القديم، كونه مكان سكن وحضور الله مع شعبه، قد تحقَّق بيسوع المسيح الذي تجسَّد وعاش بيننا. إن الاسم الآخر الذي أعطاه الملك جبرائيل ليسوع في الميلاد هو "عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" (متى ١: ٢٣). وبالتالي فمجيئ المسيح في الميلاد هو لإعلان بأنَّ هيكل سليمان قد انتهى في كل معانيه القديمة، منذ تجسَّد المسيح في الميلاد، لم يعد حضور الله معنا، من خلال هيكلٍ قديم، بل صار حضوره معنا بيسوع المسيح، هيكل الله الجديد.

وبعد أنَّ صعد المسيح إلى السماء وأرسل الروح القدس الذي أسَّس الكنيسة في يوم العنصرة، صارت الكنيسة جسد المسيح، هي هيكل الله الجديد والحي، وليس هيكل سليمان الحجري والجامد. هذا ما أكَّد عليه الرسول بولس (٢كورنثوس ٦: ١٦) إذ شبَّه أعضاء الكنيسة بهيكل الله الحي قائلاً لهم: "فإنَّكم أنتم هيكل الله الحي كما قال الله، إنني سأسكن فيهم وأسير بينهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً". كما أن القديس بطرس شبه المؤمنين في الكنيسة، بالحجارة الحية في البيت الروحي، إذ قال لهم: "كونوا أنتم أيضاً مَبْنِيِّين كحجارة حية بيتاً روحياً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح" (١بطرس ٢: ٥). أما الذبائح التي تقدَّم على مذبح هذا الهيكل الجديد فهي ليست ذبائح حيوانية من عجول وخراف كما كان في الهيكل القديم، لكنها ذبائح روحية، كما يقول الكتاب، إنَّها ذبائح الحمد والتسبيح، ذبائح الروح المُنكسرة: "ذبائح الله هي روح منكسرة، القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحترقه" (مزمو ٥١: ٧١).

وخلاصة الأمر، إنَّه بعد أنَّ خصَّص الله في القديم خيمة الاجتماع لسكن الله مع شعبه في البرية، ومن ثمَّ بعدها هيكل سليمان، فإنَّ المرحلة الأخيرة والنهائية لسكن حضور الله مع شعبه في العهد الجديد هو في الكنيسة جسد المسيح وهيكل الله الحي. آمين.

(١٢) ملكوت الله: للحاضر أم للمستقبل؟

عندما بدأ الرب يسوع المسيح خدمته على الأرض، كان الموضوع الاساسي الذي كرز به "ملكوت الله". يخبرنا القديس مرقس إنه بعد أن سجن يوحنا المعمدان من قبل السلطات الرومانية، جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول "قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر:١٤ - ١٥) .

ما هو ملكوت الله؟ إن كلمة "ملكوت" بالعربية ليست ترجمة دقيقة عن الكلمة اليونانية، فليس المقصود منها مملكة، ولا تعني مكاناً جغرافياً ما يحكم منه الله . فكلمة "ملكوت"، تعني سيادة الله، ملك الله. لقد مرّ مفهوم ملكوت الله بمراحل متعددة ومتدرجة في تاريخ شعب الله في العهد القديم. فقد آمن العبرانيون بأن الله ملكٌ لكل الأرض وملكهم كأمة يهودية، لكن الأمر الذي كان يجب تفسيره وتوضيحه، (والذي طرح مشكلة في الإيمان اليهودي)، هو بما أن الله هو ملك الشعب اليهودي، لماذا لم يأت لیساعد شعبه في أوقات المحن ويؤكد حقيقة ملكه عليهم؟ إلا أن الانبياء اجابت على هذه التساؤلات، بأن السبب يكمن في ضعفات شعبه وانغماسهم بعبادة الأصنام وعنادهم وخطاياهم. الا أن اليهود آمنوا إنه مهما تأخر الله الملك في مجيئه، فهو سيأتي عاجلاً أم آجلاً ليملك عليهم إما مباشرة أو من خلال مسيحه. وهذا يفسر ما حاول أن يقوم به الشعب بعد أن أجرى يسوع معجزة إشباع الخمسة آلاف رجل من السمكتين والخمسة أرغفة كما يخبرنا يوحنا الأصحاح السادس . فبعد ان رأى الشعب في قدرة يسوع ومعجزاته قوة خارقة ظانين إنه مسيا الله، أرادوا أن يجعلوه ملكاً عليهم، "وأما يسوع فإذ علم إنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً ، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده" (يوحنا ٦:١٥)، لأنه لم يأت ليكون ملكاً أرضياً بل ملكاً سماوياً .

عندما ابتدأ المسيح خدمته كارزاً باكتمال الزمان واقتراب ملكوت الله، كان سائداً في ذهن الشعب اليهودي آراء مختلفة حول كيفية مجيء المسيا الملك، تمثلت بثلاثة فئات اساسية من الشعب.

الفئة الاولى من منتظري المسيا هي فئة الكتبة والفريسيين الذين آمنوا بأن ملكوت الله سيحل ومسيا الله سيأتي، عندما تطبق الشريعة بشكل كامل من قبل شعب الله. لهذا كان كل هم الكتبة والفريسيين، التأكد من تطبيق الشعب لشريعة الله لتسريع مجيء المسيا .

الفئة الثانية هم الغيوريون الذين آمنوا بإنهم يستطيعون تسريع مجيء ملكوت الله ومسيا الله، من خلال الانقلابات السياسية والعسكرية وتقويض أركان الامبراطورية الرومانية بأعمال حربية .

الفئة الثالثة هي فئة اليهود الأتقياء الذين انتظروا بإيمان تحقيق الله لوعده بإرساله المسيا، أمثال: سمعان الشيخ ، وحنه، ويوسف ومريم وغيرهم. فهذه الفئة التقيّة آمنت بإن مجيء المسيا سوف يمنحهم تعزية

روحية كبيرة. يصف البشير لوقا سمعان الشيخ الذي كان يصلي في الهيكل، بأنه كان ينتظر "تعزية إسرائيل". لهذا عندما رأى الطفل يسوع أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعدته قدام وجه جميع الشعوب" (لو ٢: ٢٧ - ٣٠).

في وسط هذه الأجواء السائدة والأفكار المتنوعة جاء الرب يسوع المسيح يركز ببشارة الملكوت ويقول، قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر١: ١٤ - ١٥) .

يخبرنا إنجيل لوقا الأصحاح ١٧ بعض المعلومات القيمة والجوهرية حول مفهوم المسيح لملكوت الله . أثناء خدمة المسيح جاء إليه بعض الفريسيين وسأله قائلين "متى يأتي ملكوت الله؟" (لو١٧: ٢٠). هذا السؤال شغل منذ القديم ولا يزال يشغل فكر الكنيسة حتى اليوم ، فأجاب الرب يسوع قائلاً، "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك". وكلمة مراقبة تستخدم لمراقبة النجوم و تشير إلى الرصد الدقيق والمتابعة القريبة للامور . فاجاب المسيح بما معناه ، إذا ما كنتم تصرفون وقتكم في المراقبة (كمراقبة النجوم) وتفتشون عن علامات تنبئكم بمجيئه، فأنتم مخطئون، فملكوت الله لن يأتي بهذه الطريقة التي أنتم تتوقعونها". عندها صعقهم يسوع بقوله، "ها ملكوت الله داخلكم" (لوقا ١٧: ٢٠ و ٢١) .

فماذا عنى يسوع بقوله هذا؟ ها ملكوت الله داخلكم" . إن كلمة "داخلكم" تحمل في الأصل اليوناني معنيين، الاول، "في وسطكم". والثاني، "في داخلكم". والمعنيان ضروريان لفهم قصد المسيح حول مفهومه لملكوت الله . ففي المعنى الاول "ملكوت الله في وسطكم، قصد المسيح ان يقول، بأنه المسيا الذي يحضر بينهم وقد مضى على وجوده بينهم منذ التجسد أي أكثر من ثلاثين سنة. في هذا السياق، نفهم ما يخبرنا البشير متى في الأصحاح الحادي عشر، إنه عندما أرسل يوحنا المعمدان من السجن إثنان من تلاميذه ليسألوا يسوع قائلين، " أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟". أجابهما يسوع: "إذها وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران، العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون، وطوبى لمن لا يعثر في" (متى ١١: ٢-٦). وهذا ما فعله الرب يسوع المسيح اثناء خدمته على الارض، فقدم الشفاء للعميان والعرج والبرص والصم واقام الموتى وبشر المساكين. وبالتالي، يا لسعادة من لا يعثر بل يدرك ويؤمن بأنه هو المسيا الآتي والذي اتى حقيقة في الميلاد فلا ننتظر آخر. أيضا في إنجيل لوقا، عندما أخرج يسوع شيطاناً يسكن رجلاً أحرساً ، واتهمه الفريسيون بأنه أخرجهم ببعلزبول رئيس الشياطين، قال لهم يسوع "إن كنت بإصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله" (لوقا ١١: ١٨-٢٠) . وهذه إشارة أخرى إلى أن حضور المسيح في وسطهم واخراجه الشياطين من اولادهم هو دليل آخر بأن ملكوت الله حضر بحضوره في وسطهم .

أما المعنى الثاني والذي هو "ملكوت الله في داخلكم". فهذا المعنى يشير إلى الإختبار الداخلي والتغيير الجذري الذي يختبره كل من يؤمن بيسوع المسيح. لقد استخدم الرسول بولس في رسالته الثانية إلى

كورنثوس تعبيراً شبيهاً لتعبير "في داخلكم" ، هو تعبير "إنسان الداخل" أو "إنسان الباطن" ليشير إلى حضور المسيح داخل الإنسان وفعالية هذا الحضور الذي يجدد الإنسان ويمنحه القوة والرجاء والنعمة والحياة الجديدة. قال الرسول بولس، "لذلك لا نفشل بل وان كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً (٢كو٤: ١٦). وايضاً "فاني اسر بناموس الله في الإنسان الباطن (رو ٧: ٢٢) .

ان قراءتنا للكتاب المقدس وللعهد الجديد تجعلنا نؤمن أن ملكوت الله في كلا المعنيين، "في وسطكم" و "في داخلكم"، يبدأ في الحاضر، يبدأ الآن، في وسطنا أي في هذا العالم، وفي داخلنا أي داخل حياتنا حيث يسكن المسيح بروحه، عندما نؤمن بيسوع المسيح ونتخذه رباً ومخلصاً. في رسالته إلى كنيسة رومية الأصحاح ١٤، يخبرنا الرسول إنه عندما اختلفت اعضاء الكنيسة حول موضوع هل يجب أن يأكلوا او لا يأكلوا لحمًا ذبح للأوثان ، أكد لهم بولس "أن ملكوت الله ليس أكلاً وشرباً، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٨). هذه هي سمات الملكوت، إنها بر وسلام وفرح في الروح القدس. وهذه السمات هي التي يجب أن تسود في حياة كل من اختبر الآن حضور ملكوت الله بشخص يسوع المسيح، فاختر سيادة الله على حياته. وبالتالي، في الوقت الذي كان ينتظر فيه الفريسيون أن يأتي ملكوت الله بمراقبة هنا أو هناك، قال يسوع لهم، "لقد حضر ملكوت الله. إنه في وسطكم، وفي داخلكم، فلا تفتشوا عنه في مكان آخر.

لكن نُسأل، هل ملكوت الله هو فقط للحاضر؟ الجواب، كلا. فملكوت الله يبدأ في الحاضر، حين يملك المسيح في وسطنا وداخلنا، لكنه يتجاوز الحاضر ليصل إلى المستقبل. عندما كان يسوع يتناول الفصح مع تلاميذه، قبل أن يسلم للصلب، قال لهم "أقول لكم إنني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله" (لوقا ٢٢: ١٦). وقال أيضاً، "لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله" (لوقا ٢٢: ١٨). وبالتالي، مع أن المسيح قال للفريسيين إن ملكوت الله هو في وسطكم وفي داخلكم مشيراً إلى بعده الحاضر (لوقا ١٧: ٢١ و٢٢)، فإنه بعد خمسة إصحاحات أضاف، بأن الملكوت سوف يكمل ويتحقق في المستقبل، مشيراً إلى البعد المستقبلي للملكوت (لوقا ٢٢: ١٦-١٨). هذا أيضاً ما علمنا ان نصلي لاجله الرب يسوع المسيح في الصلاة الربانية قائلين، "ليأت ملكوتك لتكون مشيئتك" (متى ٦: ١٠) .

إن الأمانة لتعاليم المسيح في الكتاب المقدس، تقتضي منا التمسك ببعدي الملكوت الحاضر والمستقبل ، بل الحفاظ على التوازن بين بعدي الحاضر والمستقبل كي نعيش حياة مسيحية متوازنة. فلا نقول إن ملكوت الله هو فقط على الأرض، كما يعتقد الكثير من الناس، وهكذا نتمسك بقيم الأرض ونكتفي بالاختبار الروحي الداخلي الذي نخبره هنا على الأرض ومن ثم تتحول مسيحتنا إلى مسيحية نشاطات اجتماعية. ولا نقول إن ملكوت الله هو فقط للمستقبل في السماء، وبالتالي نستقيل من مسؤوليتنا وواجباتنا في خدمة الفقراء والمحتاجين في العالم ، ونغمض أعيننا عن مواقف الحق والعدالة والسلام .

(١٣) " اهتفي يا بنت اورشليم هُوَذَا مَلِكُكَ يَأْتِي"
(زكريا ٩:٩)

عند دخول جنرال روماني إلى روما بعد انتصاره في معركة ما، فإنّه يمتطي حصانًا مُميرًا، وهكذا يدخل تحت أقواس النصر، وبين هتاف الجنود الملوّحين برماحهم وسيوفهم. وعند وصوله إلى معبد الإله Jove، يقدم ذبيحة شكره للآلهة على انتصاراته. هكذا كان الجنرالات وقادة الحروب والملوك يدخلون مدنهم، لكن ملكنا يسوع لم يدخل بهذه الطريقة أورشليم، رغم أنّ قيسًا كبيرًا من اليهود رأوا فيه قائدًا عسكريًا قد يخلصهم من سُلطة الرومان، وقيسًا آخر رأوا في معجزاته التي أجراها شخصًا قديرًا، لهذا أرادوا أن ينصّبوه ملكًا عليهم، كما يذكر (يوحنا ٦:١٥). لكن يسوع لم يقبل ذلك، لأنّه لم يأت ليخدم بل ليخدم ويبدل نفسه فدية عن كثيرين. فنادرًا ما وُجد ملوك تُصيّبوا ليخدموا ويتألّموا من أجل شعبهم، بل غالبًا ما طالبوا شعوبهم بخدمتهم. لكن يسوع ليس كباقي الملوك الذين تفاخروا بسلطتهم وامتيازاتهم. فهو ليس كالملك شاول الذي اعتز بقوته الجسدية وقدرته العسكرية، ولا كالملك سليمان الذي تفاخر بحكمته وثروته. لكنّه ملك مميّز عن بقية ملوك ورؤساء العالم، فهو ملك الملوك ورب الأرباب. إنّه مُميّز بشخصه وصفاته، مُميّز بنوعية مملكته وطريقة سيادته التي لا تقوم على سفك الدّم والحروب. فمملكة المسيح ليست من هذا العالم، لهذا فإنّ دخوله أورشليم لم يكن كدخول الجنرالات والملوك الأرضيين الذين أرادوا أن يستمتعوا بانتصاراتهم وتصفيق وهتاف الجنود لهم. لقد أراد المسيح أن يدخل أورشليم لأنّها الطريق إلى الجلجثة، والسبيل إلى الصليب لأجل العالم الذي أحبه إلى المُنتهى.

لقد دخل أورشليم دون عوائق كثيرة، فقد كان مطلوبًا من رؤساء الكهنة اليهود، إذ كانوا قد أصدروا أمرًا بأن من يتعرّف على مكان وجوده، فليدل على مكانه لإلقاء القبض عليه. وعند اقتراب عيد الفصح كانوا يتساءلون في ما بينهم هل يأتي يسوع إلى العيد أم لا؟ يقول البشير يوحنا: "فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ وَاقِفُونَ فِي الْهَيْكَلِ: «مَاذَا تَطْنُونُ؟ هَلْ هُوَ لَا يَأْتِي إِلَى الْعِيدِ؟ كَانَ أَيْضًا رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيِّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْرًا إِنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلْ عَلَيْهِ لِكَيْ يُمَسْكُوهُ" (يوحنا ١١: ٥٦ و٥٧).

عندما يعرف أحد أن هناك مؤامرة ما تُحاكّ ضده في مكان ما، فإنّه من الطبيعي أن يتجنّب ذلك المكان، لكن يسوع لم يكن يهتم بحياته بل

لحياتنا، لهذا قرّر الدخول إلى أورشليم بالرغم من أنّه كان يعرف تماماً ماذا ينتظره هناك. فالآلام الصليب لم تمنعه، بل أراد أن يتحدّى عداوة اليهود وقرارهم بالقبض عليه، لأنّ هدفه كان أبعد من خلاصه هو من الموت، بل خلاصنا نحن من الخطيئة.

لهذا وبكل شجاعة انطلق نحو أورشليم مُحاطاً بتلاميذه. وكانوا يسرون مُضطربين خائفين على حياة معلمهم، ومُتحيّرين من قراره الشجاع. يُخبرنا البشير مرقس كيف كانت مشاعر التلاميذ حينما كانوا يرافقونه، وبما سيحدث له عندما يصل إلى أورشليم، فيقول: "كأنوا في الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدّمهم يسوع وكأنوا يتحيّرون. وفيما هم يتبعون كأنوا يخافون. فأخذ الإثنى عشر أيضاً وابتدأ يقول لهم ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم" (مرقس ١٠: ٣٢-٣٤). وهذا يُرينا الهدف من صعوده إلى أورشليم. إنّه يصعد ولذّيه الاستعداد الكامل لكي يتحمّل الهُزء والجلد وأن يُثقل عليه، ويُقتل، وفي اليوم الثالث يقوم. هذا الموقف ليس موقفاً سادياً يتلذذ بالألم، فهو لا يحب أن يقهر نفسه ويتألم، ولا هو يفرح بالاستهزاء به والجلد والموت. فمن يحب أن يُعرض نفسه وكرامته للإهانة طوعاً؟ لكن الطريق إلى أورشليم، هو الطريق إلى الجلجثة، إلى الموت من أجل خطايانا للقيامة لأجل تبريرنا. فيسوع يدخل إلى أورشليم، ليبرهن للتلاميذ والعالم أنّه لن يكون كباقي ملوك العالم يتفاخر بسلطانه وأمجاده، بل الملك الذي يرضى بالألم والموت لأجل خلاص العالم. فيسوع هو ملك الملوك ورب الأرباب.

لقد اختار الوقت المناسب لدخول أورشليم. فكان هذا الوقت عيد الفصح، إذ يأتي في هذه المناسبة أكبر عدد من اليهود للمشاركة في العيد. وكان هدف المسيح إيصال رسالته إلى أكبر عدد ممكن من الناس. ويخبرنا المؤرّخ اليهودي "يوسيفوس" الذي عاصر زمن المسيح أنّ "سيتيوس" حاكم فلسطين طلب من الكهنة أن يُحصوا عدد اليهود الذين يأتون من كل مكان للمشاركة في ذلك العيد. وعند الإحصاء تبين وجود مليونين وسبعماية ألف شخص. ففي ذلك الوقت من التواجد الكثيف لليهود أراد يسوع أن يوصل لهم هدفه الأساس من هذا الدخول. لهذا اختار وسيلة إيضاح رمزية درامية، لأنّ الإيضاح النظري الدرامي يُمجج الإنسان فرصة أكبر لاستيعاب وفهم الرسالة. وقد استخدم هذه الوسيلة أنبياء من العهد القديم، ومنهم إرميا النبي الذي عندما أراد أن يُحذّر الملك بأنّ الله سوف يعاقب شعبه على خطاياهم ويسمّح بأن يكونوا تحت نير العبودية والسبي من قبل "نبوخذنصر" ملك بابل، فإنّه صنع نيراً ووضع على عنقه وذهب إلى الملك ليوصل له رسالة العبودية (إرميا ٢٧). وبأسلوب إرميا نفسه، صمّم يسوع دخول أورشليم على حمار. فمن يريد أن يسدّ إذنيه عن سماع كلمات المسيح، يستطيع أن يرى موكب المسيح الرّاكب على حمار والمُعير عن رسالته علّه يتغيّر.

وبينما كان التَّحضير لذلك الدخول قائماً، اتَّفَق المسيح مع شَخْص لا نعرف اسمه ليقرضه حماراً بناءً على كلمة السَّرِّ "الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ". وهكذا أتى التلميذان بالحمار (الجَحْش) إلى المسيح، الذي رفض أن يمتطي حصاناً يشير إلى المشاركة في الحروب، بل اختار ركوب الجَحْش للإشارة إلى السَّلَام. والجحش لم يكن بالحيوان كما يُنظَر إليه اليوم كمثال للغباء والاحتقار، بل كان يُنظر إليه على أنه حيوان نبيل يخدم كل النهار. وقد ركب الحمير الملوك الذين أتوا رافعين راية السلام. وبعد أن وَضَع تلميذاه ثيابهما على الحمار والجحش، جلس يسوع عليه وانطلق إلى أورشليم. لقد أدرك زكريا النبي مُنذ القديم نوعية المسيا الذي ينتظره كل مؤمن، فتنبأ بأنَّه سيكون ملك السلام. فقال: "إِبْتَهْجِي جِدًّا يَا ابْنَةُ صِهْيُونِ اهْتِفِي يَا بِنْتُ أُورُشَلِيمِ هُوَذَا مَلِكُكَ يَأْتِي إِلَيْكَ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدَيْعٌ وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشِ ابْنِ أَتَانَ. وَأَقْطَعُ الْمَرْكَبَةَ مِنَ الْفَرَاسِ وَالْفَرَاسِ مِنَ أُورُشَلِيمِ وَتُقَطَّعُ قَوْسُ الْحَرْبِ. وَيَتَكَلَّمُ بِالسَّلَامِ لِلْأُمَّمِ وَسُلْطَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقْصَايِ الْأَرْضِ" (زكريا ٩ : ٩ و ١٠) .

نعم، هكذا أراد المسيح الملك أن يدخل أورشليم، وديعاً متواضعاً. لم يرد أن يدخل بين هتاف الجنود المنتصرين على أعدائهم، بل بين هتاف الجموع والأطفال المرنمين. ويصف لنا البشير مرقس بطريقة مؤثرة كيف استقبلته الجموع فيقول: "وَكَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَأَخْرُورُنْ قَطَعُوا أَعْصَانًا مِنَ الشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي الطَّرِيقِ. وَالَّذِينَ تَقَدَّمُوا وَالَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «أَوْصَنَّا! مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! مُبَارَكَةٌ مَمْلَكَةُ أَبِيْنَا ذَاوُدَ الْآتِيَةُ بِاسْمِ الرَّبِّ! أَوْصَنَّا فِي الْأَعَالِي!» . لم يرد المسيح عند دخوله أن يلوح له الجنود برماحهم وسيوفهم كما يفعلون عندما يدخل ملك عسكري، بل أراد أن يلوح له الأطفال بأغصان النخيل والزيتون. لم يرد أن يدخل ليتوجَّع بإكليل من ذهب كما يحصل للملوك، بل أراد يتوجَّع بإكليل من شوك يدمي رأسه.

هكذا يكون الملك الذي يحب شعبه. هذا هو مَنْ يستحق أن نتوجه ملك الملوك ورب الأرباب. لأنه لم يبخل بحياته لينقذ حياتنا، ولم يدافع عن كرامته ليحافظ على كرامتنا من إذلال الخطية، فتوجه إلى الصليب حتى بموته يخلصنا من خطايانا فننال الحياة الأبدية. لم يَسْعَ لأن يؤسس عرشه ومملكته في عالمنا، بل في قلوبنا حيث بسيادته علينا، يسود الإيمان والرجاء والمحبة. قال القائد الفرنسي "نابوليون بوناپرت"، وهو قابضٌ على حفنة من التراب ومتأملاً بمملكته التي زالت أمام عينيه: "أنا أسست مملكتي على الحروب، ولكن ها هي تزول أمامي، أمّا أنت يا يسوع فقد أسست مملكتك في قلوب البشر، وطالما هناك قلوب بشر فمملكتك لن تزول". آمين.

(١٤) ما وراء غَسْل الأَرْجُل

تُسَمَّى بعض الكنائس الشَّقِيقة يوم خميس أسبوع الآلام بيوم الغَسْل، تيمُّناً بغَسْل المسيح أَرْجُل تلاميذه. وبهذه المناسبة يقوم بعض قادة الكنائس بتجسيد الحدث من خلال غَسْل أرجل بعض الأعضاء، لا سيما المُقْعَدون وذوي الاحتياجات الخاصة. فما الذي كان يقصده المسيح من ذلك؟ وما الذي نستفيد منه اليوم ممَّا حدث آنذاك؟

فإذا تأمَّلنا في نصِّ غَسْل الأَرْجُل (يوحنا ١٣ : ١-٢٠)، نرى أنَّ فِعْل الغَسْل الذي قام به المسيح قد وضعه البشير في سياق يعطي الفعل معنى أوسع وأعمق وأبعد من ذات الفعل. فهناك سياق ومُعْطيات وخلفية تسبق وتلحق الحدث، تساهم في إعطائه المعنى الذي قصده المسيح. وتبدأ القصة بمقْدِمة هامة تُهيء للفِعْل، "يسوع قَبْل عيد الفصح، وهو عالمٌ أنَّ ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أَحَبَّ خاصَّته الذين في العالم أَحَبَّهُمْ إلى المُنتهى" (يوحنا ١٣: ١). هناك أمران مهمَّان يجب ملاحظتهما في هذه المقدمة. الأول، أنَّ فِعْل الغَسْل تمَّ عندما حَلَّت ساعة المسيح لينتقل من هذا العالم بموته وقيامته. والثاني، نوعية العلاقة التي تربط المسيح بخاصته، وبالتحديد في ذلك الوقت بتلاميذه. فالعلاقة هي علاقة محبة إلى المُنتهى، محبة سوف تُكَلِّف المسيح دمه على الصليب. ولذلك قام المسيح بغَسْل أرجل تلاميذه كجزء من تعبيره عن محبَّته لهم إلى المُنتهى.

قبل الغَسْل، دعا يسوع تلاميذه وتناولوا العشاء الأخير معاً. وأثناء العشاء قام عن المائدة وأخذ منشفة واتَّزَّر بها ثم صبَّ ماءً في مِغْسَل وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بالمنشفة. وعندما وصل إلى سمعان بطرس حاول ذاك أن يمنعه من فعل ذلك، غير فاهم معنى ما يقوم به المسيح. إلا أنَّ المسيح أصرَّ على غسل رجلَي بطرس، ونزولاً عند إصراره، قِيل بطرس، وهكذا غسل المسيح أرجل جميع التلاميذ (يوحنا ١٣ : ٤-١٠).

إنَّ المفتاح الأساس لفهم ما قام به المسيح يكمن في سؤاله لتلاميذه في (ع ١٢) "أَتَفْهَمُونَ ما قد صنعت بكم؟"، أي، لقد شاهدتم كيف غسلت أرجلكم بإصرار، فهل تفهمون معنى ما صنعت بكم؟ فهل نحن نفهم اليوم ما قام به المسيح؟ إنَّ غَسْل الأَرْجُل على زمن المسيح كان عملاً يقوم به العبيد لأصدقاء سادتهم وأرباب بيوتهم، لينظفوا أرجلهم من غُبار الطريق، تعبيراً عن حفاوة السادة لاستقبالهم في بيوتهم، وورغبتهم في إقامة علاقة حميمة معهم. بهذا الفعل كانت تسقُط وتزول كل الحواجز والعوائق والمسافات بين المُضيف

والضيوف. وكلنا يعلم صعوبة القيام بهذا العمل المُخجل لنا جميعًا، خاصة في حال عدم وجود عبيد. فإلى أي مدى نتحمّس للقيام بمثل هذا العمل المُخجل الذي نَشْمئزُّ منه؟ ومن مِنّا مُستعد أن يغسل أرجل أصدقاءه؟ لكن الرب يسوع المسيح قام بهذا العمل الذي يقوم به العبيد والخدّم. قال المسيح لتلاميذه: **"أنتم تدعونني مُعلّمًا وسيّدًا وحسنًا تقولون لأنّي أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمُعَلِّم قد غَسَلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض"** (يوحنا ١٣: ١٣). إن قول المسيح هذا هو دعوة لخدمة التلاميذ بعضهم لبعض بدافع المحبة. فليس هناك أي مُبرر يمنع أحد من التلاميذ للقيام بما قام به المسيح **"لأنّه ليس عبدٌ أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله. إن علمتم هذا، فطوباكم إن عملتموه"**. (يوحنا ١٣: ١٦ و١٧).

إنّ الغاية من فعل غَسَل الأرجل الذي قام به المسيح، في مرحلة هامة جداً أي في سياق التوجّه إلى الصليب، هي أن يعلّمنا حقائق روحية عن شخصه وعن نوعية الحياة والمواقف التي يرغب من أولاده أن يعيشوها في الكنيسة والعالم، بعد صعوده إلى السماء. فالأعراف والأصول الاجتماعية التي وضعها المجتمع، إن كان في الماضي أو في الحاضر قد كرّست تَبْجِيل وتكريم وخدمة المُعلِّم والسيد، فالجميع في خدمة السادة والمسؤولين والقيادات. وهذا ما يتوقعونه من الناس، لكن السيد والمعلم الرب يسوع المسيح رَفَضَ هذا المفهوم الاجتماعي رفضًا قاطعًا. يقول: **"إن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين"** (متى ٢٠: ٢٨). فالرب يسوع المسيح هو الإله المُتجسّد، الخادم الذي أتى لخدمنا بتقديمه لنا الخلاص على خشبة الصليب. هذه هي الهوية التي أراد أن يقترن بها المسيح. وعندما رفض بطرس أن يغسل المسيح رجله قال له: **"يا سيد أنت تغسل رجلي؟"**. لقد أراد بطرس أن يلتزم بالأعراف والأصول الاجتماعية السائدة آنذاك واليوم والتي تشدّد على أنه يجب التعاطي مع المعلم فقط كمعلم وسيد، وليس كخادم. لهذا أجابه المسيح: **"يا بطرس لست تعلم الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد"** (يوحنا ١٣: ٧). وعندما أصّر بطرس ثانية على عدم السّماح للمسيح بغَسَل رجله: **"لن تغسل رجلي أبدًا"** (يوحنا ١٣: ٨)، أجابه جوابًا قاسيًا: **"إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب"** (يوحنا ١٣: ٨). لقد حدّر المسيح بطرس من إمكانية خسارته للنّصيب معه في ملكوت الله، من إمكانية خسارته لعمل الصليب في حياته، لا سيما أن الساعة قد أتت ليتوجّه المسيح إلى الصليب، إن هو أصّر على الأعراف والأصول الاجتماعية ورَفَضَ فِكرَةَ المسيح الخادم الذي أتى لخدم حاجة الإنسان الروحية للخلاص بموته على الصليب وحاجات الناس الجسدية والنفسية بعجائبه وشفاءاته المُتنوعة. وعندما سمع بطرس إجابة المسيح القاسية، تأكّد أنه لا بُد أن هناك معنى ما أبعد من الحدث، ورسالة أهم من موقفه وعناده برَفْضه السّماح للمسيح بغَسَل رجله. عندها قبّل بطرس أن يغسل المسيح رجله قائلاً له: **"يا سيد ليس رجلي فقط بل أيضًا يدي ورأسي"** (يوحنا ١٣: ٩). وهكذا بقبول بطرس للمسيح في دوره المفاجيء هذا كسيد خادم، حصل بطرس على فرحة المشاركة في نصيب ملكوت الله.

في عالم التربية والقيادة، أُدْخِلَ حديثًا مفهوم جديد استُمدَّ من مفهوم يسوع المسيح للقيادة، هو القيادة الخادمة (Servanthood Leadership). يشدّد هذا المفهوم الجديد على أن القائد والرئيس في أيّة مؤسسة تربوية هو قَبْلَ كل شيء خادم، يقدِّم لجميع الذين يعملون معه مثالاً في الخدمة. فرسالة القيادة الخادمة هي الرسالة التي أراد المسيح أن يوصِّلها لتلاميذه في الماضي، ولنا اليوم. وفي اللحظات الأخيرة قبل توجُّهه إلى الصليب ليُعلن لتلاميذه الأهمية القصوى للخدمة في ملكوت الله. قال: "أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم، فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيمًا، فليكن لكم خادمًا ومن أراد فيكم أن يكون أولاً فليكن لكم عبدًا" (٢٦ و٢٥). وبقوله هذا وضع مفهومًا جديدًا للخدمة، يتعارض مع المفهوم السائد في مجتمعاتنا. فنحن نظن أن العظمة في التسلُّط على المراكز والسيادة على حياة الناس، لكن المسيح يقول: "لا يكون هكذا فيكم". فالعظمة بمفهومه، ومفهوم ملكوت الله، هي في الخدمة في غسل أرجل الناس.

إنّ دعوة المشاركة في حياة المسيح هي أيضاً دعوة للمشاركة في الخدمة. ولأسف يحلو للبعض أن يفصل بين الدعوتين، لكنهما وجهان لعملة واحدة. ويرغب البعض أن يشدّد على الخدمة ويُهمل المشاركة في يسوع المسيح. فالكثير من المؤسسات المسيحية الخيرية انطلقت تاريخياً من دعوة المسيح للخدمة، كالصليب الأحمر وغيرها من المؤسسات، والله يبارك هذه الخدمة، لكن لاحقاً فصلت هذه المؤسسات بين الدعوتين، فالتزمت بالخدمة وأهملت الإيمان بيسوع المسيح. وقد قال أحد اللاهوتيين: "عندما تُجسّد جماعة الإيمان محبة المسيح بخدمتها للآخرين، فهي لا تكشف فقط عن حقيقة هوية يسوع المسيح، لكنّها تخلق هوية جديدة لها. هوية تؤكد أن المشاركة في حياة المسيح تقتضي المشاركة في خدمة الآخرين".

مما لا شك فيه أن قصة غسل المسيح أرجل تلاميذه الذين أحبهم إلى المنتهى، سبقت لها أثراً عميقاً مميزاً يشير إلى عظمة وتواضع إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، الذي قام بهذا العمل العظيم، ومن ثم توجّه إلى الصليب. لكن ما وراء هذه القصة درساً روحياً أراد المسيح أن نتعلمه جميعاً، هو أن العظمة الحقيقية بحسب مقاييس ملكوت الله هي في خدمة الناس بتقديم يسوع المصلوب لهم رباً ومُخْلِصاً وخدمة احتياجاتهم لا سيما الفقراء والمحتاجين منهم. آمين.

(١٥) التَّلْمِذَةُ وَالصَّلِيبُ

التلمذة والصليب صنوان لا يفترقان، بل يرتبطان ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً يجب ألا يُفكَّ. فكما أن الصليب جزء أساسي في خطة الله من أجل خلاص الإنسان، هكذا أيضاً هو جزء أساسي تتطلبه التلمذة الحقيقية. وكما أن المسيح سار على درب الصليب، هكذا على التلميذ الحقيقي أن يحمل صليبه ويتبع سيده على الدرب نفسه.

هذا ما أراد المسيح أن يعلنه لنا في حوارهِ مع بطرس والتلاميذ (متى ١٦: ٢١-٢٦). فبعد أن أعلن بطرس عن إيمانه بالمسيح في قيصرية فيلبس: "أنتَ هو المسيح ابن الله الحي"، وأجابهُ المسيح على تصريح إيمانه: "أنتَ بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها". فقد أعلن المسيح لبطرس ولتلاميذه، وللمرة الأولى في إنجيل متى أن خطته من أجل فداء العالم تتضمن التوجه إلى الصليب. يقول متى: "في ذلك الوقت ابتداء يسوع يظهر لتلاميذه إنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم". إلا أن بطرس الذي أعلن إيمانه بالمسيح قبل قليل، تفاجأ واندهش من قول المسيح هذا، لأنه لم يكن يتوقع أن يتعرض المسيا للألم والقتل. فالمسيا بالنسبة له، وفي المفهوم الشعبي السائد آنذاك، هو مسيا المجد والانتصار، الذي سيقوم بثورة على الرومان وينتصر عليهم ويرد الملك إلى إسرائيل. فالمسيا بالمقاييس الإنسانية السائدة آنذاك هو مسيا النجاة والانتصار والمجد، وليس مسيا الصليب والألم والقتل. لهذا نرى أن ردة فعل بطرس على كلام المسيح كانت قوية جداً. فبطرس أخذ المسيح وأحاطه بين يديه، وكأنه يحاول أن يمنعه من القيام بعمل مُتهوّر، وصار ينتهره بلهجة قاسية قائلاً: "حاشاك يا رب لا يكون لك هذا". فمحبته بطرس للمسيح وتبنيهِ للمفهوم الإنساني السائد حول المسيا المنتظر دفعاه إلى انتهاره. ومن ثم نفهم من ردة فعل المسيح أن بطرس بموقفه هذا كان مُخطأً لأنه تصوّر مسيحاً بلا صليب، بلا ألم، بلا موت. في كثير من الأحيان تأتي التجارب الصعبة من الأشخاص الذين نحبهم ويحبوننا، وذلك لأنه ينقصهم إدراك روحي لبعض الحقائق المسيحية. إنَّ موقف بطرس أمام تصريح المسيح عن ضرورة أن يجتاز دُرب الصليب والألم والموت، كان ينقصه البعد الإلهي والنظرة الإلهية إلى ضرورة موت المسيح ليخلصنا من خطايانا. لهذا، فإنَّ ردة فعل المسيح على موقف بطرس جاءت قوية كالمُعاقة، لأن تفكير بطرس الإنساني هذا غير مسموح به في ملكوت الله. لقد قال المسيح لبطرس: "اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس" (متى ١٦: ٢٣). لقد اهتم بطرس بمفهوم الناس عن المسيا وليس بمفهوم الله، لهذا قال له اذهب عني يا شيطان. وقول المسيح هذا لبطرس، يأتي بعد قوله له

في (ع) ١٨ "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة". فبطرس الصخرة صار بطرس حجر العثرة لأنه رفض الصليب. بطرس، بطل الإيمان المعترف بأن المسيح هو ابن الله الحي، صار أداة الشيطان لأنه رفض الصليب. يقول كاتب رسالة العبرانيين: "ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مُستهيناً بالخزي فجلس في يمين عرش الله" (عبرانيين ١٢: ٢). فالصليب كان موضع سرور المسيح، ليس لأنه يفرح بالألم، بل لأنَّ خلاصنا وفداءنا لا يتحققا ولا يكتملا إلاً بموته على الصليب وقيامته من بين الأموات. لقد استهان رئيس إيماننا ومكمله يسوع المسيح واستسهل الخزي، لأنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون.

فتوقّعات بطرس الإنسانية حول المسيا وأمنيته للمسيح بأن يقضي حياة راحة وسلام وطمأنينة، تشبه وعود إبليس للمسيح في تجربته في البرية. فتجارب إبليس للمسيح تمخّرت حول منحه حياة سلام وراحة، بلا جوع ولا ألم ولا صليب، حياة مجد وسلطة وشهرة، شَرَطَ أن يخضع ويسجد له، لهذا رفضها المسيح قائلاً له: "إذهب عني يا شيطان، لأنَّه مكتوب للربِّ إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" (متى ٤: ١٠). وعندما بدت وعود بطرس للمسيح بحياة راحة وطمأنينة واستبعاد الصليب شبيهة بتجارب الشيطان، شبه المسيح بطرس بالشيطان وقال له "إذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي". لقد فسّر أحد آباء الكنيسة قول المسيح هذا لبطرس بأنَّه يعني اذهب ورائي، فمكانك الصحيح يا بطرس ليس أمامي ولكن ورائي، دورك يا بطرس أن تتبعني إلى المكان الذي أنا اختاره، ولا تحاول أن تقودني إلى المكان الذي أنت تبغي أن توصلني إليه.

فكما أن الصليب من صُلب رسالة المسيح لفداء العالم، هكذا فإن الصليب هو أيضاً من صُلب حياة المسيحي، ليس لأن المسيحي يُحبُّ الألم ويسعى وراءه، بل لأنَّ التلمذة الحقيقية تتطلب مواقف حازمة وصلّبة وصادقة تسبب لنا الآلام والصعوبات التي قد تُسميها آلام صليبنا اليومي.

يحاول بعض الأصدقاء، ومن فرط محبتهم لنا أن يقدّموا لنا طريقاً سهلاً آمناً ويُبعدوننا عن الصعوبات. لكن من الذي يدّعي بأن هناك حياة مسيحية بلا صليب وصعوبات؟ فمسيحية الراحة والأمان هي مسيحية النعمة الرخيصة كما يقول اللاهوتي الإنجيلي "ديتريش بونهوفر". والنعمة الرخيصة هي عندما نحاول في عظائنا وعلاقاتنا أن نُصوّر الحياة المسيحية مليئة فقط بالورود دون أشواك، فتفقد النعمة قوتها ومعناها وتصبح رخيصة دون ثمن. وبالتالي، فالشيطان هو أيّ قوة أو تأثير يسعى أن يُعيقنا عن الوصول إلى المسيح بخجّة أن الطريق صعب ومليء بالأشواك والآلام. فالذي يريد أن يختار حياة الراحة والسلام والطمأنينة على حساب إيمانه بالمسيح سوف يخسر المسيح ويفقد العلاقة مع الله. قال المسيح لبطرس والتلاميذ، ويقول لنا جميعاً اليوم: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليُنكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني، فإنَّ من أراد أن يُخلص نفسه يهلكها ومنَّ

يهلك نفسه من أجلي يجدها . لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يُعطي الإنسان فداء عن نفسه؟" (متى ١٦: ٢٥ و٢٦). لقد ربط المسيح بين التلمذة والصليب، فمن أراد أن يصير تلميذاً له عليه أن يسلك الدرب الذي سلكه سيده، أي درب الصليب. لأن من أراد أن يُخلص نفسه ويؤمن لنفسه الراحة والطمأنينة فإنه سيخسرهما، كما حصل مع ذلك الغني الغبي (لوقا ١٢: ٢٠)، الذي ظن أن خلاص نفسه براحته وفرحه بأمواله، فخاطب نفسه قائلاً: "يا نفسي لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة فاستريحي وكلي واشربي وافرحي". لكن الله خاطبه أيضاً قائلاً: "أيها الغبي هذه الليلة تُطلب نفسك منك، فهذه التي أعدتها لمن تكون؟".

يقول المسيح: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني". فإنكار النفس وحمل الصليب يعنيان: لا لملذات نفسي، لا لمصالح الشخصية، نعم للمسيح. أي أن أنزل متطلبات الأنا والذات عن العرش وأضع عليه المسيح الملك. إنكار النفس يعني إعادة توجيه كل الحياة ليس باتجاه النفس ولكن باتجاه الله الذي أعلن عن نفسه في ابنه يسوع المسيح الذي صُلب ومات وقام لأجلنا جميعاً لتكون لنا حياة ويكون لنا أفضل، وتوجيهها نحو الأخبار السارة في الإنجيل، ونحو خدمة الآخرين.

فالتلمذة والصليب صنوان لا يفترقان. التلمذة والصليب هما رحلة الإنسان المسيحي في هذه الحياة. فالتلمذة لا نتعلمها دفعة واحدة عند الإيمان، بل نتعلمها من المسيح تدريجياً على الطريق كما تعلمها بطرس لاحقاً عندما نضج في اختباراه مع المسيح.

إن لقاء المسيح مع بطرس وما دار بينهما من حوار ومُشادة يتضمّن في الوقت نفسه: تحذيراً وتشجيعاً لنا جميعاً. هو تحذير للمؤمنين الذين لديهم ثقة زائدة بأنفسهم ويتباهون بعضلاتهم الروحية، ويردّدون دائماً أقوال مُبرّجة (بأننا مُخلصون). فليتذكروا دائماً أن بطرس الذي كان قد اعترف بأن المسيح هو ابن الله الحي، عاد وسقط فلُقبه المسيح بالشيطان. لهذا فمن يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط، بل لنتواضع دائماً أمام الله مُعتمدين بشكل كامل على نعمته. وهو أيضاً تشجيع للمؤمنين الذين يتعرّض إيمانهم لأوقات صعبة، إمّا من خلال عدم فهمهم لبعض الأمور، وإمّا لتجارب صعبة كما حدث مع بطرس. فالتشجيع لنا جميعاً هو في إكمال بطرس لمسيرته مع المسيح، واختباره الشخصي لعظمة محبته ومعجزة غفرانه. فبعد تلك الاختبارات الروحية فهم بطرس لاحقاً بأن لا مسيح بلا صليب، ولا تلمذة بلا صليب، وهكذا سار في درب الصليب . آمين.

(١٦) ماذا يعني لك الصليب ؟

في أسبوع الآلام تتوجّه أنظار المسيحيين في العالم للتفكير بمعنى حدث موت المسيح على الصليب. لهذا نسأل لماذا الصليب؟ قال المسيح لتلاميذه: "تعلمون أنّه بعد يومين يكون الفصح ويُسلّم ابن الإنسان ليُصلب" (متى ٢٦: ٢). و"من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يُظهر لتلاميذه إنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم" (متى ١٦: ٢١). فلماذا رأى المسيح ضرورة في الصليب؟ وقد شدّد على الضرورة بذكره كلمة "ينبغي". ألم يكن من الممكن أن يتجنّب الصليب؟ فالسؤال الأساس الذي يجب أن يسأله كل مسيحي، ليس فقط في أسبوع الآلام، بل في كل وقت هو: لماذا صلب المسيح؟ وهل يعني لك الصليب شيئاً؟

إن قصة الصليب تُشغل مساحة مهمّة في الأناجيل. قال أحد اللاهوتيين: "كلّ الأصحاحات التي تسبق قصة الصليب في الأناجيل، إنّما هي مقدمة لقصة الصلب والقيامة". هذا القول يؤكّد الأهمية الكبرى التي يعطيها البشّيون الأربعة لصلب المسيح وقيامته. عندما نتتبع قصة الصليب في الأناجيل، نلاحظ أن تلاميذ المسيح ومُحيّيه والمريميات لم يكونوا قادرين على فهم سبب صلب المسيح، وما الذي فعله ليستحق أن يُصلب. فهو الذي قال: "من منكم يُبكتني على خطية؟" (يوحنا ٨: ٤٦). لقد سبب صلبه حزناً والأسى لكل محبّيه، فتساءلوا كيف ينتصر الشرّ على الخير؟ واليأس على الرجاء؟ والموت على الحياة؟ لم يستطع أحد من أتباعه أن يفسّر معنى الصليب أثناء الصلب، لكنهم استطاعوا أن يفهموا ذلك بعد رؤيتهم واختبارهم للمسيح المقام. ولا يستطيع أحد اليوم أن يفهم معنى الصليب إلا في ضوء القيامة. لهذا عندما شرح الرسول بولس معنى الصليب فإنّه ابتدأ من زاوية القيامة، لأن القيامة هي التي تُلقي الضوء الحقيقي على معنى الصليب، فلا معنى للصليب من دون ارتباطه بالقيامة.

فإذا ألقينا نظرة تاريخية على الصليب، نرى أنه استُخدم تاريخياً كأداة عقاب لمعاقبة المجرمين والمتمردين الملعونين، لأنه "مكتوب ملعون كل من علّق على خشبة" (غلاطية ٣: ١٣). لكننا لا نستطيع أن نفهم معنى الصليب من دون معرفة من هو الشخص المصلوب عليه، يسوع المسيح، الذي أتى إلى عالمنا ليكون لنا حياة ويكون لنا أفضل. صحيح أنه كان شخصية مهمة في التاريخ، لكنّه كان أسمى من التاريخ وفوق التاريخ، وسيد التاريخ. لم يتوجّه المسيح إلى الصليب كشهيد أو كضحية لا حول ولا قوة له، بل توجّه إلى الصليب بملء حرّيته واختياره. لا لأنه يهوى العذاب

والألم والموت، بل لأنه هدف إلى أمر ما وراء الصليب، إلى ما هو أبعد من الصليب، إلى الإنسان الذي أحبه إلى المنتهى. نعم كان من الممكن أن يتجنب الصليب. هذا ما أكدّه البشير متى حين روى قصة الصلب، فقد أخبرنا أنّه حين ألقى رؤساء الكهنة والكتبة القبض على يسوع ليقتادوه إلى المحكمة. قال يسوع لبطرس حين تحمّس وضرب فقطع إذن عبد رئيس الكهنة بسيفه: "أتظن أنني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من إثني عشر جيشاً من الملائكة؟" (متى ٢٦: ٥٣). نعم كان من الممكن أن يطلب المسيح من الآب السماوي أن يخلّصه من الصليب، لكنه رفض بملاء حريته أن يقوم بذلك. لماذا؟ يُجيب بولس: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل من علّق على خشبة" (غلاطية ٣: ١٣).

إنّ جواب الرسول بولس هذا هو أساسي جداً لفهم السبب الكامن وراء رغبة المسيح أن يصلب لأجلنا. فالسبب يكمن في تخليصنا من لعنة الناموس. فما هي لعنة الناموس هذه؟ يُخبرنا سفر التثنية، في الأصحاحين السابع والعشرين والثامن والعشرين أن هناك ثواب للذين يطيقون شريعة موسى وعقاب على الذين يرفضون تطبيقها. فالثواب هو منح البركة: "إِنْ سَمِعْتَ سَمْعاً لِسُوتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ لِتَحْرِمَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ يَجْعَلُكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ مُسْتَعْلِياً عَلَى جَمِيعِ قَبَائِلِ الْأَرْضِ. تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ وَتُذَرِّكَ إِذَا سَمِعْتَ لِسُوتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ. مُبَارَكاً تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمُبَارَكاً تَكُونُ فِي الْحَقْلِ. وَمُبَارَكَةٌ تَكُونُ ثَمَرَةٌ بَطْنِكَ وَثَمَرَةٌ أَرْضِكَ وَثَمَرَةٌ بَهَائِمِكَ نِتَاجُ بَقْرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ. مُبَارَكَةٌ تَكُونُ سَلْتُكَ وَمِعْجَنُكَ. مُبَارَكاً تَكُونُ فِي دُخُولِكَ وَمُبَارَكاً تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ" (تث ٢٨: ١-٦).

أما العقاب فهو إنزال اللعنة. وهذا التطبيق للشريعة هو تطبيق كامل لكل أجزائها إذ أنّ "من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكل" (يعقوب ٢: ١٠). ويعيّد كاتب سفر التثنية مضمون هذه اللعنات، التي نذكر منها: "لكن إن لم تسمع لِسُوتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ لِتَحْرِمَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَقَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هَذِهِ اللَّعْنَاتِ وَتُذَرِّكَ. مَلْعُوناً تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُوناً تَكُونُ فِي الْحَقْلِ. مَلْعُونَةٌ تَكُونُ سَلْتُكَ وَمِعْجَنُكَ. مَلْعُونَةٌ تَكُونُ ثَمَرَةٌ بَطْنِكَ وَثَمَرَةٌ أَرْضِكَ نِتَاجُ بَقْرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ. مَلْعُوناً تَكُونُ فِي دُخُولِكَ وَمَلْعُوناً تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ. يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالْإِضْطِرَابَ وَالرَّجْزَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعاً مِنْ أَجْلِ سُوءِ أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكَتَنِي. يُلصِقُ بِكَ الرَّبُّ الْوَبْأَ حَتَّى يُبِيدَكَ عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسِّلِّ وَالْحَمَى وَالْبَرْدَاءِ وَالْإِلْتِهَابِ وَالْجَفَافِ وَاللَّفْجِ وَالذُّبُولِ فَتَتَّبِعُكَ حَتَّى تُفْنِيكَ. وَتَكُونُ سَمَاوُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نَحَاساً وَالْأَرْضُ الَّتِي تَحْتِكَ حَدِيداً. وَيَجْعَلُ الرَّبُّ مَطَرَ أَرْضِكَ غُبَاراً وَتُرَاباً يُنَزَّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى تَهْلِكَ. يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَزِماً أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ وَفِي سَبْعِ طَرِيقٍ تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ وَتَكُونُ قَلِيقاً فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الْأَرْضِ. وَتَكُونُ جُنَّتُكَ طَعَاماً لِجَمِيعِ طُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مَنْ يُرْعِجُهَا. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقَرْحَةٍ مِصْرَ وَبِالْبَوَاسِيرِ

وَالْجَرَبِ وَالْحِكَّةِ حَتَّى لَا تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِجُنُونٍ وَعَمَى وَخَيْرَةَ قَلْبٍ. فَتَتَلَمَّسُ فِي الظُّهْرِ كَمَا يَتَلَمَّسُ الْأَعْمَى فِي الظُّلَامِ وَلَا تَنْجَحُ فِي طُرُقِكَ بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مَظْلُومًا مَغْضُوبًا كُلَّ الْأَيَّامِ وَلَيْسَ مُخَلِّصًا" (تثنية ٢٨: ١٥-٣٥). إذا فكّرنا عن طبيعة هذه اللعنات القاسية، نرى أنها تضع الإنسان المُتَعَدِّي للشريعة في حالة خطية مُدمّرة، في انفصال كامل عن الله، فيصير الإنسان الخاطيء مهجوراً متروكاً بشكل كامل من الله، يعاني القلق والاضطراب والحيرة والحزن والمرض والألم والخزي والهزيمة والفشل والفناء والموت.

فالمسيح افتدانا على الصليب أي دفع فديتنا، فحمل وتحمل على الصليب مرارة وقساوة تلك اللعنات. وفي هذا السياق نفهم صرخة المسيح العظيمة على الصليب حين صرخ قائلاً: "إلوي إلوي لما شبقتني، الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (مرقس ١٥: ٣٤). نعم لقد تحمل المسيح على الصليب مرارة اللعنة، فشعر بانه مهجور ومتروك من الآب، لقد شعر بالحزن والاضطراب إلى أن وصل إلى الموت وأسلم الروح، لكنه قام في اليوم الثالث منتصراً على الموت. يقول بولس: "إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا لِنُصِيرَ نَحْنُ بَرَّ اللَّهِ فِيهِ". فسمح الله لابنه يسوع البار أن يصير لعنة وخطية لأجلنا، لأنّ موت المسيح سيعود بالخير والبركة والغفران علينا، وعلى كل البشر الذين يلجأون إلى صليب المسيح بالتوبة. لقد تحمل المسيح كل هذا على الصليب، "لأجلنا"، لأجلك، ولأجلي. يقول اللاهوتي الإنجيلي المعاصر "كارل بارت" إنّ أعظم كلمة كتبت في الكتاب المقدس هي كلمة "لأجلنا" أو "بديلاً عنا" وبال يونانية hyper hemon. وهذه الكلمة تتكرّر مرّات عدّة في رسائل بولس وبطرس.

إن مشكلة الإنسان الأساسية هي الخطية. هذا ما يؤكده الكتاب المقدس إذ يقول: "الجميع أخطأوا وأعوذهم مجد الله". ويعرّف الرسول بولس الخطية بأنها (١) انفصال الإنسان عن الله (٢) عبودية الإنسان في الفكر والقلب والإرادة لقوى الدّهر الحاضر البعيد عن الله. (٣) تمركز الإنسان حول ذاته وسلطته وماله وإنجازاته بعيداً عن الله.

إنّ اهتمام يسوع المسيح بالإنسان الذي تملّكه الخطية كان جلياً في الأناجيل، فقد اختلط المسيح بالخطاة ودخل بيوتهم وشاركهم مائدتهم بقصد تغييرهم. ولشدة اهتمامه بالخطاة، اتّهمه الكتبة والفريسيون بأنّه صديقهم، أما جوابه فكان: "لَمْ آتِ لِأَدْعُو أَبْرَاراً، بَلْ خَطَاةً إِلَى التُّوبَةِ" (متى ٩: ١٣). وحين سرد البشير لوقا قصة الصّلب ذكر أنّه بينما كان المسيح متوجّهاً إلى الجلجثة، عاونه في حمل الصليب سمعان القيرواني، وقد تبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يَلْطَمُنَ أيضاً ويُنْحَنَ عليه. فالتفت إليهن قائلاً: "يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن" (لوقا ٢٣: ٢٨). فالمسيح في طريقه إلى صليب الجلجثة لم يبك على نفسه بل بكى على بنات وشباب أورشليم، وعلى أولادهم لأنهم كانوا يعيشون مأساة روحية ببعدهم عن الله. فالبكاء في أسبوع الآلام لا يكون على المصلوب، بل على أنفسنا على كل إنسان خاطيء لا يزال يعيش

في مأساة روحية بعيداً عن الله، ولم يتجاوب مع محبة المصلوب بتقديم حياته له.

لقد وجد الرسول بولس فخره ومجده ومعنى حياته في الصليب. لهذا صار يلهج فيه نهاراً وليلاً. فقد قال لأعضاء كنيسة غلاطية: **"وأما من جهتي أنا فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي صلب به العالم لي وأنا للعالم"** (غلاطية ٦: ١٤). فكل كرازته تمحورت حول الصليب. فلكنيسة كورنثوس قال: **"لأنني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً"** (١ كورنثوس ٢: ٢). فكلية الصليب اختصرت في فكر بولس كل قصة محبة واهتمام الله بالإنسان الخاطيء. كما قال للكنيسة: **"لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله"** (١ كورنثوس ١: ١٨). فالصليب هو قوة الله، لأنه لا يشير إلى إنجاز الإنسان، بل إلى إنجاز الله، الصليب لا يشير إلى حكمة الإنسان بل إلى حكمة الله. الصليب في المصلحة يشير إلى القيامة حيث أظهر فيه الله عظمة قوته.

ماذا يعني لك الصليب؟ سأل الرسول بولس هذا السؤال بصياغة مختلفة لكنيسة كورنثوس التي احتوت بعض الأعضاء الذين تأثروا بالعالم الخارجي، العالم الروماني واليوناني الذي انشغل بالحكمة والمعرفة والسلطة والإنجازات البشرية، وهذا الانشغال بهذه الاهتمامات لم يتغير حتى اليوم عند معظم الناس، إذ يستمدون منه معنى حياتهم. وهذا بالتحديد كان مشكلة بعض أعضاء كنيسة كورنثوس، وأيضاً مشكلة الكثير من أعضاء كنائسنا اليوم، الذين بالرغم من ادعائهم بأنهم مسيحيون، إلا أنهم يتجاهلون قوة الصليب ومعناه ليستمدوا معنى حياتهم من مراكزهم وحكمتهم وسلطتهم ومالهم. يقول بولس: **"لأن المسيح لم يُرسلني لأعبد بل لأبشر، لا بحكمة كلام، لئلا يتعطل صليب المسيح"** (١ كورنثوس ١: ١٧). فالذين يتجاهلون قوة الصليب ومعناه، ليستمدوا معنى حياتهم من مراكزهم وحكمتهم وسلطتهم ومالهم، يقول عنهم بولس إنهم **"يعطلون صليب المسيح"**، ويفرغونه من قوته ومعناه.

في أسبوع الآلام، ونحن نتذكر صلب المسيح لأجلنا، حذار من أن نفرغ الصليب من معناه ومن قوته. دعونا نسجد للمصلوب ونسأله أن يمنحنا حكمته وقوته، لكي نعيد التفكير بمعنى صليبه **"لأجلنا"**، فيصير الصليب فخرنا ومجدنا وحياتنا. آمين.

(١٧) نعمة قيامة المسيح المدهشة

في مَلخمة "جلجامش" الشهيرة، والتي كُتبت في الألفية الثانية قبل الميلاد تقريباً، يسأل البطل السومري "جلجامش" نفسه: "هل هناك طريقة لأتخلص بها من الموت؟" وذلك بعد أن فجعه وخيب أمله موت صديقه الحميم "إنكيدو". لم يتقبل صدمة موت صديقه، لهذا بحث عن طرقٍ تساعد على حماية نفسه من مصير الموت المحتم. وقد قيل له إنَّ هناك عُشبة تنبت في بلادٍ بعيدة عليه أن يقوم برحلة طويلة وشاقة للوصول إليها. فلم يُبدِ أي تردُّد، بل قام بتلك الرحلة الطويلة حتى بلغ المكان المنشود. إلا أنه ولسوء حظه وتعاسته المتجددة لم يعثر على العُشبة، إذ قيل له إنَّ الأفعى أكلتها وأنَّ هذه النبتة لم تعد موجودة. عندها أدرك عجزه أمام الموت، إذ لم تفلح كل قوته وقدراته في منحه الخلود.

وعلى العكس من هذه القصة تخبرنا أخبار الفصح السارة أنَّ ما عجزت الإنسانية عنه عبر التاريخ قد حقَّقه الله في الفصح. هذا ما قاله يسوع لتلاميذه (لوقا ١٨ : ٢٧) **"غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله"**. لقد فشل "جلجامش" وكافة البشر عبر التاريخ في محو الموت وإعلان الحياة. أما الرسول بولس فيقول لنا، خلافاً لهذا، ما قاله لتيموثاوس في رسالته الثانية بأنَّ الله خلَّصنا ودعانا للقداسة لا لشيءٍ فعلناه بأنفسنا، بل بحسب مشيئته ونعمته. لقد مُنحت هذه النعمة لنا قبل إنشاء العالم، إلا أنَّها لم تتكشف أمامنا إلا مع ظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأعلن الحياة وعدم الزوال من خلال الإنجيل (٢ تيموثاوس ١ : ٩-١١)

تبيّن قصة الفصح في إنجيل متى أنَّ الخطاة حاولوا تعويق الله ومنع قيامة ربنا يسوع المسيح. فيخبرنا الكاتب أنَّه بعد أن صُلب يسوع ومات ودُفن في القبر، تذكّر رئيس الكهنة والفريسيون أنَّ يسوع قال حين كان حياً إنَّه سيقوم بعد ثلاثة أيام. تحدث يسوع عن قيامته مرّة واحدة، وإنَّ بغموض، في متى حين قال: **"وكما كان يونان النبي في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ"**. (متى ١٢ : ٤٠). إلا أنَّه يبدو أنَّ الجموع فهموا أنه يتحدث عن قيامته هو. لهذا، ولكي يَحُولوا دون قيامته، اتَّخذ رئيس الكهنة كل الإجراءات العسكرية والسياسية بالاتفاق مع بيلاطس، الذي قال لهم: **"عندكم حراس إذهبوا واضبطوه كما تعلمون"** ثم يتابع النص "فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر" (متى ٢٧ : ٦٥-٦٦).

ولكن، في الفصح فشلت كل الجهود البشرية والإجراءات العسكرية والسياسية المتخذة لمنع قيامة المسيح. ففي فجر يوم القيامة، نزل ملاك الرب من السماء ودحرج الحجر، فارتجف الحراس بشدة وتجمدوا كالموتى من شدة الخوف. فقال الملاك للمريمات اللتين جاءتا باكراً إلى القبر: "أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا لأنه قام كما قال. هلما انظرا الموضوع الذي كان الرب مضطجعا فيه. وإذها سريعا وقولا لتلاميذه إنه قام من الأموات." (متى ٢٨: ٥-٧). نعم، لم تعتمد قيامة المسيح على جهود البشرية الخاطئة، ولم تعتمد على ولاء التلاميذ وثقتهم في وعود المسيح أو حفاظهم عليها، خاصة وعده بقيامته. يسجل إنجيل متى العديد من المواقف التي يقول فيها يسوع لتلاميذه إن ابن الإنسان سيموت ويقوم في اليوم الثالث. لكن ذكرتهم، إمّا أن تكون قد خانتهن أو إنهم لم يفهموا ما كان يقول، مع أن رئيس الكهنة قد فهم ما قاله يسوع كما يبدو .

لننظر إلى موقفين أشار فيهما يسوع إلى قيامته أمام التلاميذ: (١) يسجل (متى ١٦: ٢١): "من ذلك الوقت ابتداء يسوع يظهر لتلاميذه إنه ينبغي أن يذهب إلى اورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفي اليوم الثالث يقوم". هنا يبدو أن التلاميذ فهموا أنه يتحدث عن موته وليس عن قيامته. إذ حين أنهى يسوع قوله السابق، أخذه بطرس إليه وابتداء ينتهره قائلاً حاشاك يا رب لا يكون لك هذا (متى ١٦: ٢٢).

(٢) الموقف الثاني (متى ١٧: ٢٢-٢٣) أثناء تواجدهم في الجليل، يقول يسوع لتلاميذه: ابن الإنسان سوف يُسلم إلى أيدي الناس فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم. ويسجل الكاتب ردة فعل التلاميذ بعد سماعهم ما قال يسوع إذ يقول إنهم "حزنوا جداً".

بالرغم من أن يسوع تحدث عن ابن الإنسان الذي سيموت ويقوم، لا يبدو أن التلاميذ حفظوا ما قاله أو فهموه. يقول لنا المصلح "مارتن لوثر" إن الخبرة علمته عن حنكة الذاكرة البشرية في حماية غرورنا وخطيئتنا. تكشف هذه الخطيئة بوضوح عند اعتقال يسوع وتسليمه لبرائثن الموت. يقول (متى ٢٦: ٥٦) إنه حين اعتقل يسوع "تركه التلاميذ كلهم وهربوا" نعلم أن "يهودا الإسخريوطي" خانه، وبترس أنكره، أما التلاميذ العشرة الباقون فهربوا. لم يعتقد أي منهم أنه سيقوم من القبر، لهذا تفرقوا يأساً وخوفاً وبخيبة أمل. تشهد قيامة يسوع المسيح عن الضلال التام للطبيعة البشرية والتي نراها في سلوك رئيس الكهنة وفي ضعف ذاكرة التلاميذ وعجزهم عن فهم وعد الحياة الإلهي لنا. لو أن قيامة الرب قد تأسست على ثقة التلاميذ وفهمهم، لبقى يسوع في القبر إلى الأبد وزالت المسيحية بعد موته، كما يؤكد بولس الرسول في (١ كورنثوس ١٥: ١٧): "إن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم. أنتم بعد في خطاياكم". نعم، قد يكون إيماننا باطلاً لو أننا اتكلنا على الجهود والمصادقية البشريتين. ولكن، شكراً لله لأن قيامة المسيح شهادة عن نعمة الله المدهشة التي لا تتأسس على مزايانا بل تتحقق بالرغم من خطايانا وذاكرتنا

الفاشلة وعجزنا عن فهم عطية الحياة الإلهية لنا . لقد انكشفت هذه النعمة، كما يقول بولس، بظهور مخلصنا يسوع المسيح، الذي أبطل الموت وأعلن الحياة .

لقد تحققت نعمة المسيح المدهشة من خلال تشكيل جماعة إيمان جديدة هي جماعة القيامة . يدوّن إنجيل يوحنا حدث القيامة ومنح الروح القدس في يوم واحد، أول أيام الأسبوع . فيقول في الأصحاح العشرين أنّ الرب ظهر عشية يوم القيامة لتلاميذه ونفخ فيهم قائلاً **"خذوا الروح القدس"** . هكذا بدأت جماعة القيامة والإيمان التي لا تشتق هويتها وحياتها وحضورها من قدرات بشرية أثبتت عجزها وإنما من ربها المقام، الذي يدعونا لنثق في غفرانه لخطايانا والذي يدعونا لمعرفة واختبار قوة قيامته .

عندما قابل يسوع المريمثين عند القبر، قال لهما: **"إذها وقولا لأخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني"** (متى ٢٨ : ١٠) . قال أحدهم: (أن تغفر يعني أن تنسى) . لقد ظهرت نعمة يسوع المدهشة في غفرانه المدهش لتلاميذه ونسيانه لكل مواقفهم السيئة التي ظهرت يوم الجمعة العظيمة . لم يقوّم غفران يسوع تلمذة التلاميذ فقط، بل جعل منهم أخوة معه في عائلة واحدة أيضًا لم يقل يسوع للمريمثين إذها وأخبرا تلاميذي، بل **"إذها وأخبرا أخوتي"** بأنني أشتاق لهم وأحبهم، ويقول يسوع لنا: أشتاق لكم لأنني أحبكم . هذه هي جماعة الإيمان التي يدعونا الرب للانضمام بالروح القدس إليها ونحن نحتفل بالفصح . إنها جماعة أخوة وأخوات، جماعة محبة، جماعة لا تعتمد على امتيازات البشر وبرهم الذاتي، بل جماعة تثق بنعمة الله المدهشة غير المحدودة... المسيح قام، حقاً قام .

(١٨) هوية الموت والقيامة مع المسيح

من أعظم الرسل الذين أرسوا قواعد الإيمان المسيحي هو الرسول بولس . فالرسول بولس لم يعرف المسيح في الجسد، لأنه لم يكن من ضمن الرسل الإثني عشر الذي رافقوا المسيح في خدمته وسمعوه ولمسوه، كما فعل الرسول يوحنا

الذي يقول في بداية رسالته الأولى، "الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (أيوحنا ١: ٣-١). هناك فترة زمنية تقدر بحوالي ست سنوات تفصل بين حدث موت وقيامة المسيح، وحدث تعرف الرسول بولس بالمسيح على طريق دمشق. إلا أنه بالرغم من هذه الفترة الزمنية الفاصلة، استطاع الرسول بولس، ربما أكثر من باقي الرسل الذين عرفوا المسيح في الجسد، وبعد التفكير العميق في معنى حدثي الموت والقيامة في ارتباطهما معاً، وعدم انفصالهما عن بعضهما، استطاع أن يجد علاقة لا تنفصل بين الحدثين، ونتيجتهما المباشرة في حياتنا اليومية العملية، ليصيغ منهما هويته المسيحية بل هوية الإنسان المسيحي. فحدثي الموت والقيامة باآحادهما معاً، يزويان كل مسيرة حياة واختبارات الإيمان التي هي اختبارات موت وقيامة كل يوم مع المسيح. وبالتالي، لا يجوز أن تكون اختباراتنا المتنوعة فقط اختبارات ألم وموت كي لا نخسر إيماننا، لكن في كل مرة نختبر فيها اختبار ألم وموت، يجب أن يلحقها مباشرة اختبار حياة وقيامة. فالاختباران معاً يشكلان هوية الإنسان المسيحي.

فإذا تأملنا في رسائل الرسول بولس، نلاحظ أنه يذكر مرات عدة حدثي الموت والقيامة بارتباطهما معاً. ففي رسالته إلى أهل رومية يقول: "لأنه إن كنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته" (رومية ٦: ٥). فلا يتحدث فقط عن ارتباط بل عن اتحاد المؤمنين بموت وقيامة المسيح. وإذا تعمقنا في تلك المقاطع التي تربط بين الحدثين، نلاحظ أن هوية الموت والقيامة مع المسيح هي هوية متكاملة، هوية حياة، هوية سلوك، وهوية فيكر، تظهر في نوعية حياتنا وطريقة سلوكنا وسمو تفكيرنا.

فلنتأمل في بعض مقاطع رسائل بولس لنفهم هذه الهوية: يقول الرسول بولس في رسالته إلى الغلاطيين: "مع المسيح صلبت، فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" (غلاطية ٢: ٢). فإذا بحثنا في طريقة استخدام قواعد اللغة اليونانية لوصف الحالة (القواعدية اللغوية) التي وردت فيها كلمة "صُلبت"، نلاحظ أن الاستخدام لقواعد اللغة يشير إلى أن حدث صلب المسيح الذي أنهى في الماضي لا يزال يؤثر على حياة بولس، بل يشكل ويصيغ تفاصيل حياته اليوم. فبالرغم من الفترة الزمنية الفاصلة (ست سنوات) بين حدث صليب المسيح وإيمان بولس، فبولس لا يزال يشعر بأنه صلب مع المسيح منذ ست سنوات ولا يزال مصلوباً معه حتى يومه ذاك. إلا أن الصليب تبعه قيامة، وهكذا أيضاً بالنسبة لبولس، فإنه كما قام المسيح من الموت وعاد إلى الحياة، هكذا أيضاً قام بولس مع المسيح من الموت فصار المسيح حياً في حياته.

لكننا نسأل: ما الذي كان يعنيه بولس بقوله إنه صلب مع المسيح؟ وما الذي صلب في بولس؟ يوضح هذه الفكرة في رسالته إلى أهل رومية وكولوسي، فيذكر في رومية أن الذي صلب فيه هو "الخطية" بكل تجلياتها، ويستخدم أيضاً عبارة أخرى موازية للخطية هي عبارة "الإنسان العتيق".

ويقول: "عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضاً للخطية، لأن الذي مات قد تبرأ من الخطية. فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه" (رومية ٦: ٥-٨). وفي كولوسي يسمي الرسول بولس الأمور بأسمائها، فيذكر ما هي تجليات "الخطية" أو "الإنسان العتيق"، بقوله: "فَأَمِيتُوا أَعْضَاءَكُمْ الَّتِي عَلَى الْأَرْضِ: الرِّبَا، النَّجَاسَةَ، الْهَوَى، الشَّهْوَةَ الرَّذِيئَةَ، الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، الْأُمُورَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَأْتِي غَضَبُ اللَّهِ عَلَى أُنْبَاءِ الْمَعْصِيَةِ". وفي العدد التاسع يكمل اللائحة فيقول: "اطرحوا أيضاً عنكم الكل الغضب، السخط، الخبث، التجديف، الكلام القبيح من أفواهكم" (كولوسي ٣: ٥-٩). إن كل هذه التصرُّفات يجب أن تُصَلب على الصليب وتموت، لأنه عندها فقط نختبر القيامة، فتقوم في حياتنا كل تجليات الإنسان الجديد، ومظاهر القيامة والتصرُّفات الحميدة التي تمجد الله. يذكر الرسول بولس في المقطع نفسه ما هي تجليات وسلوك القيامة، فيقول: "فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رافات ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً، فإن كان لأحد على أحد شكوى، كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال" (كولوسي ١٣: ٣-١٤).

فإذا قمنا بإعادة ترتيب كلمات بولس هذه في إطار هوية سلوك الموت والقيامة مع المسيح، نجد ما يلي:

- الزنى يجب أن يُصَلب على الصليب، كيما تقوم القداسة في حياتنا مع قيامة المسيح.
- الطمع يجب أن يُصَلب على الصليب، كيما تقوم طول الأناة في حياتنا مع قيامة المسيح.
- السخط يجب أن يُصَلب على الصليب، كيما يقوم فينا اللطف والوداعة مع قيامة المسيح.

وفي رسالته الثانية إلى كنيسة كورنثوس (٤: ١١-٧)، يخبرنا الرسول بولس عن اختبارات اليوم في الخدمة والتي نستطيع أن نصنفها بأنها اختبارات موت وقيامه مع المسيح. يقول: "خَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلِّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظَهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا". (٢كورنثوس ٤: ١٠). أيضاً يقول "مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين، متحيرين لكن غير يائسين؛ مضطهدين ولكن غير متروكين؛ مطروحين لكن غير هالكين" (٢كورنثوس ٤: ٨-٩).

وإذا قمنا بإعادة ترتيب وتصنيف كلمات بولس لنرى هوية الموت والقيامة في خدمته، نرى أن:

- الاكتئاب هو الموت، بينما عدم التضائق هو القيامة.
- الخيرة هي الموت، ولكن عدم اليأس هو القيامة.
- الاضطهاد هو الموت، ولكن أن نكون غير متروكين من الله هو القيامة.

— أن نكون مطروحين شبه أموات، ولكن أن نكون غير هالكين هو القيامة.

إن هوية الموت والقيامة مع المسيح، ليست فقط هوية حياة وسلوك مميزين، بل هوية تفكير سام واهتمامات سماوية. فالرسول بولس يلوم تفكير البعض من أعضاء كنيسة كولوسي لأن اهتماماتهم وتفكيرهم ليست بالمستوى المطلوب، بل تفكير واهتمامات أرضية بعيدة عن ملكوت الله. لهذا دعا الرسول بولس أعضاء كنيسة كولوسي إلى القيامة في الفكر، إلى السمو في الاهتمامات، لا لتكون اهتماماتهم اهتمامات بما في الأرض بل اهتمامات بما في السموات. يقول بولس: "فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقَ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنِ يَمِينِ اللَّهِ. اهْتُمُّوا بِمَا فَوْقَ لَأَبِمَا عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتِكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللَّهِ. مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتِنَا، فَجِينُنِي تُظْهِرُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ فِي الْمَجْدِ" (كولوسي ٣: ١-٤). وكلمة "مُستترة" في عبارة "مستترة مع المسيح في الله"، تعني باليونانية مخبأة في مكان آمن وأمين. فهذا المكان الآمن والأمين المخبأ فيه حياتنا هو الرب يسوع المسيح.

من الممارسات الأساسية في الكنيسة التي ترمز إلى هوية الموت والقيامة مع المسيح ممارسة سر المعمودية. يذكر بولس في رسالته إلى كنيسة رومية أن أحد أهم معاني المعمودية هو الاتحاد مع المسيح في موته وقيامته. فيقول: "أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلٌّ مِنْ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ، فَدَفْنَا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَةِ لَلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الْأَمْوَاتِ بِمَجْدِ الْآبِ هَكَذَا نَسْلُكُ أَيْضًا فِي جِذَةِ الْحَيَاةِ" (رومية ٦: ٤). فالرسول بولس يتحدث عن المعمودية بالتغطيس، فالمُعَمَّد ينزل تحت الماء إشارة إلى صلب وموت ودفن الخطية "الإنسان العتيق" على صليب المسيح، ليتركها في القبر تحت الماء، ومن ثم يقوم من تحت الماء إلى خارج الماء مع قيامة المسيح مغسولاً من خطايا بهوية جديدة مكتملة ومتكاملة في الحياة والسلوك والفكر الجديد.

إذا ما تأملنا بصدق وفي ضوء عمل الروح القدس، بنوعية حياتنا وطريقة سلوكنا ومستوى تفكيرنا، نلاحظ أننا نعيش أزمة هوية مسيحية، أزمة عيش الموت والقيامة مع المسيح. نحن نعيش انفصلاً كبيراً وهوة واسعة بين اختبار حدثي الموت والقيامة بتأثيرهما العملي في حياتنا وسلوكنا وفكرنا، ممَّا يشكِّل خللاً في هويتنا المسيحية، وبتعبير آخر حياتنا تنقصها الإيمان الحي والحيوية الروحية والرجاء المبارك، وهذا كله ما تقدمه لنا قيامة المسيح.

إن رسالة اليوم هي تأكيد الرسول بولس لنا أن هذه الهوية المميّزة لا تتشكّل إلاً بارتباط، وعدم انفصال، حدثي موت وقيامه المسيح بتأثيرهما المباشر في حياتنا. لهذا دعونا أحبائي نرتمي بين أحضان المسيح المصلوب والمقام بالتوبة الحقيقية، مُعترفين له بضغفنا وفتورنا وطالبيين منه أن

يملأنا بروحه القدوس حتى نموت ونقوم مع المسيح، وهكذا نستعيد هويتنا المسيحية — آمين.

(١٩) "وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى"
(مرقس ١٦ : ١٢)

بعد الاحتفال بعيد بالقيامة، نصرف هذه الفترة من السنة متأملين في نصوص الكتاب المقدس التي تتحدث عن ظهورات المسيح المُقام لتلاميذه وأحيائه مدة أربعين يوماً. وهنا نسأل ونتساءل، ما هي طبيعة الجسد الذي ظهر به يسوع لتلاميذه بعد قيامته؟ وما هو جسد القيامة، وكيف يكون؟ لقد شغل هذا السؤال فِكر التلاميذ الذين رأوه يظهر ويختفي عنهم، كما شغل فِكر الرسول بولس الذي كرّس (١كورنثوس ١٥) ليتكلم، ليس فقط عن قيامة المسيح، بل عن طبيعة أجساد المؤمنين الذين سيقومون مع المسيح في القيامة. فجسد المسيح المقام هو نموذج لأجساد مَنْ يموتون ويقومون مع المسيح.

تُخبرنا الأناجيل أنه بعد قيامة الرب يسوع المسيح من الأموات، ظهر لتلاميذه مدة أربعين يوماً قبل صعوده إلى السماء. فيذكر الرسول بولس لائحة من ظهورات المسيح لأتباعه المؤمنين، أفراداً وجماعات: "ظهر لصفنا (بطرس)، ثم للإثني عشر، وبعد ذلك ظهر لأكثر من خمسمئة أخ... وبعد ذلك ظهر ليعقوب، ثم للرسل أجمعين، وآخر الكل، كأنه للسقط، ظهر لي أنا" (١كورنثوس ١٥ : ٥-٨). لكن بولس يُسقط من لائحته بعض أسماء الذين ظهر لهم المسيح المقام، بينما تذكرهم الأناجيل، مثل مريم المجدلية، وتلميذا عمواس وغيرهم.

وينيها القديس مرقس إلى أمرٍ نادراً ما تُفكر فيه، يتعلّق بكيفية ظهور المسيح لتلاميذه (مرقس ١٦ : ١٢) "وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين من تلاميذه وهما يمشيان"، ويوضح إنجيل لوقا أنّ هذين التلميذين كانا تلميذا عمواس، إذ مشى معهما إلى قريتهما، دون أن يعرفاه، لأنه "أُمسكت أغيئهما عن معرفته" (لوقا ٢٤ : ١٦). فما لم نستطع أن نفهمه مع كلام لوقا، قد أوضحه لنا مرقس، إذ ذكر أن السبب "لأنه ظهر بهيئة أخرى". وبالتالي هناك إشارة واضحة إلى أن تغييراً ما حصل في هيئة جسد المسيح بعد قيامته، فأصبح من الصعوبة بمكان على تلاميذه أن يتعرفوا عليه، والدليل على ذلك هو أنه بالرغم من أن مريم المجدلية رأتَه عند القبر، لكنّها لم تعرفه، بل ظنّت أنه البُستاني "التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع" (يوحنا ٢٠ : ١٤). وعند ظهوره لخمسة من تلاميذه عندما كانوا يصطادون في بحر طبرية، لم يعرفوه في بادئ الأمر للسبب نفسه "ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون إنه يسوع" (يوحنا ٢١ : ٤)، لأنه ظهر بهيئة أخرى.

لقد أراد يسوع أن يقدّم لتلاميذه برهاناً على أنه هو الرب، وهذا ما فعله. فقد كان عليه أن يخاطب مريم المجدلية بصوته مرّتين لتعرفه (يوحنا ٢٠: ١٤-١٦). وكان عليه أن يكسّر الخُبز مع تلميذي عماوس حتى تَنفَتِحَ أعينهما ليعرفاه (لوقا ٢٤: ٣١). وكان عليه أن يكشف لتلاميذه عن أثر المسامير في يَدَيْهِ ليعرفوه (يوحنا ٢٠: ٢٠). وكان عليه أن يقوم بمُعْجزة الطّلب من تلاميذه الخَمسة الذين كانوا يصطادون، أن يرموا شبّاكهم إلى يمين السفينة ليصطادوا سَمَكاً كثيراً فيعرفوه (يوحنا ٢١: ٧).

لقد كان على يسوع أن يقدّم كل تِلْكَ الأدلّة، لأنّ جسده لم يعد كما كان، بل حدث تغيير ما. فجسد المسيح قبل القيامة كان خاضعاً لحدود الزّمان والمكان كأجسادنا، لكنّه لم يعد كذلك بعد القيامة. بالرغم من أنه قام في جسده وليس في روحه. إلا أنّه كان لجسده القدرة على الظهور والاختفاء، واختراق العلية وأبوابها مُغلّقة، إذ اخترقها مرّتين عندما دخل إلى تلاميذه وهم مُجتمعون (يوحنا ٢٠: ١٩-٢٩). ويخبرنا البشير لوقا أنّه عندما ظهر الرب يسوع لتلاميذه وحيّاهم، **"نظروا إليه فظنوا أنّهم نظروا روحاً فجزعوا وخافوا"** (لوقا ٢٤: ٣٧-٤٣). عندها أكّد أنّهم لم يروا روحاً بل جسداً حقيقياً. ثم طرّد الخوف من قلوبهم بطمأننتهم بأنه هو نفسه، سيدهم وإلههم الذي مات وقام، **"ما بالكم مضطربين ولماذا تخطرون أفكاراً في قلوبكم؟ انظروا يديّ ورجليّ، إني أنا هو جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون"** (لوقا ٢٤: ٣٩). ولكي يُقنعهم بأنه قام في جسده **"أكل معهم سمكاً مشويّاً وعسلًا"** (لوقا ٢٤: ٤٢ و٤٣).

هذا التغيير في هيئة المسيح يشبه التغيير الذي حدث له للحظات قليلة عند التجلي على الجبل **"إذ تغيرت هيئته قدامهم، فصار وجهه يلمع كالشمس، وثيابه بيضاء كالنور"** (مرقس ٩: ٢). والأمر اللافت للانتباه هنا هو أنه بينما كان التلاميذ (بطرس ويعقوب ويوحنا) ينزلون معه من الجبل، فقد أوصاهم **"أن لا يُحدّثوا أحداً بما أبصروا، إلاّ متى قام ابن الإنسان من الموت"** (مرقس ٩: ٩). فبعد قيامته ورؤيتهم إيّاه بهيئة أخرى، حان وقت إخبارهم عن ذلك التغيير الذي حدث على جبل التجلي مؤقتاً، وقد عاينه التلاميذ، لأنّ هذا التغيير بعد قيامته أصبح دائماً.

لكننا لا نعلم تماماً ما هو ذلك التغيير. وقد حاول بعض اللاهوتيين تفسير هذا التغيير، ربما لأنّ الأمر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرّ القيامة، التي هي سرّ الأسرار الذي يعجز عن تفسيره أي إنسان. فالقيامة هي عمل قدرة ونعمة الله، ولا تخضع لفحص الإنسان وتأمّليته. فالإجماع الذي أجمع عليه مُفسّرو الكتاب المقدس، أنّ يسوع المُقام يَخْتَلِفُ عن يسوع المصّلوب. لقد منح الله جسد الرب يسوع مزايا وصفات جديدة، ليُدخِلَ بها في الحالة السماوية المجيدة، التي عاد إليها بعد أربعين يوماً من ظهوراته التي اختتمها بصعوده إلى السماء أمام أعين تلاميذه، وجلوسه عن يمين الآب. كما يُخبرنا إنجيل يوحنا أن الرب يسوع في صلاته الأخيرة إلى الآب، وقبّل أن يتوجّه إلى الصليب، صلّى قائلاً: **"أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجدني أنت أيّها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك"**

قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ" (يوحنا ١٧ : ٤-٥). ففي صلاته هذه طلب من الآب أن يَسْتَرْجِع ذلك المَجْد الذي كان له قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. وبالتالي، فيسوع بعد قيامته استعاد مجده الذي بدأ يظهر أثناء ظهوراته على الأرض من خلال جسده السماوي المُمَجَّد.

فقد لَيسَ الجَسَدُ السَّمَاوِيُّ، الذي سيبقى سرّاً علينا mysterious identity (كما يقول أحد المُفسِّرِين). ويخبرنا الرسول بولس أن ذلك الجسد المُمَجَّد السَّمَاوِيُّ الذي تحوّل وتغيّر بعد قيامته، يُشَبِّهُ الجَسَدَ المُتَغَيِّرَ المُمَجَّد الذي سيُلَبِّسُهُ المَسِيحُ المُقَامَ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، ويرقُد على رجاء القيامة الأخيرة، وكل إنسان مؤمن به يكون حياً وقت مجيئه الثاني في المَجَّد، "فإنه سيَبُوقُ فيُقَامُ الأَمواتِ عديمي فساد ونحن نتغيّر" (١كورنثوس ١٥ : ٥١-٥٤). وبالتالي، فالرب المقام سيقوم بإجراء تغيير ما في أجسادنا أمواتاً كئناً أم أحياء، ليكون على صورة جسده المُمَجَّد، الذي لبسه في قيامته. لكن معرفة هذا الأمر الذي ينتمي إلى ما ورائيات غير المُعْلَنَةِ، يبقى فَهْمُهَا سرّاً علينا. وهذا ما أكدّه الرسول: "هوذا سرٌّ أقوله لكم، لا تُرْقَدُ كُلُّنا وَلَكِنَّا كُلُّنا نتغيّر، في لحظة في طَرْفَةِ عَيْنٍ عند البوق الأخير. فإنّه سيَبُوقُ فيُقَامُ الأَمواتِ عديمي فساد، ونحن نتغيّر" (١كورنثوس ١٥ : ٥١-٥٢). ولكنيسة فيلبي يقول أيضاً: "فإنَّ سيرتنا نحن هي في السَّمواتِ التي منها أيضاً ننتظر مُخْلِصاً هو الرب يسوع المسيح الذي سيُغيّرُ شَكْلَ جَسَدِنا تَواضُّعاً ليكون على صورة جَسَدِ مَجْدِهِ بحسب غَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخَضِّعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ" (فيلبي ٣ : ٢٠ - ٢٢). وبالتالي، يؤكد بولس أنَّ التَّغْيِيرَ في شَكْلِ جَسَدِنا القيامة للمؤمنين الذين سيقومون مع المسيح سيحصل لأن المسيح المقام هو الذي سيُجرِّيه ليكون على هيئة جسده المُمَجَّد.

على هذا الرجاء المبارك يعيش الإنسان المسيحي في الحياة مُتَيَقِناً أنَّ الله سيَحَقِّقُ وَعْدَهُ . هذا الرَّجَاءُ عبَّرَ عنه الرسول يوحنا بقوله: "أَيُّهَا الأَحْيَاءُ، الآن نحن أولاد الله، وَلَمْ يَظْهَرِ بَعْدَ مَاذَا سنكون، وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ نَكُونُ مِثْلَهُ، لِأَنَّنا سنراه كما هو، وَكُلٌّ مِنْ عِنْدِهِ هَذَا الرَّجَاءُ، بِهِ يُظْهَرُ نَفْسُهُ كَمَا هُوَ طَاهِرٌ" (١يوحنا ٣ : ٢). آمين.

(٢٠) صُعود المسيح

"ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله"

(مرقس ١٦: ١٩)

يختلف البشير لوقا عن البشيرين الثلاثة (متى، مرقس، يوحنا) في طريقة سرده لحدث صعود المسيح إلى السماء. فالبشرون الثلاثة يسردون صورة الصعود باختصار، وكجزء من قصة القيامة أو الظهور الأخير من ظهورات القيامة. إلا أن البشير لوقا كاتب سفر أعمال الرسل يُخصّص مَقْطَعاً لوصف الحدث (أعمال ١). فيصِف ما سَبَقَ الحدث من حوار دار بين المسيح وتلاميذه، ثم وَصَفَ الحدث ورؤية التلاميذ ليسوع صاعداً إلى السماء وعيونهم شاخصة إليه، وحديث رَجُلَيْنِ بثيابٍ بيضٍ يُطمئننان التلاميذ بأن يسوع سوف يأتي بالطريقة نفسها التي صعد بها إلى السماء. ثم بعد ذلك وصف ما يتبع الحدث، إذ بعد الصعود ذهب التلاميذ إلى العُلْيَةِ لينتظروا حلول الروح القدس. هذا التفصيل في وَصَفِ حدث الصعود، هو للتأكيد على أن الحقيقة الروحية التي يُقدِّمها لنا يسوع الصَّاعد إلى السماء، هي غير الحقيقة الروحية التي يُقدِّمها لنا يسوع القائم من الأموات. يقول اللاهوتي "م. رامسي": "هناك تمييزٌ واضحٌ بين معنى القيامة ومعنى الصعود". فقيامته المسيح تُشير إلى انتصار الحياة على الموت، والرَّجاء على اليأس، والفرح على الحُزن، بينما صُعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله إنما يشير إلى حقيقة ملوكية المسيح، مُشاركة الابن مع الله الآب في الملك والسيادة.

فالصورة المُستخدَمة تَكَرَّراً في العهد الجديد، والتي تصف حالة المسيح بعد صعوده، هي الجلوس عن يمين الله (مرقس في ١٦: ١٩) "ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله". (رومية ٨: ٣٤) "الذي هو أيضاً عن يمين الآب". (أعمال ٧: ٥٥) "وأما هو (استفانوس) فشَخَّصَ إلى السماء وهو مُمتلئٌ مِنَ الروح القدس، فرأى مَجْدَ الله، ويسوع قائماً عن يمين الله". (أفسس ١: ٢٠) "إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السمويات".

إن صورة الجلوس عن يمين الله التي استخدمها رجال العهد الجديد الذين وصفوا الصعود، قد استخدمها سابقاً النبي داود في (مزمو ١١٠: ١) "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك". لكن هذه الصورة كانت موجودة أيضاً في الأساطير القديمة، التي صَوَّرَت الملك يتربُّع على العَرْش حيث يُجْلِسُ الحاكم عن يمينه، وهو موقع الشرف والكرامة. لكن مهما كان مصدر هذه الصورة المَجَازِيَّة لصعود المسيح، فإنَّ المُصلح الإنجيلي "جان كلفن" يقول بأن (صورة جلوس المسيح عن يمين الله لا تشير إلى مكان مُعيَّن بالمعنى الحَرْفي، لكنَّها تُوكِّد أنه بعد أن أقام الله المسيح من الموت

أَصْعَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَأَعْطَاهُ مَوْقِعَ الْكَرَامَةِ وَالشَّرْفِ، وَمَنَحَهُ السُّلْطَةَ الْمَلُوكِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ لِيَمْلِكَ مَعَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ.

أما وصف لوقا بأنَّ سحابة أخذته إلى السماء عن أعين تلاميذه عند صعوده، له دلالة لاهوتية هامة. فالسحابة في العهد القديم ترمز إلى حضور الله وقدرته وسلطته. وهكذا فإنَّ سحابة حضور الله وسلطته نُقِلَتْه من الأرض إلى السماء، ليكون عن يمين الله ويُشاركه في المُلك. إنَّ وَصْفَ البشير لوقا هذا، يحمل للإنسان المؤمن معنيتين روحيتين: الأول، هو أنَّ يسوع المسيح ليس فقط إله الإنسان المؤمن، أي إلهي ومَلِكِي الشَّخْصِي، لكنَّه ملك الملوك وَرَبُّ الأرباب يسود على كل الكون. والثاني، هو بعد تنازل المسيح في التجسُّد بملء حرِّيته عن بعض امتيازات الألوهة والمساواة مع الآب، والتي هي كونه كلي الحضور، كلي العِلْم، كلي القُدرة، فإنَّه عاد واستعادها كُلُّها بعد صعوده إلى السماء وجلسه عن يمين الآب. وهذا ما أراد أن يعلنه الرسول بولس في (فيلبي ٢: ٦ و٧): **"الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس".** فمع أنَّ المسيح كان في صورة الله، فإنَّه في التجسُّد قَبِلَ أن يكون غير معادِل لله، فأخلى نفسه ورضي أن يصير عبداً مشابهاً للناس. وفي الأعداد اللاحقة، يفسِّر الرسول بولس السَّبب وراء إصعاد الله للمسيح إلى السماء ليكون عن يمينه فيقول: إنَّ الصعود هو هدية الله، بل مكافأته وترفيعه وتمجيده ليسوع، لأنَّه قدم نفسه على الصليب من أجل فداء الإنسان. فبعد أن وصف بولس طاعة المسيح بقوله: **"وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب"** فقد أكمل قائلاً: **"لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل رُكْبَة... ويَعْتَرَفُ كُلُّ لسان أن يسوع المسيح هو رَبُّ لَمَجْدِ اللَّهِ الْآبِ"** (فيلبي ٢: ٨، ٩).

إنَّ الأمر الأساس الذي يعيننا ويخاطب حياتنا في قصة الصعود، هو أن المسيح الذي يجلس على العَرْشِ عن يمين الله لا يجلس وحده، بل يُجْلِسُ مَعَهُ كُلَّ مَنْ أَطَاعَهُ واختبر بالإيمان موته وقيامته. فكما رَفَعُ اللهُ يسوع وأجْلَسَهُ على العرش معه، كذلك أيضاً يُرَفِّعُ الْمُؤْمِنِينَ المتواضعين والمطيعين للمسيح ليُجْلِسَهُمْ على العرش المملوكي معه. فالمسيح بعد الصعود يجلس على العرش مُمِثِّلاً للإنسان الجديد، والإنسانية الجديدة المَفْدِيَّة، لأنَّه صعد إلى السماء بجسده الإنساني المُمَجَّد. وهذا يرمز إلى المكانة الرفيعة والكرامة التي يمنحها المسيح لكل مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ويعيش بحسب إرادته. اعتقد الرسول بطرس أن الذين يؤمنون بالمسيح ينالون منه كرامة، فقال لأعضاء الكنيسة: **"فَلَكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تُوْمِنُونَ الْكَرَامَةَ"** (١بطرس ٢: ٧). وعندما تكلم الرسول بولس إلى كنيسة كورنثوس عن حياة الذين قاموا مع المسيح، قال لهم: **"إنَّ حياتكم مع المسيح يجب أن تصبح حياة ملوكية، حياة سامية في الفِكر والأخلاق والعلاقات والمواقف، حياة تُشَبِّه حياة المسيح وفِكر المسيح السماوي الذي مات وقام وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله: "إنَّ كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مُسْتَتِرَةٌ مع المسيح في الله"** (كولوسي ٣: ١-٣). أما

يوحنا اللاهوتي، فقد رأى أنَّ المسيح الملك قد جَعَلَ مِن كلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ مَلِكاً وكاهناً معه: "مِن يسوع المسيح الأمين اليكْر مِن الأموات، ورئيس ملوك الأرض الذي أَحَبَّنَا وقد غَسَلْنَا مِن خطايانا بدمه وجَعَلْنَا ملوكاً وكهنة لله أبِيهِ". (رؤيا يوحنا ١ : ٦). كما أكد الرسول بطرس أنَّ جماعة الإيمان هي أُمَّة مقدّسة وتَحْمِلُ كهنوتاً ملوكياً: "وأما أنتم فجنس مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١بطرس ٢: ٩)، أُمَّة مُهَمَّتْهَا أَنْ تُعْلِنَ فضائل المسيح الذي دعاها مِن الظلمة إلى نوره العجيب.

فيا لَيْتْنَا نُؤْمِنُ مِن كلِّ القلب بيسوع الملك الذي صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، لنُصْبِحَ معه ملوكاً، ونُخْبِرَ بفضائل ذاك الذي دعانا مِن الظلمة إلى نوره العجيب، فنعيش معنى الصعود في حياتنا. آمين.

(٢١) علامات العنصرة الثلاث

مِن أهم الأحداث التي قصد كاتب سفر أعمال الرسل البشير لوقا أن يتوقف عندها ويبدع في وصفها، حدث العنصرة، حدث حلول الروح القدس على التلاميذ يوم الخمسين. فقد أراد أن يظهر عظمة عمل روح الله عندما يحلّ ويسكن في حياة المؤمنين والمؤمنات. فقَبِلَ العنصرة بعشرة أيام، وبينما كان في لقائه الأخير معهم يوم صعود المسيح إلى السماء، أوصاهم أن يمكثوا في أورشليم وينتظروا موعد الآب الذي أخبرهم عنه قبلاً والذي هو حلول الروح القدس (يوحنا ١٤، ١٦). كما ذكّرهم بما قاله يوحنا المعمدان عن معمودية الروح القدس "وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس ونار" (لوقا ٣: ١٦)، "لأن يوحنا عمّد بالماء وأما أنتم ستتعمدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير" (أعمال ١: ٥). فنبوءة المعمدان هذه ستتحقق، ليس بعد تلك الأيام بكثير، وقد أكد لهم بأنهم سينالون قوة متى حلّ الروح القدس عليهم ويكونون له شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض (أعمال ١: ٨). على هذا الوعد المبارك انطلق التلاميذ من جبل الزيتون إلى أورشليم، وجلسوا في العلية مُنتظرين بالصلوات والطلبات أن يحقّق الله وعده لهم في وقت قريب.

وعند بلوغ الخمسين يوماً منذ القيامة، حلّ الروح القدس على التلاميذ، وقد تميّز حضوره بثلاث علامات عجائبية: (١) صوت كصوت هبوب ريح. (٢) ألسنة كأنها من نار. (٣) تكلم بلغات مُتعدّدة. فعلام ترمز هذه العلامات العجائبية الثلاث؟

العلامة الأولى: صوت كصوت هبوب ريح عاصفة

يصف البشير لوقا بدء حدث العنصرة فيقول: "وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملاً كل البيت حيث كانوا جالسين" (أعمال ٢: ٢). فالأمر الأساس الذي يجب التشديد عليه هنا هو مصدر هذا الصوت. فالمصدر هو السماء "وصار بغتة من السماء"، حيث الله الذي يرسل روحه القدوس إلى

أولاده فلا لا يتركهم يتامى بل يمكث معهم إلى الأبد ويرشدهم إلى الحق ويبكّتهم على خطاياهم ويعزيهم ويساندهم في تفاصيل حياتهم. لقد سمع التلاميذ صوتاً يشبه صوت ريح عاصفة، مع أنه لم يكن هناك برق ورعد وعواصف. و"الصوت" له بُعد شخصي، إذ يخاطب قلوبنا وأفكارنا وحياتنا ويؤثر فينا حتى يُغيّرنا. يقول كاتب رسالة العبرانيين: **"لذلك كما يقول الروح القدس اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم"** (عبرانيين ٣: ٧ و٨). فالروح القدس يزيل قساوة القلب. وعندما حلّ على المسيح في المعمودية، أسمعنا الله صوته **"وصوت من السماء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"** (متى ٣: ١٧). إن صوت الروح القدس يعلن لنا بأن المسيح هو ابن الله الحبيب. أما كلمة **"العاصفة"** فإنها تُشير إلى تأثير الروح القدس الملاحظ في الحياة. فالمسيح وعد تلاميذه بأنهم سينالون **"قوة"** متى حلّ الروح القدس عليهم. وفي هذا السياق نفهم **"الريح العاصفة"** إنها تعبير مجازي لقوة وتأثير الروح القدس الملاحظ في الذين يحلّ عليهم. والجدير ذكره أن الكلمتان **"ريح وروح"** في اللغة اليونانية كلمة واحدة (pneuma) أما في اللغة العربية فإنهما يلقيان ضوءاً أفضل على تشبيه عمل الروح القدس بعمل الريح العاصفة في العنصرة. ففي حوار المسيح مع نيقوديموس، يقول له: **"الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من ولد من الروح"** (يوحنا ٣: ٨). حيث يشبه حركة الريح التي لا نستطيع رصدها بدقة، بحركة الروح إذ يعمل الروح القدس في حياة الناس بطريقة لا يمكن توقُّعها ورصدها، لكن يمكن الإحساس بقوتها ورصد تأثيرها، كما نشعر بقوة وتأثير الريح دون أن يكون لنا القدرة على الرصد بدقة وجهة هبوبها وتوجُّهها.

العلامة الثانية: ظهور السنة مُنقسمة كأنها من نار
"وظَهَرَتْ لَهُمُ السَّنَةُ مُنْقَسِمَةً كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ"
(أعمال ٢: ٣). وإحدى مهام النار **"التنظيف والتطهي"** لا سيما من الصّدأ، وهي أيضاً إحدى مهام الروح القدس كما تنبأ المعمدان عن عمل المسيح إذ قال **"هو سيعمدكم بالروح القدس ونار"** (لوقا ٣: ١٦)، إشارة إلى تنظيفنا وتطهيرنا بواسطة روح المسيح القدوس، من صدأ خطايانا وآثامنا، عندما نأتي إليه بالإيمان ونمتلىء من روحه القدوس. إن تعبير **"حلول النار على الناس"**، وهو تعبير مشابه للذي استخدمه لوقا لوصف العلامة العجائبية الثانية **"وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ"**، كان مستخدماً في الكتابات الأدبية اليهودية والرومانية واليونانية. وهو يشير إلى حصول من يطلق عليه هذا التعبير، على قدرة مميزة في التفكير وعلى لسان قدير في التفسير والإقناع. وهذا المغزى أيضاً يلقي ضوءاً مميزاً لدور الروح القدس في الشهادة للمسيح إذ يمنح الذين يمتثلون منه قدرة مميزة في التفكير والتفسير والشرح، لا تنبع من قدرة وفصاحة كلمات الإنسان بحد ذاته، ولكن من الروح القدس الحالّ فيه. في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، يقول الرسول بولس لأعضاء الكنيسة، إنّه عندما كرز لهم بالمسيح لم يعتمد في إقناعهم على سمو الكلام البليغ والكلمات الرنانة وبرهان الحكمة الإنسانية، ولكن على برهان الروح القدس وقوته: **"أَنَا لَمَّا أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ**

أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَتَيْتُ لَيْسَ بِسُمُو الكَلَامِ أَوْ الحِكْمَةِ مُنَادِيًا لَكُمْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ...
 وَكَلَامِي وَكِرَارَتِي لَمْ يَكُونَا بِكَلَامِ الحِكْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ المُقْنِعِ بَلْ بِبُرْهَانِ الرُّوحِ
 وَالقُوَّةِ ، لِكَيْ لَا يَكُونَ إِيمَانُكُمْ بِحِكْمَةِ النَّاسِ بَلْ بِقُوَّةِ اللَّهِ" . (٢كورنثوس ٢: ١ ، ٤ ، ٥) .
 وفي إنجيل متى الأصحاح العاشر، تنبأ المسيح بأن تلاميذه سوف
 يتعرضون للاضطهاد والتسليم إلى السلطات، لكنه طمأنهم أنه حين يَدُّون
 بشهاداتهم لا يهتموا بما سيقولون لأنَّ الروح القدس هو الذي سيتكلم فيهم:
 "مَتَى أَسَلَمُوكُمْ فَلَا تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ
 مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ ، لِأَنَّ لِسْتُمْ أَنْتُمْ المُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحِ أَبِيكُمْ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ"
 (متى ١٠: ١٩ و٢٠) .

العلامة الثالثة: التكلم بالسنة، أي بلغات متعددة
 يقول لوقا: "وَأَمْتَلَأَ الجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ القُدُسِ وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ
 بِالسَّنَةِ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا... وَتَحَيَّرُوا لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ كَانَ
 يَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَتِهِ. فَبُهِتَ الجَمِيعُ وَتَعَجَّبُوا قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَتَرَى
 لَيْسَ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ المُتَكَلِّمِينَ جَلِيلِيِّينَ؟ فَكَيْفَ نَسْمَعُ نَحْنُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا لُغَتَهُ
 الَّتِي وُلِدَ فِيهَا" (أعمال ٢: ٤ و٦-٨)، فيخبرنا أن جميع الموجودين أثناء
 حدث العنصرة كانوا من منطقة الجليل. وقد عُرف الجليليون تاريخياً بنقص
 الموهبة اللغوية عندهم. فاللغتان التي استطاع المتواجدون التكلم بهما
 كانتا الآرامية واليونانية، لكن العلامة العجائبية الثالثة التي
 انكشفت، هي أن الروح القدس الذي حلَّ على أولئك الجليليين منحهم موهبة
 التكلم بلغات متعددة تصل إلى خمسة عشر لغة، هي لغات المناطق التي
 ولدوا فيها، مما جعلهم يتعجبون لما حدث معهم. ويقول لوقا: "وَتَعَجَّبُوا
 قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَتَرَى لَيْسَ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ المُتَكَلِّمِينَ جَلِيلِيِّينَ؟ فَكَيْفَ
 نَسْمَعُ نَحْنُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا لُغَتَهُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا". إن موضوع تعدد اللغات
 والألسنة يذكّرنا بقصة بُرج بابل المذكورة في سفر التكوين الأصحاح الحادي
 عشر، إذ يبدأ الكاتب بسرد القصة بقوله: "وكانت الأرض كلها لسانا واحدا
 ولغة واحدة". إلا أنه عندما صمَّم البابليون قائلين: "هلمَّ نبنِ لأنفسنا
 مدينة وبرجاً رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل
 الأرض" (تكوين ١١: ٤)، ولأن الله رأى أن هذا المشروع يعرِّز خطية كبرياء ومجد
 الإنسان، لهذا قرر الله أن يقسمهم ويفرقهم ويضع عوائق بينهم من خلال بلبله
 لسانهم الواحد ولغتهم الواحدة، لتصبح السنة ولغات عدة. فلا يعودوا
 قادرين على التواصل والتفاهم لإكمال مشروعهم في بناء البرج الذي يطال
 السماء ويعلى اسمهم، لأنَّ اسم الله ينبغي أن يكون أعلى من أي اسم آخر تحت
 السماء. إلا أنَّ الأمر المميز الذي حصل هو أن روح الله الذي فرقهم في بابل،
 هو الذي يجمعهم الآن في العنصرة. فلغاتهم المتعددة التي كانت في الماضي
 سببا للتفرقة، تكون الآن فرصة للوحدة فيتحدون في العنصرة فيتحدثون
 بخمسة عشرة لغة ولسان، ويتحدثون عن عظام الله وقدرته الفائقة على تغيير
 الحياة، الأمر الذي ظهر في العنصرة واختبره الحاضرون: "نَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ
 بِالسَّنَةِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ" (أعمال ٢: ١١) .

إن حدث العنصرة الذي اختبرته الكنيسة الأولى منذ ألفي سنة، بعلامات عجائبية ثلاث، لم ينته بعد. فالمسيح يسوع الرب قد أكد لنا، بأن الروح القدس سيمكث معنا إلى الأبد. وبالتالي، فالعنصرة هي الصفحة الأولى في كتاب تاريخ عمل روح الله في حياة أولاده. وكتاب التاريخ هذا لم ينته الله من كتابته. فالله لا يزال يكتب اليوم والآن. فصلواتنا إلى الرب يسوع المسيح حتى بروحه القدوس يستمر في كتابة صفحات هذا الكتاب بحياتنا واختباراتنا اليومية فنحدث بعظام الله . آمين.

(٢٢) رؤى للشباب، أحلام للشيوخ، ونبوءة للعبيد

يتنبأ يوئيل عن حلول الروح القدس فيقول: "ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلاماً، ويرى شبابكم رؤى. وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام" (يوئيل ٢: ٢٨ و ٢٩). لقد أرى الله يوئيل رؤيا وأعلن له عن خطة شاملة كاملة لبني البشر لتتحقق في العهد الجديد، وهي بأن يسكب روحه، لا على فئات معينة من الناس، كما كان في العهد القديم، ولكن على كل بشر بدون استثناء . فكل من يصغي لصوت الروح القدس، سيحصل على امتياز الامتلاء من حضوره وقوته .

فإذا رصدنا مواقع حلول الروح القدس في العهد القديم، سوف نلاحظ أمرين أساسيين: الأول، أنه كان يحدث بشكل مؤقت ومتقطع، وليس بشكل دائم ومستمر كما حدث في العهد الجديد . الثاني، أن حلول الروح القدس قد اقتصر على ثلاث فئات من الناس هم الكهنة والملوك والأنبياء . إلا أنه بقرب انتهاء حقبة العهد القديم، وقبل بدء حقبة العهد الجديد، مرّ الشعب العبري ولمدة تزيد عن مئتي سنة بفترة جفاف روحي وغياب شبه كامل للأنبياء ممّا جعل نبوءة يوئيل صلاة على فم كل أولاد الله المؤمنين الصادقين، بأن يعود الله ويفتقد شعبه ويسكب روحه، ليس فقط على الفئات الثلاث من البشر (كهنة، ملوك، أنبياء) بل على "كل بشر". يقول البشير يوحنا في الأصحاح السابع من إنجيله: "قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد" (يوحنا ٧: ٣٩) . لكن في الأصحاح العشرين

من إنجيله، أي بعد موت المسيح وقيامته، يظهر المسيح القائم من الأموات وينفخ على تلاميذه قائلاً لهم: **"اقبلوا الروح القدس"** (يوحنا ٢٠: ٢٢).

لقد تحققت نبوءة يوئيل عن حلول الروح القدس يوم العنصرة . وهذا الحلول لم يَعد مؤقتًا ومُتقطعًا، ولكنه صار دائماً ومستمرًا في حياة أولاد الله المؤمنين. هذا ما أكد عليه الرب يسوع عندما قال: **"وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخَر (الروح القدس) ليمكث معكم إلى الأبد"** (يوحنا ١٤: ١٦). فالروح القدس المعزي سيمكث مع كل المؤمنين والمؤمنات إلى الأبد. وانسكابه سيكون على كل فئات البشر، على الشباب، والشيوخ، والعبيد . وقد ذكّر الرسول بطرس في يوم العنصرة، اليهود الحاضرين، بنبوءة يوئيل تلك، وأعاد قراءتها على مسامعهم . وبالتالي فالروح القدس يأتي بأخبار سارة للشباب وللشيوخ وللإماء . فعندما يحل الروح القدس على الشباب، فإنه سيخلق في الشباب رؤى جديدة . وسيمنح الشيوخ أحلاماً جديدة، وسيجعل العبيد والإماء يتنبأون.

الخبر السار للشباب أن الروح القدس يخلق فيهم رؤى جديدة . الرؤية هي حاجة أساسية للشباب لأنها تساعدهم في تحديد أولويات حياتهم، فتحديد مسارهم وتوضيح مستقبلهم، وتمنحهم الدوافع الضرورية للتقدم في الحياة بإيجابية وثبات . فالروح القدس يوسع رؤية الشباب لخدمة المسيح، فتكون غير محصورة بظرف معين أو منطقة معينة . وأحد الأمثلة على عمل الروح القدس في خلق رؤى جديدة وتوسيع خدمة المسيح، قوله لتلاميذه بأنهم سيكونون له شهودًا، ليس فقط في المنطقة التي كانوا يسكنون فيها، أي في أورشليم ، بل أيضاً في كل اليهودية والسامرة وأقصى الأرض (أعمال ١: ٨) .

أما الخبر السار للشيوخ هو أن الروح القدس سيقظ فيهم أحلاماً جديدة . فعندما يشيخ الإنسان ويتقدم في العمر تندثر أحلامه وتنطفئ طموحاته، فيفقد الحيوية والحياة ويعيش مستسلمًا لواقع اقترابه من القبر . إلا أن الخبر السار فإنه سيمنحهم فرصاً جديدة لأحلام جديدة تحمل رجاءً جديدًا وأملًا جديدًا يزيل منهم الإحباط واليأس، ويملأ حياتهم بالسعادة والحيوية . ويخاطب الرسول بولس أعضاء كنيسة كورنثوس قائلاً لهم: **"لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً"** (٢كورنثوس ٤: ١٦). فإذا شاخ جسدنا الخارجي واقترب من الفناء لسبب التقدم في السن، فإن حضور الروح القدس فينا سيجد إنساننا الداخلي، يجدد شخصياتنا وطموحنا ونظرتنا إلى الحياة الحاضرة والحياة الأبدية . لقد أكد إشعياء النبي منذ القديم أن حضور الله في حياة منتظري الرب سيمنحهم القوة والحيوية والرجاء مهما تقدموا في السن: **"وأما منتظرو الرب فيجددون قوة يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون"** (إشعياء ٤٠: ٣١) .

والخبر السار للعبيد والإماء أن الروح القدس سيجعلهم يتنبأون .
العبيد والإماء، وأمة هي أنثى العبد)، هم الفئة المحترقة من المجتمع،
الفئة التي تجبر على أداء كل الواجبات، ولا تملك أية حقوق، إنها الفئة
الممتلكة من قبل أسيادها، المحرومة من إنسانيتها وعلاقاتها مع باقي
فئات المجتمع . لكن الخبر السار المقدم لكل الذين يخدمون أسيادهم في
البيوت ومراكز العمل أنه عندما يصغون لصوت الروح القدس ويختبرون
حضوره الحي في حياتهم فإنهم سوف يتنبأون . والتنبؤ في هذا السياق لا
يعني بالضرورة إعلان نبوءات عن المستقبل، بل سماع كلام الله، لأنه سيكلمهم
شخصياً، وعليهم أن ينقلوا كلامه ويكرزوا بخلاصه إلى أناس آخرين لتغيير
حياتهم . إن تنبؤ العبيد والإماء سيخلق لهم حالة روحية جديدة مع الله
ووضعاً اجتماعياً جديداً مع المؤمنين الذين يعملون معهم والذين
يشاركونهم الإيمان نفسه . وقد أكد الرسول بولس على هذه الحقيقة في
رسالته إلى فليمون، والتي موضوعها أن بولس التقى عبد فليمون
"أنسيمس" الذي ترك سيده وهرب، لكن بولس التقاه في السجن وكرز له
بخلاص المسيح، مما أدى إلى اختباره حضور الروح القدس في حياته ليصير
إنساناً جديداً . لهذا كتب بولس إلى "فليمون" طالباً إليه أن يقبل عودة
عبده وخادمه "أنسيمس" إلى خدمته لأنه قد تغير بعد الإيمان . والأمر
الملاحظ في هذه الرسالة هو نوعية العلاقة الاجتماعية الجديدة التي يدعو
بولس "فليمون" السيد لإقامتها مع "أنسيمس" العبد والخادم . فبولس يقول
لفليمون بأن أنسيمس لم يعد مجرد عبد، بل صار ابناً له وأخاً محبوباً
نظيره . لقد كتب له قائلاً: "أطلب إليك لأجل أبنائي أنسيمس الذي ولدته في
قيودي الذي كان قبلاً غير نافع لك، ولكنه الآن نافع لك ولي الذي رددته،
فاقبله الذي هو أحشائي . لأنه ربما لأجل هذا افترق عنك إلى ساعة، لكي
يكون لك إلى الأبد، لا كعبد في ما بعد، بل أفضل من عبد، أخاً محبوباً ولا
سيما إليّ، فكم بالحري إليك في الجسد والرب جميعاً . فان كنت تحسبني
شريكاً فاقبله نظيري" (فليمون ١٠، ١٢ و ١٥ - ١٧) .

الروح القدس يُحضّر لكل منا عطية، إلى أية فئة انتمينا، بنين كنا
أو بنات، شباباً كنا أو شيوخاً، عبيداً كنا أو سادة . فجميعنا مدعوون
لاختبار قوة حضور الروح القدس في حياتنا، لهذا دعونا نصغي لصوته ونختبر
حضوره حتى لا نخسر عطاياه . آمين .

(٢) عيش حياة الإيمان
التي يعلنها الإنجيل

(١) فساد الإنسان
"لأنه علم ما كان في إلا نسان"
(يوحنا ٢: ٢٥)

يختلف تعريف إلا نسان باختلاف وجهة نظر الجهة المعرّفة. فعلم المنطق يعرّف إلا نسان بأنه حيوان ناطق. وعلم إلا اجتماع يعرّفه بالكائن إلا اجتماعي، وعلم النفس يعرفه بالشخصية المكوّنة من مجموعة المشاعر والأحاسيس، وعلم الحياة يعرّفه بمجموعة من الخلايا. وقد توالى على تعريف إلا نسان الكثير من العظماء والفلاسفة والكتّاب وكان لكلّ منهم وجهة نظره. فالكتّاب إلا نكليزي "وليم شكسبير" وصف إلا نسان في مسرحيته "هملت" فقال: "أي عالم هو إلا نسان؟ إنه عمل فني. كم هو نبيل في تفكيره، عظيم في قدرته، جميل في شكله، ساحر في عمله. فهو يشبه الملاك في فهمه، بل يشبه الله". إن تعريف "شكسبير" إلا يجابي للإنسان يشبه إلى حد كبير تعريف قصة الخلق للإنسان قبل السقوط. يقول كاتب سفر التكوين: "فخلق الله إلا نسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله" (تكوين ١: ٢٧ و ٢٨). وقد تغنى بصورة الخلق السامية للإنسان، المرئم في المزمور الثامن فقال: "من هو إلا نسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده، وتنقصه قليلاً عن الملائكة، وبمجد وبهاء تكبله، تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه" (مزمور ٨: ٤-٦). فإذا أعدنا صياغة تعريف إلا نسان بحسب قصة الخلق قبل السقوط والتي تنسجم مع تعريف "شكسبير". فالإنسان هو مخلوق على صورة الله ومثاله هو مبارك من الله، ينقص قليلاً عن الملائكة، مكمل بالمجد والبهاء، ومتسلط على أعمال يدي الله. لكن هذا التعريف السامي للإنسان إنما هو للإنسان قبل السقوط في الخطية، لكنه بعد السقوط يختلف بطريقة جذرية عنه قبل السقوط. يخبرنا كاتب سفر التكوين، أنه بعد أن خلق الله آدم وحواء، أوصى آدم قائلاً: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" (تكوين ٢: ١٧). إلا أن آدم وحواء بحريتهما اختارا أن يتجاهلا وصية الله، ويضربا بكلامه عرض الحائط. وفضلاً أن يسمعا لصوت إبليس الذي لا يعمل لخيرهما، إنه الحية المخادعة، فتمردا على الله وأكلا من شجرة معرفة الخير والشر التي أوصىاهما أن لا يأكلا منها. وهكذا، بحريتهما اختارا الموت لا الحياة. غير آبهين بقول الله لهما "يوم تأكل منها موتاً تموتاً". والنتيجة كانت كارثية على حياتهما، فطردا من الجنة وخسرا الشركة مع الله. وهكذا شوّهت الخطية صورة الله فيهما، ففسدا، وطال فساد الخطية كل أجزاء شخصيتهما وحياتهما. فلم يعد الإنسان يشبه الملائكة في تفكيره، ولا الله في صورته، ولم يعد مكللاً بالمجد والبهاء، ولا نبيلاً في فكره، بل شريراً فاسداً غير قادر بإرادته وحرية الذاتية أن يخرج من الحالة التي وصل إليها.

إنّ نتائج الخطية تُرجمت مباشرة بعد السقوط في طريقة تصرف أولاد آدم وحواء، قايين وهابيل مع بعضهما البعض. يُخبرنا الأصحاح الرابع من سفر التكوين، أن قايين اغتاز من أخيه هابيل، لأنه قدّم قرباناً لله "من أبقار غنمه" أفضل من قربان أخيه "من أثمار الأرض". وهكذا امتلأ غضباً وغيره وحسداً، وقام باقتراف جريمته الشنيعة، إذ عندما وجد أخاه وحده في الحقل قام بقتله. ثم بعد قليل، لما أتى الله وسأله عن أخيه: "أين هابيل أخوك؟" فاقترب خبيثاً ثانية وكذب على الله قائلاً له: "لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟". وعندها واجه الله قايين بجريمته قائلاً له: "ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهاً لتقبل دم أخيك من يدك" (تكوين ٤: ١-١١).

وهكذا.. فإن كل صفحات الكتاب المقدس، من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا، إنما هي شهادة عن الفساد الكامل في كامل قوى الإنسان الفكرية والنفسية والإرادية والعاطفية (TOTAL DEPRAVITY) نتيجة لسقوطه في الخطية وتمردّه على الله ورَفْض طاعته وسمع صوته، لكن في الوقت نفسه الكتاب المقدس هو شهادة عن حاجة الإنسان القصوى إلى خلاص الله الذي أتّمه الرب يسوع المسيح بموته على الصليب.

يخبرنا إنجيل يوحنا الأصحاح الثاني، أنه عندما كان المسيح في أورشليم أثناء عيد الفصح، أجرى الكثير من العجائب والمعجزات. ويسجل البشير يوحنا ردة فعل الناس الذين رأوا عجائب يسوع، فيقول: "آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع" (يوحنا ٢: ٢٣). لكننا نسأل هل مجرد رؤية العجائب كافٍ لاختبار الإيمان الحقيقي وإخراج الإنسان من حالة الخطية إلى حالة النعمة؟ نرى الجواب في نهاية الأصحاح بالذنب. يظن الكثير من المسيحيين أننا بحاجة لرؤية عجائب ومعجزات يصنعها المسيح هنا وهناك لكي يؤمنوا، لهذا يتهافتون كلما سمعوا عن معجزة ما، ظناً منهم بأنها ستقودهم للإيمان بالمسيح. لكن هذا الظن غير دقيق، لأنّ العجائب لا تقود بالضرورة إلى المسيح. فغاية العجائب هي إظهار قدرة الله في خدمة احتياجات الناس حتى تقودهم إلى الإيمان بالمسيح. وبالتالي، فالأمر الأساس في المعجزة، يتجاوز المعجزة ذاتها إلى ما ورائها، إلى شخص الرب يسوع المسيح. فالمشكلة الروحية لدى البعض هي أنهم يريدون أن يبقوا مع المعجزة ويندهلوا بقوتها وينسوا المسيح. يخبرنا البشير يوحنا أن إيمان تلك الجموع التي رأت الآيات التي صنعها المسيح، لم يصل إلى المرحلة التي طلبها المسيح، مرحلة الاختبار الروحي العميق للإيمان الذي يتترجم في الثقة واليقين في قدرة المسيح ونعمته وغفرانه وخلاصه. الأمر الذي لم يتحقق في أورشليم. لهذا يقول يوحنا: "إن المسيح لم يأتهم على نفسه" (يوحنا ٢: ٢٢) أي لم يصدق إيمانهم، لأنه يعرف، أكثر من "وليم شكسبير"، وأكثر مناً جميعاً مدى فساد الطبيعة البشرية. يقول يوحنا: "لكن يسوع المسيح لم يكن محتاجاً لأن يشهد أحد عن الإنسان، لأنه علم ما كان في الإنسان" (يوحنا ٢: ٢٣).

فالمسيح يسوع يعلم ويعرف ما في داخلنا وأعماقنا، يعرفنا على حقيقتنا، فهو فاحص الكلى والقلوب.

كما يخبرنا سفر صموئيل الأول الأصحاح السادس، أنه قبل اختيار الله لداود ليمسحه ملكاً ونبياً، طلب الله من صموئيل النبي أن يُحضِر أولاد "يسى"، فأحضِر له "أليآب" أحد أولاد يسى، فقال عنه "إن أمام الرب مسيحه" (صموئيل ١٦: ٦). فقال الله لصموئيل، "لا تنظر إلى منظره وطول قامته، لأنى قد رفضته، ولأن ليس كما ينظر الإنسان، لأن الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب" (صموئيل ١٦: ٧). يقدم الرب يسوع المسيح في إنجيل متى تصريحاً حول طبيعة القلب البشري، الذي لم يختبر بعد قوة عمل الله، فقال: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف، هذه هي التي تنجس الإنسان". (متى ١٥: ١٩).

إنّ تفشي الشر والظلم والوحشية والفساد في العالم، هو خير دليل على فساد الطبيعة البشرية وحاجة الإنسان القصى إلى عمل الله. حتى يُخرجه من حالة الخطية إلى حالة النعمة. في كتابه Heart of darkness "قلب الظلام"، يصف الكاتب الإنكليزي "جوزيف كونراد" رحلة إنسان إلى قلب وعمق أدغال الكونغو في أفريقيا، فيرى الكثير من الوحوش الكاسرة والمفترة التي ترعبه، إلّا أنه يشير في كتابه إلى أن رحلة الإنسان هذه إلى عمق أفريقيا، إنما هي حقيقة رحلة الإنسان إلى أعماق نفسه، حيث يكتشف في أعماقه وطبيعته البشرية، ووحشاً وأفكاراً وخطايا وحشية كاسرة تجثم في داخله منتظرة الفرصة المواتية لتخرج منه. يقول عالم النفس السويسري "يونج" Jung مؤسس مدرسة في التحليل النفسي: "إن خطايا الإنسان البدائية (تلك التي تشبه خطية قتل قايين لأخيه هابيل)، لم تُمُت بعد، لكنها كامنة وجاثمة في حالة اللاوعي في زوايا قلوبنا المظلمة. فالذي يضع الضوابط لهذه الخطايا ويمنع خروجها إلى العلن هو الاعتراف بها للرب يسوع المسيح الذي يغفرها لنا.

وبكلمة أخرى، إنّ العلاج لطبيعتنا البشرية الخاطئة يبدأ أولاً وقبل كل شيء، بالإقرار الصادق بفساد الطبيعة البشرية، كما يقول الرسول بولس: "ليس بار ولا واحد، ليس من يفهم، ليس من يطلب الله، الجميع زاغوا وفسدوا معا... الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله" (رومية ٣: ١٠-١٢ و ٢٣). ومن ثمّ الطلب إلى الله غفران خطايانا وتطهيرنا من آثامنا. يقول الرسول يوحنا: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضلّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويظهرنا من كل إثم" (١ يوحنا ١: ٨ و ٩).

لقد آمن الرسول بولس أن الهدف الأساس من مجيء المسيح إلى عالمنا هو خلاصنا من خطايانا، فأتى إلى المسيح بخطاياه معتبراً نفسه

أول الخطاة، وهكذا نال غفرانه وخلصه. يقول بولس: "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول، ان المسيح يسوع جاء إلى العالم لكي يخلص الخطاة الذين أولهم أنا" (تيموثاوس ١: ١٥) .

إن الاعتراف الصادق بالخطية، بحقيقة ما في داخلنا، ليس كما يرانا علماء المنطق والاجتماع والفلسفة، بل كما يرانا المسيح على حقيقتنا وفي قلوبنا، هو الخطوة الأولى في طريق التوبة والإيمان، حتى يعالج المسيح فساد طبيعتنا بمنحنا طبيعة جديدة. فالاعتراف بالخطية ليس بالأمر السهل على الإنسان، لأنه يحتاج إلى جرأة يمنحها الله. قال اللاهوتي الإنجيلي "بول تيليك" في كتابه "the courage to be" "شجاعة أن أكون"، (الاعتراف يحتاج إلى شجاعة كبيرة، شجاعة أن تقبل نفسك كما أنت أمام الله، شجاعة أن تقرّ بضعفك، والسبب الأساس الذي يكمن وراء عدم جرأة الاعتراف، هو الكبرياء الذي يمنعنا من ذلك، ويمنع عيوننا من رؤية بركات وسلام التواضع أمام الله وأمام الآخرين. لهذا عندما نعتزف بضعفنا وخطايانا لله، فأننا نوجه الصفعة الكبرى لكبريائنا). الاعتراف بالخطية هو وقفة حقيقية مع الذات. يقول عالم النفس السويسري "بول تورنيه" "paultournier" إن أصدق لحظات الحياة هي لحظات الاعتراف للرب، لأنه في هذه اللحظات يلتقي الإنسان مع نفسه، كما هي على حقيقتها الخاطئة، فيتوجه معها نحو الرب الذي يرانا كما نحن في ضعفنا ويداويها بغفرانه، ويمنحنا الروح القدس حتى نستعيد السلام معه ومع أنفسنا". أما القديس "أوغستينوس" الذي أمضى وقتاً في الخطية بعيداً عن الله، فإنه حين رجع بالتوبة والإيمان، فقد وثقُ توبته من خلال كتاب "اعترافات" الذي كتبه، فوصفه قائلاً: "إن هذا الكتاب أعطاني فرحاً وراحةً كبيرين، لأنه لا يوجد أي كتاب في العالم قادر أن يزيل ألم القلب ككتاب الاعترافات".

مما لا شك فيه أن المسيح يعلم ما في داخل الإنسان، فهو يعرف خبايا قلوبنا المظلمة. لهذا فهو يدعونا للاعتراف بخطايانا ونيل غفرانه، حتى نستعيد صورته الأساسية فينا، تلك الصورة السامية المقدسة التي منحها الله لآدم قبل السقوط، صورة الإنسان الذي وصفه كاتب المزمور الثامن والكاتب "وليم شكسبير" بأنه "ينقص قليلاً عن الملائكة، يشبهه الملاك في فهمه، نبيل في تفكيره، مكلل بالمجد والبهاء، يشبه الله". آمين.

(٢) عناية الله
"حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي"
(خروج ١٩: ٤)

من الصور الجميلة التي استخدمها رجالات الله في العهد القديم للتعبير عن مفهومهم عن الله صورة مأخوذة من عالم الطيور هي صورة النسور. فقد رأى بعض الأنبياء في النسور، وهو ملك الطيور، شبيهاً ببعض صفات الله خاصة في سموه وقدرته وعنايته بأولاده. يقول إرميا النبي: **"لأنه هكذا قال الرب ها هو يطير كنسر ويبسط جناحيه على موآب"** (إرميا ٤٨: ٤). فالله يطير كنسر. ولكي نفهم بشكل أعمق صفات النسور، الشبيهة بالله، نقرأ سؤال الله لأيوب: **"أو بأمرك يخلق النسور ويعلي وكره ويسكن الصخر ويبيت على سنّ الصخر والمعقل. من هناك يتحسس قوته، تبصره عيناه من بعيد"** (أيوب ٣٩: ٢٧).

فمن صفات النسور أنه يخلق ويعلو في طيرانه أكثر من كل الطيور. وبالتالي فهو عال ومتسام كالله العالي والمتسامي. لقد مجد المرثم صفة السمو والعلو والجلال في الله، فقال: **"أيها الرب سيدنا ما أجد اسمك في كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السموات"** (مزمور ٨: ١).

ومن صفات النسور أنه الأقدر والأقوى بين كل الطيور، كما يقول الله لأيوب **"من هناك يتحسس قوته"** (أيوب ٣٩: ٢٩). إن قوة وقدرة الله، تغني بها المرثم فقال: **"المثبت الجبال بقوته، المتنطق بالقدرة"** (مزمور ٦٥: ٦). وأيضا **"والمتمسك بقوته إلى الدهر"** (مزمور ٦٦: ٧).

يصف أيوب بصر النسور الثاقب فيقول: **"تبصره عيناه من بعيد"** (أيوب ٣٩: ٢٧). فالنسور هو أكثر الطيور قدرة على رؤية الفريسة من بعيد. وصفة القدرة على رؤية ومراقبة تفاصيل الحياة هي صفة الله. لقد اندهل المرثم برؤية الله لتفاصيل حياته، فصلى قائلاً: **"يا رب قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي فهمت فكري من بعيد. مسلكي ومريضي ذريت وكل طريقي عرفت... لم تختف عنك عظامي حينما صنعت في الخفاء ورقمت في أعماق الأرض. رأيت عيناك أعضائي وفي سفرك كلها كتبت يوم تصورت إذ لم يكن واحداً منها. عجيبة هذه المعرفة فوقي ارتفعت لا استطيعها"** (مزمور ١٣٩: ١-٦).

يشبهه كاتب سفر التثنية عناية ومواكبة النسور لفراخه بعناية الله بأولاده، فيقول: **"كما يحرك النسور عشه وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء وأرضه عسلاً من حجر وزيتاً من صوان الصخر"** (تثنية ٣٢: ١١ - ١٤). وصف أحد الذين شاهدوا لمدة ساعة مشهد نسر يدرب فراخه ويواكبهم أثناء تعليمهم على الطيران،

فوجده مطابقاً لوصف سفر التثنية. إن فرخ النسور يحتاج إلى مائة يوم لكي يصير قادراً على الطيران. وعند نهايتها يحرك النسور العشب، فيجبر صغيره على الخروج منه ويُسقطه في الهواء. وعند سقوطه إلى علو يقرب من تسعين قدماً، يطير النسور وراء فرخه ومن ثم تحته، فيحمله على جناحيه (مناكبه) ويعلو به، ثم يكرر الأمر ليعود ويتركه ليسقط ثانية وثالثة لمسافة أطول، إلى أن يتعلم الطيران.

هناك صورة أخرى تصور عناية الله بأولاده بإخراجهم بطريقة عجائبية من وسط الظلم والعبودية والخوف، وكأنه حملهم على أجنحة النسور ليخلصهم من تلك الحالة. هذه الصورة استخدمها كاتب سفر الخروج، ليبين كيف خلص الله شعبه من عبودية وظلم المصريين، إذ قال الله لموسى "قل لبني يعقوب وأخبر بني إسرائيل أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين. أنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي" (خروج ١٩: ٤).

من طبيعة النسور العمر الطويل، إذ يضاهاى عمر البعض منها عمر الإنسان مئة سنة. وقد استخدم البعض تعبير "تجديد الشباب" لوصف العمر الطويل للنسور. وبالتالي، فإذا قورنت حياته الطويلة بحياة باقي الطيور، تكون حياته قد تجددت عدة مرات. هناك قصة خرافية عن تجديد النسور لشبابه مفادها، أنه عندما يتقدم النسور كثيراً في السن فإنه يطير باتجاه الشمس حتى يحترق ريشه، ثم يسقط في البحر ويخرج منه بريش جديد وهكذا يتجدد شباباه. يقول المرنم في المزمور (١٠٣: ٥، ٢، ١) "باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته الذي يغفر جميع ذنوبك الذي يشفي كل أمراضك الذي يفدي من الحفرة حياتك، ويكلك بالرحمة والرفاة، الذي يشبع بالخير عمرك، فيتجدد مثل النسور شبابك". ويكرر إشعياء الصورة نفسها، فيصف المؤمنون المنتظرون الرب، بأن الرب يمنحهم بروحه القدوس وبحضوره قوة جديدة كالنسور بقوله: "أما منتظروا الرب فيجدون قوة يرفعون أجنحة كالنسور يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون" (إشعياء ٤٠: ٢١). وبالتالي، فإن استخدام المرنم في المزمور ١٠٣، وإشعياء في الأصحاح ٤٠ سمة "العمر الطويل" أو "تجديد الشباب" عند النسور، هو للإشارة إلى أن عناية الله بأولاده المؤمنين من خلال غفرانه خطاياهم وشفائه أمراضهم وإخراجه من الحفرة حياتهم وتكليلهم بالرحمة والرفاة وإشباع عمرهم بالخير. فإن عمل الله العظيم هذا، يمدهم بالقوة والنعمة والرجاء فيمنحهم حياة جديدة بل يجعل حياتهم تتجدد كحياة النسور المتجددة.

نحن مدعوون للإيمان بعناية الله ومواكبته اليومية لكل تفاصيل حياتنا. في عظته على الجبل، طمأن الرب يسوع المسيح تلاميذه، بعناية الله بتفاصيل حياتهم وحتى بطعامهم ولباسهم، طالباً إليهم فقط الإيمان وطلب ملكوت الله وبره أولاً، وكل الأمور الأخرى ستزاد لهم إذ سيهتم بها شخصياً: "لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. انظروا إلى

طيور السماء إنها لا تزرع و تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها. أستم أنتم بالحري أفضل منها... لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن أطلبوا أولاً ملكوت الله وبزّه. وهذه كلها تزداد لكم" (متى ٦: ٢٥ و٢٦). فالإيمان هو الثقة واليقين بعناية الله. في كتابه "لا تطرح ثقتك" كتب الأب "دانيال" واصفاً الإيمان بقوله: "الإيمان هو الإيقان في المسيح بأنه لن يعوزك شيء حتى ولو كانت كل الظروف تشير إلى نقص مستمر في الموارد". الإيمان هو الإيقان بأنه سيكون لك راحة بالمسيح حتى وإن كان كل ما يحيط بك يبشّر بالإعياء والاضطراب والتشويش. الإيمان هو الإيقان بأنه سيكون لك نجاح بالمسيح حتى وإن كان كل المنظور ينبئ بالفشل.

لنتذكر صورة النسر التي تصور عناية الله المستمرة بنا. لنتذكر أن الرب هو كالنسر، سام جلاله فوق كل الأرض هو يطير حولنا ويحيط بنا ويحملنا على جناحيه عندما نمرّ في ظروف صعبة، لنتذكر أنه يجعل منا بالإيمان نسوراً إذ بروحه القدوس يجدد شبابنا وحياتنا له المجد إلى الأبد. آمين.

(٣) الإيمان الولادة مرتان حوار المسيح مع نيقوديموس

من الحوارات الأساسية التي يذكرها البشير يوحنا في إنجيله، حوار المسيح مع نيقوديموس. ففيه يعلن المسيح لنيقوديموس عن تعليم جديد حول الدخول إلى ملكوت الله، تعليم لم يكن يعرفه نيقوديموس، لكنه لم يقبله، ربما لاعتبارات معينة أو ربما لتمسّكه بفرضيات ومفاهيم تقليدية مسبقة حالت دون انفتاحه وقبوله لهذا التعليم الجديد. فما الذي جرى في هذا الحوار؟

يفتح البشير يوحنا (٣: ١٣-١) الحوار بتقديمه صورة إيجابية وصورة سلبية عن نيقوديموس. فيقول "كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ اسْمُهُ نَيْقُودِيمُوسُ رَئِيسٌ لِّلْيَهُودِ. هَذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً" (يوحنا ٣: ١-٢). فالصورة الإيجابية هي أن رئيساً لليهود، أحد معلمي إسرائيل، كان معجباً بيسوع المسيح وراغباً في رؤيته، ففتش عنه وجاء إليه. والإعجاب بالمسيح والتفتيش عنه هو الخطوة الأولى على طريق التلمذة للمسيح. أما الصورة السلبية فهي أن هذا المعلم لم يأت إلى المسيح في وضّح النهار وأمام الجميع، بل لاعتبارات معينة ربما اجتماعية أو دينية أو سياسية، فضّل أن يأتي تحت عباءة الليل مُستتراً بسِتر الظلام، لكي لا يراه الذين يعرفونه ويتعرض للإحراج. إن ذكر البشير يوحنا لوقت المجيء في "الليل" في هذا النص وفي نصوص أخرى ليس أمراً عرضياً، لكن له دلالات سلبية. فمثلاً يقول: "إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم. ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه" (يوحنا ١١: ٩ و١٠).

عند التقاء نيقوديموس بالمسيح، في بدء الحوار، قال له: **'يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه'** (يوحنا ٢: ٣). فنيقوديموس يبدأ حواراً مع المسيح بتصريحه الهام حول شخصه، فيذكر أمرين يتعلقان بهويته. الأول: كونه معلماً، والثاني، كونه أتى من الله. وفي كلامه هذا لم يخاطب نيقوديموس المسيح كونه يمثل نفسه فقط بل كممثل لجماعة. فنيقوديموس هو رئيس لليهود ومعلم لإسرائيل. ويبدو من الحوار أن نظرة نيقوديموس للمسيح على أنه أتى من الله معلماً، لم تكن نظرتة وحده، بل ربما نظرة الجماعة التي ينتمي إليها. وهذا يظهر في قوله: **'يا معلم نعلم'**. وبالتالي قد يكون نيقوديموس قد نقل رأي جماعته بالمسيح. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، على م بنى نيقوديموس وجماعته نظرتهم إلى المسيح؟ يخبرنا البشير يوحنا أنهم ربما قد بنوها على رؤيتهم للمسيح أو سماعهم عنه بأنه يعمل آيات وعجائب. قال نيقوديموس **'ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه'** (يوحنا ٢: ٣).

إلاً أن المسيح لم يعلّق على تصريح نيقوديموس هذا، بل غير الموضوع وأجابه قائلاً: **'الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله'** (يوحنا ٣: ٣) ويقول: **'الحق الحق أقول لك'**، وضغ أمام نيقوديموس تعليماً جديداً ربط فيه بين ملكوت الله وصورة جديدة هي الولادة من فوق، ليوضّح لاحقاً بأن هذا المعنى الجديد للولادة، له بعد اسكوتولوجي روحي. فهذه الولادة من فوق تمنح التأشيرة والإذن بالدخول إلى ملكوت الله. والكلمة اليونانية *another* المترجمة إلى العربية **'من فوق'** لها معنيين وليس معنى واحد. فالمعنى الآخر غير المذكور في الترجمة العربية هو **'ثانية'**، آخذة بعين الاعتبار أن هناك ولادة أولى. وبالتالي فالكلمة اليونانية الأصلية تحمل المعنيين **'ثانية'**، **'ومن فوق'**. إلاً بعض الترجمات تذكر معنى وتهمل الآخر، إلاً أن المعنيين ضروريين لفهم عمق حوار المسيح مع نيقوديموس. فيسوع قال لنيقوديموس بحسب الكلمة اليونانية **'إن كان أحد لا يولد من فوق وثانية لا يقدر أن يرى ملكوت الله'** (يوحنا ٣: ٣). وهاتان الكلمتان تشيران إلى بُعدي الزمان والمكان. فكلمة **'ثانية'** تشير إلى البعد الزمني، إلى الوقت الذي تتم فيه الولادة، وكلمة **'من فوق'** تشير إلى البعد المكاني، إلى السماء مكان ومصدر هذه الولادة، كون أنها عمل الله إله السماء، وليست عمل الإنسان. لكن نيقوديموس يجيب عن بُعد واحد للكلمة اليونانية، هو البعد الزمني. فيقول للمسيح **'كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ؟ أعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟'** (يوحنا ٣: ٤). فتشديد نيقوديموس كان على الولادة الجسدية الزمنية الثانية والمستحيلة، إذ كيف يمكن لإنسان أن يدخل بطن أمه ثانية ليولد، تضعه أمام صعوبة فهم قول المسيح عن الولادة من فوق. ولمزيد من الإيضاح، يقدم المسيح صورة ثانية جديدة حول الولادة علها تساعده في فهم مقصده، فيقول: **'الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من**

الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله ' (يوحنا ٥: ٣). فالصورة الجديدة هي صورة الولادة من الماء والروح للدخول إلى ملكوت الله. لكن كيف نفهم قصد المسيح بضرورة ولادة نيقوديموس من الماء والروح؟ يذكر أحد المفسرين إنه عند حدوث الولادة يخرج من رحم الأم ماء مُعلناً قدوم الطفل، لكن المسيح يقول: إن هذه الولادة الجسدية في المرة الأولى من الماء، لا تكفي للدخول إلى ملكوت الله. **'فالمولود من الجسد جسد هو'** (يوحنا ٣: ٦) وبالتالي هناك حاجة إلى ولادة مرة ثانية من الروح، أي الروح القدس التي تضمن الدخول إلى ملكوت الله، الولادة الأولى الجسدية من الماء هي ثمرة اتحاد الأهل من خلال العلاقة الزوجية ندخل هذا العالم الحاضر. أما الولادة الثانية الروحية، هي من فوق، تتحقق من خلال عمل الله فينا، إذ أن الله بنعمته ومبادرته نحونا وبتجاوبنا بالإيمان بالرب يسوع المسيح، يمنحنا بداية جديدة وكأنها ولادة جديدة، بداية ثانية وكأنها ولادة ثانية. فنولد مرتين وندخل عالم ملكوت الله الذي يبدأ على الأرض، عندما يملك الله علينا بروحه ويسود على أفكارنا وقلوبنا وإرادتنا وينتهي في السماء عندما يأتي ملكوت الله. ولاحقاً في العدد الرابع عشر يسند البشير يوحنا هذه الولادة الثانية على سند عمل المسيح الكفاري على الصليب، فيقول لنيقوديموس: **'وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية'** (يوحنا ٣: ١٤). فكما رفع موسى الحية النحاسية في البرية ليخلص الناس من لسعات الحيات السامة المميتة، هكذا فإن المسيح ابن الإنسان سيُرفع على الصليب، لكي يخلص ولا يهلك كل من اختبر الولادة الثانية بالروح من فوق ويمنحه الحياة الأبدية.

وبعد شرح المسيح لنيقوديموس حول التعليم الجديد تعجب نيقوديموس. فقال له المسيح: **'لا تتعجب إنني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق'** (يوحنا ٣: ٧). وبقوله هذا أعلن المسيح أن الإيمان وقبول هذا التعليم هو مطلب الله **"ينبغي"**، ليس فقط من نيقوديموس، بل من الجميع مستخدماً صيغة الجمع **"تولدوا"**. وبالتالي على نيقوديموس واجب ومسؤولية هي أن يذهب إلى جماعته كونه معلماً لإسرائيل ليقول لهم، أنه ينبغي على الجميع أن يولدوا ثانية من فوق. ليس هذا أحد الخيارات المتوفرة، بل هو الخيار الوحيد والسبيل الوحيد لكل إنسان للدخول إلى ملكوت الله.

ثم يكمل المسيح حديثه مخبراً نيقوديموس عن سر عمل الله في هذه الولادة، هذا التغيير الكبير والجذري الذي يجريه الله في الحياة عندما نطلب المسيح بالإيمان. فحركة هذا السر تتخطى حدود معرفتنا الإنسانية، وتشبه سرّ نشوء الريح وحركتها. قال لنيقوديموس: **'الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب'** (يوحنا ٣: ٨). وكلمة الريح في اليونانية Pneuma تحمل أيضاً معنيين، الريح أي الرياح، والروح أي الروح القدس. فلا أحد يعلم كيف تهب الريح أو الروح، ولا كيف تتحرك. في كثير من الأحيان تتوقع الأرصاد الجوية أن

تتوجّه الريح باتجاه ما، لكنها في اليوم الثاني تغير اتجاهها، وهكذا هو الأمر بالنسبة لعمل الروح القدس. لا أحد يستطيع أن يرصد عمل الروح القدس في الحياة وفي العالم. فالإيمان يبقى سراً في جوهره، وسراً في حركته، لكننا نستطيع أن نسمع صوت الروح القدس كما نسمع صوت الريح، ونستطيع أن نشعر ونختبر قوة حضور الروح القدس كما نستطيع أن نشعر ونختبر قوة الريح. 'هكذا كل من ولد من الروح' (يوحنا ٣: ٨).

وفي نهاية ذلك الحوار، وبالرغم من إعجابه بيسوع الذي أتى من الله معلماً ويعمل آيات، إلا أن نيقوديموس لم يقبل ولم يؤمن بإمكانية تحقيق هذا التعليم الجديد، فأنتهى كلامه بسؤال استفهام: 'كيف يمكن أن يكون هذا؟' (يوحنا ٣: ٩). فأجابه المسيح: 'أنت معلّم إسرائيل ولست تعلم هذا. الحقّ الحقّ أقول لك: إنّنا إنّما نتكلّم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستّم تقبلون شهادتنا. إنّ كنتّ قلتّ لكم الأرضيات ولستّم تؤمنون فكيفّ تؤمنون إنّ قلتّ لكم السّمويّات؟' (يوحنا ٣: ١٠-١٢).

وبسؤال الاستفهام حول تعليم المسيح، غادر نيقوديموس في الليل ولم نعد نسمع أي شيء في إنجيل يوحنا عنه، إلا أننا نراه في مشهد واحد في يوم الجمعة العظيمة بعد موت المسيح على الصليب كما يذكر الأوصاح التاسع عشر، إذ بعد أن أسلم المسيح الروح ظهر على الساحة شخص اسمه يوسف الذي من الرامة، يقول البشير يوحنا عنه إنه كان تلميذاً ليسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود. فهذا ذهب إلى بيلاطس وطلب منه جسد المسيح لكي يدفنه في قبر جديد يملكه لم يوضع فيه أحد. ويبدو من سياق الحدث إنه كان صديقاً قريباً لنيقوديموس إذ يخبرنا يوحنا ما يلي:

"ثم إنّ يوسف الذي من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع فأذن بيلاطس. فجاء وأخذ جسد يسوع. وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مزر وعود نحو مئة مناً. فأخذ جسد يسوع ولفاه بأكفان مع إلا طياب كما لليهود عادة أن يكفّنوا." (يوحنا ١٩ : ٣٨-٤٠).

إن هذا الحدث يجعلنا نفكر في موقف نيقوديموس النهائي من المسيح. هل بعد ذلك الحوار مع المسيح تغيرت حقيقة موقفه وتغيرت حياته، فصار كيوسف الرامي، لكنه لسبب الخوف من اليهود ولاعتبارات دينية واجتماعية وسياسية، كان تلميذاً في الخفية، وقد ظهر عند موت المسيح ليقدم مع صديقه الإكرام لجسد المسيح؟ أم أنه بقي في مرحلة الإعجاب التي تسبق التلمذة، دون أن ينتقل إلى مرحلة التلمذة. وبالتالي بدافع الإعجاب بشخصه أراد أن يقدم لجسده الإكرام مع صديقه فكفناه ووضعاه في قبر جديد؟

لاشك نحن لا نعرف حقيقة موقف نيقوديموس، وربما آمن بالمسيح، أو لم يؤمن به، فهذا غير مؤكّد. مهما كان موقف نيقوديموس من المسيح،

فالبشير يوحنا أراد أن يسرد لنا القصة، ليؤكد على ضرورة اختبار كل منّا للولادة الجديدة، بالانفتاح على عمل روح الله في حياتنا. آمين.

(٤) النعمة "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكْمَل"

معادلة غريبة عن فكر الإنسان والمنطق البشري، أطلقها الرسول بولس حين اكتفى بنعمة المسيح قائلاً: "لأنني حينما أنا ضعيف، فحينئذ أنا قوي" (٢كورنثوس ١٢: ١٠). فكيف يكون الضعيف قوياً؟ وكيف يمكن أن تكمن قوة الإنسان في ضعفه؟ معادلة قد لا يقبلها المنطق البشري، لكنه مرحّب بها في منطق المسيح، لأنه منطق النعمة الإلهية. فالرسول بولس أدرك سرّ هذه المعادلة الإلهية، بعد اختبار روحي مميّز وعلى أثر إعلان خاص مباشر من المسيح. لهذا دعونا نتعرّف على هذا الاختبار في حياة بولس، لنعرف كيف يكمن سرّ القوة في الضعف.

يدون بولس اختبارَه هذا في رسالته الثانية إلى كورنثوس، الأصحاح الثاني عشر، فيبدأ التحدّث عن اختبارَه بقوله، مع أنه لا يحب أن يفتخر لأن الافتخار والادّعاء والتكبر هي سمات لا تليق بالإنسان المسيحي ولا توافق الدعوة المسيحية، لكن بالرغم من ذلك، يرى بولس ضرورة أن يفتخر بأمرين مرتبطين ببعضهما البعض: الأول، بإعلان المسيح المميّز له. والثاني، بضعفاته.

ما هو مضمون افتخار بولس الأول في إعلان المسيح له، والذي أدّى لاحقاً إلى افتخاره الثاني بضعفاته؟ يقول بولس: "فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته" (٢كورنثوس ١٢: ١). يتحدث هنا عن رؤى روحية وعن مناظر وإعلانات وكشّف إلهي، إذ كشف الله له خلال خدمته حقائق روحية غيرت حياته. وهذه بعض الأمثلة على ذلك: (أعمال الرسل ٢٢: ١٧، ١٨) "وكنث أصلي في الهيكل أني حصلت في غيبة فرأيتَه (الرب) قائلاً لي: أسرع وأخرج عاجلاً من أورشليم، لأنهم لا يقبلون شهادتك عني". حين كان بولس يصلي صلاة عميقة، رأى المسيح وسمع منه إعلاناً بكلمات مسموعة. أيضاً يخبرنا في رسالته إلى كنيسة غلاطية أنه بإعلان إلهي قيل الإنجيل، وبإعلان إلهي تعرّف على يسوع المسيح، وبإعلان إلهي جعله المسيح رسول الأمم فيقول:

"وأعزّفكم أيها الأخوة بالإنجيل الذي بَشَّرْت به. أتّه ليس بحسب إنسان، لأنّي لم أقبله من عند إنسان، ولا علّمته، بل بإعلان يسوع المسيح" ويتابع قائلاً: "ولكن لما سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشّر به بين الأمم للوقت لم أستشِرَ لحمًا ودمًا" (غلاطية ١ : ١٢و١١ و١٥و١٦) وبالتالي، هناك تدخل إلهي في حياة بولس هو تدخل النعمة الإلهية إذ يشدّد على أن الله دعاه بنعمته "ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ".

في بداية الأصحاح الثاني عشر من رسالته الثانية إلى كورنثوس، يخبرنا الرسول بولس عن اختبار غير عادي، يقول: "أعرف إنساناً في المسيح قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم. اختطف هذا إلى السماء الثالثة، اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها"، من جهة هذا افتخر بولس. فالاختبار الذي حدث منذ ١٤ سنة لإنسان في المسيح، ما هو إلا اختبار بولس، كما يتوضح لنا في النص لاحقاً. فهو ليس متأكداً إن كان هذا الصعود أو الاختطاف إلى السماء الثالثة في جسده أم لا. فهو يقول "الله يعلم". لكن بولس لا يتحدث عن نفسه مباشرة ليتجنّب الافتخار. لقد تحدث اللاهوت العبري عن سَبْع سموات. وتحدث المصلح "جان كالفن" عن السماء الثالثة قائلاً: إنها سماء الكمال حيث يحضر الرب. فقد اعتقد آباء الكنيسة الأولى بأن الفردوس هو المكان الذي تجتمع فيه نفوس المؤمنين بعد الموت بانتظار قيامة الجسد في اليوم الأخير. فصعود بولس إلى الفردوس ومثوله أمام الرب، وسماعه كلمات عن أسرار سماوية لا يسوغ لإنسان أن ينطق بها، كلمات لا تُترجم إلى لغة مفهومة ولا يحق لإنسان أن يستخدمها، فإن كل ما حصل بقي سراً بينه وبين الله.

لكن هذا الإعلان لم ينته هنا، لكنه استمر حتى يسند ضعفات بولس وألمه من خلال النعمة التي يمنحه إياها المسيح والتي تكفيه حتى يستطيع أن يتابع خدمته بالرغم من آلامه وضعفاته. فقد كان في حياته "شوكة في الجسد" تسبب له ألماً وتزعجه وتعيق خدمته. وقد كثرت التحليلات حول ما عسى أن تكون هذه الشوكة. فالبعض قال إنها ألم في عيونه، أو في أذنه، والبعض ظن أنها حُمى مالطية، والبعض الآخر اعتقد أنها شعور مزعج جداً بالذنب كونه كان مُضطهداً لكنيسة المسيح، في حين ظن آخرون أنه انزعاجه الكبير كان رَفْض شعبه خلاص المسيح. (أنا شخصياً أعتقد أن الشوكة هي مشكلة جسدية في عينيه تسبب له الألم). يخبرنا بولس أنه تضرع وتوسل وصلى بحرارة ومن كل القلب ثلاث مرات طالباً إلى الله أن يزيل عنه هذه الشوكة، لكن جواب المسيح لم يكن: "نعم سأزيل عنك شوكتك بحسب رغبتك"، بل كان: "لا، لن أزيلها، فهذه الشوكة ستبقيك متواضعاً". يقول بولس: "لئلا ارتفع بفرط الإعلانات، أعطيت شوكة في الجسد، ملك الشيطان ليلطمني". هناك هدف روحي من وراء هذه الشوكة، ألا وهو التواضع في خدمته وشهادته للمسيح، "لأن الله يقاوم المستكبرين، أما المتواضعون

فيعطيههم نعمة خاصة وقوة خاصة تساعده ليتحمل الألم. فعندما تضرع ثلاث مرات وبإلحاح طالباً من الرب أن يزيل عنه الشوكة، أجابه المسيح في نهاية الإعلان قائلاً له: **"تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل"** (٢ كورنثوس ١٢: ٩). وفي هذه الإجابة يعلمنا الرسول بولس حقائق روحية هامة عن الصلاة. فعندما نصلي، ننتظر دائماً من الرب أن يستجيب لصلواتنا ويلبي رغباتنا بقوله "نعم". لكن هناك استجابات أخرى لا نريد أن نسمعها ونصدقها يقول فيها الله لي: "انتظر، لم يحن الوقت". وغيرها تقول: "لا" كاستجابة المسيح لبولس. لكن، حتى عندما يقول لنا الرب لا، فإنه يمنحنا نعمة كافية وقوة كافية تعيننا في تحمل وضعنا وألمنا وظروفنا التي قد تكون صعبة في بعض الأحيان. إن قول المسيح **"تكفيك نعمتي لأن قوتي في ضعفك تكمل"**، تتضمن الوعد بالنعمة، والنعمة هي مبادرة إلهية مجانية من المسيح دون أن نستحقها، تترجم عملياً بالحصول على قوة سماوية تأتي مباشرة من الله وتتفاعل في حياة بولس وحياتنا؛ تتفاعل مع ضعفه وفي شوكته وترافق ضعفه وألمه وتمنحه الصبر والقوة والاحتمال. وقد أخبر الرسول بولس أعضاء كنيسة فيلبي عن كفاية وفاعلية النعمة التي اختبرها بالمسيح قائلاً لهم **"أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني"** (فيلبي ٤: ١٣).

يعلن اختبار بولس لنا جميعاً، أن نعمة المسيح لن تجد مكانها في حياتنا إلاً عندما نعترف بضعفنا وخطايانا وإخفاقاتنا. فهذه النعمة لا تعمل عندما نتفاخر بقوتنا وإنجازاتنا وبطولاتنا، بل تعمل فقط عندما نعترف بحاجتنا القصوى إلى الله. فالرسول بولس، الذي يرجع إليه الفضل في إرساء قواعد الفكر اللاهوتي الإنجيلي من خلال رسائله، كان يعترف دائماً بضعفه ومحدوديته. وقد رأى أن هناك رسالة روحية لنا في ضعفنا الإنساني، ألا وهي الاتكال الكامل على الله وتمجيده وإرجاع كل الفضل له في كل ظروف الحياة. لا يستخدم الله أبطالاً ليكرزوا بملكوته، بل يستخدم أناساً ضعفاء مثلنا ويمنحهم قوته ونعمته. في رسالته إلى كنيسة كورنثوس يقول بولس **"ولكن لنا هذا الكنز في أوان خزفية ليكون فضل القوة لله لا منا"** (٢ كورنثوس ٤: ٧). فنحن أوعية خزفية، أوانٍ ضعيفة نحيلة قابلة للكسر، لكن الله يعمل وسط ضعفنا. لماذا؟ لكي نُرجع الفضل له وليس لنا، فهو مصدر قوتنا، لهذا هتف بولس قائلاً: **"لأنني حينما أنا ضعيف، فحينئذ أنا قوي"** (٢ كورنثوس ١٢: ١٠). فنعمة المسيح كافية لأن تجعل من ضعفنا قوة. ولأنه اختبر هذا الاختبار الروحي المميّز، صار يفتخر أمام الناس بضعفاته، وهذا هو افتخاره الثاني.

نحن نتذمّر ونتأفف ونخجل من ضعفنا وألمنا، لكن بولس يفرح ويفتخر ويشكر الله على ضعفه لكي يختبر نعمة المسيح. فيقول: **"فبكل سرور افتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحلّ عليّ قوة المسيح"** (٢ كورنثوس ١٢: ٩). واستخدام كلمة "تحلّ" مهم جداً، فهي تذكّرنا بحدث تجسّد وحلول المسيح الكلمة بيننا **"الكلمة صار جسداً وحل بيننا"** (يوحنا ١: ١٤). فكلمة "حلّ"، والتي مصدرها الكلمة العبرية "شكينة" تعني "خيم" أو نصب خيمة.

وبالتالي، كما أن المسيح الكلمة في تجسده نصب خيمة وحلّ بيننا، كذا يقول بولس، فإن قوة ونعمة المسيح نصبت خيمة وحلّت في ضعفه وأثناء خدمته للمسيح، فمنحته الصبر والاحتمال حتى صار يُسَرُّ بضعفه إذ يقول: **"لذلك أُسرّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات لأجل المسيح لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي"** (٢كورنثوس ١٢: ١٠).

هذا هو بولس الضعيف القوي صاحب المعادلة الغريبة عن المنطق لأنها معادلة أبناء ملكوت الله. هذا هو الذي رأى بالإيمان ما لم يستطع أحد أن يراه، إذ رأى بواسطة نعمة المسيح في الضعف قوة. فيعلّمنا باختباره هذا دروساً روحية عميقة تساعدنا في حياة الإيمان بالمسيح. فهي تعلمنا كيف نتجاوب مع آلامنا وصعوباتنا وأشواكنا الروحية والجسدية والنفسية التي نحملها. فمن منّا بدون شوكة؟ ومن منّا بدون ضعفٍ ما يؤلمه ويزعجه ويقض مضجعه؟ كل منّا يختبر كل يوم ضعفاً. أجسادنا آوان ضعيفة معرضة للكسر. لكن الخير السار الذي يحمله لنا بولس الضعيف القوي أن المسيح يعمل وسط ضعفاتنا وآلامنا عندما نحيا بالنعمة. آمين.

(٥) الرجاء "الرجاء لا يخزي"

يعيش الناس في هذه الأيام في وضع نفسي صعب بسبب الأحداث الأليمة التي تمر بها المنطقة. فالكثير من الناس يعانون القلق والخوف والاكْتئاب. جاء في أسطورة قديمة أن الله أرسل ملاكه إلي إبليس ليخبره بأنه سوف يجزّده من كل أساليبه التي يستخدمها ليتغلب على المؤمنين. فتوسّل إبليس أن يترك معه أسلوباً واحداً فقال: "دعني أحتفظ بالاكْتئاب". وإذ ظنّ الملاك أن هذا الطلب بسيط أبدى موافقته، فهتف إبليس قائلاً: "عظيم!" ثمّ ضحك قائلاً "بحصولي على هذا الطلب ضمنت كل شيء آخر". وصف أحدهم في اختباره الشخصي بعدما مرّ في حالة من الاكْتئاب، قائلاً: "الاكْتئاب إختبار تعسّ يخلفك مُنهكاً، ومتردّياً في هوة يأسٍ قُطع منها كل رجاء، فتشعر بأنك عالق في فخ ومحكوم عليك بسوء المصير... يا له من إختبار مروّع". إن حالة القلق التي تصل أحياناً إلى مرحلة الاكْتئاب هي حالة إنسانية نمرّ فيها جميعاً، عندما نمرّ باختبارات أليمة تهدّد معنى وجودنا. إلا أن الخطر لا يكمن في إختبارنا لهذه الحالة، لكنه يكمن في استمرارنا فيها دون أن نجد رجاءنا في المسيح. يخبرنا الكتاب المقدس أن الكثير من رجالات الله مرّوا بحالة القلق والخوف والاكْتئاب في مرحلة ما في حياتهم. يصف إرميا النبي في الأصحاح الثلاثين من سفره حالة خوف ورعب شديد مرّ بها الشعب في العهد القديم عندما سبى البابليون بلادهم وعاثوا فيها فساداً ودماراً. فقال "صوت ارتعاد سمعنا، خوف ولا سلام. إسألوا وانظروا

إن كان ذكر يضع. لماذا أرى كل رجل يدها على حقوقه كماخض وتحول كل وجه إلى صفرة" (إرميا ٣٠: ٥-٦). في هذه الكلمات يستخدم إرميا ثلاث صور تعبير عن حالة الرعب والخوف التي عاشها الشعب. الأولى، سماع صوت صراخ من شدة الرعدة والخوف. الثانية، رؤية رجال يتألمون وكأنهم في ألم مخاض الولادة مع أن الرجال لا يلدون. والثالثة، صورة الوجوه المصفرة من شدة الخوف.

إلا أن الأمر المضيء في نبوءة إرميا هذه هو أنه في وقت الألم والخوف واليأس وسيادة الموت والشر، تنبأ أن الله سيخلق رجاء من اليأس وحياة من الموت. وبالتالي، ففي الوقت الذي نطن فيه أن الأبواب قد أغلقت بشكل كامل والجهود الإنسانية الخيرة قد فشلت، ها نحن نرى الله يعمل بطرقه الخاصة حتى يأتي إلينا ويحضر معنا ليغير وضعنا. لقد سمع إرميا الله يقول له في نبوءته: "لأنني عرفت الأفكار التي أنا مفكر بها عنكم يقول الرب، أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرة ورجاء، فتدعوني وتذهبون وتصلون إلي فأسمع لكم، وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم". (إرميا ٢٩: ١١-١٣). وهكذا يربط بين الرجاء وطلب الرب بكل القلب. فلا رجاء بدون طلب الرب من كل القلب. لا رجاء بدون التوجه إلى الله بالصلاة وطلب حضوره في تفاصيل الحياة، لا سيما وقت الضيق والآلام. فالرجاء لا ينفصل عن الإيمان، بل هو الجزء الأساس فيه. يقول كاتب رسالة العبرانيين معرّفًا الإيمان. "وأما الإيمان فهو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى" (عبرانيين ١١: ١). إن المشكلة الأساسية في القلق والخوف واليأس هي تركزنا حول ذاتنا وانشغالنا بهمومنا ومخاوفنا ورثاء حالتنا، الأمر الذي يؤدي إلى إخراج الرب من حياتنا دون أن ندري. مما لا شك فيه أن الضيق التي نمر فيها تفرض نفسها وثقلها على حياتنا. لكن الرسول بولس يخبرنا أنه حتى في وقت الضيق تعلم الصبر، فواجه الضيق بموقف إيجابي حتى صار يفخر بضيقاته. قال لكنيسة رومية: "بل نفتخر أيضًا في الضيق عالمين أن الضيق ينشئ صبرًا والصبر تزكية والتزكية رجاء، والرجاء لا يخزي لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" (رومية ٥: ٤-٥). فبولس يقول لنا إنه في كل مرة نواجه فترات من الضيق، فلنتذكر أن نبقى الله في حياتنا ولا نخرجه خارجًا، بل ندعوه بكل قلوبنا لأنه يمنحنا القوة والنعمة للصبر "الضيق ينشئ صبرًا". وعندما نصبر، دعونا لا نعتمد على أنفسنا بل أيضًا نعتمد على الرب حتى تمر ضيقتنا دون أن نسقط في التجارب بل نتزكى "والصبر تزكية". وعندما نتزكى، أي نجتاز مرحلة تجاربنا وصعوباتنا بنجاح، عندها نختبر حقيقة الرجاء "والتزكية رجاء". ثم يخبرنا عن طبيعة هذا الرجاء فيقول: "والرجاء لا يخزي" (رومية ٥: ٥)، أي لا يسبب لنا الخزي والعار، لا يخذلنا، لا يخيب أملنا، لا يحبطنا، لا يجعلنا نفضّل. لماذا؟ لأنه لا يستند إلى عمل الإنسان ووعوده وانجازاته، بل يستند إلى عمل الله في الإنسان بالإيمان بالمسيح، يستند إلى وعود الله وقدرته ونعتمته. كما يقول الرسول بطرس: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع من الأموات، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ في السموات لأجلكم".

(١بطرس ١: ٣و٤). إن هذا الرجاء حي وليس ميتاً "ولدنا ثانية لرجاء حي". من طبيعة الرجاء أن يكون حياً ليتفاعل معنا، ليخاطبنا ويواكبنا ويساندنا ويتعامل معنا في كل ظروف حياتنا. أيضاً يقول بطرس، إنه لا يقوى أحد على إفنائه وتدنيسه واضمحلاله "لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل". أما مصدر هذا الرجاء ليس العالم بل مصدره السماء "المحفوظ في السموات لأجلكم". هو الميراث الذي أعده الله للذين اختبروا الولادة الثانية بحسب رحمته الكثيرة (١بطرس ١: ٣). أو كما يقول بولس إنه للذين انسكبت محبة الله في قلوبهم بالروح القدس المُعطى لهم (رومية ٥: ٥). شبه أحدهم الرجاء المسيحي بشبكة السيرك التي تستخدم لإنقاذ الناس الذين يتعرضون للحرائق والحوادث في الطبقات العليا فيضطرون للقفز والسقوط عليها. فإنه عندما نمر في صعوبات متنوعة في هذه الحياة، فإننا نقفز ونسقط على شبكة الرجاء، فتحنى الشبكة معنا فتسندنا وتحمينا وتمنعنا من الاصطدام بالأرض، وتعود وترفعنا إلى العلاء. إن الذي أسس هذا الرجاء الحي للذين ولدوا ثانية هو قيامة الرب يسوع المسيح من الأموات "بقيامة يسوع من الأموات".

في كتابه "Suffering and hope" الألم والرجاء، يدون الكاتب الهولندي "جون باكر" اختبار الشخصى المؤلم أثناء الحرب العالمية الثانية حيث شهد وشاهد الكثير من المآسي والآلام والجرحى والقتلى، وقد تعرض شخصياً للنقل إلى معسكرات الاعتقال. يذكر في كتابه قائلاً: "لم يكن قصف الطيران الذي ترك الأثر الأكبر في حياتي، وإنما اليأس المطلق الذي ساد عليّ بعد عودتي من برلين". لكن إيمانه العميق بقيامة المسيح هو الذي أسس له هذا الرجاء الحي. لقد ذكر في كتابه أن الرجاء الحقيقي يتكون من ثلاثة عناصر: الرُكيزة، والآفاق، والهدف. الرُكيزة التي يركز عليها هذا الرجاء الحي، هو يسوع المصلوب والمقام من الأموات. آفاق الرجاء، هي حلول ملكوت الله، كما نصلي دائماً في الصلاة الربانية "ليأت ملكوتك". والهدف من الرجاء الحي، هو مساعدة المؤمنين والمؤمنات الذين يواجهون الضيق والصعوبات والآلام والمآسي، وإمدادهم بالقوة والنعمة التي يمنحها المسيح المقام لأولاده للثبات ومواجهة المصاعب بإيمان وشجاعة وصبر غير معتمدين على أنفسنا بل على المسيح المقام، لأنه مهما تعاضمت أمورنا وساءت على الأرض أحوالنا حتى لو اضطررنا للموت في سبيل المسيح، فإنه برجاء القيامة سيكون لنا حياة أبدية.

في كتابه "The courage to be" "الشجاعة المعهودة"، عزف اللاهوتي الإنجيلي "بول تليخ" الشجاعة بأنها: قوة الحياة في الإنسان التي تجعله يتخذ موقفاً إيجابياً يؤكد فيه على إرادته في الحياة وعزمه على الاستمرار، بالرغم من وجود ضيق وظروف صعبة". وقوة الحياة هذه لدى الإنسان المسيحي تنبع من الرجاء الذي هو القوة الدافعة لهذه الحياة، وتتجذر في حضور الله الذي يغير الحياة ويمنح الإيمان والرجاء والشجاعة وسط الصعوبات. إن رجاء القيامة هو الذي شجع الرسول بولس وقواه لمواجهة الآلام والمصاعب التي اعترضته أثناء خدمته. حيث قال: "إن كان لنا في

هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس" (١كورنثوس ١٥: ١٩). لقد شعر بأنه سيكون أشقى الناس إذا اقتصر رجاءه على هذه الحياة فقط ولم يمتد إلى السماء. كما يقول: "إن كان الأموات لا يقومون فلماذا نخاطر في كل ساعة؟ إنني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم. إن كنت قد حاربت وحوشًا في أفسس، فما المنفعة لي إن كان الأموات لا يقومون، فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت". فالرجاء يعطي قوة الاستمرارية، ويبرر المخاطرة في سبيل المسيح. الرجاء يمنح الفرحة حتى في وقت الألم "فرحين في الرجاء" (رومية ١٢: ١٢). شبه كاتب الرسالة إلى العبرانيين الرجاء بالمرساة التي ترميها السفينة في البحر لتؤمن ثباتها واستقرارها وسط العواصف التي تهب عليها. قال للكنيسة: "تكون لنا تعزية قوية نحن الذين التجأنا لنمك بالرجاء الموضوع أمامنا، الذي هو لنا كمرساة للنفس مؤتمنة وثابتة" (عبرانيين ٦: ١٨ و١٩). فالرجاء المسيحي هو مرساة النفس التي إذا ما تمسكنا بها تمنح نفوسنا الإيمان والثبات عندما تهب علينا عواصف الحياة.

في رسالته الأولى، يقول الرسول بطرس للكنيسة: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف ولكم ضمير صالح" (١بطرس ٣: ١٥ و١٦). فدعونا نعيش حياة الرجاء، وإذا سألنا أحد عن سبب الرجاء الذي فينا، نكون مستعدين بقداسة القلوب والحياة أن نجيبه، بأن السبب هو حضور الله في حياتنا بالروح القدس المعطى لنا. آمين.

(٦) النمو في حياة الإيمان

الصلاة: جرأة وشجاعة

عزف أحدهم الصلاة فقال: "الصلاة هي تنفس الإنسان المتجدد بروح الله"، كما أن الإنسان بحاجة للتنفس حتى يبقى على قيد الحياة، هكذا فإن المسيحي بحاجة لتنفس الصلاة المتجددة بروح الله حتى يبقى على قيد الحياة في علاقته مع الله. وكما أن الوردة تعتمد على نور الشمس لتستمد منها حياتها ولونها، هكذا نحن المؤمنون نعتمد على حضور الله في حياتنا لنستمد منه هويتنا ومعنى حياتنا. فعندما نصلي نعلن جملة هامة من المواقف أهمها: حاجتنا القصوى إلى الله، وإعتمادنا عليه في حياتنا، وتواضعنا أمامه، وشكرنا لأجل عطايه وبركاته. لقد آمن المصلح "مارتن لوثر" أن الصلاة هي سلاح المسيحي فقال: "نحن نعلم أن دفاعنا يكمن في الصلاة. نحن

ضعفاء جداً على مقاومة إبليس وخذامه. لهذا علينا أن نتمسك بسلاحنا الحقيقي الذي يؤهلنا لمصارعة إبليس".

إن مثال الإنسان المسيحي في الحياة هو الرب يسوع المسيح. فإذا تأملنا في حياة المسيح، نرى أنها تميزت بالصلاة. فالمسيح كان حريصاً على صرف أوقات كثيرة في الصلاة مهما كثرت مشاغله. يخبرنا انجيل متى أنه عندما كانت تتقاطر إليه الجموع لتسمع كلمات النعمة من فمه، كان يستريح من ضوائها، فيختلي مع الله بالصلاة: **"وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي"** (متى ١٤: ٢٣). أما لوقا فيقول: **"وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله"** (لوقا ٦: ١٢). وعندما علم تلاميذه الصلاة الربانية (متى ٦: ٩-١٣) وضع لنا النموذج الذي يجب أن تتضمنه كل صلاة نرفعها للرب. وبالتالي عندما نصلي:

(أبانا الذي في السموات)، لنتذكر أن الله أبونا ونحن اولاده؛
(ليتقدس اسمك)، لنتذكر أن نقدر اسم الله في حياتنا وعالمنا، ونعيش حياة القداسة؛
(ليأت ملكوتك)، لنتذكر أن نصلي حتى يأتي ملكوته على الأرض كما هو في السماء؛

(لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض)، لنتذكر أن نسعى لتحقيق مشيئة الله لا مشيئتنا في حياتنا؛

(خبزنا كفافنا أعطنا اليوم)، لنتذكر أن نطلب إلى الله أن يمنحنا خبزنا كفافنا كل يوم؛

(واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا)، لنتذكر أن نغفر للذين أساءوا أو يسيئون إلينا، كما غفر لنا المسيح على الصليب؛
(ولا تدخلنا في تجاربة لكن نجنا من الشرير)، لنتذكر أن نطلب من الله أن لا يسمح أن نسقط في التجارب بل ينجينا من الشرير.
(آمين)، استجب يا رب كل طلباتنا.

يسود بين أعضاء كنائسنا مفهوم خاطيء عن الصلاة، فهي بالنسبة لكثيرين مجرد توجيه لائحة من المطالب الشخصية إلى الله والإصرار عليها وعدم القبول بغيرها، لهذا يصابون بالإحباط عندما لا يحقق الله مطالبهم. والسبب كما يقول الرسول بولس: **"لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي"** (رومية ٨: ٢٦). كما يبيّن المرنم في (مزمو ١٣٩) بُعداً أساسياً من أبعاد الصلاة الحقيقية، يجب أن نحافظ عليه في كل مرة نتوجه فيها إلى الرب بالصلاة: **"إختبرني يا الله واعرف قلبي، امتحني واعرف أفكارني، وانظر إن كان فيّ طريق باطلٌ واهدني طريقاً أديماً"** (مزمو ١٣٩: ٢٣ و ٢٤). فالصلاة بحسب تعريف المرنم هي الطلب من الله أن يدخل أعماق حياتنا ويمجّس قلوبنا وأفكارنا، حتى يجعلنا مدركين لضعفاتنا وطرقنا الباطلة فنعترف بها، وننال غفرانه وطريقاً أديماً كاملاً. قال عالم النفس المسيحي "بول تورنييه": إن الله يكشف لنا ضعفاتنا وخطايانا، لا لكي يديننا، ولكن لكي يغفرها لنا ويخلصنا منها. هذا المفهوم العميق للصلاة يختلف عن طريقة ممارستنا للصلاة التي أصبحت بعيدة عن المفهوم الكتابي الصحيح. ففي

كثير من الأحيان نأتي إلى الكنيسة ونمارس الصلاة كواجب روتيني دون أن ندرك عمق معنى الصلاة، وهكذا تصبح صلواتنا ترديداً لكلمات واعترافات نتلوها بشفاه باردة وقلوب حجرية، فتفقد صلواتنا أهميتها وفائدتها ويصير الأمر عادياً بالنسبة لنا. لقد نقد الرب يسوع المسيح صلاة الفريسيين بشفاه باردة فقال: **"يقترّب إليّ هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه، وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً"** (متى ١٥: ٨). قال المصلح "جان كلفن": الصلاة بشفاه باردة ليست فقط بلا فائدة، لكنها إهانة ضد الله.

يرشدنا إرميا النبي إلى الطريقة الصحيحة للصلاة فيقول بلسان الرب: **"تطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني من كل قلوبكم"** (٢٩: ١٣). فالمطلوب في الصلاة أن نطلب الله من كل القلب بكل حرارة وعاطفة. لكن مع الأهمية الكبرى للحرارة والعاطفة في الصلاة، فإن المصلح "جان كلفن" حذر من أن تصبح المشاعر والعواطف الكثيرة والجياشة، عذراً لعقولنا للشروء وفقدان تركيزها على الله عندما نصلي. لقد تحدث عن نوعين من الصلاة: الصلاة المسموعة والصلاة الصامتة. لقد قال: إن استخدام اللغة المسموعة ليست ضرورة دائمة في الصلاة. فمع أهميتها وضرورتها لا سيما أثناء العبادة الجمهورية والتي يجب أن تكون بلغة واضحة ومفهومة، دعا "كلفن" إلى ممارسة الصلاة الصامتة في بعض الأحيان مستنداً إلى قول المسيح، **"لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه"** (متى ٦: ٨).

إنّ السند الأساسي الذي تستند إليه الصلاة الحقيقية، هو يقينية الإيمان بأن الله يسمع صلواتنا، كما يقول الرب يسوع المسيح: **"وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه"** (متى ٢١: ٢٢). فاليقينية هي في صلب تعريف الإيمان. يعرف كاتب رسالة العبرانيين الإيمان بقوله: **"أما الإيمان فهو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى"** (١١: ١). هناك كلمتان أساسيتان متشابهتان في المعنى تشكلان معنى الإيمان بحسب تعريف رسالة العبرانيين، هما: **"الثقة واليقين"**. فالثقة هي الاعتماد على قوة وقدرة وضمانة الشخص الموثوق به. واليقين هو تصديق وعود الشخص الموثوق به والتأكيد عليها باستمرار. في كتابه حول **"عبودية الإرادة"** the bondage of the will، ذكر المصلح الإنجيلي "مارتن لوثر" ما يلي: **"ليس هناك ما يجعل الإنسان أكثر يأساً من عدم اليقين، فإذا أزلنا اليقين فإننا نزيل المسيحية"**. ثم فسّر اليقين بقوله: **"اليقين في الإيمان يعني الالتصاق المستمر بشخص المسيح، والتأكيد المستمر على وعوده والدفاع المستمر عن رسالته، والحفاظ المستمر على العهود معه"**. قال اللاهوتي المعاصر Hans kung: ليس الإيمان المسيحي فهماً عقلانياً فكرياً لحقائق تاريخية ولاهوتية وكتابية متنوعة، ولا هو استعداداً إرادياً لطاعة غير واضحة، ولا اختباراً عاطفياً ومشاعر رومانسية خالية من المضمون. فالإيمان المسيحي هو ثقة الإنسان المطلقة، وبقينه الثابت، واتكاله الكامل، والتزامه الكلي بقواه الفكرية والإرادية والعاطفية بشخص المسيح ورسالة الإنجيل في العالم.

لقد شدد المصلحون الإنجيليون على الايمان بيقينية استجابة الله للصلاة ، فقالوا: "ليس من الجائز أن يسأل الإنسان المسيحي هذا السؤال: هل يستجيب الله لصلواتنا أم لا؟ فالمحور الأول للصلاة هو يقينية استجابة الله. أن أكون مسيحياً يعني أن أصلي وأن أؤمن أن الله يستجيب لصلواتي. لقد آمن المصلحون بأن الصلاة بإيمان تغير فكر الله وخطه لله ليتجاوب مع احتياجات أولاده، لأن الله بحسب مفهومهم ليس إلهاً جامداً كآلهة الفلاسفة، بل إله يحب أولاده ويتفاعل ويتجاوب معهم ويغير خطته وفكره من أجلهم عندما يتغير سلوكهم وحياتهم بالتوبة. فإرادة الله لأولاده هي إرادة الحياة وليس الموت، إرادة الخلاص وليس الهلاك. في هذا السياق نفهم تجاوب الله مع توبة أولاده في مدينة نينوى عندما كرز لهم يونان النبي. فيخبرنا سفر يونان أنه عندما صلوا وصرخوا إلى الله بشدة ورجعوا عن طريقهم الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم، فإن الله غير فكره وتراجع عن قراره تدمير مدينة نينوى (يونان ٣: ٨-١٠).

فيتساءل البعض قائلين: لقد صلينا كثيراً ، لكننا لم نشعر بأن الله يستجيب لنا، لماذا؟ إن اختبارات رجالات الله في الكتاب المقدس تشير إلى بعض المقاييس الأساسية للصلاة المستجابة، نذكر منها ثلاثة: أولاً، علينا أن نتذكر أن نصلي بإيمان. ثانياً: علينا أن نتذكر أننا لا نعرف ماذا نصلي لأجله كما ينبغي. وكثيراً ما نسمع الله طلباتنا ونطلب منه أن يحقق إراداتنا، والمطلوب أن نفعل العكس، أن نسمع له ونحقق إرادته في حياتنا. لهذا علينا أن نطلب إرشاد الروح القدس الذي يشفع فينا بأناة لا ينطق بها، فيصح صلواتنا ويرفعها معنا بأناته إلى الآب سامع الصلاة. ثالثاً: في كل وقت نصلي نتوقع أن تكون استجابة الله لنا "نعم سأستجيب لمطالبك". وبالتالي، لا نستطيع أن نفكر أو نقبل بأن هناك أنواع أخرى من الاستجابات، لهذا نصاب بخيبة الأمل. تخبرنا اختبارات رجالات الله في الكتاب المقدس أن هناك استجابات أخرى من الله يجب أن نقبلها ونشكر الله عليها وإن لم تُرض مطالبنا وتوقعاتنا. فهناك استجابة "انتظر" وهناك إستجابة "كلاً". فهذه أيضاً استجابات من الله، لا نرغب أن نسمعها، لأن قبولها يتطلب منا جرأة ومسؤولية وشجاعة. يقول المصلح "جان كلفن": الصلاة لا تتطلب منا فقط تواضعاً، لكنها تتطلب أيضاً جرأة وشجاعة لقبول إرادة الله لنا. فالله يعرف احتياجاتنا أكثر مما نعرفها نحن، لهذا علينا أن نقبل بجرأة وشجاعة إرادة الله وإن بدت في الظاهر وكأنها لا تنسجم بل تعاكس إرادتنا. ويتابع "كلفن" قائلاً: نحن مواطنون في ملكوت الله، لهذا علينا أن نقبل إستجابة الله لنا مهما كانت. فلا نستطيع أن نتصرف كغرباء عن الملكوت. فيما أننا مواطنون في مدينة الله، يجب علينا أن نقبل كل قوانين وأنظمة تلك المدينة، حتى لو لم يعجبنا بعضها.

نحن مدعوون لنعيش حياة الصلاة، لنبقى في شركة روحية وتواصل حيوي مع الله الذي به نحيا ونتحرك ونوجد، فالصلاة هي تنفسنا المتجدد بروح الله. نحن مدعوون للإيمان بيقينية الصلاة حتى لو تنوعت استجابات الله لنا، ب

"نعم" أو "انتظر" أو "كلا". فالصلاة ليست فقط تواضعاً أمام الله ، لكنها جرأة وشجاعة لقبول ارادته لنا. آمين.

الغفران: مُعِزَّةُ الْغُفْرَانِ

الشعور بالذنب هو من المشاعر التي غالباً ما يختبرها الإنسان في حياته. وهذه المشاعر قد تأتي من أسباب عدّة، إمّا بسبب خطأ نقترفه ضدّ إنسان آخر ولم نُقِرْ به، أو بسبب موقف ضعيف اتّخذناه في قضية معينة اكتشفنا لاحقاً ضرره، أو بسبب تقصيرنا في القيام بعمل صالح كان يجب أن نقوم به، أو أي أمر سلبي آخر يجعلنا نشعر بالذنب.

هذا الشعور رافق الإنسان منذ فجر التاريخ. منذ أن أخطأ آدم وحواء وأكلا من ثمر الشجرة التي في وسط الجنة والتي أوصاهما الله أن لا يأكلا منها (التكوين ٣: ١-٦). فبعد أن خالفا وصية الله، وبينما كان الرب الإله ماشياً في الجنة، سمعا صوته، فشعرا بذنبيهما وأدركا أنّهما تمردا على كلامه. لهذا خافا واختبئا من وجهه. فنادى الله آدم قائلاً: "آدم أين أنت؟ فقال سمعتُ صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخبتُ" (تكوين ٣: ١٠). وقول آدم بأنه عريان، يعني أنه من دون حماية، ولا يشعر بالأمان. وهذا يعني أن آدم شعر بالذنب لما فعل وانتابه الشعور بالخشية والخوف والقلق وعدم الأمان، بعد أن اقتترف خطيئته بعدم طاعة الله. ولهذا اختبأ وحواء من وجه الله، لكي لا يراهما في عريهما وخطيئتهما.

ويخبرنا الرسول بولس عن اختباره الشخصي مع نفسه وفي أعماقه فيقول: "لأنني لستُ أعرف ما أنا أفعله، إذ لستُ أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فأبغضه" (رومية ٧: ١٥). فبولس بقوله هذا إنما يفصح لنا عن مشاعر الذنب التي انتابته في كل مرة كان يفعل فيها شيئاً يبغضه ولا

يريد أن يفعله، لكن للأسف يفعله. فكم يصح ذلك مع الكثيرين منّا؟ كم مرة نقول لأنفسنا وللآخرين: أنا لا أعلم لماذا فعلت هذا، أنا لم أكن أريد أن أفعل ما فعلته لكنني انزلتت وفعلت. ويكمل بولس في (ع17): "لست بعهد أفعل ذلك أنا، بل الخطية الساكنة فيّ. فأني أعلم أنه ليس ساكن فيّ أي في جسدي شيئاً صالحاً، لأن الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فليست أجده. لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الذي لست أريده، فأياه أفعل". وفي (ع23) يقول بوضوح: "ولكنني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية". هناك في داخلي ناموس آخر، إرادة أخرى تتحكم فيّ في كثير من الأحيان وتجعلني أخطئ، وبعدها أشعر بالذنب. لهذا يرثي بولس لحالته ويقول: "ويحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت". ثم يختم بقوله "أشكر الله بيسوع المسيح ربنا. إذأ أنا نفسي بذهني أخدم ناموس الله، ولكن بالجسد ناموس الخطية" (رومية 7: 25). فهناك جزء خفي فينا نخجل منه، جزء لا نريد أن نظهره لأنه يخرجننا، جزء نحاول أن نخبئه ونكبته، لأننا لا نريد أن يكتشفه أحد فينا، وهو يجعلنا نشعر بالذنب.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف نتعامل مع أخطائنا التي تُشعرنا بالذنب؟ هل نخبئها عن الله كما حاول أن يفعل آدم وحواء؟ أم نتجاهلها؟ أم نُبزرها؟ كثيراً ما يلجأ الإنسان إلى تبرير أخطائه حتى يتخلص من شعوره بالذنب. بعض الناس يحاولون أن يكتبوا مشاعرهم بالذنب لإظهار أنفسهم بأنهم متماسكون ممتلكون لأعضابهم، إلا أنه في بعض الأحيان يزداد شعورهم بالذنب، لا سيما عندما تكون الأخطاء كبيرة. فمتى استفحل هذا الشعور، فإنه يؤدي إلى أمراض واضطرابات كثيرة لا أحد يستطيع أن يتحملها.

في كتابه "العقاب والجريمة" يسلط الكاتب الروسي "دوستويفسكي" الضوء على شخصية في القصة اقترفت جريمة، فيركز على ما رافق عدم الاعتراف بالجريمة من وضع نفسي ومرضي صعب. فذلك المجرم لم يستطع أن يتحمل شعوره بالذنب. فذهب إلى الجبال والأودية ليصرخ بصوت عالٍ ويعترف بجريمته للجبال والأودية إلى أن أسلم نفسه للشرطة ودخل السجن. ومن داخل السجن عبّر عن ارتياحه قائلاً: "لقد وجدت راحتي في سجن القضبان الحديدية، لأن سجن الشعور بالذنب وعدم الاعتراف به هو أقسى بكثير من سجن القضبان الحديدية". ويقول كاتب سفر الأمثال "من يكتُم خطاياهُ لا ينجح ومن يقر بها ويتركها يرحم" (أمثال 28: 13).

ويخبرنا المصلح الإنجيلي "مارتن لوثر" كيف تعامل مع شعوره بالذنب. والسؤال الأساس الذي واجهه لم يكن ما هو مصدر هذا الشعور بالذنب؟ لأنه علم أن مصدره الخطية الساكنة فيه، التي تجعله غير مستحق أن يواجه الله ويتبرر أمامه. فقال، "أنا تراب، أنا رماد، أنا مليء بالخطية". هذا الإحساس المرهف بالخطية قاده إلى حالة شديدة من اليأس الذي امتلكه. فكان يصرف ساعات طويلة في الاعتراف بخطاياهُ. وعندما

كان يعود إلى غرفته، كان يتذكر أخطاء أخرى لم يذكرها في اعترافه. لكن السؤال الأساس الذي طرحه على نفسه هو: كيف أتغلب على اليأس والشعور بالذنب؟ إلى أن وجد الجواب في كلمة الله، في الكتاب المقدس. إذ اختبر أن كلمة الله قادتته إلى معرفة الله، وفي الوقت نفسه قادتته إلى معرفة نفسه بشكل عميق. فكلمة الله اخترقت أعماقه وأظهرت مكنونات قلبه. فأدرك أن كلمة الله شعاع كاشف (X ray) يخترق أعماق الإنسان لتظهره على حقيقته. لقد قال إن رحلة الحج المسيحي هي ليست إلى روما ولا إلى الأماكن المقدسة، بل إلى الأنبياء، إلى المزمير، إلى الأناجيل، إلى الكتاب المقدس. لقد وجد "لوثر" أن العلاج لمشكلة الشعور بالذنب، ليس هو تبرير الخطأ، ولا الهروب منه، ولا تجاهله، لأن هذا يؤدي إلى قساوة القلب، وموت الضمير. فالعلاج لمشكلة الشعور بالذنب هو الإقرار بالذنب والاعتراف بالإثم. يقول المرئم "إن راعيت إثماً في قلبي لا **يستمع لي الرب**" (مزمور ٦٦: ١٨). فالعلاج بمواجهة آثامنا بشجاعة من خلال الاعتراف بها. يقول الرسول يعقوب: "**ولكنه يعطي نعمة أعظم، لذلك يقول يقاوم الله المُستكبرين. أما المتواضعون فيعطيهم نعمة**" (يعقوب ٤: ٦). فالاعتراف بالخطية يستحضر قوة حيوية تمنحنا الشفاء وتزيل منا الشعور بالذنب، وتعيد لنا العلاقة الشخصية مع الله، فنسمع صوته ونصغي لإرشاده. لقد لخص أحد القديسين أهمية الاعتراف بالذنب بقوله: "الاعتراف بالذنب هو مقياس وعي حضور الله في حياتنا"

يخبرنا البشير يوحنا قصة المرأة التي أمسكت في زنى. وقد جلبها بعض الكتبة والفريسيين إلى المسيح ليقولوا له: "هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل" (يوحنا ٨: ٤). وقد طلبوا من المسيح أن يحكم في أمرها. فبالنسبة للكتبة والفريسيين هناك صنفان من الناس: الأبرار من دون خطيئة، والخطاة الذين تمثلهم تلك المرأة التي أمسكت في زنى. وقد اعتبروا أنفسهم في عداد الصنف الأول. إلا أن نظرة المسيح اختلفت عن نظرة الكتبة والفريسيين. فرد عليهم "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر... وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبيكتهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين" (يو ٨: ٧، ٩). لقد أيقظ كلامه فيهم الشعور بالذنب فبكتهم على خطاياهم، بكت ضمائرهم. وكلمة "يبكت" تعني بالأصل اليوناني "يُخرج إلى العلن ويُظهر ما كان مخبئاً. وهذا جزء أساس من عمل الروح القدس في حياتنا، كما قال المسيح لتلاميذه "**ومتى جاء ذاك، يبكت العالم على خطية وعلى بر، وعلى دينونة**" (يو ١٦: ٨). وبالتالي، عندما بكت كلام المسيح ضمائر الكتبة والفريسيين، أخرج إلى العلن ما كان مخبئاً في أعماقهم، وأيقظ شعورهم بالذنب، ووضعهم على طريق التوبة، فخرجوا واحداً فواحداً.

في كتابه "الشعور بالذنب والنعمة"، قال محليل نفسي مسيحي يدعى "بول تورنييه" إن المسيح يسوع يوقظ فينا الشعور بالذنب، لا ليديننا ولكن ليخلصنا منه بغفرانه لنا. وهذا ما فعله يسوع مع المرأة التي أمسكت في زنى. فبعد أن بقيت المرأة وحدها في الوسط إذ غادر المكان

كل متهميها، نظر إليها يسوع، وأكد على خطئها ولم يبررها منه . ثم قال لها "أين هم أولئك المشتكون عليك؟ أما دانك أحد؟ فقالت، لا أحد يا سيد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك اذهبي ولا تخطئي أيضاً" (يوحنا ٨: ١١). وبكلامه هذا غفر للمرأة خطاياها، وفتح لها باباً جديداً وفرصة جديدة لحياة جديدة، وأوصاها أن تعيش حياتها فيما بعد دون أن تخطيء .

يصف المصلح "مارتن لوثر" غفران المسيح لخطايانا وإزالته لشعورنا بالذنب، بأنه معجزة نعجز عن فهمها وأعجوبة تحدث في حياتنا. إنها معجزة لأنها تزيل عنا هذا الشعور المرير والمؤلم ، وتؤدي إلى غفراننا لأنفسنا ومن ثم غفراننا للآخرين . يقول الرسول يعقوب: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلّوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا" (يعقوبه: ١٦). فالاعتراف والغفران لبعضنا بعضاً له نتائج مباشرة على استقرارنا النفسي وشفائنا من مشاعر الذنب التي ترافقنا لنختبر بعدها الأمان والسلام والطمأنينة . صلى القديس أوغسطينوس قائلاً "يا الله لقد خلقتنا لك ونفوسنا لن نعرف الاستقرار إلا بك ومعك".

كلنا نشعر بالذنب، لأننا كلنا نخطيء، كما يؤكد الكتاب المقدس. وبالتالي، كلنا بحاجة للرجوع إلى كلمة الله التي تقدم العلاج لمشكلة كل إنسان خاطئ . كلنا بحاجة ماسة إلى الاعتراف اليومي بخطايانا، لنختبر المعجزة اليومية لغفران المسيح لنا، فنغفر لأنفسنا وللآخرين . آمين

القداسة: "لأنّ هذه هي إرادة الله قداستكم"

من الدعوات الأساسية التي يدعونا إليها الإنجيل، الدعوة إلى القداسة. يذكر الرسول بولس أعضاء كنيسة تسالونيكى أنّ القداسة هي دعوة الله وإرادته لأولاده، فيقول: "لأنّ هذه هي إرادة الله قداستكم" (تسالونيكى ٤ : ٣). وأيضاً: "لأنّ الله لم يدعنا للنجاسة بل في القداسة" (تسالونيكى ٤ : ٧). فالقداسة هي المحور المتعلّق بطريقة حياتنا وسلوكنا وتصرفاتنا. ويوضّح بولس هذا المعنى في العدد الرابع بقوله للكنيسة: "أنّ تمثّنوا عن الزنى، أن يعرف كل واحد منكم أنّ يقتنى إثمًا بقداسته وكرامته" (تسالونيكى ٤ : ٤). والإثم هو جسدنا الذي يصبح بالإيمان هيكلاً لسكنى الروح القدس. لهذا يجب الامتناع عن الزنى، لأن الزنى يهين كرامة الإنسان وينجسه مهما كثرت الاجتهادات والتأويلات والتبريرات الإنسانية. فإرادة الله لنا هي القداسة. أما الرسول بطرس فإنه يوسع مفهوم القداسة لتشمل كل سيرة الإنسان المؤمن في كل تفاصيل حياته وسلوكه وتصرفاته (وليس فقط موضوع الزنى)، فيتحدث عن قداسة أو طهارة النفس والقلب لتكون القداسة أسلوب حياة يميز المؤمنين

بالمسيح. فيقول: "كأولاد الطاعة لا تشاكلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم، بل نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة، لأنه مكتوب: «كونوا قديسين لأني أنا قدوس»". كما يقول: "ظهروا نفوسكم في طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء، فأجربوا بعضكم بعضاً من قلب ظاهر بشدة" (1بطرس: ١٤-١٦ و٢٢). ويوضح الرسول بطرس السبب الأساس لمطالبة الله أولاده بحياة القداسة، فيقول: "عالمين أنكم افتديتم لأشياء تفتني، بفضة أو ذهب، من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح" (1بطرس: ١٩). فالسبب هو أن الرب يسوع المسيح قد افتدانا، أي دفع فدية عنا، ولم تكن الفدية أشياء تفتني من فضة أو ذهب أو غيره، لكنها كانت دمه الكريم الذي بذله على الصليب ليخلصنا من خطايانا. لهذا فإن نوعية حياتنا وتصرفاتنا يجب أن تكون على قدر كبير من المسؤولية حتى نعيش حياتنا ممتنين لعمله العظيم على الصليب. يقول الرسول بطرس لنا: "بل نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة".

إلا أن الأسئلة التي نود طرحها والتأمل بها هي: ما هي القداسة؟ من هو القديس؟ وكيف أصبح قديسين؟ تتنوع الأجوبة على هذه الأسئلة بتنوع الكنائس، لكن نود الإجابة على هذه الأسئلة من وجهة نظر المصلحين الإنجيليين "مارتن لوثر وجان كلفن" لنعكس وجهة نظر المفهوم الإنجيلي المصلح.

كلمة "قديس" لغوياً تعني "المُفرز عن العالم والمكرس لخدمة الله". وقد استخدمت هذه الكلمة في العهد الجديد للدلالة على المؤمنين المسيحيين. وبهذا المعنى أيضاً استخدمت الكلمة في القرون الثلاثة الأولى للدلالة على كل مسيحي واضح أفرز نفسه عن العالم، وخصصها لخدمة الله. لكن كلمة "قديس" خرجت عن معناها الكتابي الأساس، وصارت تستخدم كلقب يشير إلى بعض المسيحيين الذين تميزوا "بالثبل الروحي" ابتداءً من القرن الرابع. فانتشرت كتابات سير القديسين متضمنة بعض العناصر التي حجت المعنى الأساس والكتابي لكلمة "قديس". وفي حوالي القرن العاشر، وضعت الكنيسة مقاييس محدّدة تنظم طقوس تكريم وتطوير القديسين. وهكذا، ما أن أعلنت الكنيسة قداسة بعض المسيحيين المُميّزين، حتى تهافتت الناس على طلب شفاعتهم وتكريمهم وتهافتهم وكل ما وجد من أغراضهم الشخصية وممتلكاتهم، وإقامة التماثيل لهم وجعل قبورهم مزاراً للمؤمنين، الأمر الذي لانزال نراه حتى اليوم.

وعندما بزغ فجر الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، كان من جملة الأمور التي احتجّ عليها المصلحون الإنجيليون تلك الممارسات السائدة حول القديسين. إذ أن مفهوم "القديس" خرج عن معناه الكتابي الأساس. فعلت أصواتهم احتجاجاً على تلك الممارسات، وحذروا المؤمنين من أن يتحوّل تكريمهم إلى عبادة أصنام. وقد رفضوا شفاعتهم إيماناً منهم بأن الشفيع الوحيد بين الله والناس هو المُخلص يسوع المسيح.

وقد أدت ردة فعل المصلحين الإنجيليين على تلك الممارسات السائدة آنذاك، إلى قيام الكنيسة الكاثوليكية بإعادة النظر في بعض تلك الممارسات وفحصها والتدقيق فيها، فعملت على إزالة العناصر الخيالية والأسطورية من كتابات سير القديسين. وفي عام ١٩٨٣ أعادت الكنيسة الكاثوليكية النظر بمقاييس تطويب القديسين فوضعت مقياسين أساسيين لإعلان قداسة المسيحي. المقياس الأول، أن يكون قد مضت خمسون سنة على وفاة القديس. والمقياس الثاني أن يشهد شاهدان موثوق بهما، بأن القديس قد قام إمامًا بأعمال بطولية أو قد أجرى أعجوبتين.

وبما أن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للعقيدة والإيمان والحياة لدى المصلحين الإنجيليين، فقد عادوا إلى مفهوم العهد الجديد للقديس، أي المُفرز عن العالم والمكرس لخدمة الله. يذكر البشير لوقا أن لقب "قديسين" أطلق على المجموعة المؤمنة بالمسيح التي حلَّ عليها الروح القدس في أورشليم. وحين وصف حنانيا اضطهاد شاول للمسيحيين، فقد قال **'أقد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك في أورشليم؟'** (أعمال ٩: ١٣). أمَّا الرسول بولس فعندما أرسل سلامه إلى أعضاء كنيسة كورنثوس قال **'إلى كنيسة الله التي في كورنثوس المقدسين في المسيح يسوع المدعوين قديسين مع جميع الذين يدعون باسم ربنا يسوع المسيح في كل مكان'** (كورنثوس ١: ١). وبالتالي، فإنَّ استخدام لفظ "قديسين" في العهد الجديد هو للإشارة إلى جميع المؤمنين الناضجين الذين اختبروا خلاص المسيح.

إلا أنَّ المصلحين الإنجيليين كانوا مدركين تمامًا لاستحالة أن يكون المؤمنون المقدسون نظير القدوس الذي لم يعرف الخطية ولم يوجد في فمه غشٌّ. فقد آمنوا أن الخطية دمّرت العلاقة بين الإنسان والله وجعلته في فساد كامل. فليس هناك أي مظهر من مظاهر الحياة، أو أي نشاط من أنشطة الإنسان، لم يطله هذا الفساد. وقد نَقَد المصلح "مارتن لوثر" لاهوتي عصره لأنهم فهموا الناموس بطريقة فلسفية وأخلاقية لم تساعدهم على فهم عمق الخطيئة ومدى التدمير الكبير الذي فعلته في حياة الإنسان. فقد اعتقد "لوثر" أن الناموس في العهد القديم أظهر حقيقة حالة الإنسان الخاطئة. فالناموس يشير إلى فداحة خطايانا ويدين الخطية فينا. وجزء أساس من خطيئة الإنسان هو عدم استعداده لأن يقرَّ بخطيئته، لكن الإيمان المسيحي والتعمُّق في محبة المسيح يقود الإنسان إلى وعي أكبر وأعمق لخطاياه. فكلُّما ازداد الإنسان في حياة القداسة، ازداد شعوره المُزْهَف نحو الخطية. وبالتالي لم يثق المصلحون بوجود النقاوة (القداسة) الكاملة حتى في حياة الإنسان المؤمن الذي يقوم بأعمال حسنة مهما كانت حسنة، ذلك لأن الخطية تسلَّت إلى كل جوانب الحياة، حتى إلى أعماله الحسنة. أما المصلح "جان كالفن" فيقول: **'أنا أجزم بأن أفضل إنجازات الإنسان يتخللها بعض الفساد بسبب عدم نقاء في مكان ما'**. ويضيف **'ليحاول أي خادم مبرر أن يختار من كل حياته ما يعتبره أفضل إنجازاته وأعماله، وليمتحنها من كل النواحي،**

فإنه بدون شك سوف يكتشف فيها بعضاً من الكبرياء، ومن أمور أخرى هي بقايا تلوث الخطيئة. كما قال: "إن أنبل أعمال الإنسان لا تستطيع أن تصمد أمام تمحيص الإله القدير لها". وقد أوضح المصلحون أن الفساد لا يعني قيام الإنسان بأعمال فاسدة وخاطئة وغير صالحة، فالفساد ليس أعمالاً فقط ولكنه حالة الإنسان في الخطيئة. وبالتالي، فكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال فاسدة إنما هو انعكاس لحالة الخطيئة التي تتحكم في إرادته الإنسانية. وتعيق بل تُفقد قدرته على إقامة علاقة مع الله بجهوده الإنسانية. فالإنسان بحاجة إلى نعمة إلهية خارجة عنه حتى يستعيد العلاقة الصحيحة مع الله التي فقدتها في الخطيئة.

وفي كتابه "عبودية الإرادة" يذكر "لوثر" أن الإرادة الإنسانية مستعبدة بشكل كامل للخطيئة. لهذا فالإنسان غير قادر بجهوده الإنسانية أن يستلم خلاص الله. فيقول: "إذا أدركنا كم أن الناموس يجعل مطالب الله من الإنسان صعبة التحقيق، ويكشف مدى بعده عن الإيمان الأصيل وحقيقة نفسه الخاطئة، عندها ندرك أهمية أن نرتمي في أحضان مراحم المسيح".

ولمفهوم المصلحين عن عدم قدرة الأعمال الصالحة والجهود الإنسانية مهما كانت نبيلة، في تبرير الإنسان أمام الله، فقد رفعوا لواء "النعمة وحدها" و"الإيمان وحده" اللذين يبرراننا أمام الله، وليس برّ وأعمال الإنسان، مستشهدين بقول الرسول بولس لكنيسة أفسس (٢ : ١٠-٨) : "لأنكم **بِالنِّعْمَةِ مَخْلُصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللَّهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلًا يَفْتَخِرُ أَحَدٌ. لَأَنَّا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللَّهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا**". وبالتالي، فإن فخر الإنسان المؤمن ليس في أعماله، ولكن في عمل الله فيه، من خلال عطية النعمة وحدها والإيمان وحده.

إلا أن تركيز المصلحين على قوة تأثير الخطيئة في الحياة، وصعوبة حالة الإنسان الخاطئ، الذي حتى بعد إيمانه بالمسيح لا يخلص من بقايا تلوث الخطيئة، وعدم ثقتهم بالإنجازات الإنسانية، قد يقود الإنسان إلى القلق واليأس. وهذا حقاً ما أصاب المصلح "مارتن لوثر" في مسيرة إيمانه. فقد أصابه الكثير من الإحباط والقلق واليأس بسبب خطاياها. لكنه وجد الحل لمشكلة قوة الخطيئة من خلال الاعتراف المستمر بخطاياها والنَّيْلُ المستمر للغفران الإلهي الذي يُسميه المعجزة في حياة الإيمان "معجزة الغفران". وهذا ما يميز الإنسان المؤمن عن غير المؤمن. فإنه عند الوقوع في الخطيئة فإن غير المؤمن يخطئ دون أن يشعر بحاجته للاعتراف. أما عندما يخطئ المؤمن، فإنه ينهض معترفاً للرب بخطاياها، فينال غفران المسيح الذي يؤمن له الاستمرار في حياة الإيمان. ويقول المصلح "مارتن لوثر": "غفران المسيح العجيب يحزرننا من اليأس والقلق اللذين تسببهما قوة الخطيئة فينا. غفران المسيح يضع فينا الرجاء الحي. غفران المسيح يجدد قوتنا. لهذا فإن كل حياتنا المسيحية يجب أن

تؤسس على غفران المسيح الذي هو ضرورة مسيحية مستمرة". ويستشهد المصلحون الإنجيليون بقول إشعيا النبي (٤٠:٣١) **"أما منتظرو الرب فيجدون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون"**. لهذا فقوة المسيحي لا تنبع من حالة عدم الخطية والقداسة الكاملة، بل تنبع من غفران المسيح لخطايه.

لقد استخدم المصلح "مارتن لوثر" مفهومين لوصف رحلة الإيمان المسيحي هما "التبرير" و"التقديس". وقال إن مسيرة الإيمان المسيحي تبدأ بالتبرير وتستمر بالتقديس، وقد أصرَّ على عدم الفصل بينهما. كما عرّف التبرير بأنه إعلان الله بقبوله الإنسان الخاطئ الذي آمن بيسوع المسيح واتخذه ربًا ومخلصًا لحياته. لكن قبول الله للخاطئ لا يعني أن الإنسان قد انتهى من الخطيئة بشكل نهائي، ولم يعد يخطئ فيما بعد. فهو يقول: **"يجب ألا يظن من يؤمن بالمسيح أنه قد صار طاهرًا من كل خطايه، لأنه سوف يواجه معركة مستمرة مع بقايا الخطيئة"**. كما يطلب "لوثر" من المؤمن أن يتذكّر أن التبرير الذي ناله ليس منه، بل حصل عليه من نعمة خارجة عنه هي نعمة المسيح. لهذا يجب ألاّ يَعتدّ ببرّه الذاتي بل ببرّ المسيح فيه الذي حصل عليه بالإيمان. ويعرّف لوثر "التقديس" بأنه مواجهة اختبارات حياتنا المسيحية العملية اليومية بالعودة الدائمة إلى الله لطلب معونته. فأدم القديم الذي يسكن فينا بسبب فسادنا لم يُلغَ منّا بشكل كامل، وما عملية التقديس إلاّ مُحاربة بقايا الخطية التي فينا. وبالتالي، إذا كان التبرير هو إعلان الله قبول الإنسان الخاطئ، فالتقديس هو محاربة بقايا الخطية فينا بالرجوع الدائم إلى الله.

أما اللاهوتي الإنجيلي "كارل بارت" فقد اعتقد أن التبرير والتقديس هما الجواب الواحد للنعمة الإلهية نفسها. ففي التبرير نسمع بأننا خطاة قد قِيلنا لله فغير طبيعتنا وصالحنا معه في المسيح. وفي التقديس نوّكّد أنه حتى في أعمالنا نعتمد بشكل كامل على نعمة الله. ولأن عمليتي التبرير والتقديس مستمرتان في حياة المؤمن، أطلق "لوثر" على الإنسان المسيحي تسمية **"الخاطئ المبرّر"**، أو كما سمّاه آخرون **"القديس الخاطئ"**. وقد أوضح "لوثر" هذا التناقض في قوله: **"إنّ حياة الإيمان تنحصر بين نقطتين. نقطة البداية التي يكون فيها الإنسان يعيش بشكل كامل في الخطية، أي غير مبرّر أبدًا. ونقطة النهاية التي يصل فيها المؤمن إلى مرحلة القداسة الكاملة فلا يخطئ فيما بعد، والتي لا تتحقق على الأرض بل فقط بعد الموت أي في السماء"**. فالمسيحي المبرّر والمقدس يعيش حياة الإيمان بين نقطتي البداية والنهاية. فعندما يتوب الإنسان ويتبرر أمام الله، فهو ينطلق من نقطة البداية. لهذا يصبح **"مبرّرًا"** أو **"قديسًا"**. ولكن بما أنه لم يصل إلى النقطة النهائية، أي مرحلة القداسة الكاملة التي يصل إليها المؤمن في السماء، فإنه يبقى **"خاطئًا"** محتاجًا إلى غفران المسيح. يتم النمو في حياة الإيمان والقداسة (من خلال عيش حياة الإيمان، وقراءة كلمة الله، والصلاة،

والمشاركة في سري الكنيسة المعمودية والعشاء الرباني، والكراسة وخدمة المحتاجين وغيرها) فيتقدم المؤمن من نقطة البداية إلى نقطة النهاية. وفي هذا السياق يقول المصلح "مارتن لوثر": إن هناك صراعًا شديدًا ومستمرًا داخل الإنسان المؤمن، وذلك بين إنسان الخطية القديم وإنسان الإيمان الجديد اللذين يسكنان فيه، فيقوم المؤمن من خلال عملية التقديس التي يُجريها الله في حياته عندما يعود إليه، بالخلع الدائم للإنسان القديم ولبس الإنسان الجديد". وهذا الصراع يجب ألا يتوقف أبدًا بل يجب أن يبقى في حركة مستمرة، ليست دائرية إنما باتجاه نقطة النهاية، لأنه إذا توقف فهو يشير إلى التقهقر في حياة الإيمان والبُعد عن الله. يتحقق النمو في حياة الإيمان والقداسة، فينتقل المؤمن من خطية إلى برّ، وفي الوقت نفسه من برّ إلى برّ. وفي هذا التقدم من الخطية إلى البرّ، يزداد تأثير البرّ في حياة المؤمن، فنصير كما يقول بولس **'مشابهين صورة ابنه'** (رومية ٢٩: ٨)، **'ونتغير إلى تلك الصورة عينها من مجدٍ إلى مجدٍ'** (٢كورنثوس ١٨: ٣). لكن مهما ازداد هذا التقدم فالمؤمن لن يصل إلى مرحلة القداسة الكاملة مهما طالت حياته على الأرض. لكن فقط عند الوصول إلى نقطة النهاية برؤية المسيح، لأننا سنكون مثله، كما قال الرسول يوحنا **'ولكن نعلم أنه إذا أظهرنا نكون مثله، لأننا سنراه كما هو'** (يوحنا ٣: ٢). لهذا فالإنسان المسيحي هو "مبرر" أو "قديس" إذا قورن مع نقطة البداية، "وخاطئ" إذا قورن مع نقطة النهاية.

ومما لا شك فيه أن المصلحين الإنجيليين لم يؤمنوا بأن هناك كمالاً وقداسة كاملة في مسيرة الإيمان على الأرض، بالرغم من التغيير النوعي الكبير الذي يجريه المسيح في حياة من يختبر خلاصه. هذه النظرة إلى حياة الإيمان هي نظرة واقعية يعرفها كل مسيحي صادق. لقد رغب المصلحون الإنجيليون بنظرتهم هذه التركيز، من جهة، على أهمية المبادرة الإلهية وعمل النعمة الإلهية ومعجزة الغفران الإلهي وحاجة الإنسان القسوى والمستمرة إلى حضور الله في حياته. ومن جهة أخرى، على تجنب استغلال المؤمن لهذا الاختبار الروحي والتغيير الكبير فينشغل ببه وإنجازاته ويصاب بخطيئة البر الذاتي والكبرياء الروحي، وهكذا يسقط من النعمة. فالرسول بطرس قال للمؤمنين في الماضي، ويقول لنا اليوم، **'تسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة. فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه، ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم'** (١بطرس: ٥: ٧). آمين.

الشُّكْر: موقف حياة

المواقف في الحياة هي التي تحدّد نوعية الحياة، وهي التي تظهر نوعية اهتمامات الإنسان وأولوياته. فمن المواقف التي نتخذها يستطيع الناس معرفة توجهاتنا وانتماءاتنا وفلسفة وجودنا. فمواقفنا هي هويتنا لأنها تكشف حقيقة من نحن أمام الله وأمام أنفسنا وأمام الآخرين. في (اكورنثوس ١٠) يذكر الرسول بولس أنه حين كان الشعب العبراني في بركة سيناء اقترب أربع خطايا هي: عبادة الأوثان — تجربة الله — الزنى — والتذمر وعدم شكر الله. فما هو التذمر؟ عرّف أحدهم التذمر أنه: "الطريقة التي نعبر بها عن اشمئزازنا وانزعاجنا، إما من أناس معينين أو من ظروف صعبة نواجهها، فنضع اللوم على الله وعلى الآخرين من دون الإقرار بأننا قد نكون مسؤولين عن الوضع الذي نمر فيه: يخبرنا سفر الخروج والعدد أنه بالرغم من أن الله أخرج بواسطة موسى الشعب العبراني من عبودية المصريين، وبطريقة عجائبية مزّره وسط البحر الأحمر، ثم سار أمامه بطريقة ملموسة بواسطة عمود الدخان في النهار ليهديهم الطريق وعمود النار في الليل ليضيء لهم الطريق، وبالرغم من أنه زوّدهم بالماء من الصخرة وبالمن والسلوى من السماء؛ أي بالرغم من اختبار الشعب لحضور الله في وسطهم ومرافقته في تجوالهم لاسيما في ظروفهم الصعبة، فإن الأصحاح الحادي والعشرين من سفر العدد يسجل ما يلي: "وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتانا من مصر لنموت في البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف" (عدد ١: ٥). وبالتالي، فالموقف الذي اتخذه الشعب بالرغم من إحسانات الله عليهم، كان عدم التقدير وعدم الامتنان لما فعله الله أولاً وموسى ثانياً. بالرغم من أن الله أراد توفير وضع أفضل بل حياة أفضل لهم، حياة تحررهم من العبودية والذل اللذين عاشوهما في مصر، حياة حرية عبادة الله من دون ضغوطات العبادات الوثنية المتعددة في مصر، فقد تدمروا وتدمروا، وكان الطعام أحد أسباب تدمرهم، حيث سمّوه الطعام السخيف الذي كرهته نفوسهم. فقد اشتاقوا إلى الطعام الشهي. ويذكر سفر العدد (ص١١) نوعية الطعام الشهي الذي افتقدوه في البرية وهو السمك واللحم والبطيخ وغيره. وبالتالي فقد فضل الشعب الذل والمهانة والعبودية مع الطعام الشهي في مصر، على الكرامة والاستقلالية وحرية عبادة الله مع الطعام السخي وبعض الظروف الصعبة في البرية بانتظار الوصول إلى أرض الموعد.

قال أحد القديسين: "التذمر هو من أخطر الخطايا لأنه يعيق بل

يقطع علاقتنا مع الله". وصحة هذا القول نراها في اختبار الشعب المتذمر في البرية. فأمام تدميرهم المتواصل، انزعج الله وأرسل إليهم حياتٍ محرقة. ثم بعد توسلهم عاد فرحمهم من خلال الحية النحاسية التي طلب إلى موسى أن يرفعها لخلصهم. فالتذمر موقف من مواقف الحياة، لكنه موقف سلبي حيث يتوقع المتذمر حول نفسه ليصبح هو وليس الله في المركز. المتذمر ينشغل بعواطفه ورغباته وحاجاته الشخصية فيؤدي دور الضحية "اشفق علي"، ويرفض تحمل المسؤولية ملقياً اللوم على الله وعلى الآخرين وإن كانوا قد مدوا له يد العون، فينكر جميلهم كإنكار الشعب جميل موسى الذي تحمل مشقة المهمة الصعبة وعمل على إخراجهم من العبودية في مصر. المتذمر يسارع إلى إلقاء اللوم على الله ناكراً جوده وبركاته وإحساناته ومشككاً بعدالته.

فالتذمر مشكلة تصيب عمق الإيمان. عرّف كاتب رسالة العبرانيين الإيمان (١١: ١) **"الإيمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى"**. فالمتذمر يريد أن يثق ويتيقن بما يرى من ظروف قد تكون صعبة متناسياً أن الله القدير يسود على عرش الحياة وهو قادر أن يغير ما يرى عندما يحين الوقت لما لا يرى. ولأن التذمر يعيق علاقتنا مع الله فقد شجب الكتاب المقدس التذمر فيقول في (١ كورنثوس ١٠: ١٠) **"لا تتذمروا كما تذر أيضاً أناس منهم فأهلكهم المهلك"** لكن في حين أن بولس شجب التذمر، فهو يدعو إلى اعتماد الشكر موقفاً للحياة. فمن يقرأ بإمعان رسائله الثلاث عشرة يجد أن الشكر لله هو موقفه بل أسلوب حياته. فهو يبدأ رسائله بالشكر لله وينتهي بالشكر لله.

فيقول إن مشكلة الأمم التي لم يعذرهم عليها هي أنهم لما عرفوا الله خالق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السماوية ولاهوته لم يمجدوه ويشكروه كإله بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي (رومية ١: ٢٠ و٢١). فغياب الشكر لله هو مشكلة الأمم، وبالتالي نستنتج أن معرفة الله تحتم علينا الشكر. معرفة الله بوجه يسوع المسيح وبالإيمان الحي بخلص يسوع المسيح يعيدنا إلى حقيقة أنفسنا لنرى حياتنا وعائلاتنا وكل ما لنا كعطية من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعير. وبالتالي، فإن موقفنا التلقائي من عطايا الله الكثيرة لنا بعد معرفتنا للمسيح يجب أن يكون شكر الله على كل شيء.

من هذه القاعدة الأساسية الإيمانية ننطلق لنشكر الله كل حين على كل شيء كما يقول بولس في أفسس (٥: ٢٠) **"شاكرين كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح لله والأب"**. فالشكر هو موقف الإنسان المؤمن في كل الأحوال والأحيان مهما تغيرت الأحيان والأحوال. لقد عبّر حبقوق النبي عن موقفه الشاكر والفرح في الرب عند تغير الأحوال الاقتصادية وشخّ الموارد فقال: **"مع أنه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم، يكذب عمل الزيتون والحقول لا تصنع طعاماً. ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذود فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي. الرب السيد قوتي"** (حبقوق ٣: ١٧).

لقد خاطب المرنم نفسه في المزمور ١٠٣ وعاتبها، طالباً منها أن تبارك الرب ولا تنسى كل حسناته . ثم عدّد المرنم حسنات الله على نفسه فقال: **"الذي يغفر جميع ذنوبك الذي يشفي كل أمراضك، الذي يفدي من الحفرة حياتك، الذي يكللك بالرحمة والرأفة، الذي يشبع بالخير عمرك فيجدد مثل النسر شبابك"** (مزمور ١٠٣ : ٣-٥).

وخلاصة الأمر، إذا كان التذمر موقفاً سلبياً في الحياة، فالشكر هو الموقف الإيجابي؛ إنه موقف حياة جماعة الإيمان . إذا كان التذمر موقف تقوقع الإنسان حول ذاته وانشغاله برغباته وعواطفه وحاجاته الشخصية ليكون هو في المركز، فالشكر هو موقف الخروج من الذات والانشغال بعمل الله وقدره الله وقصد الله في الحياة ليكون الله في المركز . إذا ما كان التذمر موقف الثقة واليقين بما يرى من ظروف قد تكون صعبة، فالشكر هو موقف الثقة واليقين بما لا يُرى، كما يقول بولس: **"ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل التي لا ترى لأن التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية"** (٢ كورنثوس ٤: ١٨). وإذا كان التذمر موقف اتخاذ دور الضحية للتهرب من المسؤولية وإلقاء اللوم على الله والآخرين، فالشكر هو موقف الخضوع لإرادة الله بمسؤولية لأن المسيح الجالس على العرش يسود على حياتنا وهو ولي أمرنا . إذا كان التذمر موقف تناسٍ وإنكار لمراحم الله وإحساناته، فالشكر هو موقف الامتنان والتقدير لكل عطايا الله، ابتداءً من عطية الحياة، إلى عطية الرب يسوع المسيح الذي أعطى نفسه لتكون لنا حياة ويكون لنا أفضل، إلى عطية الإيمان، وعطية غفران الخطايا، إلى عطية الكنيسة، وكل عطايا الحياة من صحة وعائلة ومأكل ومشرب وكل العطايا الباقية . آمين.

(٣) عيش قيم الإنجيل

في العالم

شخصية المسيحي التي يعكسها الإنجيل

(١) الحكمة

"كونوا حكماء كالحيات وبُسطاء كالحمام"

بلغة قريبة من لغة ابن المقفّع في كتابه "كليلة ودمنة" الذي فيه جعل الحيوانات تنطق وتعبر عن صفات ومشاعر الانسان، هكذا وصف الرب يسوع المسيح تلاميذه وسط المجتمع الذي يعيشون فيه. فعند ارساله تلاميذه السبعين للخدمة والكراسة بملكوت الله وسط المجتمع، قال لهم "ها أنا أرسلكم كغنم وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام" (متى ١٠: ١٦). بعبارة واحدة فقط جمع المسيح أربعة أنواع من الحيوانات هي **الغنم، والذئاب، والحيات، والحمام**، إلا أنّ ذُكر هذه الحيوانات الأربعة معاً لاسيما أن لكل من هذه الحيوانات صفاته ورمزيته، إن دلت على شيء فهي تدل على صعوبة التواصل بينها، وبالتالي تعكس صعوبة التواصل بين التلاميذ والمجتمع.

إن السؤال الأساس الذي يطرحه المسيح على تلاميذه في الماضي وعلينا في الحاضر من خلال هذه الآية هو كيف يجب أن نعيش إيماننا المسيحي وسط مجتمع غير صدوق، وسط مجتمع بعيد عن قيم ملكوت الله؟ وما هي الشخصية المسيحية التي يجب أن نتحلى بها لكي نشهد بجرأة واخلص لإيماننا بالمسيح؟ إن كلمة "أرسلكم" "apostelo" التي استخدمها المسيح لها دلالة لاهوتية في اللغة اليونانية الأصلية. فهي تعني الإرسال مع رسالة مع إرسالية، مع مهمة سامية. فكراسة وكلام ومواقف وتصرفات وكل نوعية حياة التلاميذ هي الرسالة السامية التي يجب أن تعلن عن حقيقة إيمانهم بالمسيح. يقول الرسول بولس إنّ المؤمنين بالمسيح هم "رائحة المسيح الذكية لله". وبالتالي عليهم واجب مسيحي أن يظهروه في حياتهم، رائحة معرفته في كل مكان. ويقول "ولكن شكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان لاننا رائحة المسيح الذكية لله" (٢كورنثوس ٢: ١٤ و ١٥).

وعند إرسالهم، شبههم المسيح بالغنم فقال: "ها أنا أرسلكم كغنم وسط ذئاب". إن الترجمة العربية البستانية - فانديك (لوقا ١٠: ٣) تستخدم كلمة "حملان" أي "الخراف الصغار" بدلاً من كلمة "غنم". ولعلّ الكلمة الأفضل هي الحملان أو الخراف بدلاً من كلمة "غنم" التي لها مكنونات اجتماعية وسياسية سلبية تشير إلى اتّهام الناس بأنهم بدون شخصية، نرفض ارتباطها بالانسان المسيحي. فالمعروف عن الحملان أو الخراف وداعتهم وتضحيتهم ومسالمتهم. فيوحنا المعمدان وصف الرب يسوع المسيح "بحمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ١٩). وبالتالي، فالمسيح يرسل تلاميذه ويرسلنا كخراف ودعاء مضحون ومسالمون لنعلن إيماننا وسط مجتمع يتصف بالسلبية والعدائية والخداع وغياب الرحمة والتي هي صفات الذئاب ومجتمع الذئاب. فالعدو الأول للخراف هو الذئب. وما أصعب شهادة الخروف الوديع والمضحى والمسالمة وسط أجواء الذئاب العدائية المخادعة عديمة الشفقة والرحمة، الذين يكمنون الكمائن. يصف المسيح الأجواء العدائية التي سيخدم فيها تلاميذه فيقول "ولكن احذروا من الناس لانهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم . وتساقون امام ولاة وملوك من اجلي شهادة لهم وللامم فمتى اسلموكم فلا

تهتموا كيف او بما تتكلمون لانكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به ، لان لستم انتم المتكلمين بل روح ابيكم الذي فيكم" (متى ١٠ : ١٧-٢٠) . فأجواء الخدمة والشهادة هي أجواء صعبة إذ قد يتعرضون للجلد والسوق أمام الولاة والملوك. لكن وسط تلك الأجواء بالذات يقول المسيح، نحن مدعوون للعيش بأمانة له .

إن المسيح في إرساله تلاميذه يدعوهم للتحلي بصفتين أساسيتين ضروريتين للشهادة له، تُشكلان باتحادهما معاً شخصية المسيحي، هما "الحكمة والبساطة" التي تُعزف بهما " الحيات والحمام". فما هو المعروف عن حكمة الحية وبساطة الحمامة؟ عندما نذكر الحية، فأول ما يتبادر إلى ذهننا حية السقوط التي أغوت حواء و آدم فسقطوا في الخطية (تكوين ٢) . إلا أن المسيح لم يقصد هذا المعنى السلبي أي إغواء و خداع الناس، بل هناك سمة أخرى إيجابية للحية، ألا وهي الحكمة والذكاء. فيصف كاتب سفر التكوين الحية بقوله "**وكانت الحية أحيلاً جميع حيوانات البرية التي عملها الرب**" (تكوين ٣ : ١) . فمن صفات الحية "الحيلة" أي الأسلوب الذكي والحكيم الذي يتمثل في قدرتها البالغة على سرعة الهروب وتجنب الأخطار وعدم الوقوع في الأشرار التي ينصبها لها الإنسان. فالمصريون القدماء اتخذوا الحية رمزاً للحكمة. وهكذا على الإنسان المسيحي الوديع والمسالم والمضحى الذي يرسله المسيح للشهادة، أن يكون كالحية بحكمته البالغة وذكائه الكبير ليدرك كيفية التصرف ويتجنب الأخطار والانزلاقات والانخداع والوقوع في الأشرار التي ينصبها له بعض ذئاب المجتمع. على المسيحي أن يكون حكيماً وحذراً في كل كلمة يقولها، وكل موقف يتخذه، وكل تصرف يتصرفه، حتى لا يسقط في فخاخ بعض المضللين ويصير عثرة في طريق الإيمان ويسيء للمسيح، بل يحافظ على شهادته بأمانة وإخلاص، فتفوح منه رائحة المسيح الذكية في كل مكان يتواجد فيه. أيضاً من سمات الحكمة، القدرة على التمييز بين ما هو صالح وما هو طالح، بين ما يبني وما يهدم، بين ما يثير الشقاكات وما يؤدي إلى السلام. وحتى التمييز بين من هو بالحقيقة حمل ومن هو بالحقيقة ذئب. كما حذر المسيح تلاميذه من الأنبياء الكذبة قائلاً لهم: "**احترزوا من الأنبياء الكذبة الذي يأتوكم بثياب حملان ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم**" (متى ٧ : ١٥) . فالحكمة والقدرة على التمييز هي من أكثر الهبات السماوية التي نحتاجها كمسيحيين نعيش في مجتمع تكثر فيه العدائية والسلبية. لقد أدرك الرسول بولس أهمية أن يمتلك المؤمنون بالمسيح القدرة على التمييز، فصلى من أجل أعضاء كنيسة فيليب حتى يصدق الله عليهم هذه الهبة السماوية، قائلاً: "**وهذا أصليه أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فاكثروا في المعرفة وفي كل فهم حتى تميزوا الأمور المتخالفة، لكي تكونوا مخلصين وبلا عثرة إلى يوم المسيح مملوئين من ثمر البر الذي بيسوع المسيح لمجد الله وحمده** (فيلبي ١ : ٩-١١) . فالقدرة على التمييز تجعلنا حذرين من خطر تبني الأخطاء في العقيدة والحياة، فنبقى مخلصين وبلا عثرة في إيماننا بالمسيح.

وبما أن الحكمة وحدها هي التي تتمتع بها الحياة، فلا تكفي لوصف شخصية مسيحية متوازنة تحقق إرادة الرب يسوع، لذلك أضاف المسيح صفة ثانية يجب أن ترتبط بالحكمة، هي صفة البساطة التي يتحلى بها "الحمام". فما هو المعروف عن **الحمام**؟ الحمام من الطيور التي يذكرها الكتاب المقدس في إشارتها إلى قيم السلام والرجاء والمصالحة. فيخبرنا سفر التكوين عن دور الحمامة الإيجابي في الإعلان عن انتهاء عهد الطوفان، طوفان الدينونة والموت، الذي أرسله الله على البشرية بسبب تعاطف شرورهم. فيقول: فلما نقصت المياه عن وجه الأرض فتح نوح طاقة الفلك وأرسل الحمامة فرجعت إلى الفلك لأن المياه لم تنقص بشكل كافٍ بعد عن وجه الأرض، ثم بعد سبعة أيام أرسلها ثانية من الفلك فعادت عند المساء حاملة في فمها ورقة زيتون خضراء معلنة بداية حقبة جديدة من النعمة التي يميزها السلام والرجاء والمصالحة للبشرية جمعاء (تكوين ٨: ٩-١٢). وعندما نزل الروح القدس على المسيح أثناء المعمودية، فقد نزل بهيئة جسمية مثل حمامة لتعلن أن المسيح يفتتح عهداً جديداً من الرجاء والسلام والمصالحة مع الله (لوقا ٣: ٢٢). وبالتالي يربط الكتاب المقدس بين طير الحمام وسمات السلام والمصالحة والرجاء التي تكون جزءاً أساسياً في مفهوم البساطة. فالإنسان البسيط هو الذي يدعو للسلام والرجاء والمصالحة. تستخدم كلمة "بسيط" باللغة اليونانية الأصلية لوصف النبيذ الصافي النظيف والنقي غير المغشوش وغير المختلط بالماء. وهكذا، فإن صفة البساطة في شخصية المسيحي تشير إلى أنه بالإضافة إلى كونه كالحياة يملك الحيلة والذكاء، فهو أيضاً كالحمامة إنسان نظيف غير ملوث ونقي في نوعية فكره وحياته ومواقفه، يوحى بالرجاء ويعمل من أجل السلام والمصالحة بين الناس. يضيف الرسول بولس بُعداً آخر لتفسير صفتي الحكمة والبساطة في شخصية المسيحي، فيقول لأعضاء كنيسة رومية: **"أريد ان تكونوا حكماء للخير وبسطاء للشر"** (رومية ١٦: ١٩). وبالتالي، فهو يدعونا أن نستخدم حكمتنا من أجل عمل الخير وأن نتحلى بالبساطة والتقاء والمسالمة في زمن الشر.

وقد وصف القس "مارتن لوثر كينغ"، الذي لعب دوراً بارزاً في إرساء الحقوق الإنسانية للعرق الأسود أميركا، شخصية الإنسان المسيحي قائلاً: tough mind - tender heart "ذهن صلب وقلب حنون". إن هذا الوصف يعبر إلى حدٍ بعيد عن شخصية المسيحي. فالإنسان المسيحي بحاجة لوجود هاتين السمّتين معاً في شخصيته. فالذهن الصّلب وحده بدون القلب الحنون، يجعل من الإنسان المسيحي إنساناً بارداً لا يشفق ولا يرحم. والقلب الحنون وحده بدون الذهن الصّلب، يجعل من الإنسان المسيحي إنساناً عاطفياً بدون هدف ولا رؤية. وقد لخصّ الرسول بولس صفات وشخصية المؤمنين بالمسيح وسط المجتمع الذي يعيشون فيه، فقال لأعضاء كنيسة فيليبّي: **"افعلوا كل شيء بدون دمدمة ولا مجادلة لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولاداً لله بلا عيب، في وسط جيل معوج وملتو تضيئون بينهم كأوار في العالم متمسكين بكلمة الحياة"** (فيلبّي ٢: ١٤-١٨). وبالتالي فإذا أعدنا ترتيب كلمات بولس

هذه نرى أنها تركز على صفتي الحكمة والبساطة. فهو يقول لنا وسط هذا الجيل المعوج والملتوي، نحن أولاد الله، مدعوون لأن نتمسك بكلمة الحياة (الإنجيل)، وأن نكون بلا لوم (أي حكماء)، وبلا عيب (أي أنقياء وبسطاء)، لأن هاتين الصفتين جعلنا نضيء ونشع كأنوار في العالم.

عندما أرسل المسيح يسوع تلاميذه للشهادة والكراسة باسمه قائلاً لهم: **"ها انا ارسلكم كخراف وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام"**، فقد كان يدرك تماماً صعوبة إتمام هذه المهمة وحدهم لاسيما، أن لسان حال العالم يقول: "ان لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب". إلا أن الرب يسوع المسيح أكد لهم في الماضي ويؤكد لنا اليوم، بأننا نحن الخراف لسنا وحدنا، ولسنا يتامى، ولسنا متروكين، لأن يسوع المسيح هو راعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف، وهو يعرف خاصته وخاصته تعرفه، وهو يرعانا ويمنحنا حكمة الحيات ويقودنا إلى المراعي الخضراء.

فقط على هذا الرجاء وهذه الوعود المشجعة والمباركة نستطيع أن نشهد للمسيح كحكماء وبسطاء. فامنحنا يا رب روحك القدوس حتى نختبر رعايتك الدائمة لنا ونعكس مجدك في شخصيتنا المسيحية وسط هذا العالم. آمين.

(٢) الضمير

"لأن فخرنا هو هذا، شهادة ضميرنا"

إذا تأملنا في العالم وبحثنا عن السبب الرئيس لكل أنواع الشر والظلم والفساد، نرى أن السبب يكمن في غياب الضمير. فغياب الضمير يسبب الكثير من الآفات الاجتماعية المتعددة ويؤدي إلى الكثير من الإشكالات والمآسي في حياة الناس. وإذا أردنا أن نبدأ أي إصلاح جدي في المجتمع، يجب أن نبدأ من ضمير الإنسان، لأنه من هناك يبدأ التغيير.

لكننا نسأل، ما هو الضمير؟ ما هو ذلك الجزء من الإنسان الذي إما يبني أو يهدم العائلات والمجتمعات والمؤسسات والأوطان؟ الضمير هو ذلك الجزء من الذهن المسؤول عن المسار الأخلاقي للإنسان، هو الذي ينقل إلينا التعليمات والتحذيرات لنقــــوم ونتحكّم في نوعية الأفكار التي نفكّر بها، والتصرفات التي نتصرفها، بحيث جعلنا نقلق ونتألم ونشعر بالذنب عندما نقوم بأمر لا تنسجم ومبادئنا الأخلاقية. فالضمير يحثنا على تفضيل الصواب والصالح والخير على الخطأ والطلاح والشر. الضمير يرتبط ارتباطاً مباشراً بحياتنا وسلوكنا اليومي، فيوجّهنا عبر إعطاء حُكمه في ما قد فكّرنا به وتصرفنا بموجبه، وفيما ننوي أن نفكر به ونتصرف بموجبه.

إن الدور التوجيهي للضمير في الحياة قد أكده الفيلسوف اليوناني "سقراط" الذي قال: "كما أن القانون يمنع الإنسان من التعديت، هكذا فإن الضمير يمنع الإنسان من القيام بأعمال الشر". وفي رسالته إلى أهل رومية يتكلم الرسول بولس عن مجموعتين من الناس، اليهود والأمم (أي غير اليهود). فاليهود لديهم الوصايا العشر وشريعة موسى التفصيلية التي تعطيهم التوجيهات والتعليمات لكيفية التصرف. أما الأمم فليس لديهم شريعة إلهية لتحكمهم، إلا أن التساؤل الذي طرحه بولس هو: إذا لم يكن للأمم شريعة فكيف يتصرفون؟ ما هو الناموس الذي يوجّههم للتصرف؟ ويجب بولس إنه الضمير. الذي هو ناموسهم الداخلي الذي يحكم تصرفاتهم. "فهؤلاء إذ ليس لهم ناموس هم ناموس لأنفسهم. الذين يظهرون عمل الله مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة" (رومية ٢: ١٤، ١٥). وبالتالي، يرى بولس أن الله خلق داخل كل إنسان، وبالفترة، ضميراً يشتكي ويحتج، يديننا ويؤنبنا، عندما نقوم بمخالفة بعض المبادئ. فمن سمات هذا الضمير الطبيعي محبة الأولاد لأهلهم. فالوصية الخامسة من الوصايا العشر تقول "أكرم أباك وأمك" (خروج ٢٠: ١٢)، وأيضاً الضمير الطبيعي في كل إنسان (حتى لو لم يكن لديه شريعة إلهية)، يقول "أكرم أباك وأمك". وهكذا فإن أي إنسان يصغي إلى صوت ضميره جيداً ولا يهمله، يرى نفسه ملتزماً ببعض المبادئ الأخلاقية ومنها محبته لأهله.

ما أشار إليه بولس الرسول حول الضمير الطبيعي، يؤكد تاريخ الحضارات الإنسانية القديمة. فالحضارتان الفارسية واليونانية وغيرهما تمسكتا ببعض الفضائل الأساسية ورفضتا بعض الرذائل. كما أن شريعة حمورابي الأخلاقية القديمة التي سبقت تاريخياً شريعة موسى هي خير دليل على ذلك. والقديس "أوريجينوس" أعطى أمثلة حول بعض الفضائل المسيحية سادت في حضارات سبقت مجيء المسيح. وأيضاً المصلح الإنجيلي "جان كلفن" اعتبر أن فضيلة الحقيقة التي افتخر بها الفلاسفة اليونان إنما كانت إحدى تحضيرات الله لمجيء المسيح.

إلاً أن الرسول بولس يقول: بالرغم من كون الضمير الطبيعي لدى الأمم ناموس داخلي يحافظ على بعض المبادئ الأخلاقية، وبالرغم من أهمية الشريعة اليهودية ودورها في وضع ضوابط للإنسان اليهودي، إلا أن كلا الاثنَيْن: الضمير الطبيعي عند الأمم، وشريعة موسى عند اليهود، يبقيان عاجزَيْن عن إرضاء الله وتبرير الإنسان أمامه. وذلك بسبب الخطية التي طالت الجميع وأفسدت كل أجزاء الإنسان، ولاسيما، الضمير. يقول الرسول بولس: "فماذا إذأ، نحن أفضل؟ كلا البتة، لأنه قد شكونا أن اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطية، كما هو مكتوب إنه ليس باراً ولا واحد. ليس من يفهم ليس من يطلب الله، الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد" (رومية ٣: ٩-١١). فالخطية أفسدت الضمير وسلبت قدرته على التوجيه والتمييز والتحكُّم في مسار الإنسان الأخلاقي، فنام الضمير نوماً عميقاً، وصار يقبل الفساد والشر والظلم والرشوة دون أن يشتكي أو يحتج. وفي رسالته إلى تيطس يصف بولس بعض الناس غير المؤمنين الفاسدين بقوله: "كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً، بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم" (تيطس ١: ١٥). أليس الرضى عن الرشوة والفساد الموجود في المؤسسات دون أن يشتكي أحد هو دليل على نوم الضمير ونجاسته؟ أمّا في رسالته الأولى إلى تيموثاوس، فيقول بولس إنّ التعاليم الخاطئة (يسمىها تعاليم شيطانية) توسم، بل تفسد، بل تميت الضمير، فيفقد فاعليته وعمله في توجيه الإنسان لما يرضي الله. فهو يقول: "ولكن الروح يقول صريحاً إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم" (١ تيموثاوس ٤: ١-٢). ولما كان الضمير الطبيعي تحت تأثير الخطية، فهو بحاجة إلى قوة من الله، بحاجة إلى نعمة ومساندة إلهية من الأعالي ليعود إلى كامل عمله السابق الذي قصده الله له في خلقه إياه في ذهن الإنسان. وهذه القوة الإلهية تأتي من الرب يسوع المسيح عبر روحه القدوس، تأتي من قوة كلمته التي توقظ ضمير الانسان النائم وتقلقه وتبكيته وتؤنِّبه وتدينه لتعيده إلى الحياة والشهادة لله.

يقدم القديس يوحنا في (ص ٨) من إنجيله مثلاً على قوة تأثير كلام المسيح في تبكيته ضمائر بعض الكتبة والفريسيين وإيقاظها لتقرُّ بضعفاتها وخطاياها. يخبرنا أنه بينما كان المسيح في الهيكل أتى إليه بعض الكتبة والفريسيين قائلين له: "هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل وناموس موسى أوصى بأن مثل هذه المرأة ترحم فماذا تقول أنت؟" (مع أن الناموس يقول إن المرأة والرجل يُرجمان وليس فقط المرأة). لكن يسوع انحنى إلى أسفل وكتب بإصبعه. ثم وقف وقال لهم: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر". وفي (ع ٩) يقول: "وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين". إن الذي حدث هو أنه عندما سأل المسيح من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر؟ فإن كلامه جعل ضمائرهم تبكيتهم. لقد أيقظ كلام المسيح ضمائرهم فصارت تفتش في زوايا أعماقهم عن خطايا رفضوا الإقرار بها. وأحد معاني كلمة "يبكيته"، إخراج ما كان مخفياً من الظلمة إلى النور. وهكذا فإن

كلام المسيح أخرج إلى النور ما أخفوه في الظلمة، فأقلق ضمائرهم وأدان ذنوبهم وخطاياهم، وهكذا شهدت ضمائرهم أنهم أشد سوءاً من تلك المرأة. لهذا لم يتجرأ أحد منهم أن يرميها بالحجر الأول. فخرجوا جميعهم مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وقد شبه أحدهم ضمير الإنسان الذي يسود عليه المسيح بروحه، بجهاز الإنذار الآلي alarm system الذي ينطلق ليوقظ ضمائرنا ويبكتها وينبهاها عندما نفكر بأي فكر بعيد عن فكر المسيح، ونتصرف بأي تصرف لا يرضي الله. فالله يرانا من خلال الضمير، ونحن نرى الله في الضمير. التغيير يبدأ من الضمير القلق. الضمير الذي يقلق الإنسان بسبب خطاياهم ليقوده إلى الله. فشهادة الضمير القلق هي التي تبني الإنسان والكنيسة والمجتمع. قال اللاهوتي "كيركيغراد": "أزيلوا الضمير القلق فتغلقوا الكنائس". فضميرنا يجب أن يبقى متيقظاً لسماع كلام المسيح، لأن كلامه يمنح الإنسان المعرفة الحقيقية والحكمة الضرورية للتمييز، ويحثه على عمل إرادة الله، ويمنحه قوة تغييرية هائلة.

بعد أن بدأ المصلح الإنجيلي "مارتن لوثر" إصلاحه، طلبت منه أعلى السلطات الروحية والزمنية (بابا الكنيسة الكاثوليكية وإمبراطور ألمانيا شارل الخامس) أن يحرق كتبه ويتراجع عن أفكاره الإصلاحية، إلا أنه وقف بضميره أمام تلك السلطات قائلاً لها: "هنا أقف، لن أراجع؛ فضميري أسير لكلمة الله، فإنه ليس آمناً ولا صحيحاً أن أخالف ضميري". وبعد هذا التصريح العظيم، ابتدأ التغيير وانطلق الإصلاح الإنجيلي من القرن السادس عشر بقوة كبيرة غيرت وجه أوروبا. فموقف "لوثر" هذا يذكرنا بعظمة شهادة الضمير وقوته في التغيير. قال أحدهم: "لو كانت قوة الضمير مساوية لحقوقه لكان حكم العالم "Were its might equal to its right, it would rule the world"

منذ أن دعا المسيح الرسول بولس لخدمته وملأه بالروح القدس، صار هناك شراكة لا تنفصل بين ضميره والروح القدس. فقال في (رومية ٩ : ١) "أقول الصدق في المسيح لا أكذب وضميري شاهد لي بالروح القدس". كذلك في سفر أعمال الرسل، تحدث عن تدريب نفسه ليكون له ضمير بلا عثرة: "أنا أدرب نفسي ليكون لي ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس" (أعمال ٢٤ : ١٦). وكلمة "تدريب" هي كلمة رياضية أساسية، إذ تصف جهداً مميزاً يبذله الرياضي قبل الاشتراك في مباراة ما. وحتى يكون لنا ضمير بلا عثرة فالأمر يتطلب مناً جهداً كجهد الرياضي وجرأته وشجاعته. فقول الحق بضمير صالح في وجه الباطل يتطلب تدريباً؛ واتخاذ موقف العدل بضمير صالح في وجه الظلم يتطلب تدريباً. يؤسفنا القول أن الفاسدين فقط يتكلمون بجرأة في مجتمعنا، في حين أن هناك الكثير من المؤمنين الأوفياء ذوي الضمير الصالح هم صامتون بحاجة إلى تدريب أنفسهم لإعلان إيمانهم بالمسيح والتصريح بشجاعة ضد الفساد.

يفتخر الناس بالمال والجاه والسلطة، أما الرسول بولس فقد افتخر أمام الله والناس بشهادة ضميره الصالح الخاضع لكلمة المسيح والموجه

لحياته في الإيمان. قال: "لأنَّ فخرنا هو هذا، شهادة ضميرنا أننا في بساطة وإخلاص الله، لا في حكمة جسدية، تصرَّفنا في هذا العالم من نحوكم" (٢كورنثوس ١: ١٢). لقد تعرَّض بولس لكثير من الاتهامات الملفَّقة الكاذبة؛ فاتهمه المجمع اليهودي (السنهديم) بالتهمة نفسها التي اتهموا بها المسيح قبل الصلب، بأنَّه مفسد ومهيَّج للفتنة ومنجس للهيكل؛ لكنه رد على اتهامات المجمع اليهودي قائلاً: "أيها الرجال الأخوة؛ إنني بكل ضمير صالح عشت لله إلى هذا اليوم" (أعمال الرسل ٢٣: ١). فبولس أدرك تماماً أنه مهما حاول المشكِّكون أن يتهموه ويهاجموه، فإنَّ جوابه هو فخره بشهادة ضميره الذي أكد له أنَّه عاش إلى ذلك اليوم بإخلاص لله وتصرفات حسنة أمام الله وأمام الناس.

فليتنا ندرب أنفسنا في مدرسة المسيح بالاعتماد على روحه القدوس، لكي يجعل ضمائرنا مرهفة لسماع صوته فنطيعه ونعيش بإخلاص له ونتصرَّف تصرفات تمجده، وهكذا نستطيع أن نشارك بولس فخره، فنفتخر بشهادة ضميرنا الصالح أمام الله والناس. آمين .

(٣) القناعة المسيحية

"فإنِّي قد تعلَّمْتُ أن أكون مُكْتَفِيًا بما أنا فيه"
(فيلبي ٤: ١١)

يشهد لبنان والعالم تقلُّبات متعدِّدة، مناخية بسبب الاحتباس الحراري الذي غير طبيعة المناخ وأدى إلى نتائج سلبية كبيرة، وتقلبات اقتصادية لا سيما بعد الأزمة المالية التي فتكت بالعالم وأدَّت إلى نتائج كارثية على أفراد ومؤسسات، وتقلبات أمنية إذ لم يعد الأمن مضموناً لا في لبنان ولا في أي بلد في العالم. هذه التقلُّبات والتغيرات تُقلِّقنا وتؤثر على حياتنا من نواح عدَّة. فالسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف نواجه هذه التقلُّبات الكبيرة؟ وهل يقدم لنا الكتاب المقدس تصوراً ما للمواجهة والتأقلم والتكيُّف مع هذه المتغيرات؟ أحد الرسل البارزين الذين يقدمون جواباً على هذا السؤال المصيري هو الرسول بولس. فهو من اختباره المتنوعة وحياته الروحية الغنية يقدم لنا تصوراً في كيفية مواجهة التقلُّبات. فهو يقول لكنيسة فيلبي: "فإنِّي قد تعلمت أن أكون مكْتَفِيًا بما أنا فيه" (فيلبي ٤: ١١) والأصل اليوناني للكلمة المترجمة باللغة

العربية "مكتفياً" تحمل معنى آخر هو "مقتنعاً" وكأن بولس يريد أن يقول: "فإني قد تعلمت أن أكون مقتنعاً بما أنا فيه" وبالتالي فإن تصور بولس لمواجهة تقلبات الحياة هو بالقناعة المسيحية.

وقبل الخوض في تصور بولس هذا، لا بد من التوقف لفهم أهمية فضيلة القناعة عند الحضارة اليونانية التي سادت على زمن الرسول بولس والتي قد يكون تأثر بها إلى حدٍ بعيد. فالقناعة كانت من أسمى الفضائل التي تمسك بها ونادى بعيشها أصحاب المذهب الرواقي اليوناني الذين حاورهم الرسول بولس عندما دخل أثينا "فقابله قوم من الفلاسفة الأبيكوريين والرواقيين" (أعمال ١٧: ١٨). فبحسب التعريف الرواقي اليوناني للقناعة، فهي حالة من السكينة واستقرار القلب والضمير بغض النظر، أو باستقلالية كاملة عن الظروف الخارجية أو الأشخاص الخارجيين الذين يؤثرون على حياتنا. ومصدر هذا الاستقرار كما آمن الرواقيون ينبع من الذات الإنسانية من اعتماد الإنسان على قدراته الذاتية وقوة إرادته في مقاومة ظروف الحياة المتقلبة. لقد نظر الرواقيون إلى الفيلسوف "سقراط" على أنه المثال في القناعة والقدرة على مواجهة الحياة والموت بصبر ورباطة جأش. فاعتبرت الفلسفة اليونانية القناعة سمة الحكماء. وعندما سئل "سقراط": "من هو الإنسان الأكثر ثراء؟" أجاب: "الذي يقتنع بالقليل الذي لديه". من هنا ينبع القول المأثور "القناعة كنز لا يفنى". وعندما سئل الفيلسوف "سينيكا" الذي عاش في القرن الأول "من هو الإنسان السعيد؟" أجاب: "الذي يقتنع بحالته الحاضرة ويتصالح مع نفسه مهما تكن حالته وظروفه". فالقناعة اليونانية هي حالة من السكينة واستقرار القلب والضمير واكتفاء الإنسان بحالته الحاضرة والمصالحة مع نفسه وظروفه مهما تكن. ومصدر هذه القناعة هو القوى الذاتية التي يملكها الإنسان في داخله.

إلاً أن الرسول بولس الذي قد يكون تأثر إلى حدٍ بعيد بهذا الفكر قد أخذ الجزء الأول من تعريف القناعة اليونانية الذي ركز على السكينة واستقرار القلب والضمير ومصالحة الإنسان مع نفسه وظروفه مهما كانت، ورفض الجزء الثاني الذي ركز على أن مصدر هذه القناعة قوة الإنسان الذاتية الداخلية، ليستبدلها بأن مصدر هذه القناعة والاكتفاء ليس الإنسان، بل الرب يسوع المسيح الذي يمنح بالإيمان قوة روحية كبيرة للإنسان المؤمن ليستطيع أن يعيش حياته بقناعة وسط تقلبات ظروف الحياة المتنوعة: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (فيلبي ٤: ١٣) كما يقول: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً (مقتنعاً) بما أنا فيه" وبقوله "تعلمت" يشدد بولس على عملية التعلم للقناعة والاكتفاء. فهذا المبدأ السامي لمواجهة تقلبات الحياة لم يرثه من أحد بل تعلمه، ولكن ممن تعلمه؟ هل تعلمه على يدي معلمه الكبير "غملائيل" الذي كان من أعظم معلمي الشريعة وعلمه؟ يقول بولس: "كلاً". وهل تعلمه في مدرسة الطبيعة البشرية والمنطق البشري؟ فيسجل رأيه في الذهن البشري والطبيعة البشرية (رومية ٣: ١٠) "ليس بار ولا واحد ليس من يفهم ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معاً ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد". فيبولس يعتقد أن الطبيعة البشرية فاسدة والذهن البشري مظلم. فلم يتعلم القناعة المسيحية من الطبيعة البشرية الساقطة. فممن تعلم الاكتفاء المسيحي إذاً؟ لقد تعلمه مباشرة من المسيح الذي غير حياته على طريق دمشق وجعل منه إناءً مختاراً ليحمل اسمه أمام أمم وملوك. لقد تعلم القناعة المسيحية من الطبيعة الجديدة التي منحه إياها

المسيح بالإيمان فركز بها: "إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً" (٢كورنثوس ٥: ١٧). لقد تعلم الاكتفاء المسيحي من إعلانات المسيح له. فيتحدث في رسائله عن إعلانات المسيح المتعددة له: "فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته" (٢كورنثوس ١٢: ١). تعلم بولس الاكتفاء المسيحي من الروح القدس الذي امتلأ منه محققاً وعد المسيح "وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا ١٤: ١٦). فيردّد في عددتين أربعة أفعال تؤكّد عملية التعلم فيقول: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن أستفضل في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت" (فيلبي ٤: ١٢ و١٣). فالأفعال الأربعة هي (تعلمت، أعرف، أتضع، تدربت). كما أن كلمة "أعرف" بالأصل اليوناني تشير إلى المعرفة النابعة عن الاختبار الشخصي وليس المعرفة النظرية والفكرية. فمعرفة بولس للقناعة المسيحية أتته بعد اختبارات تعلمية متعددة. يقول: "أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن أستفضل" (فيلبي ٤: ١٣). يذكر أحد المفسرين أن جذور الكلمة اليونانية المترجمة بالعربية "أتضع" قد استخدمها الرسول بولس في رسالته إلى (فيلبي ٢: ٨) "وضع نفسه" لوصف اتضاع المسيح "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلى نفسه أخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب". ومن اتضاع المسيح وتركه السماء ومواجهة ظروف الصليب الصعبة، تعلم الاتضاع لمواجهة ظروف الحياة القاسية والمتقلبة والمتناقضة أحياناً. وفي (فيلبي ٤: ١٢، ١٣) يذكر الظروف المتناقضة التي مر بها واستطاع أن يحافظ على السكينة والاستقرار والاكتفاء والقناعة المسيحية. فيقول: "في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص" (فيلبي ٤: ١٢). لقد مرّ بأيام مريحة وأيام صعبة، أيام رخاء وأيام شقاء. فقد مرّ بأيام كان فيها يشبع، فالطعام كان متوفراً بكثرة فاستفضل وفضل عنه الطعام. وجذور كلمة "أشبع" باليونانية تستخدم لوصف تسمين الحيوانات وتغذيتها بالطعام الكثير لتسمن لتجهز للذبح كما ذبح العجل المسمن للابن الضال في (لوقا ١٥: ٢٣). لكن بعد أن مرّ بأيام شبع لتوفر الطعام الكثير وكان مقتنعاً، فإنه بعد ذلك مرّ بأيام صعبة كان فيها يجوع إذ لم يكن الطعام متوفراً لسد جوعه وكان ينقص عنه. وبالرغم من ذلك كان مكتفياً بما هو فيه وراضياً ومقتنعاً بالقليل الذي لديه.

فإذا أمعنا في قراءة رسائل بولس سنرى أنه نادراً ما مرّ بأوقات رخاء وظروف معيشية مريحة، بل على العكس نرى أن ظروفه كانت في معظمها صعبة تميزت بالشدائد والضيق. لكنه وسطها كلها تعلم من المسيح الاكتفاء بما هو فيه، لأن المسيح أمده بالقوة الروحية والفرح لمواجهة الظروف الصعبة. وخير دليل على ذلك كتابته للرسالة إلى أهل فيلبي من السجن مقيداً في سلاسل. فمن ظروف السجن القاسية كتب هذه الرسالة التي تسمى رسالة الفرحة. داعياً المؤمنين في كل مكان إلى الفرحة في كل الأوقات والأحداث إذ قال: "افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا، ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس الرب قريب". فحلول المسيح بروحه في الرسول بولس جعله مقتنعاً وفرحاً حتى في ظروف السجن الصعبة. وفي رسالته إلى كنيسة كورنثوس يخبرنا بالصعوبات الكثيرة التي مرّ بها في خدمته للمسيح وبالرغم من ذلك تعلم أن يكون مكتفياً بما هو فيه. ففي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يقول: "إلى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعزى

وَنُكِّمَ وَلَيْسَ لَنَا إِقَامَةٌ، ١٢ وَنَتَعَبُ عَامِلِينَ بِأَيْدِينَا. نُشْتَمُّ فَنُبَارِكُ. نُضْطَهِّدُ فَنَحْتَمِلُ. ١٣ يُفْتَرَى عَلَيْنَا فَنَعِظُ. صِرْنَا كَأَقْدَارِ الْعَالَمِ وَوَسَخَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الْآنَ" (١كورنثوس ٤: ١١). وفي رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس يقول: "بل في كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله في صبر كثير في شدايد في ضيقات، في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب... بمجد وهوان، بصيت رديء وصيت حسن... كحزاني ونحن دائماً فرحون . كفقراء ونحن نغني كثيرين. كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء" (٢كورنثوس ٦: ٤-١٠). وفي الأصحاح الثاني عشر من رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، يخبرنا الرسول بولس عن شوكة أصابته في الجسد. ولا نعلم ما هي هذه الشوكة. لكن يعتقد الكثير من المفسرين أنها مشكلة صحية في جسده. فهذه الشوكة كانت تزعجه وتضايقه وقد صلى إلى الرب ثلاث مرات حتى يشفى ويتخلص من هذه المشكلة وتزال الشوكة. يقول "لئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع. من جهة هذا تضرعت إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقني". (٢كورنثوس ١٢: ٧-٨). وبكلمة أخرى صلى من أجل شفائه من مرضه. لكن المسيح لم يشفه بل قال له سأمدك بالنعمة والقوة الروحية الكافية حتى تتأقلم مع ظروفك الصحية ومشكلتك في الجسد. لقد أجابه المسيح على طلباته الثلاثة قائلاً: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢كورنثوس ١٢: ٩). فنعمة المسيح الكافية هي قوتنا في وقت تغير ظروفنا الصحية.

يقول بولس: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه... في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت... أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني". هذه القراءات الثلاث الأنفة الذُكر من رسالتي بولس إلى كنيسة كورنثوس تظهر كيف تعلم الاكتفاء والقناعة المسيحية في أصعب الظروف والتقلبات الاقتصادية والاجتماعية والصحية. فقد تمكّن من العيش في السكينة والاستقرار وراحة القلب والضمير بالاكتفاء بما هو فيه، والمصالحة مع نفسه وظروفه المتعددة وهو لا يعتبر ذلك بفضل إنجازاته وقوة إرادته الشخصية، بل يُرجع كل الفضل إلى المسيح الذي يقويه. وكلمة "يقويني" باليونانية endynamounti منحدره من الاسم dynamos أي قوة، وهو الاسم نفسه الذي يطلق على الديناميت بمعناه الإيجابي الذي قصده مخترع الديناميت "ألفرد نوبل" الذي وجد قوة هائلة في الديناميت ليستخدم لا للتفجيرات والحروب ولكن للسلام وبناء المجتمع. وبمعنى آخر فبولس يريد أن يقول إنه من سكن المسيح في حياته استمدّ قوة هائلة تشبه قوة الديناميت ساعدته ليتأقلم مع كافة ظروف الحياة المتقلبة.

كتب اللاهوتي القس "رينهولد نيبور" عام ١٩٤٣ صلاة سُميت بصلاة السكينة، وهي صلاة الطلب من الله ليمدنا بقوة المسيح لتتأقلم مع ظروف الحياة المتقلبة. فقال: "اللهم امنحني السكينة (وسلام الضمير) لأقبل الأمور التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لأغير الأمور التي أستطيع تغييرها، والحكمة حتى أميز بين الاثنيّن. آمين".

(٤) المُثَابَرَة

"لأنَّ الله لَمْ يُعْطِنَا رُوحَ الْفَشْلِ، بَلْ رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ"

من أكثر العوائق التي تقف في وجه نمو وتطور الأفراد والكنائس والمجتمعات، الاستسلام للفشل. فعدد كبير من الناس خسروا الكثير من الفرص المُتاحة أمامهم مع أنهم كانوا على عتبة النجاح بسبب استسلامهم للفشل.

لكننا نسأل: ما هو الفشل؟ الفشل هو الإخفاق وعدم إتمام خدمة ما، أو مهمة ما أو مشروع ما. إلا أن الأمر الخطير هو ليس في الإخفاق بحد ذاته، لكن في نتائج هذا الإخفاق على حياة الإنسان على الصعيد الروحي والنفسي والفكري والاجتماعي، إذا استسلم للفشل.

يقول الرسول بولس لتيموثاوس "لأنَّ الله لَمْ يُعْطِنَا رُوحَ الْفِشْلِ، بَلْ رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنَّصِيحِ" (٢ تيموثاوس ١: ٧). فماذا قصد بولس بقوله إن الله لم يعط لا لتيموثاوس ولا لأولاده المؤمنين روح الفشل؟ حتى نفهم قصده؟ لا بد أن نتوقف عند الظروف الدقيقة التي كان يمر فيها تيموثاوس. بعد أن خدم بأمانة إلى جانب بولس في رحلاته التبشيرية. فقد سلمه بولس مسؤولية خدمة كنيسة أفسس وهو لا يزال شاباً فتياً خجولاً يحتاج إلى خبرة أكبر في القيادة. هذا الأمر تم في مرحلة دقيقة، فبولس كان يقبع في السجن محكوماً عليه بالموت. والاضطهاد قد بدأ يشتد على كنيسة المسيح. وبالتالي، كل هذه الضغوطات الاجتماعية والسياسية والنفسية والفكرية أثرت على تيموثاوس الشاب، ممّا أدى إلى تسلل مشاعر الفشل والإحباط إليه. ضمن هذا السياق قال بولس لتيموثاوس: "لأن الله لم يعطنا روح الفشل، بل روح القوة والمحبة والنصح". والكلمة العربية المترجمة "فشل" لها عدّة معانٍ في اللغة اليونانية الأصلية "Dilia" تعني "الخوف، الجبن، الخجل" الذي ينجم عن الفشل وما يرافقه من مشاعر شلل روحي يتمثل في فقدان الثقة بالله، ونفسي يتمثل في اليأس والإحباط، وفكري يتمثل في فقدان القدرة على التفكير السليم لاتخاذ القرار الصحيح.

وقد عرّف أحدهم كلمة "Dilia" بأنها حالة مُخزّية من الخوف والاضطراب الناجم عن فقدان الشجاعة، هذه الحالة المخزّية تشبه إلى حدّ كبير الحالة المخزّية التي مرّ بها التلاميذ أثناء هبوب ريج عاصفة عليهم عندما كانوا في السفينة وسط البحر (مرقس ٤: ٣٥-٤١). فبينما كان المسيح نائماً على وسادة في السفينة، هبّت ريج عاصفة وضربت أمواج كبيرة السفينة فصارت تمثلياً، وأصبحت على شفير الغرق، عندها ساد التلاميذ مشاعر الـ "Dilia" فشعروا بفقدان الثقة بالله، وبالذعر والخوف الشديد والاضطراب والجبن وغياب الشجاعة. وفي شدة اضطرابهم أيقظوه قائلين: "يا معلم أما يهملك أننا نهلك؟". فقام وانتهر الرياح والأمواج فهذأت، ثم قال لهم: "ما بالكم خائفين، كيف لا إيمان لكم؟" (مرقس ٤: ٤٠). وبالتالي في وقت إحساس التلاميذ بالفشل والذعر والاضطراب أثناء العاصفة، أشار المسيح إلى فقدان أو قلّة الإيمان. وقد كرّر الإشارة نفسها لتيموثاوس أثناء عاصفة الخوف والاضطراب والقلق والخجل التي مرّ فيها، حتى لا يستسلم للفشل. هذه الإشارة أساسية جداً يحتاجها كل من يعاني من حالات الاستسلام للفشل في حياته. فالاستسلام للفشل ليس من الله، "لأن الله لم يعطنا روح الفشل". "فقدركه الإلهية وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى" (٢ بطرس ١: ٣). وليس ما هو للفشل كما يقول الرسول بطرس. فعندما نستسلم للفشل، فإننا ننشغل في ذاتنا ونركز أنظارنا على مشاعرنا ومخاوفنا وإحباطاتنا ونندب حظنا، وننسى أن الله ينتظرنا لكي يهدىء اضطرابنا وخوفنا ويخرجنا من فشلنا.

صحيح أن الله لم يعطنا روح الفشل، إلا أنه يتفهّم فشلنا، فهو يعرف أننا آنية خزفية ضعيفة معرضة لكل ظروف الحياة والطبيعة القاسية التي تؤثر عليها. فلا أحد منا لم يفشل مرّة في مرحلة ما من حياته، إلا أن الفشل الحقيقي هو في عدم محاولة الخروج من الفشل، والبقاء أسرى لمخاوفنا وإحباطاتنا التي يحاول الفشل فرضها علينا. قال أحدهم: "إن

شكوك ومخاوف الإنسان هي ألد أعدائه". أما "ابراهيم لينكولن" محرر العبيد فقد قال: "لا أهتم كثيراً عندما تفشل، لكن خوفي الكبير عليك هو استسلامك وخضوعك لفشلك". هناك عدد كبير من الناس لا يعرفون كيف يتغلبون على فشلهم، ولا يعرفون كيف يتعلمون من فشلهم. هناك درسان أساسيان نتعلمهما من الفشل: الأول، عندما نفشل، فإننا نكتشف العوائق والضعفات والأخطاء التي وقعنا فيها وأدّت إلى فشلنا. والثاني، عندما نفشل، فإن فشلنا يمنحنا فرصاً جديدة لنجرب طرقاً وأساليب جديدة للنجاح.

يبين تاريخ الأشخاص الذين حققوا نجاحات كبيرة في حياتهم أنهم مروا بمراحل متعددة من الفشل. فالمُخترع "توماس أديسون"، فشل الآف المرات، قبل أن يكمل اختراعه للمصباح الكهربائي. ولعب كرة السلة المعاصر "مايكل جوردن" أخبرنا عن تاريخه من الفشل المُتكرر قبل وصوله إلى النجومية في كرة السلة، فقال: "لقد أخطأت ٩٠٠٠ هدف، وخسرت ٣٠٠ مباراة، و٢٩ مرة اعتمدت عليّ لأسجل الهدف النهائي في المباراة فلم أنجح. لقد فشلت مراراً كثيرة في الحياة، ولم أستسلم، لهذا نجحت".

في رسالته إلى اهل غلاطية يقول الرسول بولس: **"فلا نفشل في عمل الخير، لأننا سنحصد في وقته إن كنا لا نكل"** (غلاطية ٦: ٩). في كثير من الاوقات نقوم بعمل الخير فننقد وبتهمنا الناس باتهامات كثيرة، فنصاب بالإحباط والتعب والكلل النفسي والجسدي، الأمر الذي يسبب الفشل لكثير من الناس. لقد حاول الكثيرون آنذاك (من داخل الكنيسة وخارجها) إفشال الرسول بولس، فاتهموه بشتى الاتهامات. اتهموه بأنه ليس رسولاً، لأنه لم يكن من بين تلاميذ المسيح الاثني عشر. واتهموه بأنه مثير للفتن والقلق، واتهموه بأنه يشوه كلمة الله. قال أحدهم: "إذا لم تنجح في المرة الأولى، فكرر كم هم كثيرون الذين فرحوا بفشلك". يوجد الكثير من الناس أعداء للنجاح، الذين بسبب غيرتهم الجامحة يحاولون إفشال الناجحين باتهاماتهم وإطلاق الشائعات عليهم. قال "نابليون بونابارت": "إن لم تستطع أن تنال من أحد، أطلق عليه شائعة مغرضة". ولأن الرسول بولس يعرف الدوافع وراء غيرة الحاسدين التي يجب ألا تقف عائقاً أمام عمل الخير والاستمرار في الشهادة الأمينه للمسيح، فقد شجع كنيسة غلاطية على الاستمرار في عمل الخير مهما كثرت الانتقادات، فقال: **"لا نفشل في عمل الخير، لأننا سنحصد في وقته إن كنا لا نكل"** (غلاطية ٦: ٩).

كما يقدم في رسالتيه (٢كورنثوس، و٢تيموثاوس) أساسين لاهوتيين يحميان كل مسيحي ملتزم من الاستسلام للفشل: الأول، يسميه **"إنسان الداخل"**، أو كما يسميه في مواقع أخرى **"الطبيعة الجديدة"** أو **"الخليقة الجديدة"** (٢ كورنثوس: ٥: ١٧). والثاني، الاستعداد النفسي والفكري والروحي والإرادي الداخلي الذي هو ثمر الروح القدس في حياة المؤمن.

ويقول: **"لذلك لا نفشل، بل وان كان انساننا الخارج، يفنى، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً"** (٢كورنثوس: ٤: ١٦). فيتكلم في هذه الآية عن إنسائين: **"إنسان الخارج"** أي ما يظهر من خارجنا وأجسادنا، وهو يتعرض لشتى أنواع الصعوبات والضيقات والاضطهادات والأمراض التي تؤثر عليه وتفنيه. ويقول **"إن إنسان الخارج هذا يفنى"**. أما **"إنسان الداخل"**، إنسان الطبيعة الجديدة التي يمنحها المسيح لأولاده بالإيمان، حيث يملك عليهم بروحه القدوس. فينمو ويتجدد بالصلاة وقراءة كلمة الله والعلاقة الروحية مع المسيح. فالرب يسوع المسيح يصون ويرعى ويهتم يومياً بهذا الإنسان

الداخل، ويمدّه باستمرار بالنعمة والرحمة والرجاء، لهذا لا يفنى كما يقول بولس. فإن فني جسدنا وإنساننا الخارج وتعرض لشتى أنواع الضيقات والصعوبات، "فإنسان الداخل" هو الضمانة الأولى والأساسية لكل مؤمن كي لا يستسلم للفشل.

الأمر الثاني، الذي يضمن حماية المؤمن من الاستسلام للفشل هو الاستعداد الروحي والنفسي والفكري والإرادي الذي يتكون في داخلنا بالروح القدس. فقد أعلن بولس لتيموثاوس عن ثلاث ميزات يضعها الروح القدس فينا، تحارب استسلامنا للفشل، هي: "روح القوة، والمحبة، والنصح". "لأن الله لم يمنحنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح.

فالميزة الأولى: "روح القوة" إذا سادت علينا مشاعر الـ Dilia واستسلمنا للفشل، إذا شعرنا بالذعر والخوف والجبن والضعف الشديد، فإن الميزة الأولى، "روح القوة" dynamos باليونانية، التي يمنحها الروح القدس لنا كما وعدنا المسيح بقوله: "ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم" (أعمال ١: ٨) ستمدنا بطاقة جديدة جريئة تنتشلنا من ضعفنا وتؤهلنا لمواجهة الصعوبات، وتخولنا للاستمرار في الشهادة والكراسة بالكلمة، وتحمل الألم والاضطهاد وحتى الاستشهاد في سبيل المسيح.

الميزة الثانية "روح المحبة". المحبة الصادقة والعميقة للرب يسوع المسيح، التي جعلنا ننسى ذاتنا وذعرنا وخوفنا، لنطلب لا مجدنا بل مجد المسيح، مهما كلف الثمن. يقول الرسول يوحنا: "لا خوف في المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج، لأن الخوف له عذاب وأما من خاف، فلم يتكَّمَل في المحبة" (يوحنا ٤: ١٨). وبالتالي "فروح المحبة" فينا تحارب خوفنا وذعرنا، لتطرده منا أثناء المرور باختبارات الفشل.

الميزة الثالثة "روح النصح". عندما نستسلم للفشل، يتأثر تفكيرنا بل يشل، فنفقد القدرة على التفكير بشكل صحيح وسليم، لكن "روح النصح" يداوي هذا الخلل الفكري فينا. وكلمة "نصح" بالأصل اليوناني تعني "أن نصبح حكماء أذكىء، نطلق أحكاماً صائبة وصحيحة، لاسيما عندما نواجه مواقف صعبة. فبروح النصح نستعيد القدرة والحكمة لاتخاذ قرارات سليمة وصحيحة تخرجنا من فشلنا وتفتح لنا الأبواب لإمكانيات وفرص جديدة .

في كل وقت نمر في اختبارات فشل، لننتذكر أن لا نستسلم، لأن الله لم يعطنا روح الفشل، بل لنتعلم من فشلنا بمحاولة طرق وأساليب جديدة. ولننتذكر أن إنساننا الداخل لا يفنى بل يتجدد، لأن الله يصونه ويرعاه ويجدده بروحه القدوس. ولننتذكر أن الله منحنا ثلاث ميزات لمواجهة الفشل: روح القوة لمواجهة الضعف، روح المحبة لمواجهة الخوف، وروح النصح لمواجهة قلة الحكمة. آمين.

(٥) التجربة

تجارب المسيح في البرية وتجربة السُلطة

من التجارب الأساسية القاسية التي يتعرض لها الناس، لا سيما الذين يتبوؤن المناصب، تجربة السُّلطة. من أهم النصوص التي تعلّمنا كيفية التعاطي مع التجارب بشكل عام ومنها تجربة السلطة، نص التجارب التي تعرض لها المسيح في البرية (لوقا ٤: ١-١٣). حيث يخبرنا أنه بعد صوم المسيح أربعين يوماً في البرية، واجهه إبليس بثلاث تجارب قاسية، هي: تجربة الخبز بعد الجوع، وتجربة السلطة في أرض قاحلة لا مجد فيها، وتجربة تجربة الله لامتحان مصداقيته. لكني أود أن أتوقف عند تجربة السلطة لنرى مدى الضرر والدمار الذي تسببه عند الذين يسقطون فيها.

إن كلمة تجربة باللغة اليونانية peirasmi تعني امتحان. ليس القصد من التجارب إضعاف الإنسان المؤمن وإيقاعه في الخطية، إنما القصد امتحانه لتنقيته وتقويته فيصبح إيمانه أشدّ صلابة وهكذا يخرج من التجربة أكثر نضجاً ليعيش إيمانه كما يقول الرسول يعقوب: **"طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة لأنه إذا تزكّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه"** (يعقوب ١: ١٢). وبالتالي لا تكمن الخطورة في التجربة بحد ذاتها، ولكنها تكمن في ضعفنا واستسلامنا لشهواتنا وعدم اعتمادنا على قوة الله ممّا يؤدي إلى سقوطنا في التجربة. فلنبدأ بسؤال أساسي: كيف واجه المسيح التجارب في البرية؟ يبدأ البشير لوقا توطئته لتجارب المسيح الثلاث بقوله: **"أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس وكان يُقتاد بالروح في البرية أربعين يوماً يجرب من إبليس"** (لوقا ٤: ١-٢). فبعد معموديته في الأردن، والتي هي بمثابة الإعلان الإلهي عن هويته وخدمته وكرازته في العالم، يظهر المسيح على مسرح التجارب مستعد روحياً إذ كان مُمتلئاً من الروح القدس و متمسكاً بكلمة الله. إذ عند كل تجربة كان المسيح يقول لإبليس: **"لأنه مكتوب كذا وكذا"**. لكن قبل الغوص في موضوع كيفية التعاطي مع التجارب، لا بد لنا أن نفكر في من هو إبليس؟ وهل هو الذي أخضع المسيح للتجارب؟ تعددت الأفكار الكتابية حول أصل وكيفية ظهور إبليس أو الشيطان، لكن الكتاب المقدس يعرض وجهتي نظر حول هوية إبليس.

الأولى، إبليس كشخصية مستقلة كما نراه في هذه التجربة، مهمته التضليل والإيقاع في الخطية باستراتيجياته وعروضه المغرية حتى يبقى هو سيد وإله هذا الدهر والعالم بفساده وشره، كما وصفه الرسول بولس: **"إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين"** (٢كورنثوس ٤: ٤).

والثانية، إبليس أو الشيطان كسياسة تفكير فاسدة بعيدة عن فكر الله، كنظام شرّ يرعى كل المؤامرات الشريرة التي تقف في وجه الحق والصلاح والقيم النبيلة التي تسعى للخير وسيادة فكر وملكوت الله. ويعتبر البشير يوحنا أنّ فكرة خيانة يهوذا الإسخريوطي للمسيح إنما هي فكرة شيطانية مصدرها الشيطان نفسه، لهذا يصف يوحنا عمل يهوذا بقوله **"فغمس اللقمة وأعطاه ليهوذا سمعان الإسخريوطي، فبعد اللقمة دخله الشيطان"** (يوحنا ١٣: ٢٦ و ٢٧).

إن تجربة السلطة هي من أقسى التجارب كونها تصف شهوة جامحة لا تشبع عند الإنسان. يشبه النبي حبقوق شهوة السلطة الجامحة عند ملك بابل بـ "الهاوية والموت" اللذين لا يشبعان، فيصفه قائلاً: "الرجل متكبر ولا يهدأ الذي قد وسع نفسه كالهاوية وهو كالموت فلا يشبع بل يجمع إلى نفسه كل الأمم ويضم إلى نفسه جميع الشعوب" (حبقوق ٢: ٥). لكن السؤال كيف تعامل المسيح مع تجربة السلطة والعرض المغري الذي قدمه إبليس للمسيح؟ يقول البشير لوقا واصفاً تجربة السلطة: "ثم أصدده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان وقال له: لك أعطي هذا السلطان كله ومجده لأنه قد دفع إليّ وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع" (لوقا ٥: ٧). إن عرض السلطة والسلطان الذي ادّعى إبليس إمتلاكه على شخص في برية قاحلة هو عرض مغر جداً. وإذا ترجمنا ذلك العرض في سياقه التاريخي، فالعرض هو عرض تتويج المسيح على عرش الإمبراطورية الرومانية آنذاك ليحل محل القيصر، مع ما يتبع ذلك من مجد ورفاهية. إلا أن الثمن مقابل هذا العرض، هو رفض المسيح لله والسجود لإبليس، وبكلمة أخرى العرض هو مقايضة الصدق والاستقامة والحق والقيم النبيلة بالسلطة.

تسجل أدبيات التاريخ الأوروبي في القرن السادس عشر خرافة مفادها أن عرضاً شبيهاً لهذا العرض قد قبله رجل ألماني اسمه "فوست" عقد صفقة مع إبليس مضمونها أن يمنحه إبليس قوة وسلطة سحرية لمدة ٢٤ سنة مقابل الخضوع له والتخلي عن حياته في نهاية الـ ٢٤ سنة. والاسم "فوست" صارت لقباً يطلق على كل شخص يساوم على الحق والصدق والمبادئ من أجل السلطة. وبالرغم من أن "فيليب ميلنكتون" شريك المصلح الإنجيلي الألماني "مارتن لوتر" قد صرح أن إبليس شق "فوست" في نهاية الـ ٢٤ سنة في فندق قروي في مدينة "ويتبرغ"، إلا أن صدى تلك القصة بقي يتردد على ألسنة الناس أربعة قرون وكانت القصة موضوع الكثير من الأعمال الأدبية والمسرحية والموسيقية والفنية. إن هذه الشهوة الجامحة للسلطة بالإضافة إلى الشهوات المتعددة الأخرى تعكس حقيقة الطبيعة البشرية الضعيفة والخاطئة كما يصورها الكتاب المقدس في حاجتها القصوى إلى قوة الله وعمله لكي يرفعها من ضعفها وخطيتها بالإيمان. إن نظرة الكتاب المقدس هذه إلى الطبيعة البشرية، يتشارك فيها بعض الفلاسفة ومنهم الفيلسوف الإنكليزي "توماس هوبس" الذي عاش في القرن السابع عشر. ففي كتابه "Leviathan" يتحدث عن حالة الطبيعة البشرية التي تحتاج إلى ضوابط أخلاقية لتلجمها، وهو يرى هذه الضوابط في عمل الحكومات والاجهزة الأمنية الضابطة للمجتمع. ففي حال غياب هذه الضوابط يرى "هوبس" الطبيعة البشرية في حالة أنانية وطمع ومنافسة وصراع كل إنسان مع كل إنسان للحصول على ممتلكات عامة من أجل استخدامه الشخصي وسعيه للشهرة والمجد. ويكمل الكاتب أن هذه الطبيعة البشرية البدائية التي ظهرت منذ البدء بقتل قايين لأخيه هابيل، يمكن أن تظهر ليس فقط في القرن السابع عشر ولكن أيضاً في المجتمعات المدنية الحديثة. أما الفيلسوف "دايفد هيوم" فقد

أكد على ضعف هذه الطبيعة البشرية بقوله: (لو كانت الطبيعة البشرية جيدة، لما كانت العدالة قيمة جوهرية وأساسية في الحياة).

هذا الضعف الإنساني أمام تجربة شهوة السلطة قد ركّز عليه أيضاً الكاتب المسرحي العظيم "وليم شكسبير" في مسرحيته: "مأساة الملك ماكبث". ففي وصفه للقائد العسكري العظيم "ماكبث" الذي عاد محققاً انتصارات عسكرية متذوقاً طعم المجد، لم يكتف بذلك لكن شهوته للسلطة وسعيه وراء العرش الملكي أوقعه في تجربتها، فصار يساوم على نفسه ومبادئه فخطط لقتل الملك "دانكن" وارتكب سلسلة من الجرائم وأسأل الدماء وسفك الدم وصنع الكثير من الشرور. فشهوته الجامحة للسلطة هي التي جعلته يرى أن شر ارتكابه الجرائم أقل ضرراً من شهوة الوصول إلى العرش. إن هذه الشهوة للسلطة وإرادة القوة لا تكمن في قوة الإنسان كما اعتقد "فريدريك نيتشه"، لكنها تكمن في ضعفه، لأنها تكشف عن عجز ونقص الذات الإنسانية في الاكتفاء بقوتها الأصلية الكامنة فيها، فتسعى لربح قوة ثانوية ثانية للتعويض عن هذا النقص. فإذا ما استفحلت شهوة السلطة الجامحة في الإنسان، فإنها تتحول إلى ظاهرة مرضية تسمى Megalomania الهوس بالسلطة وجنون العظمة، التي سببت في التاريخ ولا تزال تسبب حتى اليوم الدمار والمآسي الكثيرة.

إن تجربة السلطة التي سقط فيها الألماني "فوست" والانكليزي "ماكبث" والتي يسقط فيها الكثيرون كل يوم، قد قاومها المسيح في البرية. أمام عرض إبليس المغري بمنحه السلطان والسلطة على ممالك العالم مقابل السجود له. وقد رفض المسيح ذلك العرض رفضاً قاطعاً، رفض مقايضة المساومة على القيم والمبادئ والأخلاق وعبادة الله من أجل السلطة. فجوابه على عرض إبليس كان: **" اذهب عني يا شيطان مكتوب للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد"** (لوقا ٤: ٢٨). ورفض المسيح هذا لم يكن رفضاً لممارسة السلطة بالمطلق، لأنها مسؤولية ودعوة مباركة يدعو الله البعض إليها، لكن هذه الدعوة تكون مباركة عندما توضع في إطارها الصحيح، ليس لخدمة أنفسنا ومصالحنا الذاتية، ولكن لخدمة الإنسان وبناء الأوطان.

إن تجربة السلطة التي خاضها المسيح تأتي لتذكّرنا، بأننا جميعاً معرضون للسقوط في هذه التجربة كل في موقعه وفي مسؤوليته. فلنتعلم من المسيح الذي اجتاز هذه التجربة بنجاح قبلنا، ولنطلب منه أن يملأنا بروحه القدوس حتى نتمسك بكلمته ونعيش حياتنا بالصوم والصلاة، فنتمكّن من مقاومة كل التجارب. آمين.

(٦) عيش قيم الإنجيل في العائلة عندما ندعو المسيح إلى أعراسنا

من أهم الأحداث في حياة الإنسان حدث العرس. ومن أسعد اللحظات التي يعيشها العروسان اللذان قادهما الحب إلى بعضهما البعض بارشاد الله، هي لحظات الارتباط بالزواج المقدس التي تتم في العرس. ولأهمية هذا الحدث فإنه أثناء التحضير للعرس، يقوم العروسان بدعوة المقرّبين إلى قلوبهما لحضور هذا الحدث ومشاركتها فرحة العمر.

يخبرنا يوحنا عن عرس حدث في قانا الجليل. وربما كان أحد العروسين من أقرباء مريم أم يسوع، "وكانت أم يسوع كانت هناك". (يوحنا ٢ : ٢). وقد فكر العروسان اللذان لا نعرف أسماءهما في لائحة المدعوين الذين يرغبون بدعوتهم للعرس، فكان من ضمن اللائحة، الرب يسوع المسيح وبعض من تلاميذه. واحتفالات العرس آنذاك كانت تدوم أسبوعاً. إلا أنه أثناء الاحتفالات في عرس قانا، حدث أمر أخرج وأربك العروسين إذ نفذت الخمر، ونفاذ الطعام أو الخمر قد يعطي انطباعاً سيئاً وي طرح تساؤلات حول كرم العروسين وحسن ضيافتهما (كما قد يحدث حتى الآن). ولما لاحظت مريم أم يسوع هذا الإرباك، لفتت نظر ابنها يسوع إلى أن هناك حاجة ما يجب التعاطي معها، ثم **"قالت للخدام مهما قال لكم فافعلوه"** (يوحنا ٢ : ٥). فما كان من المسيح وسط هذا الإرباك، إلا أن طلب من الخدام أن يملأوا ستة أجران ماء فارغة كانت في المكان، يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة، أي كميات هائلة من الماء تستخدم للتطهير وغسل الأيدي قبل الأكل. وبعد أن ملأ الخدام الأجران الستة، طلب المسيح إليهم أن يقدموا منها للمدعوين (يوحنا ٢ : ٨). فحدثت المعجزة، وإذا بالماء يتحوّل خمراً جيدة فتسدّ الحاجة، ويُنقذ العروسان من الإحراج والإرباك، ويستمر الاحتفال، ويكمل العرس.

هذا ما حدث في قانا عندما دعا العروسان الرب يسوع المسيح إلى العرس. يقول يوحنا في نهاية الحدث: **"هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه"** (يوحنا ٢ : ١١). إن قول البشير يوحنا هذا، هو المفتاح الرئيس لفهم الصحيح لمعنى ما حدث في عرس قانا. لهذا أود أن أتوقف عند ملاحظتين أساسيتين انطلاقاً من هذا القول. الملاحظة الأولى: من الملفت للنظر أن انجيل يوحنا انفرد عن باقي الأنجيل الأخرى في جدولة ترتيب الأحداث، حيث نرى المسيح بعد معموديته ودعوته لتلاميذه في الأصحاح الأول، يبدأ مباشرة خدمته في الأصحاح الثاني في مكان قد يفاجيء الكثير منا اليوم. يسوع يبدأ خدمته وإظهار مجده في عرس. وهذا الأمر له معنى عميق على صعيد أولوية اهتماماته. فحضوره عرس ليشهد على تأسيس عائلة جديدة هو تصريح روحي ولاهوتي، بأن العائلة المسيحية هي من أولويات خدمته في ملكوت الله. وقد حضر عرس قانا ليؤكد لنا أنه يرغب أن يحضر أعراسنا، ويأتي إلى بيوتنا وعائلاتنا عندما ندعوه،

وذلك حتى يباركها ويرافقها، وينقذها من الإرباك والإحراج، ويسد احتياجاتها المتنوعة من روحية ومادية ومعنوية. للأسف تعاني الكثير من العائلات في هذه الأيام التفكك والانحيار، لأنها لم تُعد تدعو المسيح إلى أعراسها وحياتها وتختبر قوة ومعنى حضوره. أيضاً بحضوره عرس في قانا، يريد أن يغير نظرتنا إليه. نظن في كثير من الأحيان أنه علينا أن ندعو المسيح عندما نمز في فترات من الضيق والألم حتى يخف آلامنا ويحملها عنا، لكن حضوره في عرس قانا إنما ليؤكد أن المسيح مستعد لمشاركتنا افراحنا واحتفالاتنا ويفرح معنا فرحة العمر، فرحة محبة واتحاد قلبين تحت مظلة محبة المسيح.

الملاحظة الثانية: يقول يوحنا "هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه".

إن كلمة "آيات" هي جمع كلمة "آية". فالأنجيل تستخدم عدة كلمات للإشارة إلى حدث خارق للطبيعة، وتستخدم كلمة "معجزة"، "أعجوبة"، و"آية". إلا أنه من بين هذه الكلمات اختار البشير يوحنا استخدام كلمة "آية" لوصف ما حدث في العرس. إنها دلالة لاهوتية عميقة، فهي لا تشير فقط إلى تفاصيل المعجزة، ولكن إلى معنى لاهوتي أشمل وأعمق وأوسع من الحدث بحد ذاته. وفي هذا السياق، بالرغم من أن تحويل كميات هائلة، ستة أجران كبيرة، من ماء إلى خمر في لحظة واحدة هي "أعجوبة"، أي أمر عظيم يدعونا للتعجب، و"معجزة" أي أمر نعجز عن تفسيره، كون أن عملية التخمير هي عملية معقدة وتستغرق أياماً كثيرة. وبالتالي نسأل: كيف يتحقق هذا الأمر الكبير المعقد الذي يستغرق أياماً كثيرة في لحظة واحدة؟ إلا أن استخدام كلمة "آية" إنما هو للتأكيد بأن ليس الهدف من معجزة توفير الخمر الكثير، تشجيع الناس على السكر والشرب حتى الثمالة وفقدان الاتزان والكرامة الإنسانية. فهذا التفسير الخاطئ يشوه تفسير حقيقة ما حدث في عرس قانا. لقد حذر الرسول بولس من هكذا تفسير يحلو للبعض أن يفسره، فقال لأعضاء كنيسة أفسس: **"لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلأوا بالروح"** (أفسس ٥: ١٨). فالهدف من معجزة قانا رؤية مجد المسيح واختبار عظمة قوته حتى ننمو في محبته ومعرفته. فالآية في عرس قانا والتي هي رسالتنا الروحية لكل عروسين وكل العائلات المسيحية، هي أنه عندما نحب الرب يسوع المسيح من كل القلب والفكر والحياة وندعوه إلى أعراسنا وعائلاتنا وبيوتنا، فهو يجري فيها عجائب ومعجزات تشبه معجزة قانا. وعندما ندعوه إلى أعراسنا فهو يباركها. أما وفرة الماء الكثير المتحوّل خمرًا، هو إشارة إلى وفرة البركات التي يغدقها علينا فتغير حياتنا، وتفتح أمامنا إمكانيات جديدة لحياة مميّزة تكون فيها عائلاتنا عائلات مسيحية حقيقية تسودها المحبة والسلام والرجاء والتفهم والتفاهم، وهكذا يدخل المسيح إلى بيوتنا. وعنها نفرح، ويفرح المسيح معنا. آمين.

العائلة المسيحية: مثال وتربية

خُصِّص الأسبوع الثاني من شهر أيار عالمياً ليكون أسبوع العائلة. والعائلة هي النواة الأساسية في حياة الكنيسة والمجتمع. تتكون العائلة منذ اللحظة الأولى للزواج. يخبرنا الكتاب المقدس في سفر التكوين أنه عندما رأى الله آدم وحواء، قال: **"ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له معيناً نظيره"** (تكوين ٢: ١٨). وهكذا أوقع الرب سُبَاتًا على آدم، وأخذ واحدة من أضلاعه، وبني عليها المرأة، لكي يؤلف العائلة الأولى التي تعبده وتعيش لأجله. وأوصى أن يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، فيصير الإثنين جسداً واحداً (تكوين ٢: ٢٤). ومنذ اللحظة الأولى التي أسس فيها الله عائلة آدم وحواء، فإنه وضع المفهوم الصحيح للعائلة المسيحية التي أرادها. وقد كرّر المسيح المفهوم نفسه في (متى ١٩: ٥)، والرسول بولس في (أفسس ٥: ٣١). فالعائلة المسيحية هي التي يُعين أعضاؤها بعضهم بعضاً **"فأصنع له معيناً نظيره"**، وهي التي تلتصق ببعضها بعضاً في صداقة لا مثيل لها **"يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته"**، وهي التي تعيش معاً في وحدة وشركة في حضرة الله **"فيصير الإثنين جسداً واحداً"**. فالعائلة المسيحية، مؤسسة إنسانية مبنية على إرادة إلهية من أجل خير الإنسان. الزواج المسيحي هو عملية عبور الزوج والزوجة نحو بعضهما تحت مظلة المسيح. عبورٌ من الأنا إلى النحن، من الفردية إلى المشاركة. وفي حركة العبور نحو الآخر يتحقق التفاهم والتفهم والانسجام واتحاد الرؤية. شدّد الكاتب والفيلسوف المسيحي الروسي "تولستوي" على شراكتة مع زوجته، فقال **"حياتها هي حياتي، اسمها هو اسمي، شرفها هو شرفي، سمعتها هي سمعتي وقد ائتمنتها على كل شيء"**. علّق أحد آباء الكنيسة على قدسيّة الزواج، فقال: **"ما أجمل أن يتزوج اثنان متحدان في الإيمان والرجاء والرغبة وأسلوب الحياة، لا يفترق بينهما شيء، لا في الجسد ولا في الروح، إذ يتركان أهلها ويشكّلان عائلة مقدسة أقوى في رباطها من رباط انتمائهما لعائلة أهلها"**. فالعائلة المسيحية لا تتكون صدفة ولا تُحمّل إليها حملاً، بل تتطلّب الالتزام الصادق بمحبة المسيح، والإرادة الصلبة لتنفيذ عهود الزواج التي نتعهد بها في اللحظة الأولى لتكوين العائلة والتي من الضروري أن نذكر بها أنفسنا دائماً والتي هي:

"نتعهد بكل وقار واحترام وبكل نية صادقة وواضحة أمام الله وأمام هؤلاء الشهود أننا بالاتكال عليه وبموجب شريعته المقدسة، نعيش معاً في حال الزواج الطاهر، مقدمين لبعضنا بعضاً المحبة والعناية والإكرام والطاعة

في الرب، في كل الأوقات والأحوال، من مرض وصحة، وفقر وغنى، وأن نكون زوجان أمينان ما دمنا حيّين إلى أن يفرق بيننا الأجل".

في كتابه "التنشئة المسيحية Christian nurture"، كتب المرابي "هوراس بوشنل" عن أثر الأهل في تربية أولادهم، فقال: "يتعلم الأولاد عن محبة الله، وعمل الله من خلال علاقة أهلهم مع بعضهم ومعهم. فالتنشئة المسيحية تتضمن انتقال صفات وروح الأهل إلى حياة أولادهم، حتى تمتزج في شخصيتهم، لتشكل شخصيتهم المسيحية"، ويتابع قائلاً: "نحن الأهل نعظ أولادنا كثيراً، ونعيش المسيح أمامهم قليلاً، فالأولاد لا يتعلمون بالوعظ، ولكن بالحياة". فلاهوت الولد، أو صورة الولد عن الله، تتشكل من صورته عن أهلهم. فكيف يستطيعون أن يقبلوا فكرة محبة الله، إن لم يختبروا المحبة من الأهل؟ كيف يقدرّون أن يختبروا عظمة غفران الله، إن لم يختبروا غفران أهلهم لهم. يقول مؤسس مدرسة علم النفس التحليلي "سيكموند فرويد l'enfant est le pere de l'homme" "الطفل هو أب الإنسان". وهذا القول يشير إلى أهمية السنوات الأولى في حياة الأطفال لأنها تلعب دوراً أساسياً في تحديد نوعية شخصيتهم ومستقبلهم عندما يصبحوا شباباً ورجالاً. فعالم النفس يُحذّر الأهل من إساءة التعامل مع أولادهم خصوصاً في السنوات الأولى من عمرهم. وفي هذا السياق نتفهم الإحصاءات الكثيرة التي تشير إلى أن الكثير من الشباب المنحرفين، والمدمنين، والمجرمين، والسارقين، هم أولاد عائلات مفككة لم تعش في وحدة وصدقة وانسجام، ولم يتعامل أهلهم معهم بالمحبة والرحمة والغفران.

ومن المفاهيم التربوية الأساسية التي دعا إليها الرسول بولس أهل كنيسة كولوسي لإتباعها في تربيتهم لأولادهم، التربية التي تجبب أولادهم الفشل في الحياة. فقال: **"أيها الآباء لا تغيطوا أولادكم لنلا يفسلوا"** (كولوسي ٣: ٢١). و**"الغيظ"** يعني الغضب الشديد الذي ينبع من سوء معاملتهم بقسوة وظلم وعدم رحمة، لأن هذه المعاملة الرديئة تؤدي إلى فشلهم في الحياة. لقد دعا بولس إلى اعتماد هذا المفهوم التربوي المتقدم منذ ألفي سنة، في وقت كان يسمح قانون المجتمع بإساءة معاملة الأولاد. فالقانون الروماني الذي عاش الرسول بولس في ظلّه، أعطى الآباء سلطة مطلقة للمغالاة في إساءة معاملة أولادهم، وصلت إلى حد سجنهم والتخلص منهم، لا سيما إذا كان أولادهم بناتاً. ففي رسالة تعود إلى القرن الأول، كتب رجل روماني يدعى "ايلاريون" رسالة إلى زوجته الحبلى لأنه كان بعيداً عنها: "إن رُزقت بطفل فليحيا إن كان صبيّاً، أما إذا كانت بنتاً، فألقي بها في الخارج. كيف يمكنني أن أنساك". لكن بولس دعا إلى رفض ذلك القانون الذي سمح بإساءة معاملة الأولاد، فدعا إلى رفض سلطة الآباء المطلقة التي لا تقيدها قيود ولا تحدّها حدود، مع أن الآباء والأمهات هم علّة وجودهم في الحياة، إلا أن هذا لا يعطيهم الحرية في إساءة معاملتهم بقسوة بالغة. فالرسول بولس يدعونا إلى الحكمة والحذر في أسلوب التعامل مع أولادنا، إلى إدراك حقيقة مشاعرهم وحقيقة احتياجاتهم، والمراحل النفسية التي يمرون بها. فيدعونا إلى اعتماد أسلوب تربوية

وأسلوب تَخَاطَب لا تغيظ أولادنا ولا تحبطهم ولا تخيفهم لئلا يفقدوا الثقة بأنفسهم وبأهلهم ويفشلوا في حياتهم. أما في رسالته إلى كنيسة أفسس فقد قال للآباء: "لا تغيظوا أولادكم بل ربّوهم بتأديب الرب وإنذاره" (أفسس: ٦: ٤). وكلمة "ربّوا" في اللغة اليونانية الأصلية تصف عملية قيادة من حالة إلى حالة أخرى. فالمطلوب من الآباء ليس فقط تأمين الغذاء والملبس لأولادهم، وإنما قيادتهم في الحياة من حالة إلى أخرى روحياً وفكرياً وعاطفياً تحت تأديب الرب وإنذاره. وكلمتي "تأديب وإنذار" في الرب، تحملان عدّة مفاهيم تربوية منها: تقديم التعليم الذي يريده الرب، تدريب على السلوك الذي يرضي الرب، تصحيح المسار الخطأ عندما يضلون، واتخاذ إجراءات حازمة لردهم عند الاستمرار في الخطأ. يخبرنا سفر صموئيل الأول أنه عندما اختار الله الصبي صموئيل ليكون نبياً له. فإن الأمر الأول الذي أخبره بشأنه كان أولاد الكاهن عالي الذي كان يخدم الهيكل. فانتقاد الله لذلك الكاهن، كان بسبب أهمله عائلته وتخليه عن دوره في تربية أولاده وردعهم عن الشر. قَالَ الرَّبُّ لِمُؤْتِيلَ: «هُوَذَا أَنَا فَاعِلٌ أُمْرًا فِي إِسْرَائِيلَ كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهِ تَطِنُّ أُذُنَاهُ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَقِيمُ عَلَى عَالِي كُلِّ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ عَلَى بَيْتِهِ. أَبْتَدِئُ وَأُكْمِلُ. وَقَدْ أَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي أَقْضِي عَلَى بَيْتِهِ إِلَى الْأَبَدِ مِنْ أَجْلِ الشَّرِّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ بَنِيهِ قَدْ أُوجِبُوا بِهِ اللَّعْنَةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَزِدْهُمْ» (١صموئيل ٣: ١٣).

من الأمور الخطيرة التي نواجهها في الكنيسة والمجتمع أن يخلى بعض الأهل عن دورهم في التربية والتوجيه والتعليم والتأديب والإنذار والردع عن الشر. لخص أحد المربين الأسلوب الذي يجب أن نتبعه في تربيته لأولادنا منذ طفولتهم وحتى مرحلة النضج، بأربع كلمات تبدأ بحرف "L" باللغة الإنكليزية:

١. Love them أحببهم

٢. Learn them تعلّمهم (افهمهم)

٣. Lead them قُدّم

٤. Leave them أتركهم

فعندما **نحب** أولادنا المحبة الصادقة التي لا تنتظر أي استحقاق فيهم. وعندما **نتعلّم** احتياجاتهم ونتعرّف على مشاعرهم ومراحل نموهم. وعندما **نقودهم** في طريق الصواب ونصحّ مسارهم عند الخطأ. فإننا نستطيع ان **نتركهم** بين يدي الله ليختاروا أسلوب حياتهم ويشقوا مستقبلهم.

يعترف الكثير من الناس الذين لعبوا دوراً ايجابياً في الكنيسة والمجتمع، بأن الفضل الأول في حياتهم يرجع إلى تربيتهم المسيحية. يذكر الرسول بولس في رسالة وجهها إلى الشاب تيموثاوس الذي اتخذه رفيقاً له في رحلاته التبشيرية، أن الفضل الأكبر في مسيحيته وإيمانه وصلحه يرجع إلى تربيته المسيحية، التي عاشها في بيته، مع أمه أفنيكي وجدته لوئيس. فقال له "أذكّر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقنٌ أنه فيك أيضاً"

(٢ تيموثاوس ١ : ٥). أما القديس "أوغستينوس"، فإنه يُرجع الفضل في اهتدائه إلى المسيح بفضل دموع أمه مونيكا.

كتب الكاتب الإنكليزي Aldas Huxley كتابًا بعنوان Brave New World "العالم الجديد الجريء". وضع فيه تصوّرًا لنوعية العالم الجديد الذي حلم أن يراه في المستقبل. لقد رأى أن كل ما في المجتمع يجب أن يخدم تطور تقنيات هذا العالم الجديد، لكن من المؤسف أن الكاتب لم يَر في عالمه الجديد حاجة لوجود العائلة، الأب والأم، التي تربي أولادها على القيم الروحية والأخلاقية.

في هذا الزمن الذي يتسارع فيه تفكُّك الروابط العائلية في الكنيسة والمجتمع. نحن مدعوون إلى التمسُّك بالمسيح ليكون رباً على حياتنا وعائلاتنا. نحن مدعوون لعيش عهد الزواج المستمدة من الإنجيل. نحن مدعوون لممارسة دورنا الطبيعي المسيحي كأهل لتربية أولادنا بتأديب الرب وإنذاره. آمين.

(عيد الأم)

ثم قال للتلميذ: "هوذا أمك"

في سنة ١٩١٠م تساءلت فتاة اسمها "آنا جارفيس": ماذا أستطيع أن أفعل لأكرم أمي التي تحبني؟" فكانت تلك الفتاة أول من فكّر في إكرام أمها، وأضحى الجواب منذ ذلك الوقت وحتى اليوم عيدًا من أعظم الأعياد هو عيد الأم. قال الكاتب الفرنسي "فيكتور هوغو": "إنَّ حُبَّ الأم لا ينساه أحد. هو غذاء بديع يوزعه الله وينميه، لكل واحد جزء منه. وكله لهم جميعاً. أما الكاتب اللبناني "جبران خليل جبران" فقد تغنّى في الأمّ قائلاً عنها: إن أعذب ما تنطق به الألسن هو لفظة الأمّ. وأجمل مناداتة في الوجود هي يا أمي. إنها كلمة صغيرة مملوءة بالأمل والحب والعطف. الأمّ هي كلّ شيء في هذه الحياة. هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنان والرفقة. فالذي يفقد أمه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه، ويبدأ تباركه، وبعينًا تحرسه". إن شعور جبران تجاه أمه، هو شعورنا جميعاً لا سيما عندما نحتفل بعيد الأم. فنحن لا نستطيع أن نفكّر في أمهاتنا دون أن نفكّر في محبتهم لنا، وتضحياتهم لأجلنا وشغفهم بحياتنا. فهناك مثل غير لاهوتي يقول "لما لم يتمكن الله بأن يحلّ جسدياً في كل مكان، خلق الأمهات". بالرغم من عدم صوابية هذا المثل لاهوتياً، كون أن الله موجود في كل مكان، إلا أن الهدف من هذا المثل هو إبراز الدور الأساس الذي تلعبه الأمهات في حياة أولادهن. سئل غلامٌ مرّة في العاشرة من عمره، ما هي المحبة؟ فأجاب "أمي هي المحبة". إن ذلك الولد لم يستطع أن يعطي تعريفاً للمحبة، ولكنّه رآها متجسدة في محبة أمه له وهذه هي عظمة رسالة الأمومة. أن تربي أولادًا ومجتمعًا على المحبة. قيل: "أقرب قلب إلى الله هو قلب الأمّ. فهو قلبٌ يحبّ أولاده بلا حدود ولا قيود، فهو يُشبهه قلب الله". فالأم تحب أولادها بلا حدود ومن دون أن تنتظر منهم أي تجاوب أو استحقاق. فنحن

جميعاً نعرف أمهات كان لهن أولاداً معاقين، فانتقطن كلياً عن كل مغريات العالم ومباهجه في سبيل عنايتهن بأولادهن المعاقين.

إن استخدام الأم في الكتابة والأدب ليست جديدة بل استخدمها الكتاب المقدس منذ القديم. فإشعياى النبي استخدم في الأصحاح السادس والستين من سفره ثلاثة تشبيهات مُستقاة من طبيعة الأم وعلاقتها المميزة مع أولادها: في التشبيه الأول، شبه مدينة أورشليم بالأم التي بعد ألم وعذاب ومخاض السبي البابلي فرحت بانتهائه، كما تفرح الأم بولادة مولود بعد الألم والمخاض. يقول إشعياى: "قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا الطَّلُقُ وَلَدَتْ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهَا الْمَخَاضُ وَلَدَتْ ذَكَرًا. مَنْ سَمِعَ مِثْلَ هَذَا؟ مَنْ رَأَى مِثْلَ هَذِهِ؟ هَلْ تَمَخَّضُ بِلَادًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ تُولَدُ أُمُّهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً؟ فَقَدْ مَخَّضَتْ صِهْيُونُ بَلْ وَلَدَتْ بَنِيهَا!". (إشعياى ٦٦: ٨٧).

التشبيه الثاني، شبه دعوة أولاد أورشليم الذين مروا بفترة الألم التي انتهت إلى الفرح والبهجة والرضاعة والشبع من ثدي تعزيات الأم أورشليم التي ستحملهم بين يديها وتدلّهم على رُكبتها. يقول إشعياى: "افْرَحُوا مَعَ أَوْرُشَلِيمَ وَابْتَهَجُوا مَعَهَا يَا جَمِيعَ مُجَبِّئِهَا. افْرَحُوا مَعَهَا فَرِحًا يَا جَمِيعَ النَّائِحِينَ عَلَيْهَا لِتَرْضَعُوا وَتَشْبَعُوا مِنْ ثَدْيِ تَعْزِيَاتِهَا. لِتَعْصِرُوا وَتَتَلَدُّوا مِنْ دِرَّةٍ مَجْدَهَا" (إشعياى ٦٦: ١٠ و١١). وفي التشبيه الثالث شبه الله بالأم التي تعزّي أولادها وتشجعهم في فترات الضيق والألم. يقول إشعياى: "كَانْسَانَ تُعْزِيهِ أُمُّهُ هَكَذَا أَعْزِيكُمْ أَنَا وَفِي أَوْرُشَلِيمَ تُعْزُونَ". (إشعياى ٦٦: ١٣).

أما في العهد الجديد، فقد استخدم الرب يسوع المسيح الصورة نفسها التي استخدمها إشعياى حول الأم، ولكن بمفهوم آخر. قال لتلاميذه: "الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَبْخُونُ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنْ حَزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. الْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لِأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتْ الْوَلَدَ لَا تَعُودُ تَذْكُرُ الشَّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لِأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمْ الْآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ." (يوحنا ١٦: ٢٠-٢٢). فالمسيح في هذه الأعداد استخدم تشبيه الأم لتلاميذه ليقول لهم إنهم سيمرون بفترة من الحزن والألم والمخاض هو حزن وألم الصليب، لكن ستنتهي تلك المرحلة وتحوّل إلى فرح عظيم هو الفرح بالقيامة كما تفرح الأم بمولودها الجديد فتنسى ألم الولادة.

وتخبرنا الأنجيل أن مريم أم يسوع، قبلت دعوة الله لها للأومة فأضحت أم يسوع المخلص. وهكذا فرحت مع يوسف بابنها، وأولته كل اهتمامها ومحبتها، وقدمته مع يوسف إلى الهيكل لتكريسه للرب، وأمسكت ويوسف بيديه وواظبوا على الحضور على الهيكل للصلاة وعبادة الرب. وفي وقت الصعوبات قلقت ويوسف عليه من خطر هيرودس، فهربا به إلى مصر خوفاً على حياته. وقلقا عليه عندما ظنّ بأنه ضاع بين الجموع في أورشليم وسارا مسافات طويلة للتفتيش عنه إلى أن وجدها فاطمأن قلبيهما. وعند الصليب، فقد تمزّق قلبها عند رؤيتها لابنها معلقاً متألماً يموت أمام عينيها.

لكن المسيح يسوع لم ينسَ محبة أمه له، لم ينسَ تعبها، وتضحيتها، وقلقها وألمها لأجله. ففي الوقت الذي كان فيه معلقاً على الصليب لخلاص العالم، وبالرغم من أنه من طبيعة الألم أنها تغرق المتألم في نفسه فلا يعد قادراً على التفكير في غيره، نظر يسوع من على الصليب فرأى أربع نساء يبكين أمامه، وكانت أمه من بينهن. فما كان منه وفي ذروة آلامه إلا أن نظر إلى أمه الباكية وصار يفكر في مصيرها، في مستقبلها. وربما تساءل: ماذا يا ترى سيحل بأمي بعد موتي وقيامتي؟ مع من ستعيش؟ إلى أي بيت ستذهب؟ وبعد هذه التساؤلات المفترضة، طلب من تلميذه الحبيب يوحنا الذي كان بجانب أمه، أن يهتم بها ويعتني بتفاصيل حياتها، وأن يأخذها إلى بيته ويعاملها كأمه. يقول إنجيل يوحنا "فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال للتلميذ" هوذا أمك. وقال لها: هوذا ابنك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته" (يوحنا ١٩: ٢٦ و٢٧).

نعم، هذا ما قام به إلينا العظيم يسوع المسيح. فالمسيح ليس مجرد فكرة، ولا مجرد شخص خال من العواطف والشعور، بل على الرغم من كونه إلهاً كاملاً، فهو أيضاً إنسان كامل أحب أمه واهتم بها وشعر معها وهو أيضاً يهتم بنا ويحبنا ويشعر معنا ويتألم لألمنا ويبغى خلاصنا من الخطية.

إن اهتمام يسوع بأمه وهو على الصليب، إنما هو دعوة لنا جميعاً في عيد الأم، أن نهتم بأمهاتنا وأيضاً بآبائنا وأهلنا كلهم. فنصلي لأجلهم، ونحافظ عليهم، ونتمتع بوجودهم معنا. فعيد الأم ليس فقط للذكرى، وتقديم الورود والأشعار لهن، ولكنه مناسبة نذكرنا بمسؤولية جوهرية وضعها الرب على أكتافنا. إنها دعوة لنا لنقدم لأمهاتنا وآبائنا الإكرام، فمحببتهم العملية لنا نذكرنا بمحبة الله لنا. لهذا دعونا نشكر الله لأجلهم ونشكر أهلنا على تربيتهم لنا على الإيمان المسيحي الذي علمونا إياه وربونا عليه، حتى اخترنا محبة المسيح. آمين.

عيد الأب "رآه أبوه، فتحنن"

في الحادي والعشرين من شهر حزيران من كل عام، يحتفل العالم بعيد الأب. وإن كان الاحتفال بسيطاً، إلا أن هذا الاحتفال يعيد التوازن إلى دور العائلة. فمع الإقرار بالدور الأساسي الذي تلعبه الأم في العائلة، ولكن لا يمكن إهمال دور الأب الذي هو أساسي أيضاً. إن أول من فكر بتكريم الأب وتخصيص يوم له، كانت الفتاة الأميركية "سونورا سمارت دود" فحين كانت في الكنيسة تسمع عظة بمناسبة عيد الأم في العام ١٩٠٩، فكرت بأن أمها ماتت منذ طفولتها وتذكرت أباه الذي كرس حياته ووقته في تربيتها مع خمسة أخوة وأخوات لها، فتساءلت ألا يستحق أبي والآباء التكريم؟ وبما أن فكرتها لاقت آذاناً صاغية، فقد أقيم أول احتفال بعيد

الأب في ١٩ حزيران ١٩١٠، وأصبح هذا اليوم يوم عطلة وطنية في أميركا منذ العام ١٩٧٢.

أجرت إحدى المؤسسات المختصة دراسة على أولاد عاشوا بدون أب، فتبين لها أنه في مرحلة الطفولة، أي قبل بلوغ الخمس سنوات، أثر غياب الأب على نفسية الأطفال ونموهم الاجتماعي، إذ صاروا أكثر سلبية وعدائية وأقل تنظيماً. إلا أنهم تخطوا هذه المرحلة عندما كبروا واحتضنتهم الأم. كما أن دراسات أخرى أظهرت أنه عندما يصرف الأب وقتاً كافياً مع أولاده، فإن تعلقهم به لا يقل عن تعلقهم بأمهم. وبالتالي، إذا أردنا عائلة سليمة متماسكة نفسياً وروحياً، فنحن بحاجة إلى تعاون قطبي العائلة الأب والأم ليعملوا معاً جنباً إلى جنب.

تقول الوصية الخامسة من الوصايا العشر التي أعطاها الله لموسى، لتكون العهد القديم للحياة والسلوك بين الله والشعب: "أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض" (خروج ٢٠: ١٢). فإكرام الأب والأم هي وصية إلهية قديمة. وقد فرضت شريعة اللاويين قصاصاً كبيراً على الأولاد الذين لا يكرمون آباءهم وأمهم يصل إلى الحكم بالموت. يقول سفر اللاويين: "كل إنسان سب أباه أو أمه، فإنه يُقتل. قد سب أباه أو أمه دمه عليه" (لاويين ٢٠: ٩). أما شريعة التثنية فقد فرضت أيضاً قصاص الموت بالرجم بالحجارة على الأولاد المعاندين والسكيرين والمسرفين الذين لا يصغوا لأهلهم. تقول الشريعة: "إذا كان لرجل ابنٌ معانِدٌ ومَارِدٌ لا يسمع لِقَوْلِ أبيه ولا لِقَوْلِ أمه ويؤدّبانه فلا يسمع لهما. يمسكه أبوه وأمه ويأتیان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ويقولان لشيوخ مدينته: ابننا هذا معانِدٌ ومَارِدٌ لا يسمع لِقَوْلِنَا وهو مُسرفٌ وسكيرٌ. فيزجّمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت. فتزرع الشر من بينكم ويسمع كل إسرائيل ويخافون." (تثنية ٢١: ١٨-٢١).

يخبرنا البشير (متى ١٥: ١-٩)، أن المسيح وجّه انتقاداً لاذعاً إلى الكتبة والفريسيين لأنهم انتقدوا بقسوة تلاميذه لعدم غسل أيديهم قبل الأكل، مع أن هذا الترتيب يخضع لتقليد الشيوخ، وتساهلوا في موضوع تطبيق وصية الله الخامسة بإكرام الأب والأم، بتقديم مبررات من تقليدهم حول النذور والقرايين تسمح للأولاد بالتهرب من إكرام أهلهم. فقال لهم: "فإن الله أوصى قائلاً: أكرم أباك وأمك ومن يشتم أباً أو أمّاً فليمت موتاً. وأمّا أنتم فتقولون: من قال لأبيه أو أمه: قريبان هو الذي تنتفع به مني. فلا يكرم أباه أو أمه. فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم!" (متى ١٥: ٤-٦). إلا أن المسيح وخلال خدمته وتعاليمه كما تخبرنا الأناجيل في العهد الجديد رفض قصاص الموت لأحد. في عظته على الجبل قال: "قد سمعتم أنه قيل للقداماء: لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأمّا أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ومن قال لأخيه: رقا يكون مستوجب المجمع ومن قال: يا

أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ." (متى ٥ : ٢١ و٢٢). فكيف بالأحرى يسمح المسيح للأب والأم بقتل أولادهم لأنهم أساءوا إليهم.

في رسالته إلى أهل أفسس دعا الرسول بولس أعضاء الكنيسة إلى إعطاء مكانة خاصة لآبائهم وأمهاتهم وإكرامهم واحترامهم، مستنداً إلى الوصية الخامسة من الوصايا العشر. قال لهم: "أَيُّهَا الْأَوْلَادُ، أَطِيعُوا وَالْبِدِيكُم فِي الرَّبِّ لِأَنَّ هَذَا حَقٌّ. أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، الَّتِي هِيَ أَوْلُ وَصِيَّةٍ بِوَعْدٍ، لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ، وَتَكُونُوا طَوَالَ الْأَعْمَارِ عَلَى الْأَرْضِ" (أفسس ٦ : ١-٢). فإكرام الوالدين هو حق. وقول بولس هذا يحمل وعدين للأولاد: الأول، ذَكَرْتَهُ الوصية الأصلية في الشريعة، أَنْ مَنْ يَكْرِمُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَاللَّهُ سَوْفَ يَرْضَى عَلَيْهِ وَيَطِيلُ عَمْرَهُ عَلَى الْأَرْضِ، "أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ" (خروج ٢٠ : ١٢). ومن هنا نرى أمنية الأهل لأولادهم عندما يفرحونهم ويرضون عليهم، فيقولون لهم (الله يطول عمركم). إلا أن الرسول بولس أضاف وعداً آخر حين قال للأولاد في كنيسة أفسس: "لكي يكون لكم خير". فإكرام الأب والأم يأتي بالخير علينا من الله.

إن أعظم صورة للأب استخدمها الرب يسوع في المثل الذي نسميه مثل "الابن الضال"، والذي يجب أن نسميه مثل "الأب المحب" في (لوقا ١٥ : ١١-٣١) في هذا المثل يبرز المسيح الله كأب حنون محب، غافر لا يفرحه شيء إلا عودة ابنه إليه. ففي تفاصيل المثل يخبرنا البشير لوقا، أنه بعد أن قرر الابن العودة إلى أبيه والاعتراف له بخطاياها وتوجهه باتجاه البيت، فإنه عندما رآه أبوه قادمًا نحوه، فقد نسي كل الإساءات الكثيرة التي سببها الابن له، وفكر فقط في العلاقة التي تربطه فيه. إنها علاقة أب بابن، علاقة عائلية. على هذا الأساس تصرّف الأب. لقد استخدم لوقا كلمات مليئة بالحنان والعطف والمشاعر الجياشة ليصف شعور الأب: "واذ كان لم يزل بعيداً، رآه أبوه، فتحنن... وركض... ووقع على عنقه... وقبله..." (لوقا ١٥ : ٢٠). لقد كان مشهداً درامياً يصعب وصفه. وعند اعتراف الابن بخطاياها وطلبه الغفران من أبيه، فقد كان لدى الابن طلباً آخر، هو أن يرجع إلى البيت كأجير وكعبد "اجعلني كأحد أجراك" (لوقا ١٥ : ١٩). لقد طلب من أبيه أن يعتبره كأجير ويعامله في البيت كعبد، لكن الأب رفض هذا الطلب وأصر على معاملته كابن. فأعادته إلى البيت، وطلب من عبده أن يلبسوه الخلة الأولى التي كان يلبسها عادةً ذوي المراكز الرفيعة، ليؤكد لابنه أنه لا يزال يملك مركزاً رفيعاً في البيت. وأن يضعوا خاتماً في يده والخاتم هو علامة السلطنة، ليؤكد له أنه لا يزال له سلطة في البيت. وأن يوضع حذاء في رجله حتى يميّزه عن العبيد الخفاة، ويؤكد أن ابنه لا يزال حراً. وأن يذبحوا له العجل المسمن الذي كانوا يعلفونه ويسمنونه ليذبح في مناسبات هامة، ولم يجد الأب مناسبة أهم وأسعد من مناسبة رجوع ابنه إليه. وهكذا أقام احتفالاً كبيراً بعودة ابنه الذي كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد.

دعونا بمناسبة عيد الأب، نتذكّر ما تحمل صورة الأب من معان عميقة لنا نستمدّها من أبوة الله لنا التي اختبرناها في ابنه يسوع المسيح. فصورة الأب السامية هذه، ستبقى مثلاً يُحتذى لكل ابن وابنة، حتى يُكرّم الأب والأم والأهل، ومثلاً لكل أب، حتى يعامل أولاده وعائلته كما عاملنا الأب المحب. "فتحنن... وركض... ووقع على عنقه... وقبّله..." آمين.

(٧) عيش قيم الإنجيل في المجتمع العدالة الخلاقية

من أهم القيم الاجتماعية التي تمنع الانقسامات وتجذب الثورات وتحافظ على ترابط العلاقات في المجتمعات، قيمة العدالة. فالعدالة هي الصمغ الذي يلصق كافة شرائح المجتمع بعضها ببعض ممّا يجعل منه مجتمعاً متماسكاً. لهذا فسيادة العدالة ضرورة قصوى لكل مجتمع لكي يحافظ على سلامه واستقراره. يُعرّف بعض الفلاسفة واللاهوتيين العدالة بأنّها التنظيم الصحيح للأشخاص والأشياء، من خلال الأنظمة والقوانين التي تُدير شؤون الناس انطلاقاً من مبدأ إعطاء كلّ ذي حقّ حقه فيتساوى جميع الناس.

العدالة حاجة إنسانية أساسية بالفطرة كحاجة الإنسان للطعام. فأذا لم تُسدّ حاجته إلى الطعام فإنه يشعر بنقص أساسي في حياته، وإذا سُدّت يشعر باكتفاء ورضى. لقد أجريت دراسات في العام ٢٠٠٨ حول اختبار كيفية تجاوب الإنسان مع العدل أو الظلم، فأظهرت أنّ الذهن الإنساني، وبالتحديد ذلك الجزء من الدماغ الذي يستجيب بالرضى والاكتفاء، عندما يأكل الإنسان الطعام يستجيب بالرضى والاكتفاء عندما يعامل الإنسان بعدل. والعبرة من تلك الدراسة أن الظلم يُفقد الإنسان حاجة هي من أهم حاجاته الأساسية.

العدل صفة أساسية من صفات الله. يقول المرزم: "العدل والحق قاعدة كرسية... السموات تخبر بعدل الله" (مزمور ٩٧: ٦ و٢). تأملوا بقوة هذه الصورة حول أهمية العدل في نظر الله. فالقاعدة هي المكان حيث يضع الله كرسية عليه ليملك بالحق والعدل على العالم. كما أن السموات تخبر بعدالة الله. فالله يبغض الظلم على أنواعه. يقول صغنيا النبي: "الرب عادل في وسطها (أورشليم) لا يفعل ظلماً" (صغنيا ٣: ٥). يذكر كاتب المزمور أن الله يستخدم مقياس العدالة والاستقامة في دينونته للشعوب "يدين المسكونة بالعدل والشعوب بالاستقامة" (مزمور ٩٨: ٩). فالعدالة ليست فقط مطلباً اجتماعياً، ولكن قبّل أي شيء هي من صفات الله، ومطلب إلهي من كل أولاده. يقول كاتب سفر الأمثال: "افتح فمك لأجل الأخرس. في دعوى كل يتيم افتح فمك، إقض بالعدل وحام عن الفقير والمسكين" (أمثال ٣١: ٩ و٨). أما الرسول بولس فقال: "كل ما هو حق كل ما هو جليل كل ما هو عادل، كل ما هو مسرّ كل ما صيته حسن. إن كانت فضيلة أو كان مدح ففي هذه افتكروا" (فيلبي ٤: ٨ و ٩).

لقد عانى الشعب العبري في فترة حكم الملوك الكثير من الظلم والفساد. لهذا أرسل الله الأنبياء ليذكروهم بمطلبه منهم، ألا وهو الحكم

بالعدل والحق. كما يخبرنا إرميا النبي أن الله نظر إلى مملكة يهوذا فرأى الحكام يمارسون الظلم والشر والفساد، فعبر عن استيائه لما رآه، وطلب من إرميا أن يذهب إلى القصر الملكي ويحذر الملك وقادته من استمرارهم الظلم، الأمر الذي سيحملهم مسؤولية معاقبتهم بخراب القصر الملكي والمملكة. فقال الله لإرميا: اذهب إلى قادة البلاد وقل لهم: **"هكذا قال الرب، أجروا حقاً وعدلاً، انقذوا المغصوب من يد الظالم، والغريب واليتيم والأرملة لا تضطهدوا ولا تظلموا ولا تسفكوا دمًا زكياً"** (إرميا ٢٢: ٣). إن نداء إرميا يجب أن يوجّه اليوم إلى قادة الدول الكبرى الذين باسم العدالة العالمية وبحجة الحفاظ على الديمقراطية العالمية يتخذون قرار الحرب والظلم وسفك الدم، ممّا يؤدّي إلى نتائج كارثية على حياة الناس. فقد دفع إرميا النبي ثمن دعوته هذه، الكثير من الإضطهاد والألم والسجن، وهذا أيضاً قد يكون مصير الذين ينادون بالعدل والحق. ويعزو إرميا سبب الظلم وغياب العدل إلى التخلّي عن الإيمان وعبادة الإله الحي واتباع آلهة الأصنام. ويُضيف بأنّ العلاج هو بالتوبة ورجوع الملك وقادته والشعب إلى الله.

ومن الأنبياء الذين تميّزوا في دعوتهم للعدل والاستقامة في الحياة، عاموس الذي ظهر في إسرائيل في القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن بالرغم من السلام والأمن والازدهار الذي ساد البلاد آنذاك، فقد رافق ذلك السلام ظلم إجتماعي وفساد. فقد تحكّم الأغنياء في الفقراء والمساكين، واقتحمت الرشوة المحاكم، وتحولت الإجراءات القانونية للمعاملات الرسمية إلى وسائل تعذيب للفقير والمسكين والأرملة. وقد وصف عاموس ذلك الزمان بالردّي، الذي فيه يصمت العاقل. ووصف أولئك الظالمين بقوله: **"يبغضون المنذر الذي ينصحهم ليحافظوا على الحق. يكرهون المتكلم بالصدق، يدوسون المسكين، يضايقون البار ويصدون البائسين في الباب"** (عاموس ٥: ١٠ و ١١). كما حذر من الرشوة التي منعتها الشريعة **"لا تحرف القضاء ولا تنظر إلى الوجوه ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمي أعين الحكماء وتعوج كلام الصديقين. العدل العدل تتبع"** (تثنية ١٦: ١٩ و ٢٠). وقد اكتشف أيضاً أثناء تحليله ذلك الوضع الفاسد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين البُعد عن الله وكثرة الظلم وغياب العدالة. فعندما لا يحتلّ الله المكانة الأولى في حياة الإنسان، يكون الإنسان عُرضة لأن يصنع الشر، أما إذا كان الله يسود على حياته ويبقى قريباً منه وسامعاً لصوته ومُطيعاً لوصاياه، فإنّه من غير المُمكن أن يظلم أحد، بل يسلك بعدل ويعامل الآخرين بعدل وحق. ثم دعا عاموس القادة والشعب إلى التوبة والرجوع إلى الله ورفض الظلم والفساد فقال **"أطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا... ابغضوا الشر وأحبوا الخير وثبتوا الحق"** (عاموس ٥: ٢٤ و ٢٥).

وعندما تنبأ إشعيا النبي عن مجيء المسيح ٨٠٠ سنة قبل الميلاد، فإن الصفة الأساسية التي أبرزها عنه هي صفة العدل. فقال: **"ويخرج قضيب من جذع يبس وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة"**

الرب، فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه بل يحكم بالعدل للمساكين ويحكم بالانصاف لبائسي الأرض" (إشعياء ١١: ٣-١). كما يذكر إرميا صفتين أساسيتين للمسيح القاضي العادل هما: اليرّ والأمانة. فاليرّ يعني الحفاظ على النّزاهة والاستقامة والقيام بما هو صحيح بثبات وبشكل دائم في كافة الظروف ومهما تبدلت الأحوال. أمّا الأمانة فتعني الإخلاص والصدق في كل ما نُؤمّن عليه. نزاهة القضاة مطلب كل إنسان حتى يأخذ كل ذي حق حقه. إنّ الأمر المُلاحَظ حول قضاء المسيح في هذه النبوة، هو أنّه "لا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه". تُصوّر الأساطير الرومانية القديمة آلهة العدل أو سيدة العدل Justicia يتدلى من يدها اليسرى ميزان لتزن وتقيّم القضايا، وبيدها اليمنى تحمل سيفاً ذا حدّين يرمز إلى قوة العدل والعقل، وعلى عينيها عُصابة تمنعها من الرؤية إشارة إلى القضاء بموضوعية وتجرّد، دون أيّة مواربة واعتبارات لأية مصالح شخصية. فالعُصابة على عينيها قد تنسجم مع وصف إشعياء للمسيح بأنه لا يحكم بحسب نظر عينيه.

ويذكر اللاهوتي الألماني "بول تيلليخ" Paul Tillich في كتاباته نوعاً من العدالة يسميها "العدالة الخلّاقة". هذه العدالة تختلف عن العدالة المُجردة المُتّبعة في القضاء. فهي عدالة خلّاقة لأنّها تنبع من فهمه للإنجيل وأسلوب تعاطي الرب يسوع المسيح مع حاجات الناس، عدالة تتجاوز القوانين والمقاييس الإنسانية إذ ليس لديها مُسلّمات ولا حسابات، بل تتميز بالديناميكية والليونة لتتعاطى مع كل حالة على حدة، عدالة تتميز بالمعرفة الكاملة، فلا تستند فقط إلى ما يُرى ويُسمع، بل تبحث في العمق عن كامل حيثيات ودوافع وتفاصيل ووقائع الأمور، وتبني حكمها بناءً على معرفتها الشاملة. فالعدالة الكاملة تحتاج إلى معرفة كاملة، وهي صفة المسيح الذي "حلّ عليه روح الرب روح الحكمة والفهم المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب". فالمسيح القاضي لديّه الحكمة والفهم والمشورة والمعرفة ليقضي بعدل. إن هذه العدالة الخلّاقة (كما يسميها بول تيلليخ) تختلف عن العدالة المُجردة لسبب رئيسي هو أنها عدالة مُضاف إليها عنصر المحبة الصادقة. فالمحبة تستطيع أن ترى أموراً وتفاصيل لا تستطيع أن تراها العدالة المُجردة. المحبة تستطيع أن تتفهم الحيثيات والدوافع أكثر ممّا تفهمه العدالة المُجردة، هذا إنّ طيقت بشكل صحيح لثعطي كل ذي حق حقه. إن هدف هذه العدالة الخلّاقة هو ملكوت الله. وهي خلّاقة، لأنّها لا تكتفي بالانصاف، ولا تستند فقط إلى مبدأ الاستحقاق الذي نجده في العدالة المُجردة، والتي هي ضرورة لحكم المجتمعات والأوطان، لكن العدالة الخلّاقة تسعى لخلق حالة أفضل للإنسان، لا سيما المظلوم، هي حالة ملكوت الله التي هي "بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رومية ١٤: ١٧). وهذا ما أكده الرب يسوع المسيح حين قال لتلاميذه: "وأما أنا فقد جئت لتكون لهم حياة ويكون لهم أفضل" (يوحنا ١٠: ١٠). ونرى نموذجاً من هذه العدالة الخلّاقة في طريقة تعاطي المسيح مع إنسان شفاه يوم السبت (يوحنا ٧: ٢٠-٢٤)، حيث يخبرنا أن المسيح قابل مجموعة من اليهود المتشديدون الذين سخطوا عليه لأنه قام بعمل يوم السبت هو شفاء إنسان. فيوم السبت هو

بناءً للظاهر وبحسب الشريعة اليهودية هو يوم للراحة وليس يوماً للعمل مهما كان نوعه، كما فسّر الفريسيون الشريعة. لكن المسيح رأى ما هو أبعد من الظاهر وما هو أسمى من القوانين. فقد رأى المسيح أن هناك إنساناً بحاجة إلى شفاء، بحاجة إلى أن يكون في حالة صحيّة وروحية أفضل. لهذا تجاوز الأعراف والقوانين والتقاليد ومفهومهم للشريعة وشفى ذلك الإنسان المحتاج، مانحاً إيّاه حياة أفضل. وعندما اعترض اليهود على قيامه بعمل الشفاء، واجههم قائلاً: **"لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً"**.

هذه العدالة الخلّاقة هي عدالة النعمة الإلهية التي تقضي بعدل للناس المساكين والمهمشين الذين لا نفوذ لهم وليس لهم من يدافع عن حقهم. هذه العدالة مارسها المسيح فظهرت في طريقة تعامله مع تلك المرأة التي أمسكت بفعل الزّنى، كما إدّعى المُدّعون (يوحنا ص ٨). فالمسيح لم يُظهر فقط ظلّم مُتّهميها الذين لم يقووا على رجمها بالحجر الأول، بسبب تبيكيت وإدانة ضمائرهم لهم، لكنه غفر لها خطاياها، ليفتح لها الباب لحالة فضلى من التوبة والحياة الجديدة (يوحنا ٨: ١-١١).

هذه العدالة الخلّاقة هي عدالة النعمة الإلهية، التي ظهرت في رفض عدالة الابن الأكبر المُجردة في تعامله مع أخيه الأصغر التائب إذ رفض الدخول إلى البيت ليستقبل أخيه، وظهرت في طريقة استقبال الأب لابنه الضال التائب فرفض اقتراح الابن بأن يرجع كأجير إلى البيت وأصرّ على رجوعه كابن، ولم يكتفِ باستقباله استقبالاً عادياً، لكنه أقام له وليمة للاحتفال والفرح برجوعه. فابنه هذا قد انتقل إلى حالة جديدة بعد التوبة، انتقل من حالة الضلال والموت إلى حالة التوبة والحياة. **"لأنّ إبني هذا كان ميّثاً فعاش وكان ضالاً فوجد"** (لوقا ١٥: ١١-٣١). فكم نحن بحاجة لتدخل هذه العدالة الخلّاقة حياتنا وبيوتنا وكنائسنا ومجتمعنا. آمين.

سَلام الإنجيل

من الحاجات الأساسية التي يحتاجها العالم، لا سيما مجتمع الشرق الأوسط الذي يمر في فترات عصيبة من الحروب، الحاجة إلى السلام. فهول المآسي ومرارة الآلام التي يختبرها المتأثرون بشكل مباشر بالحروب، تثير الرعب وتبرز الحاجة الشديدة إلى نشر تربية جديدة تحترم الحياة وتنظر إلى الإنسان كقيمة روحية لأنه مخلوق على صورة الله ومثاله. تربية جديدة شافية تعمل على تضييد جروح الناس وإعادة وُصْل العلاقات بينهم. فالاختبارات التاريخية والإنسانية تثبت أن الحرب لا تؤيد إلا الحرب، والعنف لا يؤيد إلا العنف، لكن السلام لا بد أن يؤيد السلام. قال اللاهوتي والفيلسوف الروسي "نيكولا بردايف": "لقد شاء الله الحرية للإنسان، فخلقه حراً، لكن من حرية الإنسان نشأت مأساة العالم". فباسم الحرية يشن قادة العالم الحروب ويشرّعوا سفك الدماء والشورور. وبسبب سوء استخدام الإنسان لحرسته تستمر الصراعات في العائلة الواحدة والكنيسة الواحدة والوطن الواحد. خاطب الرسول يعقوب أعضاء الكنيسة محملاً إيّاهم مسؤولية الخصومات والحروب فيما بينهم مُرجعاً السبب إلى سوء استخدام حريتهم التي تظهر، في تلذّذهم في الخصام والحرب، في حسدهم وشهوتهم في تمك ما ليس لهم، في طلبهم أمور رديئة. قال لهم: "من أين الحروب والخصومات بينكم؟ أليست من هنا، من لذاتكم المُحاربة في أعضائكم؟ تشتهون ولستم تمتلكون، تقتلون وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا. تخاصمون وتحاربون ولستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون، تطلبون ولستم تأخذون لأنكم تطلبون ردياً" (يعقوب ٤: ١-٣).

من أجمل صور السلام التي يذكرها الكتاب المقدس، تلك التي رآها ميخا النبي منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة، إذ تنبأ عن رؤيةٍ لسلام إسكوتولوجي شامل وكامل يحقّقه الله بين شعوب العالم في الأيام الأخيرة، فيقضي الله بنفسه بالعدل والإنصاف بين الشعوب، فتتوقّف الحروب ولا يعدّ هناك حاجة فيما بعد للأسلحة، بل تتحوّل أسلحة الحروب (السيف والرُمح) إلى وسائل للتواصل بين الناس، والأموال الهائلة التي تُنْفَق لشراء الأسلحة، تُستخدم لإطعام الفقراء. فرؤية ميخا هذه نجدها في قوله: "فيقضي بين شعوب كثيرة، ينصف لأمم قوية بعيدة، فيطبعون سيوفهم سكاكاً ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلّمون الحرب فيما بعد" (ميخا ٤: ٣). فالسيف يتحول إلى سكة حديدية للفلاحة، والرمح يتحول إلى منجل لحصاد الغلات وإطعام الفقراء.

لكلمة "سلام" معنيان ومفهومان: المعنى الأول، نجده في الكلمة اليونانية "إيريني". والثاني نجده في الكلمة العربية "سلام" وفي الآرامية "شلومو"، أو العبرية "شالوم". إن الفرق بين المفهومين شاسع. فالكلمة اليونانية "إيريني"، لا تتجاوز في معناها أكثر من معنى السلم، أي "غياب الحرب ووقف النزاع الشديد". فهذا السلام أو السلم هو من صنع البشر، من صنع قادة الدول، وهو مؤسس على اتفاقيات غنسانية ودولية، ويخضع لظروف ومصالح خاصة. أما المعنى الآخر لـ "شلومو"، "شالوم"، فهو أشمل وأوسع من المعنى اليوناني. إنه معنى مستمد من

الإنجيل، يطال كل أجزاء الحياة، ويخاطب كل ظروف الحياة وليس فقط وقت السلم. فالكلمة العبرية "شالوم" تعني حرفياً (أن تكون في راحة)، راحة مع الله ومع النفس ومع الآخرين. فهذا السلام المستمد من الإنجيل يصف حالة متكاملة من الراحة والتي تترجم في الاستقرار الروحي والنفسي، والأمان الداخلي وراحة الضمير التي مصدرها حضور الله في الحياة، إذ بحضوره يمنحنا الإرادة الصلبة والدوافع الصحيحة لتصير صانعي سلام ونعمل من أجل توقُّف الصراعات والاضطرابات في عائلاتنا وكنائسنا ومجتمعاتنا. فسلام الإنجيل هذا ليس من صنع البشر بل هو عطية الله لأولاده المؤمنين.

في حديثه مع تلاميذه ميز الرب يسوع المسيح بين نوعين من السلام، سلام يمنحه هو، وسلام يمنحه العالم. **"سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب"** (يوحنا ١٤: ٢٧). فالسلام الذي يمنحه المسيح يختلف جذرياً عن السلام الذي يمنحه العالم. فسلام المسيح يهديء اضطراب ورهبة قلوب جماعة الإيمان حتى في غياب السلم لأن مصدره الله وليس الإنسان.

في رسالته إلى أهل أفسس، قال الرسول بولس للكنيسة إن كل ما هدف إليه الله بواسطة موت ابنه يسوع المسيح على الصليب، هو تقديم السلام للإنسان. سلام مع الله بالإيمان، وسلام مع الآخرين بالمصالحة. فيقول: **"لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين (اليهود والأمم) واحداً ونقض حائط السياج أي العداوة مُبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً صانعاً سلاماً"** (أفسس ٢: ١٣). بعد لقاء الرسول بولس مع المسيح على طريق دمشق، فقد اختبر كيف أن المسيح سلامه كما قال: **"لأنه هو سلامنا"** (أفسس ٢: ١٣). فشعر بسلام عميق حتى في وقت الاضطراب. فبولس لم يعيش حياة سهلة بل امتلأت حياته بالكثير من الاضطهادات والآلام والضيق المتنوعة. لكنه وسط الآمه اختبر سلام الإنجيل (حالة متكاملة من الراحة)، الذي حفظ قلبه وفكره، اختبر سلاماً مميزاً من الله لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة للتعبير عنه، لأن وصفه فاق عقله وتصوره. وقد صلى لأجل أعضاء كنيسة فيلبي ليمنحهم الله إياه فقال: **"وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع"** (فيلبي ٤: ٧).

تذكر الأناجيل أن يسوع بكى ثلاث مرّات، في إداها كان بكاءه على مدينة أورشليم، كما يدون البشير لوقا **"وفيما هو يقترب (يسوع) نظر إلى مدينة أورشليم وبكى عليها، قائلاً لو أنك علمت أنت أيضاً ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويُحيط بك أعداؤك بمتراسة يحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً على حجر، لأنك لم تعرفي زمان افتقاده"** (لوقا ١٩: ٤١ - ٤٤). فيسوع بكى على أورشليم "مدينة السلام" (كما تعني كلمة أورشليم). لأن مدينة السلام لم تعرف ما هو لسلامها. ولم تعرف زمان افتقاد الرب لها. لم تعرف أورشليم إلى من تذهب لكي تحصل على سلامها الحقيقي الدائم، بل ذهبت إلى الأشخاص الخطأ لكي تطلب منهم السلام وهم

لا يعرفون السلام، فيسوع أتى إلى مدينة أورشليم كارزاً لأبنائها وبناتها ببشارة السلام والمصالحة مع الله. لقد قال لأورشليم "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريديا؟" (متى ٢٣: ٣٧). لكنها لم تعرف ما هو لسلامها، ولم تتجاوب مع افتقاد الله لها من خلاله، فهُدِمت على بنيتها وبناتها. فتلك كانت نبوءة المسيح عن خراب أورشليم الأمر الذي تحقق سنة ٧٠ ميلادياً.

إنّ الذي أحزن ويحزن قلب المسيح في عصره وفي أيامنا هذه، أن العالم لا يعلم ما هو المصدر الحقيقي لسلامه. فالعالم يفتش عن السلام في المكان الخطأ ومع الأشخاص الخطأ. كما أنه يفتش عن السلام فقط في المفهوم اليوناني الضيق للكلمة، بينما يضع جانباً المفهوم المتكامل والكتابي للسلام كونه حالة متكاملة من الاستقرار والراحة التي تنبع من حضور الله في الحياة.

فصلاتي إلى الرب يسوع المسيح أن يمنحنا بالإيمان به سلامه الذي يفوق كل عقل حتى يحفظ قلوبنا وأفكارنا وحياتنا فنختبر معنى سلام الإنجيل ونعيش في راحة متكاملة ويجعل منّا صانعي سلام، كما قال طوبى لسانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون، فنسعى من أجل السلام وتضميد جراحات المتألمين. آمين.

المحبّة والرّحمة والمُسامحة ديون الله عَلَيْنَا

ورد في مجلة "سيكولوجيا الاقتصاد" التي تصدر باللغة الإنكليزية عدد تشرين أول ٢٠٠٥ مقالة بعنوان "الدّين والقلق". يبيّن فيها الكاتب

مدى الانزعاج النفسي والقلق الذي يسببه الدّين على المديون من جرّاء مسؤولية تسديده للدائن. يحكى أنّ رجلاً استدان مبلغاً كبيراً من جاره وواجه صعوبة كبيرة في تسديده، الأمر الذي أقلقته وحرمه من النوم لأيام عدّة. فانزعجت الزوجة من الوضع النفسي الذي يعيشه زوجها وصارت تفكر بما ينبغي أن تفعل لتُخرج زوجها من هذا الوضع. فخطرت على بالها فكرة، ففتحت نافذة بيتها المقابلة لبيت الجار الذي استدان منه زوجها وقالت له: "يا جار، لك علينا دين كبير ولن نستطيع تسديده لك. ثم قالت لزوجها: "الآن بإمكانك النوم، أما القلق فاتركه منذ اللحظة لجارنا". لا شك أن تصرف الزوجة ليس تصرفاً مسيحياً، لأن التزامنا بالمسيح يحتم علينا ضرورة تسديد ديوننا، وهذا ما أكدّه حزقيال النبي في وصفه للإنسان البار "لم يظلم إنساناً بل ردّ للمديون رهنه" (حزقيال ١٨: ٧). إلا أنّ المغزى من القصة أنّها تلفت انتباهنا إلى ارتباط القلق بالدّين.

إنّ تعبير "الدّين" هو من التعبيرات المستخدمة مرات عدّة في الإنجيل، لا ليشير إلى مفهوم إنساني اجتماعي للدّين، ولكن ليشير إلى مفهوم جديد استخدمه الرب يسوع المسيح والرسول بولس لإيصال حقائق روحية مهمّة. فهذا التعبير وصفى للدعوة الجديّة لكل مسيحي حقيقي ليتصرّف بمسؤولية والتزام تجاه الله وأخيه الإنسان للوفاء بالتزاماته للمسيح والآخريين، وكأنّ عليه ديناً يجب أن يوفيه لهم. يستخدم الكتاب المقدس تعبير "الدّين" في عدّة مواقع لإيصال عدّة مفاهيم نتوقف عند البعض منها، وهي دين الرحمة، دين الكرازة، دين العيش بالروح، ودين المحبّة.

دين الرحمة:

قدّم المسيح مثلاً لدين الرحمة في (متى ٢٣ - ٣٠) عندما سأله بطرس قائلاً: يا رب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ أجابه يسوع، لا أقول إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات، أي ٤٩٠ مرة. فقال المسيح: "لِذَلِكَ يُشْبِهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا أَرَادَ أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمُحَاسَبَةِ قَدِمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلَافِ وَزْنَةٍ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمْرَ سَيِّدِهِ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلَادُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ، وَيُوفِي الدَّيْنَ. فَحَزَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ، تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ، وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِدًا مِنَ الْعَبِيدِ رُفْقَائِهِ، كَانَ مَدْيُونًا لَهُ بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بَعْنَقِهِ قَائِلاً: أُوْفِنِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَحَزَّ الْعَبْدُ رَفِيقَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلاً: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يُرِدْ بَلْ مَضَى وَالْقَاهُ فِي سَجْنٍ حَتَّى يُوفِيَ الدَّيْنَ".

في هذا المثل، يود البشير متى أن يقول لنا إن الرحمة سمة أساسية من سمات ملكوت الله، وهي دين لكل إنسان مسيحي على الآخر. ودين الرحمة هذا، إنّما هو دين قليل جداً إذا ما قيس بمقياس دين رحمة الله الواسعة التي رحمنا بها. فالله ملكنا، قد تحنّن علينا نحن البشر الخطاة، وترك لنا دين خطايانا الكبير (مديون العشرة الآف وزنة) بمعجزة عظمة غفرانه

الكبير لنا. فعلينا كمسيحيين اختبرنا عظمة رحمة الله، أن نتمثل بالله، بإظهار الرحمة والغفران لإخوتنا وأخواتنا الذين يزّلون ويسيثون إلينا، فتلك الزّلات والإساءات، إنّما هي دّين صغير لنا عليهم (مديون المئة دينار) الذي لم يتركه السّدائن الأول للمديون الثاني، بالرغم من أن الملك ترك له دّين العشرة آلاف وزنة. لقد قال الملك للمديون الأول الذي ترك له دّينه الكبير، "أما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟" (متى ١٨ : ٣٣). وبسبب الموقف السلبي لذلك العبد من رفيقه، عاد الملك عن قراره السابق بتركه له دّينه الكبير، بالطلب من المعذبين أن يسجنوه حتى يسدّد كل ما كان له عليه. وينهي البشير متى المثل بتحذير يوجّه المسيح إلينا جميعاً، فيقول: "فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته" (متى ١٨ : ٣٥).

أما الرسول بولس، فإنه في رسالته إلى أهل رومية، استخدم تعبير الدّين ليشير إلى ثلاثة معانٍ مختلفة، هي: الكرازة بالإنجيل، العيش بحسب الروح، والمحبة. ففي الأصحاح الأول يقول: "إني مديون لليونانيين والبرابرة، للجهلاء والحكماء" (رومية ١ : ١٤). لقد شعر بولس بأن عليه دّيناً، هو الكرازة بالإنجيل للجميع، لليونانيين والبرابرة، للجهلاء والحكماء، لأن الإنجيل هو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن. وقد اختبر بولس قوة الإنجيل شخصياً في حياته لأنّ المسيح المُعلن في الإنجيل غيرَه من مضطهدٍ لكنيسة المسيح، إلى رسول المسيح إلى الأمم. لهذا فإيفاء دّين الكرازة هو ضرورة قصوى بالنسبة لبولس. هذا ما أكدّه: "لأنه إن كنت أبشر، فليس لي فخر، إذ الضرورة موضوعة عليّ، فويل لي إن كنت لا أبشر" (١كورنثوس ٩ : ١٦).

وفي الأصحاح الثامن أكد لأعضاء الكنيسة أن العيش بحسب الروح، هو أيضاً دّين المسيح عليهم وعلينا. فقال: "فإذا أيها الأخوة نحن مديونون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد، لأنه إن عثتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون" (رومية ٨ : ١٢). ويوضّح ماذا يعني العيش بحسب الروح، بدعوة مؤمني كنيسة غلاطية إلى الامتلاء بالروح القدس، الذي يترجم بنوعية حياة مميّزة. فيصف هذه الحياة المميّزة، بأنّها حياة "محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف" (غلاطية ٥ : ٢٢)، والتي هي حياة ثمار الروح، وهو دّين يجب أن يفیه كل مؤمن للمسيح.

أمّا في الأصحاح الثالث عشر فبعد أن ذكّر أعضاء الكنيسة بضرورة الوفاء بالتزاماتهم للدولة ولكل شخص لديهم التزام نحوه، بدفع دّينهم وجزيّتهم وضريبتهم قائلاً لهم: "فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية. الجباية لمن له الجباية، الخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام" (رومية ١٣ : ٧)، فإنه يعود ويؤكد لهم أنه يبقى عليهم دّين واحد يجب أن يُسدّده، وهذا الدّين هو دّين المحبة. فمَن اختبر عظمة محبة الله عليه دّين تجاه الله والآخرين هو دّين المحبة، لهذا هو مدعو لأن يعيش حياة

المحبة نحو الجميع "لا تكونوا مديونين لأحد بشيء إلا بأن يحب بعضكم بعضاً، لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس" (رومية ١٣ : ٨). فيا لعظمة هذا الدّين الذي سدّده لنا الرب يسوع المسيح بموته على الصليب، ويطلب منّا أن نُسدّد الجزء القليل منه بمحبتنا للآخرين تجاوباً مع عظمة محبته.

وفي الختام، بالرغم ممّا يحمل تعبير "الدّين" من دلالات غير محبّبة في المفهوم الإنساني والاجتماعي، نحن مدعوون للتفكير في تعبير "الدّين" بمفهوم جديد، هو الذي استخدمه الرب يسوع المسيح والرسول بولس، وذلك بالعيش والتصرّف بمسؤولية تجاه الله والإنسان، لا سيما أهل الايمان، والوفاء بالتزاماتنا للمسيح والآخرين، وكأنّ علينا دِيناً يجب أن نوفيه لهم. لهذا، لنتذكّر دائماً أن الله دِين علينا يجب أن نُسدّده: دِين الرحمة، وهو دعوة الله لنا لنُظهر الرحمة للآخرين، لأنّ الله غمرنا برحمته الواسعة بابنه يسوع المسيح. دِين الكرازة بالإنجيل، وهو دعوة الله لنا لإيصال كلمة الإنجيل للعالم، لأنّ الإنجيل هو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن بالمسيح. ودِين العيش بحسب الروح، وهو دعوة الله لنا لنعيش الحياة المسيحية الحقّة، بإظهار ثمر الروح القدس في حياتنا. ودِين المحبة، وهو دعوة الله لنا لنحب الآخرين، لأنّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. آمين.

نظرة الإنسان المسيحي إلى سِرّ الألم

من أكثر المشاكل التي يصعب فهمها وقبولها، مشكلة الألم. فالألم يتجسّد كل يوم بأشكال متعدّدة وأسماء متنوّعة، لكن بالرغم من تساؤلاتنا ومحاولاتنا لمعرفة سبب الألم، إلّا أن الأمر يبقى سرّاً من أسرار الحياة ولُغزاً يصعب فهمه. فالألم الذي يصيبنا يأتي من أمور كثيرة. ففي (لوقا

٨: ٢١-١٩) أحداثاً متنوعة تسبب الألم، منها: الحروب والقتال والزلازل والمجاعات والأوبئة ورفض الأهل والأصدقاء لنا، والاضطهاد من أجل اسم المسيح. إلا أن تفسير مشكلة الألم تشكّل التحدي الأكبر والصعوبة الأبلغ لمهمة الإيمان المسيحي. عندما يفتك بنا الألم فإننا مباشرة نوجّه إصبع الاتهام إلى الله. ظانين أنه تخلى عنا وتركنا، فنعاتبه كما عاتبه المرئم : "إلى متى يا رب تنساني كل النسيان؟ إلى متى تحجب وجهك عني؟ إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم" (مزمور ١٣ : ١-٢).

فكيف نفسّر للمسيحي آلامه وهو يؤمن بإله كلي السيادة كلي القدرة وكلي الخي؟ إن صرخة المسيحي المتألم هي 'إن كنت أؤمن بإله يسود بروحه عليّ، إله قادر على كل شيء، إله يريد كل الخير لي، فلماذا أتألم؟ فأين وعد الله لي حين قال 'لا أهملك لا أتركك عيني عليك' (يشوع ١ : ٥)؟ وأين وعد المسيح الذي نطق به للمؤمنين به في اللحظات الأخيرة من وجوده معهم حين قال: 'ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر' (متى ٢٨ : ٢٠)؟ فعلى الرغم من إيماننا المسيحي وثقتنا بأن الله يتدخل في بعض الأوقات ليخلص أولاده من آلامهم، لكن كيف نجيب عن هذه الأسئلة الصعبة التي نسألها في كل مرة نتواجه مع الألم بأشكاله المتنوعة؟ وكيف يجيب الكتاب المقدس على أسئلتنا الشائكة تلك؟

الألم في العهد القديم:

إذا درسنا العهد القديم، فإننا نلاحظ أن الفكر السائد في ذهن العبرانيين هو إرجاع سبب الألم إلى الخطية، إما خطية الإنسان نفسه، أو خطية آبائه وحتى أجداده. فالوصية الثانية من الوصايا العشر تقول: 'لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما ممّا في السماء من فوق وما على الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ، لأنّي أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي' (خروج ٢٠ : ٤-٥). وإرجاع سبب الألم إلى الخطية لم يكن سائداً فقط في ذهن العبري، ولكن أيضاً في ذهن شعوب المنطقة المحيطة بالشعب العبري، منطقة شعوب الشرق الأدنى. فمفهوم الألم كقصاص من الله على خطايا الإنسان أو أهله أو أجداده نراه واضحاً في قصة إرسال الله للطوفان، وقصة إحراق الله لمدينتي سدوم وعمورة، وغيرها من القصص الأخرى.

أما السبب الآخر للألم، والذي يذكره العهد القديم، فهو تجربة الإنسان المؤمن واختبار مدى ثبات إيمانه وتضججه في علاقته الروحية مع الله. وفي هذا الإطار نفهم الآلام الكبرى التي تعرّض لها أيوب. إن أصدقاءه الثلاثة "أليفاز التيماني، وبلدد الشوحي، وصوفر النعماتي"، أتوا إليه ليخبروه أن الله يقاصصه على خطاياهم مرجعين سبب آلامه إلى خطايا اقترفها ضد الله. إلا أن الله شهد على بزه وإيمانه واستقامته بقوله عنه: 'ليس مثله في كل الأرض، رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر ويتمسك بكماله' (أيوب ٣: ٢). وبالتالي، فالآلام أيوب ليست قصاصاً على خطاياهم، ولكن تجربة لامتحان إيمانه ونموه ونضججه الروحي. وفي نهاية اختبار

أيوب المؤلم، نرى أن الله باركه ثانية، وكافأه على صبره بطرق متنوعة.

الألم في العهد الجديد:

إنَّ هذا الفكر المُميز الذي ظهر في اختبار أيوب، والذي جاء مخالفاً للفكر السائد بين شعوب المنطقة على أنَّ سبب الألم هو الخطية، قد أُكِّد عليه الرب يسوع المسيح في العهد الجديد، إذ يخبرنا (يوحنا ص ٩)، أنه بينما كان الرب يسوع مجتازاً برفقة تلاميذه، شاهدوا أعمى منذ ولادته، ففكر التلاميذ ما عسى أن يكون خطأه حتى وُلِدَ أعمى، فسألوا المسيح مستندين إلى الفكر السائد بين الشعب (أنَّ سبب الألم هو القصاص على الخطية) **'يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟'** (يوحنا ٩: ٢) فأجاب المسيح رافضاً ذلك الفكر السائد وقال: **'لا هذا أخطأ ولا أبواه'**. وبالتالي فلم يخبرنا عن سبب ألم ذلك الأعمى، ولم يفسر هذا السر لأحد، وسوف يبقى لغزاً علينا طول الحياة. إلا أن المسيح لم يقف مكتوف اليدين أمام ألم الأعمى، بل مدَّ يده وساعده، فتفل على الأرض وصنع من التُّفل طيناً، وطفى بالطين عيني الأعمى، وقال له إذهب اغتسل في بركة سلوام. فمضى واغتسل، وأتى بصيراً. وهكذا ظهرت أعمال الله فيه. إلا أنَّ المسيح لم يكتف بإعادة البصر للأعمى، لكنه في النهاية منحه البصيرة الروحية، أي عطية الإيمان سائلاً إياه: **"أتؤمن بابن الله؟ فأجاب من هو لأؤمن به؟ قال له يسوع قد رأيتُه والذي يتكلم معك هو هو، فأجاب الأعمى أؤمن يا سيد وسجد له"** (يوحنا ٩: ٣٥-٣٨). أيضاً يخبرنا إنجيل لوقا الأصحاح الثالث عشر، إنه بينما كان الرب يسوع المسيح يجول كارزاً بملكوت الله، أتى إليه قومٌ يريدون النَّشفي والنَّشَماتة ببعض الجليليين والأورشليميين الذين قُتلوا لسببَيْن: الأول بشري، سببه جريمة الحاكم الروماني بيلاطس الذي أمر بقتل بعض الجليليين وهم يصلُّون في الهيكل لأنهم امتنعوا عن دفع الجزية، فاقترب بحقهم أفضح الجرائم إذ قتلهم ومزج دماءهم بدماء ذبائحهم. والثاني طبيعي، سببه كارثة طبيعية، ألا وهي سقوط برج سلوام على ثمانية عشرة شخصاً. وقد كان الفكر السائد آنذاك وحتى اليوم لدى البعض أن كثرة المصائب توزَّع على الناس بنسبة شرورهم، فكلُّما أخطأوا أكثر، كلما كان عقابهم أكبر. وبالتالي، فقد أراد أولئك القوم أن يقولوا للمسيح بأن الذين قُتلوا وماتوا، قد استحقَّوا موتهم لأنَّ الله قاصصهم على كثرة خطاياهم. لكن الرب يسوع المسيح أجاب أولئك القوم قائلاً **"أتظنون أن أولئك الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا؟ أتظنون أن أولئك الثمانية عشرة الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم؟"**. ثم أضاف: **"أقول لكم، بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون"** (لوقا ١٣: ٣، ٢). وبالتالي، فإنه بأسئلته هذه أظهر خطأ تفكيرهم، فأولئك الذين ماتوا لم يكونوا مذنبين وخطاة أكثر منهم، وموتهم لم يكن قصاص ودينونة الله على كثرة خطاياهم. فجميعهم خطاة وجميعنا أيضاً خطاة. لقد ترك الله الدينونة لليوم الأخير وليس للزمن الحاضر من خلال المصائب والأمراض والكوارث، كما بيَّن في مثل الحنطة والزَّوان (متى ١٣: ٢٤ - ٣٠). فالرب يسوع المسيح لم يفسِّر لأولئك

القوم سبب الألم والموت والكوارث والأمراض الكثيرة. فلم يتوقف عند الطريقة التي يموت بها الإنسان، بل توقف عند الطريقة التي يعيش فيها الإنسان، داعياً إياهم وإيانا إلى الاستفادة من فرصة التوبة في الوقت الحاضر وعدم تأجيلها قبل أن تأتي المصائب والأمراض التي نحن معرّضون لها في أي وقت. فلا أحد مُستثنى من الآلام. وحتى المؤمنون بالمسيح غير مستثنى من الآلام والأمراض والمصائب. هذا ما أكد عليه الرسول بطرس في رسالته الأولى قائلاً "عالمين أن نفس هذه الآلام تجري على إخوانكم الذين في العالم" (بطرس ٥ : ٩).

الألم في فكر القديس أوغسطينوس:

إن مشكلة الألم تطرّق إليها الكثيرون من آباء الكنيسة واللاهوتيين عبر التاريخ، أبرزهم القديس أوغسطينوس الذي عاش في القرن الرابع الميلادي. ففي كتاباته حول "أصل وطبيعة وحلول مشكلة الألم والشّر في العالم"، ذكر أن خليقة الله جيدة في الجوهر لأن الله عندما خلق الكون (كما تقول قصة الخليقة في سفر التكوين)، فقد رأى ذلك أنه حسن، إنّما بسبب الخطية المتمثلة في سقوط آدم وحواء، حدث تشوّه في الإرادة والحرية البشرية، ممّا أدى إلى سوء علاقة الإنسان مع الله ومع نفسه، ومع الآخر، في المجتمع، وأيضاً مع الطبيعة. ونتيجة لهذا التشوّه الإرادي وتدهور العلاقة على كافة الأصعدة، ظهر ويظهر الشّر بشكل متعاطم في العالم، يتجسد جزء منه في الحروب والقتال والمجاعات والآلام الأخرى التي يسببها الإنسان بسبب تشوّه وفساد إرادته. وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم تحميل الرسول يعقوب للناس الأشرار مسؤولية الحروب والشقاكات وآلامها. ففي الأصحاح الرابع، يخاطب المسببين للحروب والشّرور قائلاً لهم: "من أين الحروب والخصومات بينكم، أليست من هنا من لذاتكم المحاربة في أعضائكم؟ تشتّهون ولستم تمتلكون، تقتلون وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا، تخاصمون وتحاربون ولستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون. تطلبون ولستم تأخذون، لأنكم تطلبون ردياً، لكي تنفقوا في لذاتكم" (يعقوب ٤ : ١-٣).

وعلى المبدأ نفسه، تشوّه وفساد الإرادة والحرية الإنسانية، نستطيع أن نفهم سوء علاقة الإنسان مع الطبيعة، بل سوء استخدام الإنسان للطبيعة والموارد الطبيعية، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الكثير من الأمراض والأوبئة. لهذا تتعالى الأصوات اللاهوتية المسيحية اليوم التي تدعو إلى ضرورة حُسن معاملة الطبيعة خليقة الله، والحفاظ عليها لأنه بالحفاظ عليها نحافظ على حياتنا وعلى عالمنا الذي نعيش فيه. لقد فسّر القديس أوغسطينوس الأمراض على أنها تشوّه وظيفي، بل ظهور أعطال في النظام الوظيفي في الجسم الإنساني. ومن المبدأ نفسه نستطيع أن نفهم أسباب الزلازل والبراكين على أنها أيضاً تشوّه وظيفي وضعف جيولوجي يصيب بعض المناطق الجغرافية في العالم. لقد صور أحد فلاسفة القرن الثامن عشر "لابينيز" الله خالق الكون على أنه مهندس بنى قصراً جميلاً، وفسّر معضلة الكوارث الطبيعية التي تظهر من وقت لآخر بقوله: "عندما نتمتع بروعة

هذا القصر الجميل الذي هو الكون، يجب علينا ألا نتوقف عند قباحة بعض التفاصيل، بل يجب علينا أن ننظر إلى روعة البناء بجملته".

كيفية التجاوب مع الألم:

بالرغم من محاولة القديس أوغستينوس تقديم تفسير جزئي لسبب الألم في العالم، والذي لا يعتبره قصاص الله على خطايا البشر، إلا أنه بالتأكيد لم يستطع ثبر غور هذا اللغز الذي يبقى في سلطان الله. فكلما نصاب بالألم ولشدة الوضع النفسي والجسدي والروحي الذي يفرضه علينا الألم نعود لنطرح الأسئلة الصعبة نفسها. لماذا نتألم؟ فإذا كانت مهمة الإيمان المسيحي تقديم أجوبة لأسئلتنا وإيجاد معنى لأحداث حياتنا، فما هو معنى آلامنا؟ ممّا لا شك فيه أن الإنسان يحصل على قدرة كبيرة لتحمل آلامه وتجاوزها عندما يؤمن بأن هناك هدفاً ما، ومعنى ما وراء آلامه، فالمشكلة الأكبر في الألم، ليست في الألم بحد ذاته فقط، ولكن في عدم إيجاد معنى للألم. وهذه هي المشكلة الأخطر التي تقود الناس إلى اليأس. لقد صرّحت أمٌ فقدت ابنها قائلة: "إذا استطعت أن أؤمن بأن الله أخذ ابني لسبب ما ولمعنى ما، فإنني أستطيع أن أتغلب على ألمي". لقد تمنى الشاعر والفيلسوف "عمر الخيام"، الذي بعد تفكيره وبحثه في أسرار الحياة في القرن الحادي عشر، أمنية لن تتحقق إلا في ملكوت الله، فقال: "إن رغبة قلوبنا لو نستطيع أن نعيد صنع الكون بدون ألم".

إن الألم حقيقة نواجهها كل يوم، لهذا فالسؤال الأساس الذي يجب أن نجيب عنه هو، كيف نتجاوب مع الألم عندما يعترضنا؟ لقد دعا أتباع الفلسفة الرواقية اليونانية القديمة إلى قبول الألم وتحمله بشجاعة لأن الإنسان يولد في عالم يحتوي الألم، وهو جزء من هذا العالم فليخضع لهذا الواقع ويتحمله بهدوء. لكن ما هي نظرة المسيحي إلى الألم؟ وكيف نتجاوب مع الألم عندما يحل بنا؟

الألم والانتصار من الداخل

إن الجواب الكتابي واللاهوتي للآلام الإنسانية ليس انتصاراً ظاهرياً وخارجياً لمشكلة الألم، لأن هذا الانتصار لن يتحقق إلا في السماء حيث 'اسيمسح الله كل دموعهم والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت' (رؤيا يوحنا ٤: ٢١). فالانتصار على مشكلة الألم هو انتصارٌ روحي داخلي The conquest from Within. فالمسيح الرب قادر أن يحول ألمنا في داخلنا (في قلوبنا وفي نفوسنا) إلى رجاء. هذا الانتصار الروحي يتحقق، ليس بقدرة وإنجازات الإنسان، ولكن بحضور الله في الحياة، فحضور الله في ابنه يسوع المسيح، يمنح الإنسان قدرة جديدة، ونظرة جديدة تجعله يتحمل آلامه فتتحول في داخله إلى رجاء.

لقد اختبر هذا الانتصار من الداخل صاحب المزمور الثالث

والسبعين، الذي عانى الكثير من الألم بسبب مرضه وفقره. فمع أنه عاش حياة إيمان وطاعة لوصايا الله، إلا أن هذا لم يخل دون مرضه وفقره، إلا أن الأمر الذي ألمه أكثر وأدخله في أزمة روحية، هو رؤيته الأشرار وهم يتمتعون بالصحة والبدانة، بينما هو الإنسان الصالح يعاني المرض والألم والفقر. هذا الواقع أدخله في صراع روحي كبير كاد يفقده إيمانه. فابتدأ يشك في محبة الله وعدالته. وقد حاول أن يجد تفسيراً لهذا الواقع فلم يجد، إلى أن حصل لاحقاً على اختبار الانتصار الروحي من الداخل، وذلك عندما دخل مقادس الله، كما تقول الآية **'حتى دخلت مقادس الله وانتبهت إلى آخرتهم'** (مزمور ٧٣: ١٧). وهكذا ففي مقادس الله، وعند اختباره حضور الله الفاعل في حياته، منحه الله نظرة جديدة إلى نفسه وإلى الآخرين، ومنحه قدرة جديدة على قبول آلامه وتحملها. وهكذا حول حضور الله آلامه من الداخل إلى رجاء ظاهر على وجهه وحياته. وبالرغم من أن نظرتة الجديدة لم تخلّ ظاهرياً مشكلة تألمه وهو المؤمن، وصحة وسلامة الأشرار غير المؤمنين، إلا أن أزمته الروحية الداخلية قد حلت بهذا الانتصار الروحي الداخلي، فصار مستعداً لقبول آلامه، لثقته في أن الله يقف بجانبه في وقت آلامه وأزماته، فهتف المرئم وسط آلامه، متعزياً وبحضور الرب الذي منحه الرجاء فقال: **'من لي في السماء، ومعك لا أريد شيئاً في الأرض. فقد فني لحمي وقلبي، صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الدهر'** (مزمور ٧٣: ٢٥-٢٨).

الألم والإله المتألم:

يخبرنا الكتاب المقدس أن الألم ليس بغريب عن الفكر المسيحي والإيمان المسيحي، لأنه لم يكن غريباً عن فكر وحياة رئيس إيماننا ومكمله ربنا يسوع المسيح. فنحن نؤمن بإله عانى الألم وتألم عنا. لقد صور إشعياء النبي المسيح الرب بأنه الخادم المتألم من أجل الإنسان، فيقول: **'محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمسّتر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به، لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفيانا'** (٥٣: ٣ - ٥). في كتابه 'الله المصلوب' (Crucified God) قال اللاهوتي "مولتمان": "لقد تألم الله بسبب محبته العظيمة للإنسانية. فالآلام المسيح على الصليب هي بالحق آلام الله في وسطنا، فالله يجيب عن مشكلة آلامنا من خلال آلامه هو". إن صليب المسيح يوجّه أنظارنا من التأمل بوجعنا في وجه الآلام، إلى التأمل بإلهنا الذي تألم ليقف معنا ويسندنا وقت آلامنا، ويحوّل ألمنا إلى رجاء.

إن الرؤية المسيحية للعالم المتألم هي تقديم حقيقية النعمة والقوة وسط الألم، وحقيقة الأمل والرجاء في وسط اليأس. لقد قال المسيح لتلاميذه ولنا، **'في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم'** (يوحنا ١٦: ٣٣). انطلاقاً من فكر المسيح هذا، وانطلاقاً من فكر الإنجيل، كل مسيحي مدعو لتقبل الألم وتحمله ليس على أساس الفلسفة الرواقية اليونانية التي تدعو الإنسان إلى تقبل الألم دون أن تقدم له

أي رجاء . فالإيمان المسيحي يدعو المؤمنين إلى تقبل آلامهم وتحملها، لأن إلهنا الرب يسوع المسيح سلك هذا الطريق قبلنا وقد تقبل الألم وتحمله لكي يقف معنا ووسط آلامنا، ويقدم لنا رجاء أتمه بموته على الصليب وقيامته من بين الأموات. قال اللاهوتي مولتمان، "إن قيامة المسيح هي احتجاج الله بل جواب الله على مشكلة الألم والموت".

الألم والرجاء :

إن موضوع الرجاء هو موضوع أساسي في الكتاب المقدس. ففي كل مرة كان يصاب الشعب باليأس والقنوط بسبب ضيقة ما، كان الله يخاطبهم بكلمات الرجاء. وأهمية موضوع الرجاء ينبع من كونه جزءاً لا يتجزأ من الإيمان. فلا يمكن فصل الرجاء عن الإيمان. هذا ما شدد عليه كاتب رسالة العبرانيين عندما عرّف الإيمان قائلاً: "أما الإيمان فهو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى" (عبرانيين ١١ : ١). فما أرجوه أثق بالإيمان أنه سيتحقق. لهذا لا يمكن فصل الرجاء عن الإيمان. فالرجاء يبرز في حياتنا عندما نحيا حياة الإيمان. ويبرز أكثر فأكثر عندما نمر في أوقات صعبة من الضيق والألم.

وبالرغم من أن الألم يبقى لغزاً يصعب تفسيه، وبالرغم من محاولتنا الإنسانية، لكن الأخبار السارة أن قصة الإنجيل لا تنتهي عند آلام الصليب والموت، لكنها تنتهي مع رجاء القيامة، لأن ربنا يسوع المسيح لم يبق في القبر لكنه قام. فالكلمة الأخيرة في الأنجيل هي ليست للألم واليأس، ولكن للرجاء والقيامة. فقوة رجاء القيامة، هي قوة الله لتغييرنا وانتصارنا الروحي من الداخل في وسط آلامنا. آمين.

(٨) عيش قيم الإنجيل بالمحافظة على البيئة

التوبة البيئية

دعوة إنجيلية للعناية بالبيئة

من أخطر الأزمات التي تواجه العالم اليوم، الأزمة البيئية. فنتائج هذه الأزمة تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية والاقتصادية لأي بلد من البلدان، لتضع كل العالم في دائرة الخطر. فمنذ الثورة الصناعية التي أدت إلى ازدهار الكثير من الصناعات في القرن الثامن عشر، تم اكتشاف واستخراج واستخدام مصادر الوقود الحفري المُخترن في باطن الأرض وتحت مياه البحار، وهي الفحم والبتروال والغاز الطبيعي والغازات الدفينة. فإن استخدام الإنسان لهذه الوقود وحرقها أدى إلى زيادة انبعاثات عدد من الغازات في الهواء، أولها غاز ثاني أوكسيد الكربون وغاز الميثان وغيرها. فهذه الغازات حابسة للحرارة وتسبب ارتفاع درجات الحرارة في حيز طبقات الهواء الجوي القريبة من سطح الأرض، ممّا أثر على توازنات الطاقة في العالم وأدى إلى تغيير مثبت في المناخ من فيضان إلى تصحّر إلى تلوث، كما أدى إلى ازدياد حدة الاختلافات بين الفصول وما يتبع ذلك من تغييرات في المواسم الزراعية وتأثيره على الزراعة والمراعي والغابات وغيرها. بالإضافة إلى تقلص الغطاء الجليدي في القارئين القطبيين الشمالية والجنوبية وخطر ذوبان الثلوج فيها، ممّا يؤدي إلى ارتفاع

مستوى مياه البحر وغيرها من النتائج الجدية التي تشكّل تهديدًا لحياة الإنسان.

بالإضافة إلى ذلك، فإن إساءة تعامل الإنسان مع الطبيعة والغابات قد زاد من حدة الأزمة البيئية. وتُظهر دراسة إحصائية قامت بها مجموعة مؤلفة من ألفي عالم فيزيائي أن طريقة تعامل الإنسان مع الغابات قد ساهم في تفاقم الأزمة، إذ أنه خلال الخمسين عاماً الماضية دمر الإنسان أكثر من ٥٠٪ من غابات العالم، ممّا أدى إلى ازدياد الغازات الضارة في الهواء إلى ٢٠٪ وأثر على خصوبة التربة.

ولخطورة الموضوع، فإن الأزمة البيئية تحتلّ اليوم الصدارة في المناقشات والمداولات في كل دول العالم. أمام هذه الأزمة البيئية المستفحلة نطرح السؤال التالي: ما هو موقف اللاهوت المسيحي واللاهوت الإنجيلي من هذه الأزمة التي تواجه عالم اليوم؟ فإذا كانت إحدى مهام اللاهوت مخاطبة الواقع الذي يعيش فيه الإنسان المؤمن، في كل ما في الواقع من أزمات وصعوبات، لتقديم تصور ما وتوجّه ما لكيفية معالجته، فما هي التوجّهات التي يرسمها اللاهوت المسيحي والإنجيلي لمواجهة تلك الأزمة؟ هذه الأسئلة وغيرها تطرح نفسها اليوم على جميع اللاهوتيين والفقهاء وكل المسؤولين الروحيين في كل الأديان، كما تطرح نفسها على كل المثقفين الذين يؤمنون بأنهم يستطيعون أن يساهموا ولو مساهمة بسيطة في أمر بيئي ما للتخفيف من وطأة الأزمة.

يتحدث اللاهوت المسيحي الكلاسيكي عن طريقتين أعلن فيهما الله عن نفسه؛ الأولى: بواسطة لاهوت الوحي، والثانية: بواسطة اللاهوت الطبيعي. فلاهوت الوحي يتحدث عن معرفة الإنسان المؤمن بالله من خلال كلام الوحي في الكتاب المقدس، ومُفاده أن الله أعلن عن نفسه بشكل كامل في ابنه يسوع المسيح المخلص للإنسان المؤمن. فبينما لاهوت الوحي يشدّد على إعلان الله الكامل في ابنه يسوع المسيح، فإن اللاهوت الطبيعي يتحدث عن إعلان الله الجزئي عن نفسه للإنسان، بواسطة الطبيعة وكل الخليقة من جبال وغابات وأنهار وغيرها.

فاللاهوت الإنجيلي الكلاسيكي المستمد من فكر المصلحين الإنجيليين الذين انطلقوا من حركة الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، هو لاهوت يشدّد على وحي كلمة الله، وبالتالي يشدّد على مواضع النعمة والخلص والتوبة والتبرير بالإيمان وعلاقة الله مع الإنسان، لكنّه لا يشدّد على إعلان الله الجزئي في الطبيعة. أضف إلى ذلك، أنه لم يكن يواجه العالم أزمة بيئية شبيهة بأزمته اليوم. وبالتالي فالموضوع البيئي لم يكن مطروحًا أمام المصلحين الإنجيليين آنذاك كما هو مطروح في عالمنا اليوم. من اللاهوتيين والوعاظ الإنجيليين المشهورين الذين لا يزالون على قيد الحياة اليوم القس الدكتور "جان ستوت" الذي صرف جزءًا من حياته في متابعة ومراقبة أجناس الطيور. فقد علّق قائلاً: "إن موضوع خليقة الله هو موضوع مُهمل إنجيليًا،

والعناية بخليقة الله هي أيضاً مسؤولية إنجيلية مُهمّة"، لهذا فهو يشجع الإنجيليين على الانخراط في هذه المسؤولية.

لكن في حين أن بعض الإنجيليين يحصرون جُلّ اهتمامهم في موضوع لاهوت الوحي، فإننا نرى في النصف الثاني من القرن العشرين اهتمام إنجيلي كبير لدى بعض اللاهوتيين الإنجيليين في موضوع العناية بخليقة الله وبالطبيعة والبيئة، فأطلق عليهم "لاهوتيو البيئة"، وصاروا ينادون، ليس فقط بضرورة الاهتمام باللاهوت الطبيعي أي إعلان الله الجزئي في الطبيعة، ولكن عن الحاجة إلى لاهوت جديد للطبيعة، يدفع المؤمنون إلى إعادة قراءة قصة الخلق وعناية الله بخليقته في الكتاب المقدس بطريقة جديدة على ضوء الأزمة البيئية المُستفحلة، حتى يوجّه المؤمنون إلى طريقة معالجة الأزمة من منطلق روحي وكتابي. وقد عبّر عن هذا التوجه الجديد الكاتب الإنجيلي "هارولد أوليفر"، الذي كتب في العام ١٩٩٢ في مجلة "الأكاديمية الأميركية للدين" مقالة بعنوان: "The neglect and recovery of nature in 20th century protestant thought". "إهمال واستعادة الاهتمام بالطبيعة في الفكر البروتستنتي في القرن العشرين".

فلاهوتيو البيئة الإنجيليون عادوا إلى الكتاب المقدس ليعلنوا ويؤكدوا أن الله الخالق خَلَق كل الكون على أسس ثابتة ومترابطة ومتكاملة ومتوازنة بعضها مع بعض. لهذا فإن خليقة الله المتنوعة، من إنسان ونبات وأشجار وأنهار وحيوانات وغيرها هي بحاجة لبعضها لتحافظ على الترابط والتوازن والانسجام والتكامل فيما بينها. ففي (أمثال ٨: ٢٧-٢٩) نرى بعض الأسس التي وضعها الله في خلقه الكون فيقول إن الله "رسم أسس الأرض، رسم دائرة على وجه الغمر. أثبت السحب من فوق ووضع للبحر حدّه فلا تتعدى المياه تخمه". ويعزو بعض لاهوتيو البيئة السبب الأساس للأزمة البيئية إلى الخطيئة؛ خطيئة الإنسان الذي تمرّد على الله وابتعد عنه ورفض الإصغاء لصوته وتصرف بجشع وطمع وأنانية وبدون احترام ومسؤولية، وليس فقط مع أخيه الإنسان ولكن مع الطبيعة "خليقة الله". وبالتالي فالأزمة البيئية هي بالدرجة الأولى أزمة روحية. تخبرنا قصة الخلق في الكتاب المقدس أنه عندما خلق الله آدم، فقد سلّطه على أعمال يديه، ومنحه الامتياز والسلطة لكي يسمي الحيوانات بأسماءها وأوكله على كل خليقته ليستخدم سلطته بمسؤولية وأمانة، لكن ويا للأسف، فقد خان الإنسان هذه الأمانة بسبب خطيئته وجشعه ومصالحه الخاصة، فاستغل السلطة التي منحه إياها الله، وبدلاً من أن يُعنى بخليقة الله، دمّر جزءاً كبيراً منها، وهكذا أفقدها توازنها وانسجامها وترابطها وتكاملها، ممّا أدى إلى الأزمة البيئية واستغلال السلطة في كل الميادين الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والوطنية نتيجة الأزمات المتعددة.

صرّح الأسقف الإنجيلي الأسقفي "جيمس بروان" قائلاً: "بعد إعادة قراءة الكتاب المقدس على ضوء هذه الأزمة البيئية، فأني أقول: نحن بحاجة للعودة البيئية "Ecological Conversion"، نحن بحاجة للتوبة بكل ما

تحمل كلمة "التوبة" من معنى روحي، في الرجوع إلى الله، في إعادة توجيهه الله لكامل حياة الإنسان المؤمن في الفكر والقول والعمل. فالتوبة البيئية تتضمن خطوتين، الأولى: الاعتراف بالخطية، الاعتراف بفشل الإنسان في العناية بخلقة الله والإقرار بذنب الإساءة والتدمير التي سببها، والنَّدَم على ما فعله. والثانية: التعهُّد أمام الله بعدم تكرار كل أنواع الخطايا وخاصة البيئية منها، التعهد والالتزام بالمسيح وعيش الإيمان بالحفاظ على علاقة روحية تصالحية ليس فقط مع الله، ولكن مع أخيه الإنسان، وأيضاً مع كل خليفة الله الأخرى، بالعناية بها والمحافظة عليها والعمل بكل الوسائل الممكنة على شفائها من جراحاتها.

لقد بدأت ملامح هذه التوبة الإنجيلية البيئية تترجم من خلال إقامة روابط وجمعيات إنجيلية في العالم منها "الشبكة الإنجيلية للبيئة"، و"المبادرة الإنجيلية للمناخ". ومن النتائج الرئيسية لتلك الجمعيات الإنجيلية، لقاء هام انعقد عام ١٩٩٤ حيث اجتمع حوالي خمسمائة قائد إنجيلي تداولوا في المسؤولية المسيحية في الاهتمام بالعالم الذي خلقه الله، ونتيجة لهذا الاجتماع صدرت وثيقة تسمى: "الإعلان الإنجيلي حول العناية بالخلقة". حيث وقَّعها القادة الإنجيليون الحاضرون وهي تؤكد على أن فهمهم للكتاب المقدس ولإيمان بالمسيح يدفعهم للتعهد بالعناية بالبيئة. كما انعقد في العام ٢٠٠٥ لقاء إنجيلي آخر حول البيئة، صدر عنه وثيقة وتعهد آخر سُمي بـ The Sandy Care Covenant، من توصيات ذلك اللقاء: ضرورة تعميق الاهتمام بخلقة الله، تعميق المعرفة البيئية من خلال الاطلاع على نتائج وابحاث علم البيئة.

كما صدر عن الاجتماع دعوة لكل الكنائس والأديان والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية وكل أفراد المجتمع للانضمام إليهم وتضافر كافة الجهود للعناية بالبيئة خليفة الله بكل الوسائل الممكنة، وإلى الالتزام بالآداب البيئية، واتخاذ موقف أخلاقي وديني وأدبي من استغلال البيئة.

مما لا شك فيه أن مواجهة هذه الأزمة البيئية المستفحلة، تتطلب جهوداً دولية كبيرة، وقد قامت منظمة الأمم المتحدة بعقد خمسة عشر مؤتمراً دولياً للموضوع البيئي وتغيُّر المناخ، كان آخره مؤتمر "كوبنهاغن" الذي انعقد في الدانمارك في كانون الأول ٢٠٠٩ وحضره ممثلو ١٩٢ دولة وقد هدف إلى الوصول إلى اتفاقيات دولية واتخاذ إجراءات مشتركة لخفض كمية الانبعاثات الحرارية في الهواء وتغيير المنطق الفكري والصناعي والاقتصادي العالمي بما يخفف من وطأة الأزمة.

أيضاً ونتيجة لهذا الوعي الإنجيلي الروحي للحالة البيئية، قام قس إنجيلي أسقفي بتأسيس جمعية A Rocha في العام ١٩٨٠ على أسس مستمدة من فهمه للكتاب المقدس، ويعمل على مجلس الإدارة العالمي للجمعية القس الدكتور "جان ستوت". تهدف هذه الجمعية إلى إظهار محبة الله لكل الخليفة من خلال العناية بها، وهي تعمل في عشرين بلداً. وقد وصلت إلى لبنان في

العام ١٩٩٦ وتعمل في مستنقع عميق في منطقة اليقاع الذي أصبح محمية للطيور المهاجرة. ومجالات عملها ثلاثة: الحفاظ على البيئة، نشر التربية البيئية والقيام بالدراسات العلمية البيئية.

وفي الختام، علينا أن نتذكّر دائماً أنّ الله خلق هذا الكون والطبيعة الجميلة لنتمتّع بها ونحافظ عليها بمسؤولية عالية. فصلواتنا إلى الرب يسوع المسيح أن يمنحنا روحه القدوس لكي نجسّد توبتنا عملياً بالعناية بخليقة الله والحفاظ على بيئة سليمة خالية من التلوّث. آمين.

الجزء الثاني

عظات ومقالات
إنجيلية مُصلحة

(١) دعوة المُصلحين الإنجيليين إلى عيش الإنجيل
في العقيدة والإيمان والحياة

"مارتن لوثر"
مُطلق حركة الإصلاح الإنجيلي

بُدين الإنجيليون في إطلاق هويّتهم الإنجيلية إلى بطل الإصلاح الإنجيلي ومُطالعهِ المُصلح الدكتور "مارتن لوثر". الذي وُلِدَ في ألمانيا عام ١٤٨٣م من عائلة تقيّة، هما "هانس، ومرغريت لوثر". وقد عمّده أبواه في اليوم الثاني، حين كان عيد القديس مارتن، فسُمّيَ على اسمه. أراد "هانس" الأب أن يقدّم لابنه أفضل تعليم، فأرسله إلى المدرسة حيث تعلّم اللّغة اللاتينية. وعند بلوغه الثامنة عشرة، أرسله إلى جامعة "إيرفورد" التي

كان لديها أربعة فروع (لاهوت، طب، حقوق، وعلوم إنسانية). درس "لوثر" الحقوق بناءً على زغبة والده، وحصل على شهادة في المحاماة، كما درس الموسيقى وأظهر شغفاً كبيراً بها. وأثناء وجوده في الجامعة حصلت معه عدة اختبارات أليمة، جعلته يدخل في صراع روحي وفكري عميق، أطلق في أعماقه رحلة البحث عن معنى لحياته. من هذه الاختبارات: مرض ألمّ به، ووفاة أحد أصدقائه، إلا أن الاختبار الأشدّ وقعاً، هو سقوط صاعقة بقربه حين كان عائداً من الجامعة، فألقته طريحاً، وإذ بقي حياً بعد هذا الاختبار المزعج، قرّر أن يُسلم نفسه بكلّيتها لحياة الإيمان وخدمة الله، فدخل دير القديس أوغسطينوس في "إيرفورد" عام ١٥٠٥م، وسيمّ كاهناً عام ١٥٠٧م. وهكذا تعرّف على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، وعلى القليل الذي كان يُقرأ من الكتاب المقدّس في الكنائس آنذاك. وقد تعلّق "لوثر" بالكتاب المقدس الذي كان كتاباً نادراً آنذاك، فكان يذهب يومياً مرّات عدة إلى مكتبة الدير ليقرأ مقاطع عديدة منه باللغة اللاتينية. وقد عبّر عن تعلّقه بالكتاب المقدس بقوله: "يا لئيت الله يُعطيني كتاباً كهذا، ليكون مُلكاً لي". كان "لوثر" في بادئ الأمر مُلتزماً بكلّ قوانين الدير، فحافظ على كلّ المُمارسات والطقوس والقوانين الروتينية من صلوات وصوم واعترافات للكاهن. إلا أن كلّ تلك المُمارسات لم تمنحه الشّعور بالثقة والغفران وسلام الضمير، فانتابه القلق بشأن خلاصه وقبول الله له. والسؤال الأساس الذي جال في خاطره هو: كيف أتبرّر وأقبلُ أمامَ الله؟

درس "لوثر" اللاهوت، وصار أستاذ العهد الجديد، فكان يحاضر في جامعة "ويتنبرغ". وكلّما تعمّق بقراءة الكتاب المقدس أكثر، تعرّف بصورة أفضل على ضعفه وفساده وبُغده عن حياة القداسة والكمال. وذات يوم، أُرسِل من قبيل إدارة الدير في رحلة حجّ إلى روما مُمثلاً للدير. وعندما وصل روما ركّع بوقار واحترام شاكراً الله على تلك الرحلة، إلا أنه ما ليث أن خاب أمّله، عندما وجدها تختلف اختلافاً كلياً عمّا كان يتصوّره من تقوى وقداسة. وهكذا رجع إلى ألمانيا خائباً، وأكثر شكاً في قدرة فرائض الكنيسة على منحه الثقة والغفران والخلاص. لهذا قال: "إنّ رحلة الحجّ لدى المسيحيين يجب أن لا تكون إلى روما، ولكن إلى الكتاب المقدس، إلى الأنجيل والمزامير والأنبياء". إنّ قراءة "لوثر" المُتعمّقة للكتاب المقدس جعلته يجد الجواب لتساؤلاته وقلقه حول قبول وتبرير الله له، وحصوله منه على يقين غفران الله لخطايه. فالاختبار الروحي المُميّز الذي أوصله إلى تلك القناعة الكاملة، حدّث حين كان في بُرج الدير في "ويتنبرغ" يقرأ الكتاب المقدس، وبالتحديد قول الرسول بولس: **"أما البارّ فبالإيمان يحيا"** (رومية ١ : ١٧). فقول الرسول بولس هذا ألقى نوراً جديداً على فهمه لكلّ الكتاب المقدس. ويقول إنه بعد فهمه هذا القول شعر وكأنّه وُلد من جديد، وكأنّ الفردوس فتح أبوابه لاستقباله. لقد علّمت الكنيسة أن الإنسان يتبرّر بالتوبة والأعمال الحسنة، لكن قول الرسول بولس الفاصل **"أما البارّ بالإيمان يحيا"** قد جعل "لوثر" يقتنع بأنّه لا المُمارسات، ولا الطقوس، ولا رحلات الحجّ، ولا الاعترفات للكاهن، ولا الأعمال الحسنة، تجعل الإنسان يتبرّر أمام الله، لكن الذي يجعله مُبرراً هو الإيمان وحده. وبعدها آمن "لوثر" أن

الله يَقْبَلُ الخاطيء ويغفر له خطاياہ، لا لأعماله الحسنة، ولا لأبي استحقاق لَدَيْه، لكن لإيمانه بمحبة ورحمة ونعمة الله فقط. وأمَّا الأعمال الصَّالِحَة فلا بُدَّ مِنْهَا، لكنَّهَا تَتَّبَعُ الإيمان وتُبرهن على توبة الخاطيء الحقيقية، ولا يُمكن بَحْدَ ذاتها أَنْ تجلب الغفران والرحمة من الله. هذا الاختبار الروحي الذي انْطَلَقَ مِنْ فَهْمِ "لوثر" العميق للكتاب المقدس، قَلَبَ كُلَّ أفكاره ومفاهيمه عن الله الدِّيان وطريقة تعامله مع الإنسان الخاطيء. فصار الله بالنسبة للوثر الدِّيان البار. هذا الفَهْمُ العميق جعله يُطَلِّقُ مبادئ الإصلاح الإنجيلي الثلاثة:

الأول: Sola scriptura الكتاب المقدس هو السُّلْطَة العُلْيَا والدستور الوحيد للعقيدة والإيمان والحياة، في وقت كانت فيه السُّلْطَة العُلْيَا للكنيسة. الثاني: Sola Fide التُّبرير بالإيمان وحده، في وقت نادَتْ فيه الكنيسة بأنَّ التبرير يتم بالإيمان والأعمال معاً. الثالث: Sola Gratia النعمة وحدها، أي أنَّ هذا التُّبرير مَبْنِي على نعمة الله وحدها، وليس على أيِّ استحقاق فينا.

إنَّ اختبار "لوثر" هذا جعله يوقِفُ بعض الممارسات التي كان يُمارسها في الدير، وفي الكنيسة حيث سيمَّ كاهناً، لا سيما مُمارسة الاعتراف للكاهن. فعندما اختبر أنَّه لَمْ يحصل على التُّبرير وسلام الضمير وتيَل يقين الغفران في كرسي اعتراف الكاهن، بَلْ مباشرةً مع الله دون أي وسيط بشري، لأنَّ الوسيط الوحيد بَيْنَ الله والناس هو الرَّب يسوع المسيح، عندها اقتنَع أنَّ كُلَّ مؤمن يُصَلِّي لله يُصبح نفسه كاهناً لله، ومسؤولاً مباشرةً أمام الله، وهكذا أَطْلَقَ "لوثر" العقيدة الإنجيلية "كهنوت جميع المؤمنين".

في تلك المرحلة التاريخية الفاصلة، أَطْلَقَ "لوثر" شَرارة الإصلاح الإنجيلي بعد القناعات الروحية والفكرية التي حَصَل عليها. فاحتجَّ على مُمارسة بَيْع صُكوك الغفران، التي أَقْرَتْهَا الكنيسة آنذاك بهدف جَمْع المال لتزويد كنيسة القديس بطرس في روما. فما هي تلك الصُكوك؟ عندما يدخل الخاطيء إلى غرفة الاعتراف ليعترف للكاهن، فإنَّه حتى يحلَّه من خطاياہ، كان يطلب من المُعترف القيام ببعض الممارسات التي كانت بمثابة عقوبات روحية على المُعترف أَنْ ينفذها. مثلاً: تَكَرُّر بعض الصَّلوات في أوقات محدَّدة، أو زيارة مقام مُقدَّس، أو القيام بأعمال صالِحَة مُعيَّنة. وقد رافق تلك الصُكوك ادِّعاء البابا آنذاك بسُلْطته الروحية بفسخ تلك العقوبات وإصدار العفو عن الخُطاة المُعترفين لقاء دَفْع مبلغ من المال. علاوة على ذلك، سادَ ادِّعاء آخر بأنَّ الأحياء على الأرض يَقْدرون أَنْ يُقَصِّروا مدَّة عقوبات الأموات الذين يتألَّمون في المَطْهَر بمقدار سخائهم في دَفْع المال. إنَّ بَيْع صُكوك الغفران التي أَقْرَتْ في روما، شَرَع بتنفيذها في ألمانيا الراهب "تنزل". حيث لاحظ وتعبَّ الكاهن "لوثر" أنَّ بعضاً من أبناء رعيته، لَمْ يَعد يأتون إلى الكنيسة للاعتراف، وكان سبب ذلك شراؤهم لصُكوك الغفران، وبالتالي اعتقادهم نيلهم العفو عن خطاياهم بواسطتها. ومع أنَّ الكثير منهم انزعجوا ورَفَضوا تلك الممارسة التي سادت آنذاك، إلاَّ أنَّ الشَّخص الوحيد الذي تَجَرَّأ على المُخاطرة بحياته لإيقافها كان "مارتن لوثر".

فاحتجاجاً منه على تلك الممارسة التي توقفت لاحقاً، علّق على لوحة إعلانات باب كنيسة جامعة "وتنبرغ" خمسة وتسعين بنداً إصلاحياً، وذلك في ٣١ تشرين الأول عام ١٥١٧م، وهو التاريخ المُعتمَد لبَدْء حركة الإصلاح الإنجيلي. وقد كانت العادة السائدة آنذاك أن تعليق أيّ أمرٍ على باب الكنيسة، إنّما هو دَعوة لمُناقشة صحّة ذلك الأمر. كما أرسل "لوثر" بعض النُسخ من بنوده إلى بعض الأساقفة، إلاّ أنّه لم يلقَ رَدّاً يُذكَر. من هذه البنود الإصلاحية:

البند الأوّل: عندما يقول ربُّنا وسيدنا يسوع المسيح "توبوا"، فإنّه يقصد بذلك أن تكون التوبة دائمة في حياة جماعة الإيمان.

البند الثامن: إنّ معنى كلمة "توبة"، لا يُفهم منها سرّ الاعتراف والتَّعويض الذي يفرضه الكاهن على الشعب.

البند السادس والثلاثون: إنّ كلّ مسيحي يتوب توبة حقيقية، يتمتّع بغفران كامل عن خطايه، ولا حاجة له إلى شهادة الغفران.

البند الثاني والستون: إنّ كَنز الكنيسة الحقيقي والثمين هو في الكتاب المقدس الذي يعلن مجد الله ونعمته.

البند السادس والسبعون: لا تقدّر شهادة البابا أن تزيل أضغر خطية وتُبرّر جُرمها.

وعندما وُصّلت بنود "لوثر" هذه إلى روما، حاولت الكنيسة عدّة محاولات لإسكاته وإقناعه بضرورة تراجعهِ عن كتاباته وبنوده. ومن هذه المُحاولات:

(١) إرسال رسالة إلى رئيس الدير، الراهب "ستوبيتز" لطلب منه إمّا إلزام "لوثر" بالخضوع لتعليمات الكنيسة والتراجع، أو صرّفه من الدير. لكن رئيس الدير استقال بعد مدّة زمنية قليلة. كما أنّ بنود "لوثر" الإصلاحية حظيت بموافقة الكثير من رهبان الدير، وغيرهم الذين اقتنعوا بوجهة نظره وقدّروا جرأته وصلابة موقفه.

(٢) الطلّب إلى "لوثر" الحضور إلى روما في مدة ستين يوماً للمُثول أمام قاذتها، والإجابة على الاتّهامات بالهزّطقة المُوجّهة إليه.

لكنّ "لوثر" لم يذهب، وبدلاً من ذلك قابِل الكاردينال "كاجيتان" في "أوغسبرك"، الذي طلب منه التراجع عن كتاباته والتوقّف عن إزعاج الكنيسة. ولكنّ "لوثر" رَفَض التراجع وهَرَب من "أوغسبرك"،

ووضع نفسه تحت حماية الأمير "فردريك السكسوني"، الذي يرجع له الفضل الأكبر في تأمين الحماية والدّعم المستمرّين "للوثر". ممّا

أمّن استمرار حركة الإصلاح الإنجيلي. وفي العام ١٥٢٠م أضدر البابا "ليو" العاشر قراراً بجُرمَان "لوثر" من الكنيسة بعنوان:

(Exsurge Domine)، وفي هذا القرار البابوي أدانت الكنيسة واحدٍ وأربعين بنداً من بنود "لوثر"، وأعلنته هرطوقياً. لكن موقف

الأمير "فردريك السكسوني" كان نبيلاً إذ أنّه طلب ألاّ يُعْتَبَر "لوثر" خارجاً على القانون وهرطوقياً، دون منحه الفرصة ليُدافع

عن نفسه بالاستماع إلى وجهة نظره.

(٣) طلب البابا من الإمبراطور الروماني "شارل الخامس" استدعاء "لوثر" لمحاكمته. وهكذا تنفيذاً لطلب البابا، عُقِدَ مَجْمَع في

مدينة "ورمس" عام ١٥٢١م. فأتى "لوثر" إلى المدينة، وفي طريقه

وَعَظَ فِي عِدَّةِ مُدُنِ أَلْمَانِيَةِ . وَبِحُضُورِ الإِمْبَرَاتُورِ وَالْأَمْرَاءِ وَالسُّلَاطِينِ ، طَلَبَ الإِمْبَرَاتُورُ مِنْ "لُوتِر" حَزَقَ كُتُبِهِ وَالتَّرَاجُحَ عَنْ أَقْوَالِهِ وَإِصْلَاحِهِ . فَأَجَابَهُ بِجَرَأَةٍ بَالِغَةٍ إِجَابَتُهُ الشَّهِيرَةَ : "إِنْ لَمْ أَقْتَنِعْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فِي الكِتَابِ المَقْدَسِ وَالعَقْلِ السَّلِيمِ ، لَنْ أَقِيلَ ، لِأَنَّ سُلْطَةَ البَابَاوَاتِ وَالمُجَالِسِ نَاقِضَتِ بَعْضَهَا البَعْضَ . ضَمِيرِي أُسِيرُ لِكَلِمَةِ اللَّهِ . هُنَا أَقِفْ وَلَنْ أُتَرَجِعَ فَلْيَسَاعِدْنِي اللَّهُ" . وَبِنَهَايَةِ ذَلِكَ المَجْمَعِ ، وَقَفَ الإِمْبَرَاتُورُ إِلَى جَانِبِ رُومَا ، وَصَدَرَتِ الإِدَانَةُ بِحَقِّ "لُوتِر" . وَعِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ المَجْمَعِ قَال : "لَقَدْ انْتَهَيْتُ... لَقَدْ قُضِيَ عَلَيَّ" . إِلاَّ أَنَّ "فَرِيدْرِيكَ السَكسونِي" قَرَّرَ أَنْ يَتَابِعَ حِمَايَتَهُ "لِللُوتِر" . وَكِي لا يُعْتَبَرُ حَامِيًا لِهَرطُوقِي ، تَدَبَّرَ حَيْلَةً بِالَاتِّفَاقِ مَعَ "لُوتِر" كَيْمَا يُخْطَفَ عَلَى الطَّرِيقِ بِوِاسِطَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ . وَهَكَذَا خُطِفَ عَلَى الطَّرِيقِ وَأُخِذَ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ فِي "وَارْتَبِرِك" عَامَ ١٥٢١م ، حَيْثُ بَقِيَ هُنَاكَ مُتَنَكِّرًا لِمُدَّةِ إِحْدَى عَشَرَ شَهْرًا . وَهُنَاكَ عَمِلَ عَلَى تَرْجُمَةِ الكِتَابِ المَقْدَسِ مِنَ اللُّغَاتِ الأَصْلِيَةِ . فَتَرَجَمَ العَهْدَ الجَدِيدَ إِلَى لُغَةِ الشَّعْبِ الأَلْمَانِيَةِ ، مَعَ مَقْدَمَةٍ حَوْلَ الرِّسَالَةِ إِلَى رُومِيَةِ ، الَّتِي كَتَبَ فِيهَا تَعْرِيفَهُ حَوْلَ التَّبَرِيرِ بِالإِيمَانِ . وَفِي العَامِ ١٥٣٤م نُشِرَتِ تَرْجُمَتُهُ الكَامِلَةُ لِلكِتَابِ المَقْدَسِ بِاللُّغَةِ الأَلْمَانِيَةِ ، وَبِيعَتِ مِنْهُ نَسَخَاتٌ كَثِيرَةٌ . كَمَا اِهْتَمَّ بِبِنَاءِ المَدْرَاسِ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ القَرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ لِيَدْرُسُوا الكِتَابَ المَقْدَسَ .

إِنَّ التَّغْيِيرَ الكَبِيرَ الَّذِي حَصَلَ وَسَهَّلَ انْتِشَارَ حَرَكَةِ الإِصْلَاحِ الإِنْجِيلِي ، هُوَ قَرَارُ مَجْمَعِ "شِبَايِر" عَامَ ١٥٢٦م . إِذْ صَدَرَ القَرَارُ التَّارِيخِي الَّذِي قَضَى بِمَنْحِ أَمْرَاءِ المُقَاتِعَاتِ الأَلْمَانِيَةِ الحَقَّ بِاخْتِيَارِ الإِيمَانِ الَّذِي يَرِيدُونَهُ (الرُّومَانِي- الكَاتُولِيكِي أَوْ اللُّوتِرِي) أَي ثَرَكَ لِلأَمْرَاءِ الحَرِيَةِ الدِّينِيَةِ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ ، بَعْدَ ثَلَاثَةِ سِنَوَاتٍ ، وَفِي عَامِ ١٥٢٩م ، عَقَدَ الإِمْبَرَاتُورُ "شَارْل" الخَامِسَ اجْتِمَاعًا ثَانِيًا فِي مَدِينَةِ "شِبَايِر" ، وَأَلْزَمَ المُقَاتِعَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ غَالِبِيَةَ مِنَ اللُّوتِرِيِّينَ بِمَنْحِ الحَرِيَةِ الدِّينِيَةِ لِسُكَّانِهَا الكَاتُولِيكِ ، بَيْنَمَا لَمْ يَطِيقَ القَرَارَ نَفْسَهُ وَيُلْزِمُ أَمْرَاءَ المُقَاتِعَاتِ ذَاتِ الأَكْثَرِيَةِ الكَاتُولِيكِيَةِ بِمَنْحِ الحَرِيَةِ الدِّينِيَةِ لِلُّوتِرِيِّينَ مِنْ أبنَائِهَا . مِمَّا اسْتَدْعَى اغْتِرَاضَ وَاحْتِجَاجَ وَرَفْضَ الأَمْرَاءِ المُؤَيَّدُونَ لِإِصْلَاحِ لِهَذَا القَرَارِ . فَسُمُوا عِنْدَهَا بِالمُحْتَجِّينَ protestants . وَمُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ أُطْلِقَتِ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ عَلَى كُلِّ مَنْ اغْتَنَقَ مَبَادِيءَ الإِصْلَاحِ الإِنْجِيلِي . إِلاَّ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ لَمْ يُوَثِّرَ عَلَى انْتِشَارِ وَتَنْظِيمِ كِنَائِسِ إِنْجِيلِيَّةٍ لُوتِرِيَّةٍ فِي مَنَاطِقٍ عَدِيدَةٍ فِي أَلْمَانِيَا .

تَزَوَّجَ "لُوتِر" عَامَ ١٥٢٥م مِنْ "كَاتَرِينَا" الَّتِي تَرَكَتِ الرُّهْبَنَةَ . وَلَمَّا قَرُبَتِ نَهَايَةُ حَيَاتِهِ وَضَعُفَ جِسْمُهُ ، وَقَبَّلَ وَفَاتَهُ بِدَقَائِقِ سُئِلَ : "هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَمُوتَ ثَابِتًا عَلَى المَسِيحِ وَعَلَى التَّعَالِيمِ الَّتِي وَعَظْتَ بِهَا؟" فَأَجَابَ بِالنَّعْمِ . وَهَكَذَا مَاتَ عَامَ ١٥٤٦م عَنِ العَمْرِ ٦٣ سَنَةً .

بِالإِضَافَةِ إِلَى عَمَلِ "لُوتِر" الأَسَاسِي فِي تَرْجُمَةِ الكِتَابِ المَقْدَسِ مِنَ اللُّغَاتِ الأَصْلِيَةِ إِلَى لُغَةِ شَعْبِهِ الأَلْمَانِيَةِ ، وَتَفَاسِيرِهِ لِبَعْضِ أَسْفَارِ الكِتَابِ المَقْدَسِ ،

كالمزامير والرسالة إلى غلاطية، والرسالة إلى العبرانيين، وغيرها، كتب ثلاثة كُتُب وبَعْض الكتابات الأخرى، مِنْهَا:

3, كتابه "رسالة مَفْتُوحَة إلى المسيحيين الأشراف في ألمانيا". دعا فيه الأمراء إلى تَبَيِّي إصلاح الكنيسة في مناطق نفوذهم. وَقَدْ تَضَمَّن الكتاب عدَّة مواضيع مِنْهَا: شَرَحَه لعقيدة كهنوت جميع المؤمنين، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الكاهن والشَّعْب هو فقط في الوظيفة والمَرْكِز. ومنها أيضاً رَفَضَه قبول عِصْمَة البابا، ويكُونه المُفَسِّر الوحيد للكتاب المقدس.. وطلبه من رؤساء الكنيسة الاهتمام فقط بالأُمور الروحية، والابتعاد عن الأُمور السياسية والدينية.. ورَفَضَه لعزوبية الإكليروس الإِجبارية، والقدايس لأجل الموتى، وغيرها.

4, كتابه "السَّبِي البَابِلِي" الذي نَقَدَ فيه عدم سماح الكهنة تقدُّم العلمانيين من مائدة الإفخارستيا (العشاء الرُّبَّاني)، ورَفَضَه لمفهوم الذبيحة في العشاء الرُّبَّاني، واعتقاده أَنَّ للكنيسة سرِّين وليس سَبْعَة أسرار.

5, كتابه "حرية الإنسان المسيحي" وفيه يتحدث عن حرية المسيحي في الأمور الروحية، وعقيدة التبرير أمام الله بالإيمان، وتأكيدَه على أَنَّ الأعمال الصالحة لِيُسْت سبب الخلاص، ولكنها دليله ونتائجه.

6, ومن كتاباته "حول الحكومة المدنية" مُعتبراً أَنَّ الحكومة ترتيب من الله لخدمة حاجات الإنسان في المُجتمع، كما تخدم الكنيسة حاجته الروحية.

7, ومن كتاباته "حول الإرادة المتسعبة" للإجابة على كتاب "إيراسموس" "الإرادة الحرة". إِذْ يقول "لوثر" إِنَّ الخطية تعيق القدرة والإرادة الإنسانية وتُسْتعبدُها، فتَجعله غير قادر على تحقيق خلاصه بإرادته الذاتية، لهذا فهو بحاجة إلى نعمة الله ومساعدته حتى تتحرَّر إرادته من الخطية ليحبَّ الله.

8, ومن كتاباته "التعليم المسيحي" (الكاتيكيسم).

وقد عُرف "لوثر" بعشقه للموسيقى، وترانيمه الرائعة، فألَّف ولحن كتاب ترانيم للكنيسة، ومنها الترنيمة المحبوبة "الله ملجأ لنا وقوة على الدوام".

ولا بُدَّ من لَفَت الانتباه إلى تطوُّر هام جداً جرى عام ١٩٩٥م. إِذْ بعد حوار لاهوتي بَيْنَ لاهوتيين من الكنيسة اللوثرية والكنيسة الكاثوليكية حول موضوع "التبرير بالإيمان"، الذي أثاره المُصلح مارتِن لوثر، فقد توصل الفريق اللاهوتي من الكنيستين إلى إعلان مُشترك حَوْل الموضوع. تمَّ توقيعه من قِبَل الطَّرَفَيْن. ومَعَ أَنَّ هذا الإعلان المُشترك لا يُغَطِّي كامل تفاصيل تعاليم الكنيستين، إِلاَّ أَنَّهُ يُعَدُّ إِجماعاً على الحقائق الأساسية لعقيدة التبرير. وقد حَتَّ اللاهوتي اللوثرِي الألماني القس "غونتر غاسمان" الفاتيكان على إعادة تقييم "لوثر" بشكل رسمي، من خلال رَفَع الجُرْمان الذي وُضِعَ عليه عام ١٥٢١م. فكان جواب الفاتيكان بأنَّه يَرَفَع الجُرْمان فقط

على الذين لا يزالون أحياء. وفي العام ٢٠٠٨م قام الكاردينال "والتر غاسبر" المسؤول الرسمي عن دائرة الوحدة المسيحية في الفاتيكان، بتشجيع الكاثوليك على قراءة ترانيم "لوثر"، مُقِرّاً بأنّها مليئة بالقوة الروحية. كما شجّعهم على قراءة تفاسيره للكتاب المقدس.

من الملاحظات الرئيسية التي تؤخذ على "لوثر"، موقفه في ثورة الفلاحين عام ١٥٢٤م. ففي ذلك الوقت حدثت ثورة قادها الفلاحون مطالبين الأمراء بالعدالة الاقتصادية وتغيير أحوالهم، مُستنديين على أفكار "لوثر" حول الحرية المسيحية وحرية الضمير والقدرة على التغيير. إلا أنّ مَوقِف "لوثر" كان أنّه بالرُّغم من انتقاده للأمراء في بادئ الأمر، لأنّهم لم يعاملوا الفلاحين بعدلٍ، إلاّ أنّه عاد ووقف إلى جانب الأمراء، لوقف ثورة الفلاحين مُطالباً إيّاهم بالخضوع للأمراء. ممّا اعتبره الفلاحون عدم التزام "لوثر" بمبادئه التي علّمها. وقد تكون هناك عدّة أسباب وراء موقف لوثر هذا، منها: ربّما عدم قناعته بضرورة استخدام العنف في الثورات، الأمر الذي قام به الفلاحون.. أو ربّما لأنّ بعض الأمراء وقفوا إلى جانبه في إصلاحه وأمّنوا له استمرار حركة الإصلاح.. أو ربّما لقناعته وإيمانه أنّ السُّلطات الزمّنية والحكومات هي بترتيب إلهي. لهذا اعتقد "لوثر" بضرورة خضوع الفلاحين لسُلطة الأمراء، لأنّها مُرتّبة من الله. أو ربّما هناك أسبابٌ أخرى جعلته يتّخذ هذا المَوقِف. فإننا جميعنا معرّضون للخطأ.

وأخيراً، لا بُدّ من القول إنّ ما قام به المُصلِح "مارتن لوثر" من خلال إصلاحه أنّه أطلق حركة روحية وفكرية واجتماعية، غيّرت وَجْه أوروبا ومناطق عديدة من العالم ، وأنشأت الكنائس الإنجيلية في يومنا هذا.

"جان كلفن"

مؤسس رئيسي للايمان الإنجيلي المُصلِح

بعد أن أطلق المُصلِح "مارتن لوثر" حركة الإصلاح الإنجيلي عام ١٥١٧م، دخلت هذه الحركة المناطق والدول الأوروبية بطرق متعدّدة، إمّا من خلال الجامعات، أو من خلال الأمراء والملوك الذين تبنّوا ودافعوا عن الفكر المُصلِح، أو من خلال الشَّعب الذي اعتنق الإيمان الإنجيلي بالرُّغم من تعرّضه للاضطهاد من قِبَل الحُكّام المدنيّين والسُّلطات الروحية. والذي سهّل انتشار فكر "لوثر" والمُصلِحين آنذاك، هو اختراع نوع جديد من المطابع المُتنقّلة في "غوتنبرغ"، فساهمت تلك المطابع في نشر الكُتب داخل "ألمانيا"

وخارجها، فوَصَلَتْ بعد ثلاث سنوات إلى "زوريخ، وبرن، وفرنسا، وإنكلترا، واسكوتلندا". وبعد حوالي خمس سنوات إلى "باسل، وستراسبورغ". ومن ثمّ بعد حوالي إثني عشرة سنة إلى "جنيف". لكن في الوقت الذي بَرَز فيه المُصَلِح "جان كلفن" على الساحة الأوروبية، بَرَز معه عدَد من المُصَلِحين، شكَّلوا الجيل الثاني للإصلاح، وكان "جان كلفن" في تواصلٍ معهم. ومن أولئك المُصَلِحين: المُصَلِح "فيليب ميلنكتون" (١٥٦٠-١٤٩٧)، الذي عمل جنباً إلى جنب مع "لوثر" في ألمانيا. والمُصَلِح "أولرخ بولينغر" (١٥٧٥-١٥٠٤)، الذي أكمل عمل المُصَلِح "زوينكلي" (١٥٣١-١٤٨٤) في مدينة "زوريخ". والمُصَلِح "مارتن بوتسر" (١٥٥١-١٤٩١)، والمُصَلِح "غيوم فارل" (١٤٨٩-١٥٦٥)، اللذان عمِلَا في "ستراسبورغ"، والمُصَلِح "توماس كرنمار" (١٤٨٩-١٥٦٥)، الذي عمل في "إنكلترا"، والمُصَلِح "جان نوks" (١٥٧٢-١٥١٣)، الذي كان في "سويسرا" مع "كلفن"، ثم انثقل إلى "سكوتلندا". وغيرهم من المُصَلِحين الآخريين.

وعندما بدأ المُصَلِح "لوثر" حركة الإصلاح الإنجيلي، كان "جان كلفن" لا يزال طفلاً صغيراً يبلغ من العُمر ثمان سنوات، ويعيش في Noyon في "فرنسا" مع عائلته المؤلّفة من أبيه "جيرارد"، وأمّه الثّقِيّة التي توفيت وهو صغير، وله ثلاثة أخوة وأختين. عندما شبَّ "كلفن"، وصار في سنّ الدراسة الجامعية، ذهب لدراسة اللاهوت بناءً لرغبة والده، لكنّه تركها قبْل أن يتخرّج، وانتقل لدراسة الفلسفة. وأثناء ذلك الوَقْت مات والده، فشعر "كلفن" بحرية ليدرس ما يُحبّ أن يدرسه، فدرس الحقوق، كما انكبَّ على مُتابعة الدراسات الأخرى. لم تُكُن أحوال "كلفن" المادية والصحية جيدة كثيراً، إلا أنّها لم تمنعه من الزواج من "إيديليت دا بير" أرملة أحد "الأنابابتيست"، التي عادت إلى الإيمان الإنجيلي، وقد رُزقا ابناً، مات بعد ولادته بقليل، كما أنّها لم تَعِش طويلاً معه إذ ماتت عام ١٥٤٩م.

تعرّف "كلفن" للمرّة الأولى على أفكار المُصَلِحين الإنجيليين عندما كان في يدرس اللاهوت، من خلال أستاذ لاهوتي اسمه "جان مايس"، الذي كتب تفسيرات للأناجيل الأربعة هاجم فيها المُصَلِحين الإنجيليين "جان ويكليف، جان هوس، ومارتن لوثر"، مُعتبراً أن تعاليمهم إنّما هي اختراعات جديدة، مُدافعاً عن تعليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. كما أنّ بعض المُؤرّخين يَقولون أنّ "كلفن" كان صديقاً لبعض الشباب من جيله، ومنهم أحد أقربائه، الذين اعتنقوا تعاليم الإصلاح الإنجيلي. لكن حتى عام ١٥٣٠م أي حتى عمر واحد وعشرين سنة، كان "كلفن" لا يزال كاثوليكياً مُلتزماً وعنيداً ومُدافعاً عن عقائد وممارسات الكنيسة. وهذا ما قد يشير إلى أنّه كانت هناك بعض المُحاولات لإقناعه بترك الكنيسة والالتحاق بالإصلاح الإنجيلي. لكن حتى ذلك الوَقْت لم تُكُن هناك أيّة إشارات تدلُّ على رغبته في الانفصال عن روما.

لكن الأمر المُلاحظ جداً هو أنّه في هذه الفِثرة، وبعد أن دَخَلت أفكار الإصلاح الإنجيلي إلى "فرنسا"، وقبل حوالي العَشْرَة سنوات، صار اضطهاد على الفرنسيين الذين تركوا الكنيسة وانضموا إلى الإصلاح الإنجيلي. فإنه،

وانطلاقاً من توجهه الإنساني (كونه منخرطاً في التيار الإنساني)، كتب "كلفن" كتابه الأول: "senaca de clementia" في عام ١٥٣١م، أي عندما كان عمره ٢٢ سنة، إذ في هذا الكتاب دعا الملك الفرنسي "Francis I" إلى إعادة النُّظَر في سياسة تعامله مع الذين اغتَنقوا الإيمان الإنجيلي. أمَّا الفِكرَةُ الرئيسيَّة التي كانت في ذلك الكتاب هي أنَّ الفيلسوف الرِّواقِي "سينيكا" طَلَب إلى الإمبراطور "نيرون" ضرورة التعامل بمرونة وليِّن وتسامح مع المواطنين المسيحيين. وهكذا دعا "كلفن" الملك الفرنسي لأن يكون مَرناً ومُتسامِحاً في تعامله مع مواطنيه الفرنسيين الذين قَبِلوا مبادئ الإصلاح الإنجيلي. وهذا الكتاب جعل من "كلفن" شخصية بارزة لدى مُناصرِي التَّيارِ الإنساني.

لَم يُخبرنا "كلفن" بكلمات كثيرة ووصفٍ دراماتيكي مؤثِّر عن اختباره الروحي، وتغيير الله الجذري لحياته، الذي جعله ينضمُّ إلى حركة الإصلاح الإنجيلي ليُصبح من أهمِّ البارزين فيها. فإنَّ "كلفن" يُخبرنا بكلمات قليلة عن تغيير مُفاجئ حدث في حياته، توبَّةً مُفاجئةً، اختبرها عندما كان له من العمر أربعة وعشرين سنة، أي في عام ١٥٣٣م. والمكان الوحيد الذي يذكر فيه عن توبته واختباره الروحي، هو أثناء تفسيره لسفر الأمثال، حيث يصف توبته على أنَّها "إخضاع الله لقلبه المُعانِد". ويقول أيضاً: "وبعد أن اختبرت معرفة التَّقوى الحقيقيَّة، فإنِّي التَّهَبُّتُ رَغْبَةً عارمةً وشوقاً كبيراً، كي أستفيد من هذه المعرفة، ومع أنني لَم أحاول أن أتوقَّف عن دراساتي الأخرى، إلاَّ أنَّني صرَّفت وقتاً أقلَّ بيها. ومن ثمَّ اندهلْتُ إذ أنَّه قَبْل أن تُنتهي السَّنَة، رأيت الذين قَبِلوا مبادئ الإصلاح الإنجيلي، مُلتقِّين حولي ليتعلَّموا مني، مع أنني كنتُ لا أزال مبتدئاً".

نفهم من هذه الكلمات أنَّ أولئك الإنجيليين الفرنسيين، رأوا في "كلفن" مُعلِّماً قديراً يملك موهبة مُميَّزة وإمكانية كبيرة في دَفْع حركة الإصلاح الإنجيلي إلى الأمام. أمَّا توبه "كلفن" فلم تكن فقط روحية، لكنَّها كانت أيضاً فِكرية. فقَبِلَ توبته كان مؤمناً ومُقتنعاً بعظمة الإنسان، الأمر الذي يُشَدُّ عليه التَّيار الإنساني. وبعد توبته صار مؤمناً ومُقتنعاً بفساد الإنسان وحاجته القُصوى إلى عمل النِّعمة الإلهية التي تُخضع إرادته. كما أنَّ توبته لَم تُنحصر فقط باهتمامه بخلاصه الشخصي، وعلاقته مع الله بانتظار الحياة الأبدية، لكنه رأى في كلمة الله القوة المُغيِّرة، ليس فقط لحياة الإنسان، بل للمُجتمعات والحُكومات أيضاً. فسيادة الله شكَّلت لديه مفهوماً واسعاً وأساسياً في فكره، والعمل لمجد الله كما قال: يجب أن يكون هدف كلِّ إنسان مؤمن، أينما كان في بيته وكنيسته وعمله ومجتمعه. لقد آمن "كلفن" أنَّ الهدف من حياة الإنسان المسيحي هو معرفة الله، الذي أعلن عن نفسه بابنه يسوع المسيح. وهكذا صار "كلفن" مُدافعاً عن مبادئ الإصلاح الإنجيلي، ولم يُعدَّ يهادن. ففي الوقت الذي ظَهَرَت فيه مجموعة من الفرنسيين الذين أعجبوا بأفكار الإصلاح الإنجيلي بقيادة "Le Fevres d'etaples" الذي دعا إلى "إصلاح مُعتدِل"، وفي الوقت نفسه دعا إلى الاستمرار بالمشاركة في تقاليد الكنيسة الكاثوليكية ومُمارساتها، وجَّه "كلفن" له ولأتباعه

انتقاداً على مواقفهم المُساوِمةِ وسَمَّاهم "النيقوديموسيون"، تيمُّناً بالمُعَلِّمِ اليهودي "نيقوديموس" الذي أتى إلى المسيح ليلاً خوفاً من زملائه اليهود.

وعندما قوي الإضطهاد على الإنجيليين الفرنسيين، كان وجود "كلفن" في "فرنسا" يُشكِّلُ خَطراً على حياته، فهرب من "فرنسا" وأقام في "باسل" في "سويسرا"، حيث بدأ العمل في أهمِّ إنجاز أنتجه الإصلاح الإنجيلي، ألا وهو: "أسس الإيمان المسيحي". حيث كرَّس نفسه كليةً لدراسة كلمة الله، أي الكتاب المقدس باللغات الأصلية، ودرس ما توفَّر من كتابات المُصلِح "مارتن لوثر" المُترجمة إلى اللغة اللاتينية، لأنه لم يكن يعرف اللغة الألمانية. من هذه الكتابات: "حول الحرية المسيحية"، "السبي البابلي". لقد كان هناك احترام مُتبادل بين المُصلِحين الرئيسيين "جان كلفن" وشريكه مُطلق الإصلاح "مارتن لوثر" (١٥٤٦-١٤٨٣). حيث كان كلفن أضغر سناً منه بستة وعشرين سنة، وقد تأثر بأفكاره وبنى عليها آراءه، مع أنه لم يوافق على كل كتاباته.

أمضى "كلفن" بعض الوقت في رعاية كنيسة "جينيف"، ولما حاول مجلس إدارة المدينة، ولأسباب لم يقنَّع بها "كلفن"، فَرَضَ طريقة عبادة مُعينة على الكنيسة، رَفَضَ "كلفن" الخضوع. فأصدر المجلس قراراً بطُرده، هو وزميله المُصلِح "غيوم فارل"، من الكنيسة. ثم قاموا بتعيين قسوس آخرين. في ذلك الوقت تلقى "كلفن" دعوة من المُصلِح "مارتن بوتسر" للحضور إلى "ستراسبورغ" حيث تسلَّم رعاية اللاجئين الإنجيليين الفرنسيين، وأسس الأبرشية الفرنسية الأولى. وبعد وقت قصير حدث انقسام كبير وفوضى في كنيسة "جينيف"، أثارها بعض أصدقاء "كلفن" الذين اعترضوا على طرده من الكنيسة، ورفضوا أن يتعاونوا مع القسوس الجُدد. فأرسل "كلفن" رسالة إلى الكنيسة ليمنع ذلك الانقسام، مؤكِّداً للجميع أنه لا يمكن اتِّهام القسوس الجُدد بأخطاء كثيرة، طالما أنهم يقومون بواجباتهم في الكنيسة. ودعا "كلفن" أصدقاءه المُعترضين إلى التَّعاون مع القسوس وقبولهم، وإدراك أنهم مدعوون من الله، وبالتالي اعتبارهم آباءً روحيين. مؤكِّداً أنه يجب أن يعمل الجميع من أجل خَيْرِ وسلام الكنيسة. وبعد عودة الهدوء إلى الكنيسة وقتياً، ما لبثت أن ساءت الأمور ثانيةً، وازداد الانقسام. فوجد مجلس إدارة المدينة نفسه مُضطراً لدعوة "كلفن" بأسرع وقت من "ستراسبورغ"، وتكليفه ثانية برعاية الكنيسة لاستعادة السَّلام إليها. ومع أن "كلفن" لم يكن يرغب بالعودة، لأنَّه أُخْرِجَ منها طرداً، وبشكْل مُهين، إلا أنَّه تسامى على جراحاته الشخصية من أجل مَصْلحة الكنيسة، ووضَع شَرْطاً أساسياً للعودة، ألا وهو موافقة الجميع. وهكذا عاد "كلفن" مُعتبراً أن عودته ستكون فرصة ذهبية ليُترجم مفهومه لإدارة الكنيسة بشكل عملي. وأمضى ما تبقى من سِنِّي حياته في "جينيف"، حيث نَظَّم الكنيسة، فاغْتَبِرَ مُشْرِعاً "الكنيسة المُتجدِّدة".

يُعتَبَرُ المُصلِح "كلفن" مؤسس نظام الإدارة في الكنيسة الإنجيلية المشيخية، والكنائس الإنجيلية المُصلحة. حيث استقى مفهومه لإدارة

الكنيسة من الكتاب المقدس، إذ استنتج أنه يجب أن تُدار الكنيسة وثرعى من قبل نوعين من الشيوخ تقوم الكنيسة برسامتهم: شيوخ مُعلّمون هم القسوس والرعاة، وشيوخ مُدبّرون.

وفي الطبعة الأولى لكتابه "أسس الإيمان المسيحي" الذي كتبه عام ١٥٣٦م، أي عندما كان عمره سبعة وعشرون سنة، والذي أهداه للملك الفرنسي "Francis I"، ذكر "كلفن" في الإهداء ما يلي: "إنّ تعاليم المُصلحين ليست بداية جديدة، ولكنها تعاليم (أرثوذكسية) مُستقيمة ورسولية، بحسب الإيمان المسيحي النابع من تعليم الرسل. على أمل أن يقْتنع الملك بالرسالة، إلّا أنّ ذلك الملك لم يهتم لها، بل أعلنه هُرطوقاً كباقي المُصلحين. فقد جعل "كلفن" كتابه "أسس الإيمان المسيحي"، كتاباً مرجعاً ومُرشداً للإنجيليين ليساعدهم في دفاعهم بشكّل منظم عن العقيدة الإنجيلية المسيحية. وقد صرّف كلّ حياته يُنقّح ويُراجع عمله، فأصدر أربعة نسخات في الأعوام ١٥٣٦، ١٥٣٩، ١٥٥٠، و١٥٥٩م، باللغتين اللاتينية والفرنسية. والكتاب غرّض عقائدي للإيمان والتعليم المسيحي مؤلّف من جزئين في أربعة كتب: الجزء الأول يتضمّن العقيدة عن الله، الاعلان الكتابي، الخطية والحاجة إلى الخلاص. والجزء الثاني يتضمّن: الاعلان التاريخي، خطّة الله للخلاص. وبالإضافة إلى عمله الأساسي هذا، كتب تفاسير لمُعظم أسفار الكتاب المقدس: كلّ أسفار العهد الجديد ما عدا رسالتي يوحنا الثانية والثالثة، وسفر الرؤيا. وتفاسير للتوراة (الأسفار الخمسة الأولى)، ويشوع والمزامير وإشعيا. ورغم ضيق وقته، واعتلال صحّته بعد عام ١٥٥٧م، فقد عمل جاهداً لإنهاء كتابه هذا. وقد تمّت طباعة ملاحظاته التي دوّنها على أسفار الأنبياء الصغار، ودانيال، وإرميا، ومراثي إرميا، وجزء من حزقيال. كذلك وضع كتاباً بعنوان "في نوم الروح"، إضافة إلى كتابات كثيرة ومُتعدّدة.

لقد شهدت فترة الإصلاح الإنجيلي كتابة عدّة اعترافات إيمان إنجيلية، منها: "إعتراف الإيمان الهلفيتي الثاني"، الذي كُتب عام ١٥٦٦م، و"كاتخيسم هايدلبرغ"، أو "قواعد التعليم المسيحي"، الذي كُتب في العام ١٥٦٣م، وغيرها. وقد تُرجم الدكتور جورج صبرا بعضاً منها إلى اللغة العربية، في كتابه "نؤمن ونعترف". وكان المُصلح "كلفن" من الساعين والمُشجّعين الأساسيين لكتابة اعترافات الإيمان الإنجيلية هذه، التي تعبّر عن إيمان ولاهوت المُصلحين الإنجيليين وحركة الإصلاح الإنجيلي. ففي عام ١٥٥٩م، كتب مسوّدّة اعتراف الإيمان الإنجيلي الفرنسي "Gallic confession" تبنّته الكنائس الإنجيلية المُصلحة في "فرنسا" عام ١٥٧١م، بعد إجراء بعض التعديلات، وأعيد التأكيد عليه في العام ١٩٣٦م. كما كتب عام ١٥٦١م ما يُسمّى "Belgic confession"، وهو اعتراف إيمان للكنيسة الإنجيلية الهولندية، والذي استند جزئياً إلى "Gallic confession". كما أنه وقّع على اعتراف إيمان "Augsburg" ١٥٣٠م، الذي كتبه المُصلح "فيليب ميلانكتون"، الذي عمل جنباً إلى جنب مع المُصلح "مارتن لوثر" في ألمانيا.

وقد بقي "كلفن" يعمل بجِدٍ ومُثابَرةً حتى النهاية، حين ساءت صحَّته بسبب مرضه. وعندما قِيلَ له أن لا يُزْهق نفسه بلْ يأخذ قسْطاً وافِراً من الراحة، أجاب: "هل تريد أن يجدني المسيح عاطلاً عن العمل عندما يأتي ثانية؟" وهكذا لَمْ يَعِش طويلاً، إذ مات وله من العُمر خمسة وخمسون عاماً. ولَمْ يتسَنَّ له رؤية عمله يتطوَّر إلى حركة إصلاحية عالمية، تجاوزت حدود مدينة "جينيف" لتُصل إلى بُلدان عديدة من أوروبا، ومن ثم أميركا والعالم.

كتب الفيلسوف الألماني "غوته" (١٧٤٩-١٨٣٢م): "عندما نختار أن نفثِّش عن أخطاء رجلٍ عظيم في الماضي، لنكنْ عادلين ونَقِّمُ بذلك ونحن ساجدون على رُكبنا". لا شكَّ أنَّه كانت لـ "كلفن" أخطاء وقع فيها خلال مسيرة إصلاحه، لا سيما في بعض الميادين، منها:

- (١) بالنسبة لعقيدة الاختيار المُسبِّق، ربما تطرَّف كثيراً في وُصفه للموضوع، لكنَّه لَمْ يُشكِّك أبداً في عدالة الله ومحَبته لجميع الناس.
- (٢) بالنسبة لطريقة إدارته لكنيسة "جينيف" ربما تطرَّف في مفهومه لإدارة الكنيسة حتى لامتس مفهومه النظام الثيوقراطي.
- (٣) بالنسبة لموضوع دفاعه عن الإيمان المستقيم، ربما تطرَّف في أحكامه، فأصدر أحكاماً قاسية، لاسيما على "ميشال سرفيتس".

فالمسيح وحده كان بلا خطية، إلا أنَّ الحقيقة المُجرَّدة هي أن عمل "كلفن" الضَّخْم "أسس الإيمان المسيحي"، وكتاباتهِ وتفسيراته الكثيرة التي تغطي قِسْماً كبيراً من الكتاب المقدس، تُشهد على غنى فكري وروحي كبيرين غير موجودين عند باقي المُصلحين الإنجيليين، وربما غير مَسْبوق منذ بدء الإصلاح وحتى يومنا هذا. وهو بحقٍ مُؤسس رئيسي لمبادئ الإيمان الإنجيلي المُصلح، ومُنظِّم أساسي لإدارة الكنائس الإنجيلية المُصلحة.

(٢) النظرة الإنجيلية المصلحة لمواضيع كنسية متنوعة

نظرة كنائس الإصلاح الإنجيلي إلى الكتابات الأبوكريفية

من ضمن الكتب المقدسة التي توزَّعها جميعات الكتاب المقدس، كتاب مقدس يتضمَّن، إلى جانب الأسفار القانونية (٣٩ سفرًا للعهد القديم و٢٧ سفرًا للعهد الجديد)، مُلحقاً بأسفار ما يُسمَّيه الإنجيليون بالكتابات "الأبوكريفية" (Apocrypha). إنَّ كتابات أبوكريفا العهد القديم هي أسفار تعتمدها الكنائس غير الإنجيلية، وتعتبرها قانونية وجزءاً لا يتجزأ من

الكتاب المقدس الموحى به من الله. إلا أن الكنائس الإنجيلية لها وجهة نظر مُختلفة حول هذه الكتابات. فما هي هذه الكتابات؟

إن كلمة (Apocrypha) التي هي صيغة الجمع لكلمة APOCRYPHON هي يونانية الأصل، وتعني "الأمر المُخبأة". وقد حاول بعض المُفسرين معرفة سرّ اختيار هذه الكلمة لتلك الكتابات. وأودّ هنا أن أشير إلى نظريتين مُختلفتين. حيث ذهب بعضٌ إلى القول بأنّ هذه الكتابات كانت مُخبأة عن الاستخدام الشائع لأنّها تحتوي على معرفة سرّية عميقة لا تُفهم إلا من قبل قلة قليلة من المُستنيرين. بينما ذهب بعضٌ آخر وظنّ بأنّ هذه الكتابات أُخفيت عن الاستخدام الشائع لأنّها كتابات مُضِلّة وهزْطوقية.

تنقسم الكتابات الأبوكريفية إلى مجموعتين: مجموعة الكتابات الأبوكريفية التي تُسمّى بأبوكريفا العهد الجديد، ومجموعة الكتابات الأبوكريفية التي تسمى بأبوكريفا العهد القديم. إلا أن كلا التسميتين غير دقيقتين ولا تُعيران عن حقيقة واقع هذه الكتابات.

فأبوكريفا العهد الجديد هي مجموعة كبيرة من الكتابات التي كُتبت في مرحلة لاحقة، بعد أن تمّ الاختيار والتوافق (وإن لم يكن بشكل رسمي) من قبل الكنيسة على لائحة أسفار العهد الجديد بوحى من الروح القدس. تتضمن هذه الكتابات بعض الأخبار والتعاليم حول طفولة يسوع، وتعاليم وحياة الرسل، وطبيعة الله، وغيرها. وقد أُطلق على البعض منها تسمية "إنجيل". إلا أن السمة العامة لكثير من تلك الكتابات هو الشكوك حول حقيقة مصدرها ومؤلفيها وتاريخها. كما أن بعض تلك الكتابات لا تُنسخم وكتابات الأسفار القانونية للعهد الجديد. لهذا رَفَضَتْها الكنيسة الأولى، واعتبرها بعض الآباء أنّها كتابات مُزوّرة ومُسمومة. فبالنسبة لأبوكريفا العهد الجديد، هناك إجماع بين كل الكنائس بأنّها غير موحى بها من الله. وبالتالي لا يقرّون بها.

أمّا أبوكريفا العهد القديم فهي مجموعة من الكتابات التي يُظنّ أنّها كُتبت ما بين العهدين القديم والجديد، أي ما بين عاي ٢٠٠ و ١٠٠٠ ب. م. وبالتالي، تشكّل جسراً يربط بين العهد القديم والعهد الجديد. ويصل عدد هذه الكتابات إلى ١٥ وهي:

عزرا الأول، عزرا الثاني، طوبيا، يهوديت، زيادات على إستير، حكمة سليمان، يشوع بن سيراخ، باروك، رسالة إرميا، صلاة عزرا وترنيمة الفتيان الثلاثة، سوسنة، بال والتنين، صلاة منسى، المكابيين الأول، المكابيين الثاني، (ومزمور ١٥١ في بعض نسخات الترجمة السبعينية اليونانية). إن بعض هذه الكتابات تاريخية: عزرا الأول والمكابيين، وبعضها رومانسية: توبيت ويهوديت وسوسنة وزيادات على إستير. وبعضها تعليمية: حكمة سليمان. وبعضها تتناول مواضيع أخلاقية: باروك ورسالة إرميا وبال والتنين. وبعضها تأملية: صلاة عزرا وترنيمة الفتيان الثلاثة وصلاة منسى. وواحدة رؤيوية: عزرا الثاني.

إن كتابات أبوكريفا العهد القديم والتي هي موضوع هذه المقالة، هي كتابات مقبولة في معظمها من قِبَل الكنائس التقليدية الشَّيْخِيَّة، ومُعْتَبَرَةٌ جُزءاً لا يتجزأ من الوحي الإلهي لأسفار الكتاب المقدس، إلا أنَّه للكنائس الإنجيلية المصلحة وجهة نظر مُخْتَلِفة حول تلك الكتابات، تجعلها لا تُقَرَّ بَوَحيها من الله كباقي أسفار الكتاب المقدس. لكن في الوقت نفسه لا تُنْكَر فائدتها، كونها تُشكِّل مَصْدَراً تاريخياً يُزَوِّدنا بمعلومات مُفيدة، لفتهم زَمَن ما بَيْنَ العهدين القديم والجديد (Intertestamental Period). ممَّا يُساعدنا لفتهم أدقَّ لِبَعْض ما جاء في كتابات العهد الجديد. منها: تطوُّر الفِكر اليهودي قَبْلَ الزَّمَن المسيحي، نُشوء الشَّيْخ اليهودية كالفريسيين والصدوقيين، نموُّ الرِّجاء الأبوكاليفتي (أو الرؤيوي) المُستقبلي بمجيء المسيا وبقِيامة الأموات والحياة الأبدية. لكن، بالرغم من فائدتها التاريخية، فإنَّ بعض هذه الكتابات تتضمَّن تعاليم لا تنسجم مع تعاليم الكنائس الإنجيلية. مثلاً: الخلاص بالأعمال، وشفاعة الملائكة، وأنَّ الصِّدْقَة تُكفِّر عن الخطايا، والصلاة من أجل الأموات لغفران خطاياهم... الخ، وغيرها من التعاليم.

فما هو موقف كنائس الإصلاح الإنجيلي من الكتابات الأبوكريفية للعهد القديم؟

إنَّ العامل المُشترك الذي يَجْمَع بَيْنَ هذه الكتابات هو غَدَم وجودها في المخطوطة العبرية الأصلية لنصوص أسفار العهد القديم. لهذا، لَمْ يقبلها العُلَماء اليهود، وإنَّما وُجِدَتْ في الترجمة السبعينية اليونانية. لكننا نسأل: كيف عرفت هذه الكتابات طريقها إلى الترجمة السبعينية اليونانية؟

ترجع الترجمة السبعينية في تاريخها إلى عام ٢٥٠ ق م. إلا أنَّ الذي أُبْرَز الحاجة إلى هذه الترجمة، هو انتشار الحضارة اليونانية في بلدان حوض البحر المتوسط، بعد انتصار القائد اليوناني الإسكندر الكبير على الفُرس عام ٣٣١ ق م. مُنْهياً بذلك حُكْمهم. ونتيجةً لذلك، خَسِرَ يهود الشَّتات السَّاكنين المقيمين في الإسكندرية لُغَتهم العبرية، ولَمْ يعودوا قادرين على قراءة كتبهم المُقدَّسة بلغتهم الأم. بينما حافظ يهود فلسطين على لُغَتهم ومَعرفتهم لأسفارهم المقدَّسة باللغة العبرية. وقَبْلَ مُنتصف القرن الثالث قبل الميلاد، أرسلَ رئيس كهنة أورشليم، إلى الإسكندرية مُترجمين لترجمة الكتب المقدَّسة العبرية إلى اللغة اليونانية، بطلب من الحاكم اليوناني، لَوْضَعها في مكتبة الإسكندرية الشَّهيرة. فأرسل ٧٢ مُترجماً ترجموا الكتب المقدَّسة العبرية إلى اللغة اليونانية، فسُمِّيَتْ بالترجمة السبعينية تيمناً بعَدَد المُترجمين وعَدَد أيام التَّرْجَمَة التي كانت ٧٢ يوماً. وهكذا اغْتُمِدَتْ الترجمة السَّبْعينية عند يهود الشَّتات الذين عرفوا فقط اللغة اليونانية.

وعند ولادة الكنيسة في القَرْنِ الأول للميلاد، كان تأثير الحضارة اليونانية لا يزال مُستمرّاً. فاللغة اليونانية كانت لُغَةَ العِلْمِ

والمُتعلِّمين، بينما قَلَّ كثيراً مَنْ عَرَفَ اللغة العبرية، ومِنْهُمْ رجالات الكنيسة الأولى. هذا الواقع لَجْهَلُ اللغة العبرية، جَعَلَ الكنيسة الأولى تتبَنَّى الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم، وتُهمِلُ المخطوطة العبرية الأصلية والأقدم مِنْهَا. ومع تبني كَلِّ الأسفار الموجودة في الترجمة السبعينية، التي كان من ضَمْنِهَا كتابات الأبوكريفا مُعْتَرَفَةً بقانونيتها، عَرَفَتْ هذه الكتابات طريقها إلى الكتاب المقدس. فاقْتَبَسَ آباء الكنيسة مثل "إيريناوس"، و"ترتليان" و"كليمنت الإسكندري" في تعاليمهم وعظاتهم مقاطع من تلك الأسفار، مؤمنين بِوَحْيِهَا من الروح القدس.

ومن ثَمَّ، بَرَزَ لاحقاً بعض الآباء اليونانيين الذين من بينهم أثناسيوس، وأبيفانيوس، وكيرلس الإسكندري، فوجدوا اختلافاً بين المخطوطة العبرية الأصلية، التي لَمْ تَتَضَمَّنْ الأبوكريفا، والمخطوطة اليونانية اللاحقة التي تَضَمَّنَتْ الأبوكريفا. في كتابه: Times of Jesus Life and: (١٨٨٩م) يقول عالم الكتاب المقدس "ألفرد أيدرشايم" الذي قِيلَ الإيمان المسيحي بعد أن كان يهودياً: "إنَّ الأسفار القانونية للعهد القديم كانت محدَّدة ومُتَبَيَّنَةٌ عديداً في فلسطين... ولكن بسبب الآراء المُنفَتحة حول الوحي للمُترجمين اليونانيين (الذين نَفَذُوا الترجمة السبعينية اليونانية)، وغياب الرقابة الدقيقة على النصوص في فلسطين، فإنَّ هذا أدَّى إلى بعض الإضافات على الأسفار القانونية للكتاب المقدس هي "الكتابات الأبوكريفية".

إلّا أنَّ الذي طَرَحَ تساؤلاً جدياً حول قانونية الأسفار الأبوكريفية، هو القديس "جيروم" الذي تعلَّم اللغة العبرية وأثَقَّنَهَا. فإنَّه تنفيذاً لطلب البابا "دماسوس"، قام بترجمة كَلِّ أسفار الكتاب المقدس من المخطوطة العبرية الأصلية إلى اللغة اللاتينية، فاكْتَشَفَ أنَّ الكتابات الأبوكريفية غير موجودة في المخطوطة العبرية. لهذا دعا الكنيسة إلى تبني الأسفار القانونية الموجودة في المخطوطة العبرية. وعند ترجمته للكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، فإنَّه كلَّمَا وَصَلَ إلى كتاب أبوكريفي، كان يُشير في المقدمة إلى أنَّه غير موجود في المخطوطة العبرية الأصلية. ومن ثَمَّ فإنَّ ناسخي الكتاب المقدس باللغة اللاتينية الذين جاؤوا بعد القديس "جيروم"، قد أغفلوا نَقْلَ ملاحظات القديس "جيروم" حول الكتابات الأبوكريفية. وهكذا اخْتَفَتْ تِلْكَ الملاحظات من الطبعات اللاحقة للكتب المقدسة، ولمْ يَعدْ يُمَيِّز قراء الكتاب المقدس بين الأسفار الأبوكريفية والأسفار القانونية.

وعندما حلَّ الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، أثار المُصلِحون الإنجيليون بشكل جَدِيٍّ موضوع قانونية الكتابات الأبوكريفية، فأعادوا طرح السؤال الأساسي: لماذا لَمْ تَوجَدْ هذه الكتابات في لائحة أسفار المخطوطة العبرية الأصلية المُعْتَرَفَ بِهَا من قِبَلِ العُلَمَاءِ اليهود؟ وبما أنَّهم لَمْ يَتَلَقَّوْا جَوَاباً مُقْنَعاً، فقد شكَّكوا بوحي هذه الأسفار ورَقَضُوا الاعتراف بقانونيتها كمصدر للعقيدة والإيمان والحياة، مُتجاهلين القبول التقليدي لها من قبل آباء الكنيسة على مدى العصور السابقة. وقد إخْتَدَمَ الصِّراع بين المُصلِحين الإنجيليين والكنيسة الكاثوليكية حول هذا الموضوع، فكان

للمُصلحين الإنجيليين المُتنوِّعين آراء مُتنوعة حول الأبوكريفا. إنَّ أوَّل مَنْ قام بدراسة هذه الكتابات، هو المُصلِح الألماني "كارلستادت" إذُ أنَّه في سنة ١٥٢٠م ميَّز بين الأسفار القانونية والكتابات الأبوكريفية، وقسَّم الكتابات الأبوكريفية إلى قسمين: الأول، ضمَّنه كتابات (الحكمة، يهوديت، طوبيا، يشوع بن سيراخ، المكابيين الأول والثاني). وقال عن هذه الكتابات: "مَع أنَّها خارج لائحة الأسفار القانونية العبرية، لكنَّها مقدسة، لأن ما تحويه ليس مَدعاة للاحتقار". ثم أضاف، قائلاً: "علينا أولاً أن نقرأ الأسفار القانونية، وبعدها إذا بقي لدينا الوقت نقرأ كتابات القسم الأول من الأبوكريفا". أما بالنسبة لكتابات القسم الثاني وهي باقي كتابات الأبوكريفا، فقد قال: "يجب أن نتجنَّبها لأنَّها مليئة بالسَّخافات الطفولية". أما المُصلِح السويسري "أكولاباديس"، فقد أعلن في تصريح رسمي سنة ١٥٣٠م قائلاً: "نحن المُصلِحون لا نحتقِر هذه الكتابات، لكننا لا نسمح بأن يكون لها سلطة الوحي الإلهي مع الأسفار القانونية الأخرى". أما كنيسة إنكلترا التي طالها الإصلاح الإنجيلي، فقد أعلنت أن الكنيسة تقرأ الكتابات الأبوكريفية كمثال للحياة والسلوك، إلا أنَّها لا تُعتبر مصدراً للعقيدة. أما الكنيسة الكاثوليكية فإنَّها لم تؤكِّد على قانونية الأسفار الأبوكريفية، إلاَّ عندما أثار المُصلِحون الإنجيليون الموضوع زَمَن الإصلاح، فأصدَرَ مجمع ترنت الذي انعقد بين ١٥٤٥-١٥٦٣م قراراً باعتبار ١١ من الكتابات الأبوكريفية أسفاراً قانونية كباقي أسفار الكتاب المقدس. وهكذا أثَّرت نظرة المُصلِحين الإنجيليين على طريقة ترتيب هذه الكتابات في لائحة أسفار الكتاب المقدس. ففي القرن السادس عشر، إنَّبعت نسخات الكتب المقدسة المُعدَّة من قِبَل الإنجيليين ترتيب لائحة المخطوطة العبرية. فالمُصلِح "مارتن لوثر" ضَمَّن، إلى جانب الأسفار القانونية للكتاب المقدس والذي ترجمه إلى اللغة الألمانية، الكتابات الأبوكريفية، ولكن في جُزء مُنفصل بين العهدَيْن. لكنَّه أشار إلى أن هذه الكتابات لا تتساوى مع الأسفار القانونية للكتاب المقدس، لكنَّها نافعة وجيدة للقراءة. كما أنَّ نسخات الكتاب المقدس الجينيفية، ذكرت في مقدمة الأبوكريفا أن هذه الكتابات نافعة لمعرفة التاريخ ولتعليم السلوك. وابتداءً من نهاية القرن السادس عشر (١٥٩٩م) بدأت تظهر نسخات من الكتاب المقدس لا تتضمَّن الكتابات الأبوكريفية. واستمرَّت في الصُّدور حتى سنة ١٦١٥م حين قام أسقف "كانتربري" بتوجيه إنذار علني إلى العاملين في دور الكتاب المقدس بعدم إصدار أيَّة نسخة لا تحتوي على الكتابات الأبوكريفية. لكنه لم يأبه أحدٌ لهذا الإنذار. وهكذا استمرَّت نسخات الكتاب المقدس في الصُّدور بدون الأبوكريفا، حتى أصبح عددها أكثر من عدد النسخات التي تحتوي على الأبوكريفا.

لقد أعلن اعتراف إيمان "ويستمنستر" الذي كُتب عام ١٦٤٨م، وهو اعتراف إيمان الكنائس المشيخية حول موضوع الكتابات الأبوكريفية، ما يلي: "إنَّ الكتابات الأبوكريفية لَيْسَتْ من مصدر إلهي، وليست جُزءاً من الأسفار القانونية. لهذا، ليس لها سلطة في كنيسة الله، ولا يجوز اعتبارها سوى كتابات إنسانية. إلاَّ أنَّه في الوقت نفسه، لا يمكن إنكار فائدتها كونها تساعدنا لفهم الظروف والمُعطيات التي كرز بها الرُّب يسوع المسيح

والرسل والكنيسة في القرن الأول للميلاد". ولا بُد من الإقرار أنه مع نمو الاهتمام التاريخي في الدراسات الكتابية والخلفية البيئوية للزمن الذي عاش فيه المسيح، اتَّخَذَت الكتابات الأبوكريفية قيمة أساسية لا يمكن إنكارها.

إنَّ الصِّراع حول النُّظرة إلى كتابات الأبوكريفا كان أحد صراعات الماضي الأليم، لكننا اليوم في عَصْر التقارُب المسيحي الفكري واللاهوتي، عَصْر قبول الآخر واحترام نظرتيه وإيمانه. وفي هذا السياق، جرى اتِّفاق سنة ١٩٦٨م بين جمعيات الكتاب المقدس وأمانة سرِّ وحدة المسيحيين في الفاتيكان، بأن تتضمَّن الكتب المقدسة الكتابات الأبوكريفية، ولكن بحسب رغبة المُصلِّحين بأن توضع هذه الأسفار كجزء مُستقلِّ بعد الأسفار القانونية، وهذا ما تُنفِّذه جمعيات الكتاب المقدس.

نظرة المُصلِّحين الإنجيليين إلى آباء الكنيسة

تعتمد الكنائس التقليديَّة الشقيقة (الكاثوليكية والأرثوذكسيَّة والمارونية) على مَصْدَرَيْن للعقيدة والإيمان والحياة، هما: الكتاب المقدس والتقليد الكنسي. بينما تعتمد الكنائس الإنجيلية على مَصْدَر واحد فقط، ألا وهو الكتاب المقدس. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تُرْفُضُ كنائس الإصلاح الإنجيلي تعاليم آباء الكنيسة بالمُطلق، برفضها للتقليد الكنسي كمصدر للعقيدة والإيمان والحياة، لا سيما أنَّ تعاليم الآباء تشكِّل الجزء الأساسي من التقليد الكنسي؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بُدَّ لنا من التعرُّف على ما هو التقليد الكنسي. وكيف كان موقف المُصلِّحين الإنجيليين من تعاليم الآباء وتقليدهم؟

تشير كلمة (تقليد) في الأصل اليوناني *paradosis* إلى أمرين: الأوَّل، ذلك الشيء الذي قد يكون عقيدةً، أو مُمارسةً ما انتقلت من جيل إلى جيل عبر التاريخ. والثاني، طريقة النُّقل. فالتقليد الكنسي هو ما تسلَّمته الكنيسة وعاشتُه في حياتها، من تعاليم وعقائد وعادات وممارسات، مكتوبة أو غير مكتوبة. وهو ما تعتبره تفسيراً وشرحاً للإيمان

المُسلّم، ونقله من جيل إلى جيل من خلال الكرازة وسُلطة التّعليم والتّفسير، التي مَنَحَتْها الكنيسة للآباء والأساقفة المُعتَبَرين خُلفاء الرّسل في العالم. لذلك اكتسب مضمون هذا التقليد قُدسيّة خاصّة وسُلطة روحية تُستند إليها الكنيسة، وتسير بموجبها في العقيدة والإيمان والحياة. والتقليد في اللاهوت الكاثوليكي هو مراحل نُقل الحقيقة المُوحاة ومُحتواها.

هذا المفهوم عن التقليد يعني أنّ هناك عقائد وحقائق وممارسات لم يذكرها الكتاب المقدس، دخلت الكنيسة عبر التاريخ واكتسبت سُلطة الوحي واغْتِيرَت تفسيراً للإيمان الأول. فتذكر الفقرتان (٨٢ و ٩٧) من كاتخيسم الكنيسة الكاثوليكية، أنّ التقليد المقدس والكتاب المقدس يُشكّلان معاً مَخزوناً واحداً لكلمة الله، ويجب أن يُقبل ويُحترم بالتساوي، لأنهما مُصدرا الوحي للعقيدة والإيمان والحياة. وقد أكد على ذلك مَجْمَع "ترنت" الذي انعقد زمن الإصلاح الإنجيلي.

يسود الأوساط المسيحية لَعَطٌ ومفهومٌ خاطئٌ، مفاده أنّ الكنائس الإنجيلية عامّة لا تُعترف بأهميّة ودور تعاليم وحياة آباء الكنيسة، شرقيّين كانوا أم غربيّين، كونهم جزءاً أساسياً من التقليد الكنسي. وبالتالي، يُعتبرون أنّ الكنائس الإنجيلية غير مَعْنِيَة بأيّ من تعاليم أولئك الآباء وحياتهم. إنّ هذا اللّعَطُ أو سُوء الفهم، يَضَع الكنائس الإنجيلية خارج التاريخ الكنسي الذي يرجع إلى عهد الرسل والآباء، ويجعل منها كنائس بدون تاريخ، ترجع جذورها فقط إلى عهد الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، وليس إلى عهد رسل وآباء الكنيسة الأولى. إنّ هذا المفهوم الخاطيء الشائع لا يَنسَجِم مع مفهوم الكنيسة في اللاهوت الإنجيلي المُصلِح، ولا مع نظرة رجال الإصلاح الإنجيلي.

فلم يعتقد المُصلِحون الإنجيليون بأنّ الكنيسة بدأت على عهدهم، بل آمنوا بأنّها بدأت مُنذ آدم، مُنذ أن دعا الله أولاده ليدخلوا في عهدٍ معه ويؤمنوا به، فأقام عهداً معهم، قديماً بواسطة الآباء والأنبياء، وفي العهد الجديد في ابنه يسوع المسيح. وهكذا وُجِدَت الكنيسة واستمرت في التاريخ قبل الإصلاح الإنجيلي وبعده. وما الإصلاح الإنجيلي، كما رآه ويراها الإنجيليون، إلّا استمراريّة لسمات كنيسة الرسل التي يذكرها العهد الجديد. فالله أوجد الكنيسة في العالم من أجل خلاص الإنسان قبل الإصلاح الإنجيلي وبعده. هذه الحقيقة الإيمانية أثبتتها اعتراف الإيمان "الهلفيتي الثاني" الذي كُتِبَ سنة ١٥٦٢م. وتبنته الكنيسة المُصلِحة في "اسكتلندا" عام ١٥٦٦م. والذي لخص المبادئ الأساسية للإصلاح الإنجيلي. فإنّه في إحدى فقراته عن الكنيسة ذكّر ما يلي: "لأنّ الله أراد مُنذ البدء أن يُخلِّص البشر ويأتوا إلى معرفة الحق، فالكنيسة كانت وما تزال وستبقى ضرورية حتى انتهاء الدهر".

إنَّ الاطِّلاعَ على تعاليم وحياة المُصلِحين الإنجيليين ، لا سيَّما حياة "مارتن لوثر" ، و "جان كلفن" ، تُظهِر بوضوح مدى تأثرهم بكتابات وحياة آباء الكنيسة. لقد صرَّف المُصلِحون الإنجيليون وقتاً طويلاً في قراءة كتابات الآباء ، فأعجبوا بها ، إذ رأوا فيها زاداً مُهمّاً لانتفاضهم وإصلاحهم الإنجيلي الذي غيَّر وَجْه التاريخ.

فالإصلاح الإنجيلي لم يَسْتَهْدِفِ آباء الكنيسة ، لا سيَّما الأوائل منهم ، ولا عُصرهم الذي هو بالنسبة للكنيسة الشَّرقيَّة نهاية المَجْمَع المسكوني السابع ٧٨٧م الذي عقد في "نيقيا" ، وبالنسبة للكنيسة الغربيَّة هو نهاية القرن الثاني عشر، بل إنَّ انتقادات المُصلِحين توجَّهت بشكْل خاص إلى تعاليم وحياة بعض آباء الكنيسة ، لاسيما في أواخر القرون الوسطى. فتلْكَ الحَقبة كانت حَقبة مُظْلِمَة في تاريخ الكنيسة ، تميَّزت بإظهار التعاليم اللاهوتية السكولاستية التي شدَّدت على الفلسفة وأهمَّلت غنى الكتاب المقدس وعمَّق حياة وتعاليم آباء الكنيسة. كما تميَّزت بدخول بعض تعاليم وممارسات غريبة على الكنيسة.

يَشْهَد عن تلْكَ الحَقبة المُظْلِمَة في تاريخ الكنيسة مُؤرِّخون كاثوليك أمثال: "جوزيف لورنز و آروين إزارلو" ، الذين التمسوا العُذر جزئياً للإصلاح الإنجيلي ، للأسباب التي ذكَّرت آنفاً. ففي كتابه "الكنيسة الغربيَّة في أواخر القرون الوسطى" ذكَّر الكاتب "فرنسيس أوكلي" أن فساد القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لم يكن مُتناسباً مع العصور السابقة، لهذا غزَل المؤمنين الأتقياء. كما أضاف "إنَّ لاهوت تلك الحَقبة لم يكن جامعاً (un-catholic). لقد كانت دَعْوَة المُصلِحين الإنجيليين لقادة الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، هي العودة في حياتهم وتعاليمهم إلى طهارة وتعاليم الكنيسة الأولى، كنيسة الآباء والرسول.

وفي رسالته إلى الكاردينال "سادولات" ، كتب المُصلِح "جان كلفن" قائلاً: "لديَّ رجاء واحد، ألا وهو استعادة وَجْه الكنيسة القديم، وَجْه كنيسة الآباء الذي تشوَّه بواسطة غير المُتعلِّمين من الله".

فلقد آمن المُصلِحون بأنَّ ثرائهم المسيحي الإنجيلي لم يبدأ في عهد الإصلاح في القرن السادس عشر، بل بدأ مُنذ ولادة الكنيسة الأولى في يوم الخمسين. لهذا اغتبروا حَرَكَة إصلاحهم ، وفاءً لاستمرارية حياة وتعاليم الكنيسة الأولى، كنيسة الرسل والآباء ، التي عاشت وعَلَّمت كما يحقُّ لإنجيل المسيح. فالمُصلِحون لم يُنكروا تاريخ الكنيسة، بل اعتبروه تاريخهم ، ولم يرفضوا آباء الكنيسة، لا سيما الأوائل منهم، بل اعتبروهم آباؤهم ، لكن هذا لا يَنفِي تحفُّظاتهم ومفهومهم الخاص لبعض الأمور التي برزت خلال مسيرة الكنيسة.

فالكتاب المقدس، الذي هو الدستور الوحيد للكنائس الإنجيلية ، احتلَّ مَرَكزاً مُهمّاً في فِكر وحياة آباء الكنيسة قَبْل المُصلِحين الإنجيليين

بوقت طويل، فكان لهم المَصْدَر الأول للعقيدة والعبادة والحياة. وقد اعتبر "أوريجينوس" أن الكتاب المقدس هو دستور الإيمان الأهم. و"أثناسيوس" بشر بأن الكتاب المقدس كافٍ لإعلان الحقيقة الإلهية للإنسان. لقد درس آباء الكنيسة الكتاب المقدس بعمق وفَسَّروه وشَجَّعوا المؤمنين على دراسته، إيماناً مِنْهُمْ أن دراسته تطرُد اليأس وتُعطي الفرح، وتزيل الرذيلة وتُعطي الفضيلة. أمَّا "يوحنا فَم الذهب"، الذي اشتهر بمواعظه الكتابية، قد امتلأت عظاته وكتاباته بالآيات الكتابية حتى قيل إنَّه إذا أرَدنا أن نُعَدِّد الشواهد الكتابية في أعماله، لَوْجَدْنَا كلَّ الكتاب المقدس فيها. لقد عمل الآباء الأوَّلون بكلِّ غيرة ونشاط على نشر رسالة الكتاب المقدس.

لقد تأثَّر المُصلِحون الإنجيليون بكتابات وحياة الكثير من آباء الكنيسة. فالمُصلِح الألماني "مارتن لوثر" مثلاً، كان مُولِعاً كثيراً بكتابات القديس "أوغسطينوس" الذي عاش في القرن الخامس للميلاد. فكتابات "أوغسطينوس" حول مبدأ الخلاص بالنعمة وحدها Sola Gratia الذي هو أحد أهم المبادئ التي رفعها الإصلاح الإنجيلي، رَسَخَتْ قناعة "لوثر" بصحَّة هذا المبدأ. ممَّا جعله يتساءل عن سبب تركيز كنيسة العصور الوسطى على لاهوت التَّشديد على الأعمال الصَّالحة الذي ساد آنذاك. أمَّا المُصلِح الفرنسي "جان كلفن"، فبالإضافة إلى إعجابه بكتابات القديس "أوغسطينوس"، فإنَّه أُعْجِبَ بكتابات وحياة القديس "برنارد دوكليرفو" الذي عاش في القرن الثاني عشر. فقرأ كتاباته وتأثَّر بحياته التي تميَّزت بالصَّلاة وإنكار الذات، ومواعظه الروحية النابعة من صميم رسالة المسيح في الكتاب المقدس، كما تأثَّر بغيره من الآباء.

فالكتاب المقدس، ولاسيما أعمال الرسل، لا يتضمَّن سوى سَجَلٍ عدد قليل من الشُّهداء مثل "إستيوانوس، ويعقوب أخو الرَّب"، وهذا لا يَعْكس صورة كافية عن الاستشهاد والشهادة في سبيل المسيح. لكن ذلك العَصْر كان يلي عصر أعمال الرسل، أي عَصْر الآباء، وخاصةً الآباء الأوَّلين، الذين في زمنهم اشتهر الاضطهاد الروماني النيروني على المسيحيين. فقرَّروا أن يبقوا أمناء للمسيح إلى المُنتهى. وهكذا سَقَّوا بدمائهم نَبْتة الكنيسة الأولى. وقد تعدَّدت طُرُق الاستشهاد، فالبعض حُرِّقوا بالنار كالأسقف "بوليكاربوس"، والبعض قُطِعَتْ رؤوسهم مثل "يوستنيانوس الشهيد"، والبعض الآخر طُرِحَ قَرِيصة للوحوش. فأولئك الآباء عاشوا بالإيمان وماتوا في الإيمان. أيضاً ما يُمَيِّز دُور الآباء الأساسي هو مُساندتهم للكنيسة في إنطلاقها الأولى في أهمِّ مراحلها، في عصر تميَّز بظهور اليَدَع والهرطقات التي عمِلت على مُحاربة الإيمان المسيحي، وتشويه رسالة المسيح، لا سيما أنَّه في تلك الحقبة لم تكن الكنيسة قد كَثَبَتْ واعْتَمَدت قوانين إيمان واضحة تسير بموجبها. فبعمق إيمانهم والتزامهم وثباتهم دافع الآباء عن الإيمان، لا سيما "إيريناوس"، "أوريجينوس"، و"ترتليانوس"، الذين عملوا على توضيح حقائق الإيمان المسيحي ووضَّع أسس الكنيسة في عهدها التكويني. فالمُصلِحون الإنجيليون في القرن السادس عشر، والكنائس الإنجيلية

المُصلِحَة اليَوم، تتبَنَّى قَوانين الإيمان تِلْكَ، لا سيما قانون إيمان الرسل، وقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني، الذي كتبه في القرن الرابع آباء الكنيسة، بكثير من الإيمان والتقوى والفكر الثاقب، وتعتبرهما تراثاً مسيحياً نتمسك به بإصرار، وننظر إلى مفهومنا عن الله ويسوع المسيح والروح القدس والثالوث من خلالها.

وبالتالي، فإن موقف المُصلِحين الجوهري والإيجابي هذا، الذي يُقدَّر عالياً مواقف وتعاليم آباء الكنيسة، لا سيما الأوائل منهم، إنما يَحْتُ أعضاء الكنائس الإنجيلية أن تَحْذو حَذوهم اليَوم للاطلاع على كتاباتهم وتعاليمهم، والتعرف على ما تركوه من فكر مؤثِّر في التراث المسيحي، لأنَّ هذا يغني الإيمان.

إنَّ مُشكلة المُصلِحين الحقيقية لَمْ تَكُنْ مع تراث الكنيسة الجامعة، بَلْ مع تلك الحقبة المُظلمة في تاريخ كنيسة الغرب في القرون الوسطى. أمَّا بالنسبة لنظرتهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق، فقد نظروا إليها نظرة إيجابية باعتبارها الكنيسة التي قَدَّمت الشهداء للحفاظ على الإيمان المُسلم من الآباء القديسين، ولتمسُّكها بقرارات المجامع السبعة الأولى التي عُقِدَتْ في القرون الثمانية الأولى، حين كانت الكنيسة موحدة قبل ظهور الانقسامات الكبيرة بين الكنائس، التي أدَّت إلى نشوء الأرثوذكس والكاثوليك والإنجيليين. لقد ظنَّ المُصلِحون أنَّ المبادئ والعقائد التي نادوا بها وعَبَّروا عنها في اعترافات إيمانهم التي كتبوها، مُتشابهة جداً مع عقائد الكنيسة الأرثوذكسية، لاسيما: الأهمية الكبرى للكتاب المقدس، وضرورة ترجمته إلى لغة الشعب، ورئاسة المسيح يسوع الوحيدة للكنيسة، ورَفْضُ مُمارسة بَيْع صُكوك الغفران التي كانت شائعة آنذاك، وعدم إلزام الكهنة بنذر العفة وعدم الزواج، وغيرها من المبادئ الأخرى، ممَّا يَسْمَح بالتلاقح والوحدة معها.

وفي هذا السياق لا بُدَّ من ذِكر المُراسلات المُتبادلة الهامة جداً، التي جَرَتْ خلال الأعوام ١٥٧٤ - ١٥٨٢م بين مجموعة من اللاهوتيين الإنجيليين اللوثرين من جامعة "توبنغن - ألمانيا"، وبطريك القسطنطينية "جرمايس" الثاني. فقد بادر اللوثريون بتلك الممارسات عام ١٥٧٤م، فترجموا اعتراف الإيمان الإنجيلي "أوغوسبورغ" إلى اللغة اليونانية، الذي يلخِّص كل عقائد الكنيسة الإنجيلية اللوثرية. وأرسلوه إلى البطريرك تحت عنوان "اعتراف الإيمان المُستقيم". والغاية الأساسية من ذلك كانت إظهار الشُّبه بين العقائد الإنجيلية اللوثرية، وعقائد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. فأجاب البطريرك "جرمايس" الثاني برسالة استشهد فيها بالكثير من أقوال آباء الكنيسة، والتي تُظهِر موقف الكنيسة الأرثوذكسية الرسمي من عقائد الكنيسة اللوثرية الواردة في اعتراف "أوغوسبورغ". وقد ذَكَر البطريرك بأنَّ هناك مواضع خلافية مع اللوثرين حول عدَّة مواضع منها: التبرير، والأسرار، والتَّنسُّك، والإرادة الحرة، وطَلَب شفاعة القديسين، وغيرها. كما أضاف قائلاً: "لا يَجَقُّ لأحدٍ، لا

للبابا ولا للبطيريك ولا للوثرين، أن يختلقوا أموراً جديدة في العقيدة تُعارض إجماع التقليد الكنسي المقدس مُنذُ تأسيسه".

وفي العام ١٥٧٥م أرسل اللوثريون رسالة ثانية إلى البطيريك "جرمايس" ذكروا فيها: "إذا كانت هناك اختلافات بيننا، فهذا يعود إلى المساحات الجغرافية الشاسعة التي تفصل بيننا. ومع ذلك نرجو ألا تظنوا بأننا نقوم باختلاق أمور جديدة حول مبادئ الخلاص". كما أضافوا: "نحن نعلم أننا علينا تمسكنا وحافظنا على الإيمان المسلم إلينا بواسطة الرسل والأنبياء والآباء والبطاركة القديسين، والمجامع المسكونية السبعة الأولى التي بُنيت على كلمة الله الموحى بها".

أما المراسلة الأخيرة للبطيريك فكانت عام ١٥٨١م، وموضوعها الأساسي كان انيثاق الروح القدس "فيليوكي". ففي حين أكد البطيريك بأن الكنيسة الشرقية تؤمن بأن الروح القدس ينبثق من الآب، فالإنجيليون اللوثريون آمنوا بانثياقه من الآب والابن، وهو موضوع خلافي بين الكنيستين. كما تطرق البطيريك إلى نظرة اللوثرين المختلفة معه وغير الإيجابية إلى الأيقونات، وغيرها من التعاليم الأخرى، مُستشهداً بأقوال آباء الكنيسة. إلا أنه بما أن الإنجيليين يعتمدون الكتاب المقدس كالمسلطة العليا، والمقياس الأوحد لقبول أو رفض أي تعليم أو قول من آباء الكنيسة، فهذا يعني أنهم لم يقبلوا بعض ما قاله بعض آباء الكنيسة، عندما لم ينسجم مع مضمون الكتاب المقدس. الأمر الذي رفضه البطيريك. لهذا فقد اتهمهم البطيريك باختلاق عقائد جديدة. وفي ختام المراسلة الأخيرة، طلب منهم أن يتوقفوا عن الكتابة له في المسائل العقائدية. لكن إذا ما أردوا الاستمرار في الكتابة من أجل الحفاظ على الصداقة، فيمكنهم ذلك.

وبالرغم من طلب البطيريك عدم مراسلته، عاد وكتب اللوثريون رسالة أخيرة، ذكروا فيها: "حتى لو طلبتم منا ألا نكتب إليكم، مع أننا تراسلنا معاً بكل محبة ولطف واحترام، ولكننا نأمل بأن تُعيدوا دراسة ما أرسلناه لكم بدقة أكثر". وقد ختمت الرسالة اللوثرية بالقول: "وفي النهاية نُقدّم لله صداقتنا الحقيقية التي أظهرناها تجاه بعضنا البعض، والتي سنحافظ عليها باستمرار". وهكذا انتهت المراسلات بين الطرفين.

إن المقياس الأساسي الذي اعتمده المُصلحون الإنجيليون للتمييز بين تعاليم الآباء المقبولة وغير المقبولة، هو مقياس الكتاب المقدس. فبما إن الكتاب المقدس هو دستور الإيمان الأهم والكافي لإعلان الحقيقة الإلهية للإنسان، فإن سلطته هي السلطة التي تعلو فوق كل سلطة أخرى. لهذا، فإن أي تعليم لأي أب من آباء الكنيسة كان يخضع لمقياس الكتاب المقدس، فإذا ما انسجم مع تعاليمه، كان يُقبل ويُعتبر غنى للإيمان والحياة المسيحية، وأذا لم ينسجم مع تعاليمه، كان يُرفض ويُعتبر خروجاً عن الحقيقة الإلهية.

هذا الموقف الإنجيلي المُصلح، ظهر في اعتراف الإيمان الهلثي الثاني، الذي يلخص مبادئ وتعاليم المُصلحين الإنجيليين في القرن

السادس عشر. فإنَّه في إحدَى فقراته عن تفسير الآباء القديسين، وِرد ما يلي: "تُقْبَلُ تفاسير الكتاب المقدس حين توافق قاعدة الإيمان والمحبة وتؤول إلى مجد الله وخلص الإنسان، لذا فنحن لا نَحْتَقِرُ تفاسير الآباء الشرقيين والعَرَبِيِّين بقدر ما تتوافق مع الأسفار المقدسة، ولكننا نُخالفهم بكُلِّ اتِّضاع حينما نجد أنَّهم يقولون أشياء تَحْتَلِفُ أو تتعارض كُلياً مع الأسفار المقدسة. ولا نَعْتَقِدُ أنَّنا نُحْطِئُ ثقتهم في ذلك، عالمين أنَّهم، وبإجماع كَلِيٍّ، لا يريدون أن تتساوى كتاباتهم بالأسفار المقدسة القانونية، وأنهم يُؤْصِوننا أن نَفْحص مدى توافق كتاباتهم أو تعارضها مع الأسفار القانونية، وأن نَقْبَلُ منها ما يتوافق ونَرْفُضُ ما لا يتوافق معها".

إنَّ الموقف المُعَبَّرُ عنه في اعتراف الإيمان الهلثي الثاني يَدَلُّ على اليقَّة التي وضعها المُصلِحون في تعاليم الآباء، وفي الوقت نفسه يشير إلى ضرورة الوَعْي والإدراك لاعتماد مقياس الكتاب المقدس، لضرورة رَفْض أو قبول أيَّة كتابات وتعاليم مهما كان مصدرها.

في كتابه "العقيدة المسيحية في "كاتاخيسم هايدلبرغ" يُعلن اللاهوتي الإنجيلي المعاصر "كارل بارت" موقفاً إنجيلياً معاصراً من آباء الكنيسة، فيقول: "سوف يُساء فهم شركة القديسين وآباء الكنيسة، إذا ظننا أنَّه يجب أن نفهم تعاليمهم واعترافاتهم كسلسلة على أساسها تُفهم العقيدة المسيحية اليوم وكأنها تكرر لاعترافيهم. ففي شركة القديسين يجب أن يوجد الوُقر والاحترام والشكر لآباء الكنيسة الذين سَبَقونا، وفي أزمنتهم تأملوا وفكروا بالإنجيل، لكن هناك أيضاً حرية في شركة القديسين، والاحترام والشكر الحقيقيين هما من سمات الحرية".

مع الاعتراف الكامل بالدور الأساسي الذي لعبه آباء الكنيسة في الشهادة والعقيدة في الماضي، والذي منه نستطيع أن نتعلم الكثير من أجل ثبات وصحة إيماننا اليوم. فلنَحْذَرُ حتى لا نعيش في الماضي، وننظر إلى الكنيسة فقط من خلال الماضي، أو نفهم إيمانها فقط من خلال الماضي، لأننا نؤمن أن المسيح الرب أرسل الروح القدس ليُرَافِق الكنيسة وحياتنا في كلِّ الأجيال، في الماضي والحاضر والمستقبل. آمين

المُصلِحون الإنجيليون ووحدَة الكنيسة؟

يذكر البشير يوحنا في الأصحاح الحادي عشر من إنجيله قولاً هاماً قاله "قيافا" أحد رؤساء كهنة اليهود، الذين كانوا قلقين وخائفين من نتيجة تهافت الجموع الكثيرة إلى المسيح، قولاً لم يقله "قيافا" من نفسه، بل تنبأً به، يتعلّق بأحد معاني موت المسيح الكفّاري على الصليب. "فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ قِيَاْفَا، كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ: «أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئاً وَلَا تُفَكِّرُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلَا تَهْلِكَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا». وَلَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ عَنِ الْأُمَّةِ فَقَطْ بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللَّهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ" (يوحنا ١١ : ٤٩-٥٢). فبحسب نبوءة قيافا، فإنّ يسوع سيموت على الصليب، كيما بصليبه يجمع أبناء الله المتفرّقين إلى واحد. فصليب المسيح يهدف إلى وحدة أولاد الله المتفرّقين. وبحسب تفسير البشير يوحنا لعبارة "أبناء الله"، فهم الذين قبلوا وآمنوا بيسوع المسيح، وآمنوا باسمه، إذ يقول يوحنا "وأما كلُّ الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) أعطاهم سلطاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ" (يوحنا: ١٢). وبالتالي، فإنّ أحد أهداف مجيء المسيح إلى العالم هو توحيد أولاده في صليبه وفي موته وقيامته.

يُبدِي الرسول بولس في الأصحاح الأول من رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس ألمه وخيبة أمله لانشقاقاتٍ حدثت في الكنيسة هناك، تلك التي أسسها، فطلب منهم أَنْ يتوحدوا قائلاً: "أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ تَقُولُوا جَمِيعَكُمْ قَوْلًا وَاحِدًا، وَلَا يَكُونُ بَيْنَكُمْ انْشِقَاقَاتٌ، بَلْ كُونُوا كَامِلِينَ فِي فِكْرٍ وَاحِدٍ وَرَأْيٍ وَاحِدٍ، لِأَنِّي أُخْبِرْتُ عَنْكُمْ مِنْ أَهْلِ خَلْوِي أَنَّ بَيْنَكُمْ حُصُومَاتٍ، فَأَنَا أُعْنِي هَذَا أَنْ كُلُّ وَاحِدٍ فِيكُمْ يَقُولُ: أَنَا لِبُولَسَ، وَأَنَا لِأَبْلُوسَ، وَأَنَا لَصَفَا، وَأَنَا لِلْمَسِيحِ. هَلْ انْقَسَمَ الْمَسِيحُ؟ أَلَعَدُّ بُولَسَ صُلْبًا لِأَجْلِكُمْ؟ أَمْ بِاسْمِ بُولَسَ اعْتَمَدْتُمْ؟" (١ كورنثوس ١ : ١٠-١٣). وفي الأصحاح الثاني عشر يدعو أعضاء الكنيسة إلى الاتّحاد والانسجام والتّسسيق فيما بينهم، كون جميعهم بدون أي استثناء يُمثّلون جسد المسيح، فيقول لهم: "لأنّه كما أنّ الجسد واحد، وله أعضاء كثيرة، وكلُّ أعضاء الجسد الواحد الكثيرة هي جسد واحد كذلك المسيح أيضاً. لأنّنا جميعنا بروح واحد اعتمدنا إلى جسد واحد يهوداً كناً أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سقينا روحاً واحداً. فإنّ الجسد أيضاً ليس عضواً واحداً بل أعضاء كثيرة" (١ كورنثوس ١٢: ١٢-١٤). ففي كلّ مرّة كان يحدث انشقاق وانقسام بين أعضاء الكنيسة الواحدة، كان بولس يُسرع إلى استخدام صورة الكنيسة كجسد المسيح. وقد قال المُصلِح "جان كلفن": "ليس هناك سوى جسد واحد للمسيح، ومن يؤمن بيسوع المسيح فهو ينضمُّ إلى هذا الجسد ليتّحد مع باقي القديسين".

ولكن مع الأسف الشديد، فإنّ هذه الانشقاقات التي صارت بين أفراد في الكنيسة الأولى، قد تحوّلت لاحقاً إلى انشقاقات بين الكنائس المتعدّدة (الانشقاق الرئيسي الأول بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية حصل عام ١٠٥٤م. والانشقاق الرئيسي الثاني بين الكنيسة الكاثوليكية

والكنائس الإنجيلية حَصَلَ في عَهْد الإصلاح في القرن السادس عشر). مع أن وصية الرّب يسوع وصلاته الأخيرة قبل أن يتوجّه إلى الصليب، كانت من أجل وحدة تلاميذه، واستطراداً وحدة كنائسه. إذ صُلّي قائلًا: **"ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيُّها الأب فيّ وأنا فيك، لِيؤمن العالم أنك أُرسلتني"** (يوحنا ١٧: ٢١). لكن، مع الأسف، ازدادت هذه الانشقاقات المُؤلمة كثيراً جداً في التاريخ. لقد جَرَت تفسيرات لاهوتية مُتعدّدة للتأكيد على أن هذه الكنائس المُتنوّعة إنما تُنبع من نُبُع واحد هو يسوع المسيح. وكما شبّه أحد آباء الكنيسة في القرن الثالث الكنائس المُتنوّعة بالسّواقي فقال: **"هناك عدّة سواقي، لكنّها تُنبع من نُبُع واحد"**. فالوحدة تبقى في النُبُع الأساسي الواحد الذي هو الرّب يسوع المسيح.

يُنظر تاريخياً إلى المُصلحين الإنجيليين كونهم انفصلوا عن الكنيسة الكاثوليكية، أنّهم من المُسيّبين الأساسيين للانقسام في الكنيسة. ففي العام ١٥٣٩م أرسل الكاردينال "جاكوبو سودلتو"، رسالة مفتوحة إلى مجلس إدارة مدينة "جينيف"، بعد انضمامها إلى حركة الإصلاح الإنجيلي وخدمة المُصلح "جان كلفن" فيها، يدعو سگان المدينة للعودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية، ويَحْمِل المُصلح "جان كلفن" وباقي المُصلحين مسؤولية تقسيم وتمزيق وتدنيس الكنيسة عروس المسيح، وإثارة الاضطرابات فيها. فردّ "كلفن" على الرسالة في أيلول ١٥٣٩م بوثيقة هامة جداً، تُعْتَبَر رسالة دفاع عن وجهة نظر الإصلاح الإنجيلي، ذكّر فيها بَعْض النِّقَاط الأساسية التي تُعَيِّر عن فهمه لضرورة الإصلاح الإنجيلي، وفهمه لطبيعة الوحدة في الكنيسة. فكتب: **"لن أقبل هذه التُّهْمَة، إلا إذا أردتم أن تقولوا بأنّ عروس المسيح تتمزق بواسطة الذين يرغبون أن يحافظوا عليها كعذراء نقيّة لا دنس فيها ولا عيب"**. ويضيف: **"لقد تدنّست الكنيسة عندما أدخلتم إليها عقائد غريبة"**. وبالتالي، ليس من العَدْل أن توجّهوا لنا هذه التُّهْمَة". ويتابع قائلًا: **"نحن لم نطلب شيئاً، سوى أن يحيا الإيمان، ولا نريد شيئاً سوى استعادة وجه الكنيسة الحقيقي الذي تشوّه من خلال غير المُتعلّمين من الله"**. وبالتالي فإنّ مُطلَب المُصلحين، كان وجه الكنيسة الحقيقي، وجه الكنيسة الأولى الذي يُعلنه الكتاب المقدس، والذي انْحَجَب في تلك الفترة التي اعتبرها المُصلحون مُظلمة، حتى بعض المؤرّخين الكاثوليك أمثال: "جوزيف لورنز، وآروين إزارلو"، الذين أعذروا الإصلاح الإنجيلي جزئياً. ففي كتابه "الكنيسة الغربية في أواخر القرون الوسطى، ذكر الكاتب "فرنسيس أوكلي" أنّ فساد القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لم يكن مُتناسباً مع العصور السابقة، لهذا عُزِلَ المؤمنون الأتقياء. كما أضاف: **"إنّ لاهوت تلك الحقبة لم يكن جامعاً. فانتقادات المُصلحين توجّهت بشكل خاص إلى حقبة أواخر القرون الوسطى. فتلك الحقبة في تاريخ الكنيسة، تميّزت ببروز التعاليم اللاهوتية السكولاستية التي شدّدت على الفلسفة وأهملت غنى الكتاب المقدس وعمق حياة وتعاليم آباء الكنيسة. كما تميّزت بدخول بعض تعاليم وممارسات غريبة في الكنيسة، وأطلّقت العنان لسلطة البابا الزمنية المطلقة"**. لقد أوضح "كلفن" في رسالته إلى الكاردينال "سودلتو" بأنّه لم يكن في نيّته، ونيّة المُصلحين، أن يؤسسوا كنيسة جديدة. لقد آمن المُصلحون أنّ الكنيسة

هي "جماعة المؤمنين التي تنتشر في كل العالم، وعبر كل العصور، وترتبط ببعضها البعض بإيمان واحد وروح المسيح الواحد، وتحافظ على وحدة الإيمان". وهذه الكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية. وقال "كلفن": "ليس لنا خلاف مع هذه الكنيسة، بل نعتير هذه الكنيسة أمناً، ونرغب أن تبقى في حضانها". من هذه الوثيقة الهامة يتضح لنا أن احتجاج "كلفن" وباقي المصلحين الإنجيليين لم يكن على كل عقائد الكنيسة الكاثوليكية، ولكن فقط على البعض منها كما ذكر آنفاً.

في رسالته إلى الكاردينال، ضمن "كلفن" صلاة للرب يسوع المسيح قال فيها، "إن ضميري يشهد لي كم هي غيرتي قوية من أجل وحدة كنيستك. كم أنا متشوق لأجل وحدة الكنيسة، إلا أن هذه الوحدة يجب أن تبدأ معك وتنتهي بك. فكم مرة يا رب دعوتنا للسلام والوفاق، لكن في الوقت نفسه أظهرت لنا بأنك الرباط الوحيد الذي يحفظ هذه الوحدة". لقد آمن المصلحون الإنجيليون أن وحدة الكنيسة تكون فقط تحت سيادة المسيح وفي شخصه المبارك وحده، لأنه رأس الكنيسة الوحيد. وقد استوحوا تعليمهم هذا من الكتاب المقدس. في رسالته إلى أفسس يقول الرسول بولس إن الله أجلس يسوع المسيح "عن يمينه في السمويات فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة، وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة، التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل" (أفسس: ٢١ - ٢٣). والرسول بولس في هذه الأعداد لا يتحدث عن الكنيسة المحلية، بل عن الكنيسة الجامعة التي تجمع كل المؤمنين بيسوع المسيح في العالم. وبالتالي فالرب يسوع المسيح هو الوحيد الذي يرأس الكنيسة الجامعة ويوحدها بجسده. وهو الرأس الذي يوجه الكنيسة ويُعطي التعليمات لأعضاء الجسد الواحد.

تكلم المصلح الإنجيلي "كلفن" عن سمئتين أساسيتين للكنيسة الحقيقية: الأولى، الكرازة باستقامة بإنجيل المسيح. والثانية، الإجراء الصحيح لسري (فريضتي) المعمودية والعشاء الرباني. كما شدد كثيراً على موضوع التأديب الكنسي، لعيش حياة القداسة، فاغتنر بعض المؤرخين ذلك التأديب السمة الثالثة للكنيسة. لقد علم "كلفن" بأن للكنيسة وجهان: وجه مرئي، ووجه غير مرئي. فالوجه المرئي هو الكنيسة المحلية، جماعة المؤمنين الذين تغيروا بواسطة كلمة الله، ويعبدون الرب يسوع فيها ويعيشون إيمانهم به ويسلكون سلوك القداسة. إلا أنه أضاف قائلاً: "مهنا منحننا الله روح المعرفة والتمييز، فإنه سيكون هناك حالات لا نستطيع أن نميز فيها بين المؤمنين وغير المؤمنين. وبالتالي، سيبقى في الكنيسة أشخاص غير مؤمنين، كالزوان بين القمح، مما يجعل الكنيسة المرئية غير كاملة. أما الوجه الثاني للكنيسة، فهو غير المرئي، المؤلف فقط من كل المؤمنين المقدسين من كل العالم وعبر كل العصور، وهي ليست معروفة من قبل الإنسان، لكنها معروفة فقط من قبل الله، فاحص الكلى والقلوب.

أيضاً من المبادئ الخالدة التي أقرتها حركة الإصلاح الإنجيلي،

المبدأ القائل بأن الكنيسة مُصلَحة وبحاجة دائماً للإصلاح في كلِّ زمان ومكان، بالاعتماد على فهُمنا للكتاب المقدس وعمل الروح القدس في الحياة.

إنَّ مَنْ يقرأ بموضوعية كيف بدأت حركة الإصلاح الإنجيلي مع المُصلِح "مارتن لوثر" عام ١٥١٧م، يُدرك تماماً أنَّ حركة الإصلاح لم تبدأ من فراغ، فقد انطلق "لوثر" بإصلاحه بعد اختبار روحي عميق غيَّر حياته ونظرتَه إلى الإنجيل، "لأنَّ فيه مُعلن بَرَّ الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب: أمَّا البارُّ فبالإيمان يحيا" (رومية ١: ١٧). ومع أنَّ هذا المُصلِح لم يُنكر أهمية الكنيسة ولم يُنكر حقَّها في الوجود، إذ اعتبرها "أُمنًا جميعاً". كما أنَّه كان يُدرك أهميتها الكبيرة في الحفاظ على وحدتها ونقائنها ضدَّ الهزِّطقات التي واجهتها، إلاَّ أنَّه في الوقت نفسه لمَس أنَّ هناك ضرورة إلهية للدفاع عن صدقية هذا الاختبار الروحي المَبني على الكتاب المقدس، وعن حقِّه في الحفاظ عليه، والاستمرار به، وتعميمه على الناس. لكن للأسف، بدلاً من أن يلقى "لوثر" وباقي المُصلِحين آذاناً مُصغية من قادة الكنيسة، فقد وُجِّهوا بالرَّفْض، وبطَلَبِ من "لوثر" أن يُنكر اختبارَه ويحرق كُتُبَه ويتراجع عن إصلاحه. وبعد قرار الكنيسة الكاثوليكية في مَجْمع "ترنت" بحرمانهم، وجَد المُصلِحون أنفسهم خارج الكنيسة وعلى حساب وحدتها.

أمَّا المُصلِح "جان كلفن" فيُفصِّح لله عن خبايا قلبه ويقول في رسالته إلى الكاردينال: "أنت تعلم يا رَبُّ أنَّ الشيء الوحيد الذي أنا طلبته (من خلال حركة الإصلاح) هو أن تُحلَّ صراعاتنا واختلافاتنا بواسطة كلمة الله، حتى نتمكن من أن نتجد بفكر واحد، وأن نُؤسس مملكتك". وبالتالي، فإنَّ السَّبب الكامن وراء الإصلاح الإنجيلي بنظر "كلفن" هو السَّعي نحو الحقائق الكتابية من كلمة الله. فالحقيقة تُسمو على الوحدة حتى لو كانت على حساب الوحدة الظاهرة. وهكذا، انطلقاً من مبدأ حرية الضمير، اختار "كلفن" وباقي المُصلِحين الحقيقة، وبكل راحة ضمير استمروا في حركة الإصلاح الإنجيلي. إلاَّ أنَّ النتيجة التي لم يكن يرغب فيها "كلفن" كانت الانقسام الحاد، ليس فقط مع الكنيسة الكاثوليكية التي رَفَضت الإصغاء لمطلبه، ولكنه تألم أيضاً كثيراً للانقسامات التي حدثت بين قادة وكنائس الإصلاح الإنجيلي بعد فترة قليلة من الزَمَن. فيخبرنا التاريخ أنَّه بعد حوالي عشرين سنة من خدمته في الإصلاح، وخمسة وثلاثين سنة من بدء الإصلاح الإنجيلي، وجد قادة وكنائس الإصلاح أنفسهم مُنقسمين بسبب اختلافات في وجهات النَّظر بين المُصلِح الألماني "لوثر"، والمُصلِح السويسري "أولترِيخ زوينكلي" حول مفهومهما للعشاء الرباني وسلطة الدولة وغيرها من الأمور. وفي عام ١٥٢٩م نَظَم بعض أصدقاء "لوثر" و"أولترِيخ زوينكلي" لقاءً بين القائدين، تعبيراً عن استيائهم من تلك الاختلافات، ولكن للأسف فشل ذلك اللقاء. وهكذا انتقلت وانتشرت الخلافات بين قادة وكنائس مؤيدي الفريقين.

أمَّا "كلفن" فبالرغم من أنه كانت له وجهة نظر تختلف عن "لوثر" و"زوينكلي" حول بعض تفاصيل مفهومه للعشاء الرباني، إلاَّ أنَّه ومن باب حِرْصه على تقريب وجهات النَّظر بين مؤيدي قُطْبَيْن أساسيين من أقطاب الإصلاح، كتب وثيقة تفاهم مُشتركة حول الموضوع، تبناها المُصلِحون الذين

تَبِعُوا الخَطَّ الإِصْلاحي ل "زوينكلي". وقد أخذت الوثيقة مدة عشر سنوات إلى أَنْ نَصَّجَتْ في العام ١٥٤٩م وَوُقِّعَتْ مِنْ قِبَلِ الطَّرْفَيْنِ تحت اسم consensus tigurinus وبالرغم من أَنَّ هذا الاتِّفَاقَ لا يُعَيِّرُ بِشَكْلِ دَقِيقٍ عن تَفَاصِيلِ مَفْهُومِ الطَّرْفَيْنِ للموضوع، وتعرُّضه لانتقاد كبير من المُصْلِحِ اللوثرِي "يواكيم ويستفال" الذي رَفَضَهُ وانْتَقَدَ "كلفن" بشدَّة ، إلاَّ أَنَّهُ كان مُحاولَةً صادِقةً مِنْ قِبَلِ "كلفن" لرأب الصَّدْعِ.

وضع "كلفن" مقياساً اعتمده في علاقته مع باقي المُصْلِحين للتقريب فيما بينهم، لتخفيف الانقسام وتزكية الوحدة. فقد صنَّفَ الإيمان والممارسات المسيحية إلى صنفين: الأول، سماه "الأمر الأساسية والجوهرية: الكتاب المقدس والعقائد الأساسية. والثاني، الأمور الثانوية غير الأساسية: نظام إدارة الكنيسة، طريقة العبادة (الليتورجية)، طريقة الحوار مع الكنيسة الكاثوليكية، وغيرها من الأمور. فمع اعتقاد "كلفن" أَنَّهُ ليس هناك كنيسة مَرْنِيَّة كاملة على هذه الأرض، بسبب بقايا الجَهْلِ والخطية الكامنة في الإنسان حتى بعد إيمانه، فقد آمَنَ "كلفن" أَنَّ الكنائس الإنجيلية تستطيع أَنْ تتقارب وتتوحد في الأمور الأساسية، إذ لا يوجد أي مانع ليكون للكنائس وجهات نظر مُخْتَلِفة في الأمور الثانوية. وحتى لا تدين أُمَّة كنيسة إنجيلية كنيسة إنجيلية أخرى، فقد تحدَّثَ "كلفن" عن ضرورة أَنْ يكون للكنائس الإنجيلية نَظْرَةٌ مُعتدلةً إلى بعضها البعض. فيقول: "يجب أَنْ يكون لدينا الاعتدال حتى لا نُسرِعَ بالحُكم والدينونة على كلِّ مَنْ لا يَتَّفِقُ معنا أو يُناقضنا في الأمور الثانوية". وحتى لا يُفْهَمَ "كلفن" خطأً بأنَّهُ يُشجِّع على الخَطَأِ، بَلْ على الاعتدال في النَظْرَةِ، فقد قال: "أنا لا أعني بهذا أَنِّي أُشجِّع على الخَطَأِ حتى قَلَّ الاخطاء، لكني أقول إنَّهُ مِنَ الخَطَأِ أَنْ يتزكَّ أحدهم الكنيسة من أجل خلاف ثانوي". وبهذا السياق فقد نَصَحَ المُصْلِح "مارتن بوتسر" الذي كان مُلتزماً بالإصلاح اللوثرِي ألاَّ ينفصل عن "مارتن لوثر" من أجل ممارسات ثانوية غير هامة.

آمَنَ "كلفن" أَنَّ الدِّفاعَ المُشْتَرَكَ للمُصْلِحين عن الإيمان المسيحي والإصلاح الإنجيلي، يتطلَّبُ التَّنَازُلَ عن الأمور الثانوية والارتفاع فوق الجراحات الشَّخْصِيَّةِ مِنْ أَجْلِ تعزيز الوحدة والتَّفَاهُْمِ بَيْنَ قَادَةِ وكنائس الإصلاح الإنجيلي، لاسيَّما في تلك الفَتْرَةِ التي كان يتعرَّضُ فيها الإصلاح الإنجيلي لضغوطات كثيرة. فكتب "كلفن" إلى المُصْلِح "بولينغر"، الذي أكْمَلَ العمل الإصلاحي في "زوريخ" بعد المُصْلِح "أولرخ زوينكلي" قائلاً له: "ما الأمر الأهم في المُراسلة بَيْنَنا في هذا الوقت، سوى موضوع الحِفاظ والتأكيد بكلِّ ما أُعْطِينَا مِنْ قُوَّةٍ على المَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ واللُّطْفِ بَيْنَنا. ويُكْمَلُ: "يجب أَنْ نَعْمَلَ كلَّ ما في وسعنا حتى تكون الكنائس التي تَشْهَدُ بكلمة الله بأمانة وإخلاص في توافقٍ بَيْنَ بعضها البعض".

لقد أذمت قَلْبَ "كلفن" تلك الانقسامات، فكتب في العام ١٥٥٢م رسالة إلى المُصْلِحِ الإنجيلي الإنكليزي "توماس كرنمار" الذي أُخْتِيرَ لاحقاً ليكون رئيس أساقفة "كنتربري" (رئيس الكنيسة الإنجيلية الأسقفية)، مُعَيِّراً عَن أَمِّهِ مِنْ هذه الانقسامات الكثيرة، قال فيها: "إنَّ هذا الانقسام الكبير

بَيْنَ قَادَةَ وَكِنَائِسِ الإِصْلَاحِ، يُعَدُّ مِنْ أَعْظَمِ شُرُورِ عَصْرِنَا، حَتَّى أَنَّهُ بِالْكَادِ تَوْجِدَ عِلَاقَةَ إِنْسَانِيَّةٍ تَجْمَعُ بَيْنَنَا. فَلَيْسَ هُنَاكَ ذَلِكَ النُّورُ المُشْعَى مِنَ الشَّرِكَةِ المُقَدَّسَةِ بَيْنَ أَعْضَاءِ كَنِيسَةِ الْمَسِيحِ، إِذْ يَتَفَاخَرُ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ فِي الْكَلَامِ، وَقَلِيلُونَ مِنْهُمْ يَعْمَلُونَ بِصِدْقٍ. وَلِأَنَّ الْأَعْضَاءَ مُمَرِّقِينَ، فَإِنَّ جَسَدَ الْمَسِيحِ يَنْزِفُ جَرِيحاً... فَإِذَا مَا كَانَ فِي قُوَّتِي وَسُلْطَتِي أَنْ أَسَاعِدَ فِي اتِّجَاهِ الْوَحْدَةِ، فَإِنِّي لَنْ أَخَافُ أَنْ أَقْطَعَ عَشْرَةَ بَحَارٍ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ الْوَحْدَةِ بَيْنَ أَعْضَاءِ الْكَنِيسَةِ".

لَقَدْ آمَنَ "كَلْفَن" بِأَنَّهُ عَلَى الْقَادَةَ الإِنْجِيلِيَّيْنَ أَنْ يَرْتَفِعُوا فَوْقَ جِرَاحَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ أَجْلِ السَّلَامِ وَالْوَتَامِ وَالْوَحْدَةِ فِي الْكَنِيسَةِ. فَمَصْلُحَةُ الْكَنِيسَةِ يَجِبُ أَنْ تَسْمُو دَائِماً عَلَى الْجِرَاحَاتِ الشَّخْصِيَّةِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، يُخِيرُنَا "كَلْفَن" أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَمَّ تَحْدِيدُ مَوْعِدِ لِحُضُورِ لَاهُوتِيَّيْنَ إِنْجِيلِيَّيْنَ مُصْلِحِينَ مُتَنَوِّعِينَ مِنْ عِدَّةِ أُمُكِنَةِ لِلتَّشَاوُرِ وَالتَّفَاهُومِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لَمْ يَخْضُرْ لَاهُوتِيُّو مَدِينَةِ "زُورِيخ". فَانْتَزَعَجَ "كَلْفَن" مِنْ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ وَقَالَ: "لَدَيْنَا كُلُّ سَبَبٍ كَيْمَا نَرْتَبِي وَنَتَأَلَّمَ لِأَوْلَادِكَ الَّذِينَ، مَعَ الإِقْرَارِ بِأَنَّ قَلْبَهُمْ صَادِقٌ أَمَامَ اللَّهِ، لَكِنْ تَنْقُضُهُمُ الرِّغْبَةُ وَالاهْتِمَامُ لِتَرْكِيَةِ السَّلَامِ الْعَامِ فِي الْكَنِيسَةِ. ثُمَّ أَضَافَ: "إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ اهْتِمَامٌ لِعَيْشِ وَحْدَةِ إِلَهِيَّةٍ بَيْنَ بَعْضِهِمُ الْبَغْضِ، عَلَيْهِمْ عَلَى الْأَقْلَى أَنْ يَعْتَبِرُوا أَنَّهُ مِنْ وَاجِبِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا لِلْوَصُولِ إِلَى تَفَاهُومِ مُتَبَادَلٍ بَيْنَ الْكِنَائِسِ الإِنْجِيلِيَّةِ، فَإِذَا مَا خَطَّطُوا عَمْداً لِذَلِكَ (لِعَدَمِ مَجِيئِهِمْ)، فَإِنَّا نَتَجَاوَزُ الْآخَرِينَ فِي الْخَطِيئَةِ".

وَالجَدِيرُ ذِكْرُهُ، أَنَّ مَوْقِفَ الإِدَانَاتِ المُتَبَادَلَةِ الَّتِي حَصَلَ فِي عَهْدِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَالْمُصْلِحِينَ الإِنْجِيلِيَّيْنَ، قَدْ تَغَيَّرَ فِي عَصْرِنَا هَذَا، إِذْ حَصَلَ تَقَدُّمٌ فِي النُّظْرَةِ المُتَبَادَلَةِ نَحْوَ بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ، حَيْثُ ظَهَرَ فِي الْمَجْمَعِ الْفَاتِيكَانِيِّ الثَّانِي لِلْكََنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ الَّتِي انْتَعَدَتْ عَامَ ١٩٦٢م، أَنَّ ذَلِكَ الْمَجْمَعُ أَطْلَقَ عَلَى الإِنْجِيلِيَّيْنَ تَسْمِيَةَ "الأَخُوَّةِ المُنْشَقِّينَ". وَلَا بَدَأَ مِنْ لَفْتِ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى تَطَوُّرِ هَامِ جَرَى عَامَ ١٩٩٥م بَعْدَ حِوَارِ لَاهُوتِيَّيْنَ بَيْنَ لَاهُوتِيَّيْنَ مِنَ الْكَنِيسَتَيْنِ الْوِثْرِيَّةِ وَالْكَاثُولِيكِيَّةِ حَوْلَ مَوْضُوعِ كَانَ مِنْ أَهَمِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَثَارَهَا الإِصْلَاحُ الإِنْجِيلِيُّ، أَلَا وَهُوَ "التَّبْرِيرُ بِالإِيمَانِ". فَقَدْ تَوَصَّلَا إِلَى إِعْلَانِ مُشْتَرَكٍ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ تَمَّ تَوْقِيعُهُ مِنْ قِبَلِ الطَّرْفَيْنِ. وَمَعَ أَنَّ هَذَا الإِعْلَانَ الْمُشْتَرَكُ لَا يُغْطِي كَامِلَ تَعَالِيمِ الْكَنِيسَتَيْنِ فِي تَفَاصِيلِهَا الْمُخْتَلِفَةِ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ، إِلَّا أَنَّهُ إِجْمَاعٌ عَلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِعَقِيدَةِ التَّبْرِيرِ.

وَبِالرُّغْمِ مِنَ التَّشْدِيدِ الإِنْجِيلِيِّ عَلَى أَنَّ وَحْدَةَ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ بِالدرْجَةِ الْأُولَى فِي التَّبْعِ، الَّتِي هِيَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَيْضاً مُدْرِكُونَ أَنَّ وَحْدَةَ الْكَنِيسَةِ هِيَ بِالدرْجَةِ الْأُولَى شَهَادَةُ إِيمَانِ أَمَامِ الْعَالَمِ، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ ابْنَهُ يَسُوعَ الْمَسِيحَ لِفِدَاءِ الْعَالَمِ. فَالانْتِقَسَامَاتُ فِي الْكَنِيسَةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْكََنِيسَةِ الْعَالَمِيَّةِ هِيَ مِنْ أَشْرِّ الشُّرُورِ. هِيَ جُرْحٌ يَنْزِفُ فِي جَسَدِ الْمَسِيحِ، كَمَا يَقُولُ "كَلْفَن": "لِهَذَا، مَعَ تَمَسُّكِنَا فِي وَجْهِ الْكَنِيسَةِ الْحَقِيقِيِّ، نَحْنُ مَدْعُوعُونَ أَوَّلًا لِلتَّوْبَةِ، وَالِاقْتِرَابِ مِنَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَصْدَرِ وَحْدَتِنَا، لِأَنَّهُ عِنْدَمَا نَقْتَرِبُ مِنَ الْمَسِيحِ نَقْتَرِبُ مِنْ بَعْضِنَا الْبَعْضِ. نَحْنُ مَدْعُوعُونَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى بَعْضِنَا الْبَعْضِ، كَأَفْرَادِ مَسِيحِيِّينَ وَكِنَائِسِ، وَالْعَمَلِ

من أجل وحدة الكنيسة، كيما تسود المحبة والألفة بين جميع أولاد الله، لنُحَقِّق أحد معاني موت المسيح الهامة على الصليب، ألا وهو أن يجمع أولاد الله المتفرقين إلى واحد. آمين".

ماذا يُعلِّمنا المُصلِحون الإنجيليون عن مريم العذراء؟

إنَّ النُّظْرَةَ إلى مريم العذراء، موضوعٌ له خُصوصيَّةٌ وحِساسِيَّةٌ في العلاقات بين الكنائس، لاسيَّما بين الكنيسة الإنجيلية بعائلاتها المُتَنَوِّعة، والكنائس الشَّقِيقة التَّقْلِيدِيَّة الأخرى. فهناك نِقَاطُ اِخْتِلافٍ أساسِيَّة في وَجْهات النُّظَرِ حَوْلَ شَخْصِيَّتها، ومَكانَتِها، ودَوْرها في تَجَسُّدِ المسيح، وفي الوقت نفسه نِقَاطُ تَلَقِّي حَوْلها الكنيسة الإنجيلية معها. فنُظْرَةُ الإنجيليين إلى مريم العذراء تَكُونُ بناءً على عامِلَيْنِ أساسِيَّيْنِ: العامِلِ الكِتابِي، والعامِلِ التَّارِيخِي.

بالنسبة للعامِلِ الكِتابِي: فالإنجيليون، وانطلاقاً من مبدأ أن الكتاب المقدس وحده هو المَصْدَرُ الوَحِيدُ للعقيدة، يتمسكون بما يورده الكتاب المقدس عن مريم العذراء دون الرُّجوع إلى أيِّ مَصْدَرٍ آخر. وبالتالي يشدِّدون على ما يُعلِّنه الكتاب حول نعمة الله المَمنوحة لمريم، ودعوة الله لها لتكون أماً ليسوع وتجاوبها، وموقفها الإيماني والرُّوحي المؤثِّر بقبول تلك الدَّعوة الإلهية بطاعة وخضوع كاملين، بقولها للملاك: **"هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك"** (لوقا: ٣٨).

أما العامِلِ التَّارِيخِي، فهو زَمَنُ الإِصلاحِ الإنجيلي في القرن السادس عشر، إذ احتجَّ المُصلِحون الإنجيليون على الكثير من الممارسات التي كانت شائعة في الكنيسة آنذاك في أوروبا، ومنها الممارسة التي ارتبطت بمريم العذراء التي سادها الكثير من المُبالغة والتمجيد إلى حدِّ العبادة والتأليه. وقد رأى المُصلِحون الإنجيليون أن تلك الممارسات خرَّجت عن إطار تعليم الكتاب المقدس وسجِّل الكنيسة الأولى في سفر أعمال الرسل. وأخرَّجت مريم عن إطارها الكِتابِي وأُطْلِقَ عَلَيها الكثير من الألقاب المُختلفة التي لم يُطْلِقها الكتاب المقدس عليها. فسُمِّيَت "شريكَّة في الخلاص"، "أم الرِّحْمَة"، "شفيعة بين السماء والأرض"، "موزعة النعم"، وغيرها من الألقاب التي لا يجوز أن تُطْلَقَ إلا على شَخْصِ الرَّبِّ يسوع المسيح وحده. فتحولَ تَمجيدُها عقيدة مَريمِيَّة "Mariology". لهذا مُدِحَت ومُجِدَّت، وأقيمت لها الصَّلوات والقدايس والاحتفالات.

في هذا الجَوِّ مِنَ المُبالغة في تَمجيد مريم العذراء، بَرَزَ المُصلِحون الإنجيليون في القرن السادس عشر، فتقدوا تلك الممارسات المَريمِيَّة المُبالغ فيها، التي أخرَّجتها عن كونها مخلوقاً لتنافس شخص المسيح في العبادة والشفاة والوساطة، بل وتخبُّبه عن الأنظار وتخلَّ محلُّه في بعض الأحيان. وقد كانت ردة فعل المُصلِح "مارتن لوثر" أن تُلغى كُلُّ مُمارسة لها علاقة بمريم العذراء، حتى لا يَبْقَى المسيح الرَّبُّ مَحْجوباً عن أنظار المؤمنين. وهكذا رَفَعَ المُصلِحون شعار العودة في العبادة والعقيدة، إلى

الجدور الأولى، إلى كنيسة الرسل التي شُدَّت على مركزية الرب يسوع المسيح في كل الحياة، كيما تستعيد مريم العذراء مكانتها ودورها الطبيعي الإنجيلي الذي يُعَلِّنه ويعلمه الكتاب المقدس.

إلا أنه بالرغم من نقد المُصلحين لتلك الممارسات المُبالغ فيها، التي سادت حول مريم آنذاك، فقد حافظوا على النظرة الكتابية في تكريم مريم العذراء في روحانيتهم ووعظهم وتأمُّلاتهم، الأمر الذي افتقدناه في كنائسنا الإنجيلية اليوم. فالمُصلحون الرُّبِّيُّون الثلاثة "مارتن لوثر، وجان كلفن، وأولرخ زوينكلي" كرم كلُّ بيدوره مريم العذراء كما يَسْمَح الإنجيل بتكريمها. وقد آمنوا بأنها بقيت عذراء، أي بتول بعد ولادتها الرب يسوع المسيح، وتمسكوا بالنظرية القائلة بأن أخوة يسوع الأربعة الذين تُذكرهم الأناجيل (يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان) هم لئسوا أولاد مريم ويوسف، وإنما أقرباؤه (أولاد عمه أو خاله) إذ كانت كلمة (أخ) تُطلق آنذاك على الذين يرتبطون معاً بصلة قرابة.

وفي تفسير قول الملاك لمريم: «سَلامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! الرَّبُّ مَعَكَ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي الْبَسَاءِ». ومديح أليصابات لمريم: "مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي الْبَسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةٌ بَطْنِكَ! فَمِنْ أَيَّنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِي أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟" (لوقا: ٢٨ و٢٩ و٤٣)، قال المُصلح "جان كلفن": "لا نستطيع أن نفرح بالنعمة المُعطاة لنا في المسيح، دون أن نتذكر في الوقت نفسه سُمُو الإكرام الذي منحه الله لمريم حين اختارها لتكون أم لابنه الوحيد، وحين كلمها الملاك بالكلام الذي قالته لها أليصابات". أيضاً أضاف "كلفن": "لا يُمكن أن نُذكر أن الله باختياره مريم لتكون أم لابنه، منحه الشرف الأعظم". أما "مارتن لوثر" فقال بأن أليصابات استخدمت كلمات رائعة لم تسمعها امرأة في الكون، فمريم هي أكثر من إمبراطورة أو ملكة، وهي أعظم من حواء وسارة... ولا نستطيع تكريمها كفاية، فتكريمها مخفور في أعماق قلب الإنسان. وعلى المسيحي أن يُذكر حقيقتها ويحترمها". أما المُصلح "زوينكلي" فقال: "كلما أحببنا واحترمنا المسيح أكثر، فإننا نُقدِّر ونُحترم مريم العذراء أكثر فأكثر، لأنها حملت لنا المُخلص في أحشائها". إذاً فإن نظرة المُصلحين الإنجيليين لمريم العذراء انسجمت مع مضمون الكتاب المقدس، إذ لم تحجب المسيح، ولم تُقلل من سيادته المُطلقة على الحياة، بل كما قالت هي للخدام في عُرس قانا "مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فافعلوه" (يوحنا ٢: ٥).

ومع نهاية جيل المُصلحين الأوائل في نهاية القرن السادس عشر، اختدم الصراع كثيراً بين الإنجيليين والكاثوليك، فتمسك الكاثوليك بالعقيدة المَرِيَمِيَّة لتصبح مريم العذراء جزءاً أساسياً من الهوية الكاثوليكية، وتغيبت مريم تماماً عن التفكير والتأملات والروحانية والوعظ الإنجيلي، كَرَدَّة فعل على تطرف الممارسة عند الكاثوليك، فلم نعد نذكرها في عطاتنا وتأمُّلاتنا، ولم نتوقف ملياً أمام ما قاله لها الملاك جبرائيل: "سَلامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا، الرَّبُّ مَعَكَ، مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي الْبَسَاءِ" (لوقا: ٢٨)، وما قالته لها أليصابات: "مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي الْبَسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةٌ بَطْنِكَ، فَمِنْ أَيَّنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِي أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ، فَطُوبَى لِّلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" (لوقا: ٤٢ و٤٣). أما موقف مريم العذراء أمام بشارة الملاك لها، ومديح أليصابات فكان شهادتها لنعمة الله في حياتها، إذ رنمت قائلة: "تَعَظَّمُ نَفْسِي الرَّبِّ وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللَّهِ مُخْلِصِي، لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ إِلَى اتِّضَاعِ أُمَّتِهِ، فَهُذَا مُنذُ الْآنَ جَمِيعُ الْأَجْيَالِ تَطُوبُنِي" (لوقا: ٤٨).

يقول اللاهوتي الإنجيلي "كارل بارت": "عندما بشرَ الملاك جبرائيل مريم العذراء، كانت هناك كلمة مَدْح وكلمة تَحْذِير. فقد مَدَح الملاك أهمية اختيار نعمة الله لها، ممَّا يدلُّ على أنَّها أعظَمُ من كلِّ الشَّخصيات، أعظم من إبراهيم وموسى وداود ويوحنا المعمدان، فهي دون أيِّ شكِّ الشَّخصية المُميَّزة في الكتاب المقدس. لكن هناك أيضاً كلمة تَحْذِير، لأننا سوف نُسيءُ فهُم حقيقتها ودورها إذا ما بقينا في المَدْح. وكلمة التَّحذير هي أن نتذكَّر أن مريم احتاجت لِنِعْمَةِ الله. فالله يأتي إليها ليكون معها ويجعلها مُميَّزة. وبالتالي، فميزتها لِيَسْتَمِنَ ذاتها، بل لأنَّ الله أنعم عليها وميَّزها وباركها، لأنها سمعت صوته وقبَّلت دَعْوَتَهُ لتكون أداة لتجسُّد ابنه يسوع. وهناك عقائد رئيسية تَحْتَصِرُ نَظْرَةَ المسيحيين إلى مريم العذراء، يلتقي الإنجيليون في البعض منها ويختلفون في البعض الآخر هي:

(١) عقيدة الحَبَل بِلَا دَنَس، التي أُعلِنها سنة ١٨٥٤م البابا "بيوس" التاسع. وتفيد بأنَّ العذراء حُفِظَتْ من تلوُّث الخطيئة الأصليَّة مُنْذُ اللحظة الأولى للحَبَل بها، بواسطة امتياز فريد من الله. وهي عقيدة موحاة بها من الله، كما أعلن البابا. إلا أنَّ الإنجيليين، وبما أن الكتاب المقدس الذي له السُّلْطَةُ العُلْيَا، والمَصْدَرُ الوحيد للعقيدة، وبما أنَّ هذه العقيدة لا تُذكِّرها الأناجيل، فهُم لا يقبلون بها.

(٢) عقيدة انْتِقَالَ مريم العذراء إلى السَّمَاءِ بالجَسَدِ والنَّفْسِ، والتي أُعلِنها البابا "بيوس" الثاني عام ١٩٥٠م. وتفيد بأنَّ العذراء وَبَعْدَ حياتها على الأرض انْتَقَلَتْ بالجَسَدِ والنَّفْسِ إلى مَجْدِ السَّمَاءِ. إلا أنَّ موقِفَ الإنجيليين من هذه العقيدة هو الموقِفُ نَفْسَهُ من عقيدة الحَبَل بِلَا دَنَس لأنَّ لا أساس لها في الكتاب المقدس.

(٣) عقيدة الميلاد العذراوي، التي تُعلِنها الأناجيل بأنَّ ولادة يسوع قد تَمَّتْ بالروح القدس من مريم العذراء. ويُمكن لإنجيلي اليوم أن يتعلموا من موقِفِ المُصلِحين الإنجيليين الأوائل الذين اعتقدوا ببتولية العذراء الدائمة، إذ لا يوجد في الكتاب المقدس ما يَمْنَعُ هذا الاعتقاد الذي يشكِّلُ نُقْطَةَ لقاء مع المؤمنين في الكنائس الأخرى.

وهنا لا بُدَّ من ذِكر أنَّ جميع المُصلِحين الإنجيليين الرئيسيين قَبِلُوا بتعبير *theotokos* "الكريستولوجي"، والذي يَعْنِي بِاللُّغَةِ اليونانية "والِدَةُ الإله" أو "حَامِلَةُ الإله"، الذي أُقِرَّ في مَجْمَعِ أفسُس سنة ٤٣١م، ثمَّ تَثَبَّتْ في مَجْمَعِ خَلْقِدُونِيَّة سنة ٤٥١م، كما أقرَّه آباء الكنيسة، قبلوه على أنه لا يصف شخص مريم العذراء، وإنما يشدِّد على الطبيعة الإنسانية لذلك الإله المُتَجَسِّد يسوع المسيح، والتي هي مُتَّحِدَةٌ مع طبيعته الإلهية، وإنما مُتَمَايِزَةٌ عنها. وبالتالي، فالمسيح ذو طبيعة إنسانية، لأنه من والِدَةٍ بشرية هي مريم العذراء، وذو طبيعة إلهية كونه ابن الله الأزلي. لقد أُوضِحَ اللاهوتي الإنجيلي "كارل بارت" هذا التَّعبير بقوله: "من خلال مريم العذراء، يَنْتَمِي المسيح إلى الجنس البشري. ومن خلال المسيح، مريم هي والِدَةُ الإله". إلا أنَّ المُصلِح "جان كلفن" الذي قَبِلَ لاهوتياً بهذا التعبير الكريستولوجي *theotokos* لم يَجِدْ رَاحَةً في تشجيع المؤمنين على استخدامه لأنه قد يغيب عن ذهنهم القَصْدَ الأساسي والتاريخي منه، ألا وهو وَصْفُ طبيعتي المسيح، الإنسانية والإلهية، فيصبح استخدامه إشارةً إلى دور مريم العذراء النَّشْطِيَّ الذي يُخْرِجُهَا عن الإطار الذي يُعلِّنه الكتاب المقدس، وهو الدور الذي رَفَضَهُ المُصلِحون الإنجيليون الأوائل. في هذا السياق يقول اللاهوتي "كارل بارت": "يجب على الإنجيليين ألا يَقْلِقُوا مِنْ استخدام تعبير "والِدَةُ"

الإله " لمريم العذراء، ولكن شَرَطَ أن يُفْهَمَ هذا التعبير بِمَعْنَاهُ الحَقِيقِي، أي للتأكيد على طبيعَتَي الرَّبِّ يسوع، الإلهية والإنسانية. ولكن إذا ما أُسِيءَ اسْتِخْدَامُ هذا التعبير، فالأفضل أن لا يُسْتَخْدَمَ". وإذا كان الإنجيليون مع قبولهم اللاهوتي لتعبير "والدة الإله"، إلا أنهم يقلقون من سوء استخدامهم كي لا يُفْهَمَ خَطَأً. فإنهم يرفضون استخدام تعبير "أم الله" لمريم العذراء، لما يَحْمَلُ هذا المفهوم من علاقة خاصة يُحْتَمُّ عليها الشفاعة، وهو الأمر الذي رَفَضَهُ المُصَلِحُونَ الإنجيليون منذ زَمَنُ الإصلاح الإنجيلي.

يَبْرُزُ في العالم المسيحي، الإنجيلي وغير الإنجيلي، وابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين وحتى اليوم اهتماماً جديداً لاعادة تقويم النظرة إلى مريم العذراء. يقول "تيموثي جورج" عميد كلية إنجيلية معمدانية: " أرجو من بروتستانت اليوم أن يعودوا في التاريخ إلى المُصَلِحِينَ الإنجيليين، لِيَسْتَعِيدُوا الصُّورَةَ الحَقِيقِيَّةَ والإصلاحية والكتابية لمريم العذراء. فبَعْدَ سنين طويلة من الصَّمْتِ الإنجيلي حَوْلَ مريم، صدرت كُتُبٌ ودراسات ومقالات جديدة كتبها إنجيليون لإعادة النَّظَرِ إلى مريم العذراء على ضوء التاريخ المُصَلِحِ والكتاب المقدس معاً منها:

"The New Protestant Vision of Mary رؤية البروتستانت الجديدة لمريم" ١٩٧٦م

"Mary for All Christians مريم لكل المسيحيين للكاتب جان ماكري ١٩٩٠م.
"Protestant pastor Looks at Mary قيسُ بروتستانتِي يَنْظُرُ إلى مريم ١٩٩٦م.

"Blessed One; Protestant Perspectives on Mary المباركة، وجهات نظر إنجيلية حَوْلَ مريم" ٢٠٠٢م.
"Mary for Evangelicals مريم للإنجيليين" ٢٠٠٦م.

وبالإضافة إلى ذلك صَدَرَت سلسلة من المقالات في مجلات مثل: مجلة Times صدرت سلسلة من المقالات بعنوان "The Protestant Mary مريم العذراء الإنجيلية" ٢٠٠٥م. وفي مجلة Christianity Today صدر مقال بعنوان "The Mary We Never Knew مريم التي لم نَعْرِفْهَا أَبَداً" ٢٠٠٦م. كما صدرت عدة مقالات لكتاب إنجيليين باللغة العربية منهم: الدكتور "جورج صبرا"، والدكتور "جونى عواد"، والقس "تشارلي قسطة" وغيرهم.

كذلك نجد أيضاً حوارات ودراسات مُشْتَرَكَةً بَيْنَ لاهوتيين إنجيليين ولاهوتيين من الكنائس الأخرى أثمرت في إصدار كتب مُشْتَرَكَةً حول النَّظَرَةَ إلى مريم العذراء منها:

"The One Mediator, The Saints, and Mary الشُّفِيعُ الوَحِيدُ، القديسون، ومريم" ١٩٩٢م. نتيجة حوار بَيْنَ لاهوتيين إنجيليين وكاثوليك.

"Mary dans le Dessein de Dieu, et dans la Communion des Saints مريم في خطة الله وفي شركة القديسين" ١٩٩٩م. نتيجة حوار مجموعة من عشرين لاهوتياً كاثوليكياً، وعشرين لاهوتياً إنجيلياً، فرانكوفوني هي مجموعة Group de dombs.

هذا الاهتمام الإنجيلي باستعادة العذراء إلى فِكْرٍ ووَغْظٍ وتأمُّلاتٍ وروحانية الكنائس الإنجيلية على ضوء الكتاب المقدس، ونظرة المُصَلِحِينَ الإنجيليين، يُقَابِلُهُ اهتمام كاثوليكي جَرَى سنة ١٩٦٢م في المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي أظهر تغييراً في النَّظَرَةَ إلى العذراء لتكون من

وحي الكتاب المقدس، والذي تُرجم عملياً بإصدار توجيهات للتخفيف من الألقاب الكبيرة التي استُخدمت لها في الماضي، والنظر إليها من وجهة نظر إنسانية، كقديسة في شركة القديسين، وكمؤمنة من مؤمني الكنيسة الأولى التي قِيلَت الروح القدس مع باقي المؤمنين، وكنموذج للكنيسة المؤمنة والإنسان المؤمن والتلمذة الحقيقية.

ومما لا شك فيه، أن مريم العذراء هي مثال لكل مؤمن مسيحي يريد أن يكون تلميذاً حقيقياً للمسيح. فهي في عرس قانا الجليل قالت للخُدام " **مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فافعلوه**" (يوحنا ٢: ٥). ومن الأقوال الجميلة التي قِيلَت عن مريم، والتي تدعونا للتَّمثُل بإيمانها وطاعتها وقداستها، أن الرَّب يسوع المسيح لَمْ يولد فقط من رحم مريم، لكنّه وُلِدَ أيضاً مِنْ إيمانها وطاعتها وقداستها. فليتنا نتعلّم منها الإيمان بالخضوع لإرادة الله، وأن نَجَلِبَ ونُقَدِّمَ المسيح للعالم في صلواتنا وأفكارنا وتصرفاتنا.

(٣) النظرة الإنجيلية المصلحة لعيش الإنجيل في المجتمع

الإصلاح الإنجيلي ومفهوم الدولة

بدأ الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر كحركة روحية تناوَلت بالدرجة الأولى علاقة الإنسان مع الله بالإيمان بالمسيح، إلا أن هذه الحركة لَمْ تَقْتَصِرْ فقط على الجانب الروحي، بل طالَت كل جوانب الحياة. وانطلاقاً من فهم المُصلِحين للكتاب المقدس على أنه المَصْدَر الوحيد للعقيدة والإيمان والحياة، صار الله محور كل حياة وفكر ومفهوم الإنجيليين لكل شيء. لقد آمن المُصلِحون الإنجيليون بحضور الله وسيادته وعنايته بكل إنسان، ليس فقط في الكنيسة، وإنما أيضاً في العالم الذي يعيش فيه، في مجتمعه ووطنه. فمع وجود الشُّرور والظُّلم والفساد في العالم بسبب الخطية وبُعد الإنسان عن الله، الأمر الذي يبدو وكأنه إنكارٌ لسيادته، فالله لا يتوقَّف عن كونه الله الذي خَلَق العالم ويَعْتِنِي به ويُمارس سُلْطانه عليه ويَهْتَم بأولاده الذين يَقْطِنون فيه. مِنْ هذا المُنْطَلَق آمن المُصلِحون الإنجيليون أنه كما أقام الله الكنيسة في المجتمع لتَهْتَم بعلاقة الإنسان الروحية مع الله، هكذا أقام أيضاً ويُقيم الدولة في المجتمع لتَهْتَم بالجوانب الأخرى وتَسْهَر على حياة وسلامة وعلاقة الناس مع بعضهم البعض.

من المُصلِحين البارزين، اثنان لعبا دوراً أساسياً في حركة الإصلاح هما: "لوثر وكلفن". ومن خلال فهمهما لعناية الله بكل إنسان، فقد آمنّا

بضرورة وجود الدولة، لسببين رئيسيين: الأول، لفرض تطبيق الشريعة الطبيعية على الإنسان. والثاني، لضبط التعدييات والشُرور التي تنتج عن حالة الخطية التي يعيش فيها الإنسان. بالنسبة للسبب الأول، آمن المصلحان "لوثر وكلفن" أن الطبيعة البشرية تزود الإنسان منذ ولادته بشريعة غير مكتوبة (Natural law)، تظهر من خلال الميل والتوجه المسلكي والأخلاقي الفطري الذي زرعه الله في ضمير الإنسان، ليساعده على التمييز بين الخير والشر. وهذا ما يُفسر ميل الشعوب القديمة إلى التمييز بين الخطأ والصواب في السلوك، بالرغم من غياب الشرائع المكتوبة في مجتمعاتهم. أمّا إذا تصرّفت بعض المجتمعات القديمة بخلاف ذلك، فهذا لا يعني غياب هذه الشريعة. فالشريعة الطبيعية هي الأساس الذي يجب أن تنطلق منه كل شرائع العالم. لقد استقى المصلحون هذا الفكر من فهمهم كلام الرسول بولس في (رومية ٢: ١٤)، حيث يبين أن الشعوب الوثنية التي لم يكن لديها شريعة موسى، كان ضميرهم هو شريعتهم الطبيعية. إلا أنه بالرغم من رسوخ قناعة المصلحين بهذه الشريعة، فقد آمنوا بأن خطية الإنسان وتمردّه على الله، عثمت على هذه الشريعة وألقت بظلالها السوداء عليها، فصارت غير كافية وغير واضحة، وصار من الصعب على الذكاء الإنساني تمييزها وإدراكها بوضوح. لهذا، فالإنسان بحاجة لنعمة وقوة إلهية خاصة يمنحها له الله بالإيمان بالمسيح يسوع، حتى يُعيد تفعيل قدرة هذه الشريعة على ضبط سلوك الإنسان. وما ضرورة الدولة في هذا السياق، إلا كونها القدرة التنفيذية التي أقامها الله لتحقيق الهدف من الشريعة الطبيعية، إذ أنه من مهام الدولة استخدام سلطتها وأجهزتها، لفرض تطبيق الشريعة الطبيعية لإرساء الحق والخير والعدل في المجتمع.

أمّا السبب الآخر والأهم الذي يُحتم ضرورة قيام الدولة، فهو حالة الإنسانية الخاطئة. فالمصلحون أجمعوا على أن الخطية، وتمرد الإنسان على الله، قد أفسدا فكر وإرادة وتصرفات الإنسان. فالإنسان الخاطئ يُترجم خطيته بعيشه حياة الأنانية والسلطوية، وتغليب مصلحته الذاتية والشخصية على المصلحة العامة والخير العام. ممّا يُشكّل خطراً على حياة باقي أفراد المجتمع، ويُدمر العلاقة بينهم، فتنتشر الصراعات والنزاعات والحروب، ويغمر الشر والظلم والفساد. هنا تكمن الضرورة القصوى لوجود الدولة، إذ أنها تضع القيود على السلوك الخاطئ، وتضبط المخالفين، وتُعاقب المسيئين، وتمنع التعدييات والفوضى. لقد استقى المصلحون نظريتهم عن مهمة الدولة بقمع التعدييات، من فكر الرسول بولس الذي قال لكل من ينوي التمرد على سلطان رجل الدولة: "أثريد أن لا تخاف السلطان؟ افعل الصلاح فيكون لك مدح منه، لأنه خادم الله للصلاح. ولكن إن فعلت الشرّ فخف، لأنه لا يحمل السيف عبثاً، إذ هو خادم الله مُنتقم للغضب من الذي يفعل الشرّ" (رومية ١٣: ٤-٤). وبالتالي، فقد اعتبر بولس أن مهمة رجل الدولة حفظ أمن الناس، فهو خادم الله للصلاح. وعليه، فالإنسان الصالح يجب ألا يخاف منه. أمّا الإنسان الذي يفعل الشرّ فيجب أن يخاف من رجل الدولة لأنه خادم الله المنتقم للغضب من الذي يفعل الشرّ.

لذلك آمن المُصلِحون أن الإيمان بالمسيح يَمُنح الإنسان نعمة إلهية، وغوناً سماوياً، يُساعداه على عَيْش حياة إيمان مُنضِيطَة ومُستقيمة وصالِحَة. إلا أنهم كانوا مُتيقنين من أنه مَهْمَا كَثُر عدد الصَّالِحين، فسَيكون هناك الكثير ممن يُشكِّلون خَطراً على الناس. إمَّا بسبب ضَعْفهم، أو بسبب رَفْضهم للإيمان. وبالتالي، فالدولة ضرورية للسَّهَر على حياة الناس. وبدورها هذا، تكون خادِمةً لله من خلال خِدْمَتها للإنسان. لم يَر المُصلِحون تعارضاً بالضرورة بين إلْتِزام الإنسان بالكنيسة والتزامه بالدولة، حين تقوم الدولة بواجباتها كمؤتمنة على حياة ومصالح مواطنيها. ولذلك، فالمؤمن الصَّالِح هو بحكْم الضرورة مواطنٌ صالح، لأنه كما أقام الله الكنيسة للسَّهَر على علاقة الإنسان الروحية مع الله، هكذا أقام الدولة للسَّهَر على أمنه وسلامه ومُمثلكاته. كما تحدَّث المُصلِحون عن مَهَام أخرى للدولة: تَنْظيم العلاقات بين أفراد وشرائح المُجتمع، والعمل على ازدهار البلاد.

إذاً، فالدولة هي "أداة رحمة للناس" حين تقوم بواجباتها. ومهمتها "تحقيق مُتطلبات الناس". لقد وَصَفها المُصلِحون بأجْمَل الأوصاف بقولهم: "الدولة هي إحدى الوسائل الخَلَّاقة لحضور الله وعنايته بالإنسان في المُجتمع" (the creative omnipotence of God). أمَّا بالنسبة لمركز السُّلطة، فقد اعتقد المُصلِحون أن مركز السُّلطة ليس في الأفراد، بل في الجماعة الحاكمة (أي الحكومة بلغة اليوم). وقد شَدَدوا على ضرورة توافق الجماعة ككل لتكوين الحكومة، لأن الجماعة مؤتمنة ومسؤولة أمام الله على خدمة الإنسان. لهذا يجب ألا يُساء إليها، وألا يستغل أحد من المسؤولين منصبه، لأن السُّلطة لا تنتمي له، بل هو مؤتمن عليها بشكل مؤقت. وقد دعا الرسول بولس تلميذه تيموثاوس لثرف الصلوة من أجل جميع الذين هم في منصب، من أجل الملوك والحكام، لكي لا يُسيئوا استخدام مناصبهم، بل يحكموا بالعدل حتى يقضي الناس حياةً مطمئنة هادئة، بكل تقوى ووقار (١ تيموثاوس ٢: ٢).

هنا، لا بُد من إبداء ملاحظتين ضروريتين حول مفهوم المُصلِحين للدولة: الأولى: إن نظرية المُصلِحين حول مفهومهم للدولة عُمرها خمسمائة سنة، وسياق المُجتمع والظروف والخلفية التي طُوِّر فيها المُصلِحون هذه النظرية في أوروبا المتلوثة بلون واحد، تختلف إلى حدٍ كبير عن سياق مُجتمعنا الشرق أوسطى وظروفه وتعدُّ ألوانه وانتماءاته.

الثانية: إننا نستطيع أن نُحاجج ونناقش المُصلِح "جان كلفن" في تفاصيل نظريته وذهابه إلى حدٍ بعيد في الدفاع عن سُلطة الحكام المُستمدة من الله، إلى حدٍ يلامس تأسيس نظام ثيوقراطي على الأرض. لكن، ورُبما نقداً لتفاصيل نظرية المُصلِحين "مارتن لوثر وجان كلفن" عن الدولة المُقامة بترتيب من الله، فإننا نسأل: إذا ما فقدت أية دولة دورها ومهمتها كأداة رَحمة، وفقد أي حاكم دَوْرَه كحاكم عادل وكخادم للصَّلاح لتطبيق مُتطلبات المحبة والسَّهَر على حياة مواطنيه، فصار يُسيء استخدام منصبه وسُلطته، فإلى أي حدٍ يُمكن اعتبار تلك الدولة وذلك الحاكم بترتيب إلهي؟ متى نخضع أو لا نخضع؟ أمام هكذا حالات، يُبيِّن الكتاب المقدس موقفاً آخر من الدولة غير العادلة

والحاكم غير العادل، فيُبقي الباب مَفْتُوحاً أمام الاحتجاج على سُلْطته وظُلْمه كما فعل المسيح الذي اُخْتِجَّ على سُلْطة المَلِك "هيرودس" في أيامه، ونَعَتْهُ بالتَّعْلَب، وأُوْعِزَّ إلى البَعْض ليُخْبِرُوا ذلك الملك بأنَّه مُسْتَمِرٌّ في خِدْمته وَلَنْ يخاف من تهديداته. حيث قال: **"امضوا وقولوا لهذا التَّعْلَب ها أنا أُخْرِج شياطين وأشفي اليوم وغداً وفي اليوم الثالث أكمل"** (لوقا ١٣: ٣٢). كما أن كاتب سفر رؤيا يوحنا وَصَفَ الحاكم السياسي في أيامه "بالوَحْش"، والإمـبراطورية الرومانية الحاكمة آنذاك "بالتَّيِّن". وكما احتجَّ الأمراء اللوثرين، المؤيدين للإصلاح الإنجيلي، على القرار الطَّالِم المُتَحَيِّز لملك "شارل" الخامس في مَجْمَع "شباير" عام ١٥٢٩م، (بالإِزام المُقَاتَعَات التي تتضمَّن غالبية من اللوثرين بمنح الحرية الدينية لسُكَّانها الكاثوليك، بينما لم يُطَبَّق قراره هذا ويُلْزَم المُقَاتَعَات ذات الأَكْثَرِيَّة الكاثوليكية بمنح الحرية الدينية للوثرين من أبنائها)، عندما رأوا أن قراره غير عادل من جهة، ويُعارض حريَّتَهم الدينية المُتَبَيِّئَةَ مِنْ فَهْمِهِمْ لكلمة الله، من جهة أخرى. كما يقول الرسول بطرس: **"اخضعوا لكلِّ ترتيب بشري من أجل الرَّبِّ. إنَّ كان للمَلِك، فكَمَنْ هو فَوْق الكُلِّ"** (١ بطرس ٢: ١٣)، مُؤَكِّداً في سفر أعمال الرسل بأنَّه **"يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ اللهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ"** (أعمال ٥: ٢٩).

وفي الختام، يَبْقَى أَنْ نَقُولَ إِنَّ الإِصْلَاحَ الإنجيلي يُقَدِّمُ بَعْضَ الأَفْكَارِ الخَلَاقَةِ التي نَسْتَطِيعُ أَنْ نُؤَسِّسَ عَلَيْهَا فِي بِنَاءِ وَطَنِ اليَوْمِ وَالغَدِ. إِنَّ كانَ لَجَهَّةَ اِغْتِبَارِهَا أداةَ رَحْمَةٍ لَخِدْمَةِ اِحْتِياجَاتِ المِوَاطِنِينَ والسَّهْرِ على حياتهم، أو لَجَهَّةَ المَسْؤُولِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ والأَخْلَاقِيَّةِ التي يَضَعُهَا على كُلِّ مَنْ يُشَارِكُ فِي الوَطَنِ، أو لَجَهَّةَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ كُلِّ الَّذِينَ هُمْ فِي مَنَاصِبٍ، كي لا يُسَيِّئُوا اسْتِخدامَ مناصبهم لِأَجْلِ مِصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، أو لَجَهَّةَ وَضْعِ أُسُسِ سَلِيمَةٍ لِآدَابِ المِوَاطِنَةِ الصَّالِحَةِ، بِالِإِفْرَارِ بِأَنَّ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ لِإِيْمَانِهِ بِاللَّهِ تَقْتَضِي الأَمَانَةَ لِلوَطَنِ الذي خَلَقَنَا اللهُ لِنَعِيشَ فِيهِ مَعاً.

أثر الفكر الإنجيلي في إعطاء قيمة روحية للعمل

بدأت حركة الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر كحركة روحية ركزت على تصويب علاقة الإنسان مع الله وتيقنه بقبول الله له. حيث استمدت انطلاقها وقوتها من مفهوم المُصلِحين الإنجيليين، إلا أنها تركت أثرها في مفاهيمهم على ميادين متعدّدة في الحياة، منها: الكنيسة، الدولة، التربية، الاقتصاد، وأيضاً العمل.

يذكر عالم الاجتماع الألماني "ماكس فايبر" في كتابه *the Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism* أن هناك تغييراً اقتصادياً واجتماعياً رافق الدول التي تبنت الفكر الإنجيلي، وبالتحديد الكالفييني منه. والكاتب ليس لاهوتياً إنجيلياً حتى إنّه لم يكن شخصاً مُتديناً، بل مُحليلاً اجتماعياً سجّل ملاحظاته وقناعاته ودراساته في الموضوع من وجهة نظر اجتماعية واقتصادية. فالفكرة الرئيسية التي يذكرها في كتابه أن هناك علاقة بين الإلتزام بالفكر الإنجيلي والإنتاجية في العمل.

فالفكر الإنجيلي قدّم مفهوماً جديداً للعمل، مفاده أن العمل ليس وسيلة لكسب لُقمة العيش بالدرجة الأولى، كما هو المفهوم السائد سابقاً وحاضراً، لكن كسب لقمة العيش هو نتيجة العمل وليس هدفه. لقد خلق الإيمان الإنجيلي في حياة الذين قبلوه حالة روحية واستعداداً نفسياً ساهم في إعطاء قيمة روحية للعمل وتحضير الإنسان المُنتج للمجتمع. فنظر العمّال الإنجيليون إلى العمل باعتباره نشاطاً روحياً يخدمون به الله ويمجدوه من خلاله، لا سيما أن هدف الإنسان المؤمن خدمة الله وتمجيده في كلّ تفاصيل حياته. فبعض الذين أعجبوا بهذا التغيير الذي أثمره الفكر الإنجيلي في حياة الإنسان الاقتصادية والإنتاجية أطلقوا على الفكر الإنجيلي اسم "مدرسة القيم الاقتصادية".

إنّ المُصلِح الإنجيلي الأساسي الذي كان وراء هذا الفكر، هو "جان كلفن" الذي آمن وعلم أنّه عندما يختبر الإنسان حدث الإيمان في حياته، يختبر دعوة الله له للعمل. ومفهوم الدعوة المسيحية يشكّل الرُكيزة الأساسية التي يركّز عليها المفهوم الإنجيلي للعمل. لكن ما هي الدعوة؟ الدعوة ليست هي الحالة التي يُخلَق فيها الإنسان، ولكنها الحالة الروحية الجديدة التي تُصحب الإيمان وتخلق فيه الاستعداد الروحي والنفسى ليُترجم دعوته في خدمة الله وتمجيده في كلّ تفاصيل حياته، لا سيما في عمله.

استناداً لهذا الفكر الإنجيلي المُصلِح، فهم الإنجيليون أن دعوتهم للإيمان وخدمة الله لا تكون بالانعزال عن العالم والزهد بالدنيا وعيش حياة التقشّف، بل بالمُشاركة في تطوير العالم الذي خلقه الله من خلال عملهم، الذي هو بحدّ ذاته عبادة لله. لقد استقى الإنجيليون مفاهيمهم هذا من مفهوم

الرسول بولس حَوْل المواهب المُتعدّدة التي يمنحها الله لأولاده. فيقول: "ولكن لنا مواهب مُختلِفة بحسب النعمة المُعطاة لنا. أنبوة، فبالنسبة إلى الإيمان، أم خدمة ففي الخدمة، أم المعلم ففي التعليم، أم الواعظ ففي الوعظ، المُعطي فيسخاء، المدبّر فباجتهاد" (رومية ١٢: ٦-٨). وبالتالي، فقد آمنوا أن خدمة الله لا تكون فقط من خلال الوعظ والكراسة بالإنجيل، ولكن من خلال القيام بالأعمال الأخرى المُتنوّعة، مثل: التعليم والتدبير وإدارة الأعمال. وهذا الفكر المسيحي الإنجيلي يُحمّل الإنسان المُسؤولية في عمله، ليس فقط أمام ربّ عمله، ولكن بالدرجة الأولى أمام الله.

لقد شدّد الإنجيليون على عدّة مبادئ وقيم أخلاقية للعمل، منها: أولاً: الضمير الصّالح في العمل. فقد اعتبر الإنجيليون أن ضمير الإنسان المؤمن هو إعلان الله الخاص له، فالله يُعلن عن إرادته للإنسان المؤمن، ويوجّه حياته ويُشرف على أعماله من خلال ضميره الصّالح. ثانياً: الاستقامة في العمل. فإذا كان الله يسود على ضمير الإنسان ويوجّه حياته، فهذا سيؤدي حتماً إلى الاستقامة في كل الحياة، ومنها العمل. لقد آمن الإنجيليون أن "الاستقامة هي أفضل سياسة في العمل" honesty is the best policy.

ثالثاً: إتقان العمل وإنجازه بأفضل طريقة مُمكنة. فالإنجيليون آمنوا بأنهم لا يعملون من أجل الإنسان، ولكن من أجل الله. رابعاً: الاجتهاد والمثابرة في العمل. اغتبر الإنجيليون الكسل من أخطر الخطايا على حياة الإيمان، فالكسل يعكس خلاً في الإيمان. قال الرسول بولس لأعضاء كنيسة تسالونيكى "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل، فلا يأكل أيضاً" (٢تسالونيكى ٣: ١٠). فالمؤلف والعالم الإنجيلي "بنيامين فرانكلن" الذي عاش في القرن الثامن عشر، كتب في مُذكراته قول والده المُتكرّر له، والمذكور في (أمثال ٢٢: ٢٩) "أرأيت رجلاً مُجتهداً في عمله، أمام الملوك يقف لا أمام الرّاع".

وبما أن العمل دعوة الله لنا لنخدمه ونُمجّده من خلاله، فقد رَفَض الإنجيليون التسوّل بشكل قاطع، لأنّ التسوّل بالنسبة للقادرين على العمل، ليس فقط كسلاً، بل تمرداً على دعوة الله. فوقت الضروي للنوم هو من ٦ - ٨ ساعات يومياً، وأكثر من ذلك يُعتبر هذراً للوقت. فالحياة قصيرة وثمينة، ويجب ألا يُهدر الوقت، بل يُستخدم لخدمة الله.

وبالإيجاز، بإعطاء الفكر الإنجيلي قيمة روحية للعمل، فإنّ هذا الفكر يَحثّ كل إنسان مسيحي، وبخاصة الإنجيلي، بأن يكون مسؤولاً في عمله، مُجتهداً، تزيهاً، صادقاً، ومُستقيماً في حياته وكنيسته ومجتمعه الذي أقامه الله فيه. آمين

الإصلاح الإنجيلي والتربية

تحتفل الكنائس والمؤسسات التربوية الإنجيلية في لبنان في ٣١ تشرين الأول من كل عام بذكرى الإصلاح الإنجيلي الذي انطلق في القرن السادس عشر في أوروبا. في هذا اليوم تتوقف الدروس في معظم المدارس الإنجيلية، إجلالاً لحركة الإصلاح الإنجيلي التي منها انطلقت المدارس والجامعات الإنجيلية في كل أنحاء العالم وفي بلدنا لبنان.

في كتابها "وتذكرت"، أوردت الكاتبة "إميلي الراسي" قصة رجل بروتستانتي استدعي إلى "اسطنبول" لأمر ما، فسأله المسؤول عن هويته ومذهبه، وأخيراً سأله إذا كان متعلماً أم أمياً. فاحتد الرجل وحسب السؤال إهانة له وقال: "كيف تسألني هل أنت متعلم أم أمي؟ ألم أقل لك إنني بروتستانتي؟ فهل يعقل أن أكون أمياً؟ وأخرج الإنجيل من جيبه. هذه قصة طريفة ثقيم لنا مثلاً عن مدى ارتباط اسم البروتستانت أو الإنجيليين بالعلم والتربية. وهذه حقيقة يعرفها كل من يعرف تاريخ الإصلاح الإنجيلي والمرسلين الإنجيليين. فأينما انتشروا، انتشرت المدارس والجامعات، وساهموا في النهضة الثقافية والحضارية في المجتمعات. ولكن السؤال: ما الذي قاد المصلحين الإنجيليين إلى الاهتمام بالتربية، واستطراداً فتح المدارس؟

بدأ الإصلاح الإنجيلي من اختبار روحي وفكري عميق، اختبره مُطلق الإصلاح "مارتن لوثر". فذاك الاختبار الذي غير حياته، تأسس على الكتاب المقدس، فصار هذا الكتاب، له ولبقيّة المصلحين الإنجيليين، المصدّر الوحيد للعقيدة والإيمان والحياة، وزكيزة تفكيرهم، وموضع بحثهم. وهكذا قام "لوثر" بترجمة الكتاب المقدس من اللغات الأصلية، التي كتبت فيها، وهي العبرية للعهد القديم واليونانية للعهد الجديد، إلى لغة الشعب الألمانية. وقد بذل المصلحون جهوداً كبيرة لتصل كلمة الله إلى الناس، فلا تفوتهم رسالته التي تدعو الجميع إلى الحياة الأفضل، بالإيمان بالرب

يسوع المسيح. ولكن كيف يتعرّف الناس على الكتاب المقدس إن لم يتعلّموا القراءة والكتابة؟ فلا بدّ إذاً من المدارس. وهكذا عملوا على إنشاء المدارس لتعليم القراءة والكتابة، ليتعرّف الناس على الأخبار السارة التي يتضمّنونها الإنجيل. كما أنّ العامل الأساسي الذي مهّد الطريق، وساعد على انتشار المدارس والجامعات، هو انتساب بعض مسيحي ذلك العصر مثل "ايراسموس" وغيره إلى الحركة الإنسانية التي ازدهرت آنذاك، والتي أثّرت على المُصلحين وشجّعَتْهم هم وغيرهم على الدراسة والتّحصيل العلميّ.

إلاً أنّ العامل الأساسي الآخر الذي ساهم في افتتان اسم الإنجيليين بالعلم، هو إلتزام المُصلحين الإنجيليين، الذين حملوا لواء الإصلاح، بالتربية والتعليم، لقناعتهم بأهميتهما في إجراء التغيير في حياة الإنسان والمجتمع. ومن المُصلحين الذين ساهموا في النهضة التربوية: "مارتن لوثر" (ألماني)، "فيليب ميلنكتون" (ألماني)، "مارتن بوتسر" (ألماني)، "هينريخ بولينغر" (سويسري)، و"جان كلفن" (فرنسي). فقد طال إصلاح أولئك المُصلحين وغيرهم القطاع التربوي في أوروبا، في وقتٍ اقتصر فيه التّعليم على قِلة قليلة من أولاد الميسورين من النّجار والنّافذين في المجتمع. كما أنّ التّعليم الذي كان يتمّ في الأديرة لم يكن يحظى برضى الكثير من الأهالي آنذاك. وقد كانت أولى اقتراحات "لوثر" تحويل الأديرة إلى مدارس للتربية والتعليم. إنّ تشجيعه على فتح المدارس ظهر من خلال كتاباته ومواقفه. ففي عام 1524م دعا في رسالة أرسلها إلى جميع المجالس المسؤولة عن إدارة المُدن في كلّ ألمانيا، إلى تأسيس المدارس والاهتمام بالتربية والتعليم، مؤكّداً أنّ فرصة التّعلّم يجب أن تكون لكلّ عامّة الشعب، ولكلّ فئات المجتمع من إناث وذكور، فقراء وأغنياء. ومن الأمور الأخيرة التي قام بها قبل موته، تأسيس مدرسة في مسقط رأسه. وفي العام 1530م أرسل "لوثر" رسالة ثانية بعنوان "في ضرورة إبقاء الأولاد في المدارس" مؤكّداً للأهل على أهمية المدارس لإفادة منها، لا سيّما الاستفادة الروحية منها، التي تقدّمها لأولادهم. وقد ظهرت نتيجة تشديد الإنجيليين على التّعليم والتربية في نهاية القرن السادس عشر، من خلال التّغيير الذي حصل في أنظمة المدارس، من تطوّر للمناهج والأساليب التربوية في الدول والمناطق التي وصلها الإصلاح الإنجيلي، لا سيّما ألمانيا، ممّا جعل الإنجيليون يرسون أسساً تربوية قيّمة، بنى عليها المُربّون اللاحقون. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ المُصلح "لوثر" كان أستاذاً جامعياً في حقول اللاهوت. وتزكّيزه على دراسة الكتاب المقدس بلغاته الأصلية التي كُتبت فيها ظهرت نتيجته في الجامعة التي علّم فيها، إذ حصل تغيّيراً في مناهجها لتشمل التّشديد على اللغات. كما أنّ "لوثر" اعتقد أنّ مناهج التعليم الكلاسيكي القديم الذي يركّز على العلوم الإنسانية من تاريخ وأدب وفلسفة وحضارات، تُزوّد المؤمنين بالسياق التاريخي والاجتماعي واللغوي لفهم أفضل للكتاب المقدس، كلمة الله. وقد رَفَضَ الفكرة السائدة لدى الكثيرين آنذاك واليوم، بأنّ هدف التّعليم هو السّعي وراء المال. وآمن بأنّ الهدف الأساسي هو التّعمّق في فهم كلمة الله.

أما المُصَلِّح الفرنسي "جان كلفن" فقد كان مُحامياً يَحْمَلُ شَهَادَةَ الماجستير في الحُقوق. حيث صَرَفَ الوَقتَ الأطولَ يَنْهَلُ من ينابيع الثقافة والفلسفة، ممَّا رآه مُناسباً ومُفيداً. لَقَدْ أُعْجِبَ بما قاله الفيلسوف "أرسطو"، وبعُضُ الفلاسفة اليونانيين القدماء، على أَنَّ هَدَفَ التربية هو اكتشاف القُضائل والأخلاق، واغْتَبَرَ أَنَّ هذا التَّفكيرَ ما هو إلاَّ تَحْضِيرٌ لاسْتِقْبَالِ حقائق الإيمان المَسِيحِي. لكنَّهُ حَذَّرَ مِنَ المُوافَقَةِ على كُلِّ شيءٍ يقوله الفلاسفة. لقد اسْتخدم "كلفن" عِلْمَ المَنْطِقِ والتَّحليل الذي اسْتقاه من الفلاسفة، ليكونَ أسلوباً مَنهَجياً يُطَبِّقُه على دراسة وتفسير الكتاب المقدس. كما كان مِنَ القادة التربويين الذين ساهموا في تنمية التَّعليمِ العالِي. فَإِنَّهُ حينَ كانَ في "جينيف" أسَّسَ عام ١٥٥٩م مدرسة تحضيرية، ومُعْهداً للدراسات العُلُيا، تحوَّلَ فيما بَعْدَ إلى جامعة "جينيف".

وهكذا، مِنَ الكتاب المقدس حَجَرَ الأساسَ لكلِّ دراسة وتعليم، انْطَلَقَ الإنجيليون إلى العالمِ حاملين كلمة الله التي لا تُغَيَّرُ فقط القَلْبِ، أي الجانِبِ الروحي للإنسان، بَلْ كُلَّ الإنسانِ المَخْلُوقِ على صورة الله. وهكذا وصلوا إلى لبنان في بداية القرن التاسع عشر. وقد تَكَرَّرَ الاختبارُ نفسه، الذي حصل مع المُصلِّحين الإنجيليين الأوائل، فَعَمِلُوا على ترجمة الكتاب المقدس مِنَ اللغات الأصلية إلى اللغة العربية. ورأسَ مَشروعَ التَّرجمة المُرسَلِ القس الدكتور "غالي سميث" سنة ١٨٤٧م. وعاونَه الأستاذ "بطرس البُستاني"، والشيخ "ناصر اليازجي". وبعد تسع سنوات مِنَ وفاة القس "سميث"، خَلَفَهُ القس الدكتور "كورنيليوس فانديك" الذي أَنتهى العمل سنة ١٨٦٥م، فسُيِّمَتِ الترجمة بترجمة (فانديك-البستاني)، وهي الترجمة المُعْتَمَدَةُ مِنْ قِبَلِ الكنائس الإنجيلية، كما تُسْتخدمُها الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية، والكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر.

ولا بد مِنَ ذِكْرِ أهمية المَطْبعة ودَوْرها الأساسي في تَسْهيلِ ونَشْرِ الكتاب المقدس وتزويد المدارس والجامعات بالكُتُبِ، الأمر الذي ساهمت فيه "المَطْبعة الأميركية" الإنجيلية لمدَّة قرنٍ ونِيفٍ بقَرْعِهَا العَرَبِي والأرْمَني. وقد بَرَزَتِ هذه المَطْبعة كإحدى أهمِّ دورِ النَشْرِ في هذه المنطقة من العالم، إذ كان لها آنذاك مُساهمة فَعَالَةٌ في نَشْرِ الأعمال الأدبية والفكرية التي أَنتجَتْها التَّهْضَتان، العَرَبية والأرمنية، في أواسط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لقد توجَّهَ المُرسَلون الإنجيليون بالكتاب المقدس لتأسيس الكنائس والمدارس جَنباً إلى جَنبٍ في العديد من المناطق اللبنانية والسورية. وأودَّ أَنْ أسردَ قصَّةَ توكُّدِ على تلازُمِ الكنيسة والمدرسة. "يُحْكِي أَنَّ الإرسالية الإنجيلية انْتَدَبَتِ أَحَدَ أعضائها (يُعْتَقَدُ أَنَّهُ المُرسَلِ القس الدكتور "كورنيليوس فاندايك") مِنْ بيروت لتَنْظِيمِ كنيسة إنجيلية جديدة في قرية في جنوب لبنان. وفيما هو يودِّعُ زَميلاً لبنانياً له قال المُرسَلُ: "أنا ذاهبُ إلى القرية الفلانية لتَنْظِيمِ كنيسة وتأسيس مَدْرَسَتَيْنِ. فقال زميله، أنت مُرسَلٌ لتَنْظِيمِ كنيسة، فما لَكَ والمَدْرسة؟ فأجابَه: لَنْ تحيا الكنيسة بدون

مدرسة. ثم تابع زميله يسأله: ولكن لماذا مدرستان؟ فأجابهُ المُرسَل، لأنَّهُ حَتْمًا عندما يَسْمَعُ إخواننا المسيحيون الآخرون في القرية أنني أسَّست مدرسة، سيُسْرعون إلى تأسيس أخرى في القرية ذاتها، ليُحافظوا على أولادهم من "الهزطقة البروتستانتية"، كما يعتقدون. وهكذا أكون قد أسَّست مدرسة وتَسببت بتأسيس أخرى... وزيادة الخَيْر خَيْر".

وقد كانت المدرسة آنذاك عبارة عن عُزْفَة أو بعض العُزْف القليلة إذ كان المُرسَل أو الواعظ هو نَفْسهُ المُعَلِّم. وقد قارب عدد المدارس في مَرَحَلَة ما المِئَة مدرسة. إلا أنها تجمعت في مرحلة لاحقة في مدارس كبيرة. وقد استفاد لبنان تَرَبُويًا بازدياد عدد المَدارس والجامعات على أرضه، نتيجةً لذلك التَّنَافُس التَّربوي بَيْن الإرساليات المسيحية التي وَفَدَت إلى لبنان، لا سيَّما الإرسالية اليَسوعية التي نشأت نتيجة الإصلاح الكاثوليكي المُقابل لَعَهْد الإصلاح الإنجيلي في القرن السادس عشر، والإرساليات الإنجيلية. فاليسوعيون جاؤوا إلى لبنان عام ١٦٤٠م، لكن عَمَلهم توقَّف عام ١٧٧٣م، أمَّا الفرنسيون مِنْهُم فقد عادوا إلى لبنان عام ١٨٣١م. ولم يَقتصر التَّنَافُس التَّربوي على المدارس فقط، بل على الجامعات أيضًا. نرى مِثَالًا على ذلك في تاريخ تأسيس الجامعة الأميركية في بيروت، والجامعة اليسوعية. فعندما أسَّس المرسلون الإنجيليون "الجامعة الأميركية في بيروت"، والتي كانت تُعزَف آنذاك "بالكلية الإنجيلية السورية" عام ١٨٦٦م، أسَّس المرسلون اليسوعيون الجامعة اليسوعية عام ١٨٧٥م.

لقد أسَّس الإنجيليون عام ١٨٣٥م أول مدرسة تُحْمِل طابع المدرسة، حيثُ يحصل التعليم داخل جُدران الصَّف، لتعليم الفتيات في كُلِّ مناطق نفوذ السُلطة العثمانية آنذاك، اسمها ASG "المدرسة الأميركية للبنات" American School for Girls التي كانت في ساحة "رياض الصُّلح"، ثم نُقِلت عام ١٩٧٤م إلى منطقة "الرابية"، وأخذت اسم "مدرسة بيروت الإنجيلية للبنات والبنين".

والجدير ذكره أنَّه في العام ١٩٢٤م أُضيف برنامج مِنْ صَغِيْن على المدرسة الأميركية للبنات سُمِّيَت Junior College. وبعد ثلاث سنوات انْفصل هذا البرنامج واستقلَّ عن المدرسة، وأصْبَح يُدعى American Junior College for Women ثم نُقِلَ البرنامج إلى رأس بيروت عام ١٩٣٣م. وفي العام ١٩٤٨-١٩٤٩م أصبح البرنامج أرْبَع سنوات وتَغَيَّر الاسم إلى BUC. وفي العام ١٩٩٤م أصْبَح اسم الجامعة LAU "الجامعة اللبنانية الأميركية". ومن اللافت للنَّظَر أنَّ يكون للإنجيليين، الذين لا يُشكِّلون واحد بالمِئَة من نسبة الشَّعب اللبناني، دورٌ في تأسيس ما لا يَقلُّ عن أربع جامعات مِنْ أضلِّ حوَالِي إحدَى عَشْر جامعة مُعْتَرَف بها خارج لبنان، وتَعْمَل حاليًا على الأراضي اللبنانية، هي الجامعة الأميركية في بيروت، الجامعة اللبنانية الأميركية، جامعة هايكازيان، وجامعة الشُّرق الأوسط.

وبعد إنشاء المدرسة الأميركية للبنات في بيروت عام ١٨٣٥م، توالى بناء المدارس الإنجيلية، فتأسست مدرسة الفنون الإنجيلية في صيدا عام ١٨٦٢م، والمدرسة الإنجيلية في طرابلس عام ١٨٧٣م، وغيرهما الكثير من المدارس. والآن يوجد في لبنان أكثر من ثلاثين مدرسة إنجيلية (بعضها يتبع كنائس إنجيلية، وبعضها الآخر يتبع لأفراد إنجيليين). وبدخول المدارس والجامعات الإنجيلية إلى لبنان والشرق الأوسط، دخلت اللغة الإنكليزية وانتشرت في مناطق عديدة.

ومع بداية القرن العشرين اقتنع المرسلون الإنجيليون اللاحقون بأن الكتاب المقدس لا يُخاطب فقط الجانب الروحي من الإنسان، لكنّه يُخاطب كلّ الإنسان المخلوق على صورة الله، يخاطب شخصيته ليصقلها، ويجعله إنساناً قادراً على اتخاذ القرارات المناسبة، يُخاطب فكره ليُنمّيه ويكشف له مواهبه وإمكاناته الكامنة فيه، يُخاطب إرادته ليُدربها فيصير مسؤولاً عن تصرفاته، ويُخاطب مواقفه ليَجعلها مُنسجمة مع قيم الإنجيل الروحية والأخلاقية. وهكذا يتحقق كيان الإنسان الكامل. وقد لعبت هذه المدارس والجامعات الإنجيلية دوراً تربوياً رائداً إذ ساهمت في النهضة الثقافية العربية، ليس في لبنان فحسب، بل في الشرق الأوسط. وعُرفت بوطنيتها وتبذها الطائفية، إذ استقبلت منذ تأسيسها كلّ تلميذ مهما كان دينه أو عرقه أو لونه، فعرف خريجوها بأنهم من أصحاب الفكر الحرّ، والوطنية المُلتزمة التي عملت من أجل بناء الوطن الواحد. وقد جمعت تلك المدارس الإنجيلية تحت لواء رابطة المدارس الإنجيلية في لبنان، التي تأسست عام ١٩٩٥م، وهي تتبع المجمع الأعلى للطائفة الإنجيلية في سوريا ولبنان. وقد تحدّثت أهداف الرابطة بما يأتي:

المُساهمة الفاعلة في حقلي التربية والتعليم من خلال المدارس الأعضاء في لبنان لجهة التحديث والتثقيف والتّهذيب. التّعبير عن المواقف والتّوجّهات التي تملكها المدارس الإنجيلية الأعضاء في لبنان لدى كلّ المراجع والهيئات. توحيد الكلمة والجُهود بين مُختلف المدارس الإنجيلية الأعضاء في لبنان، والتّسيق بينها. كما تُشارك رابطة المدارس الإنجيلية في لبنان مع المؤسسات التربوية الأخرى في التّشريع التّربوي وعملية إغداد المناهج التّربوية والجديدة، وإطلاقها في خدمة الإنسان والوطن.